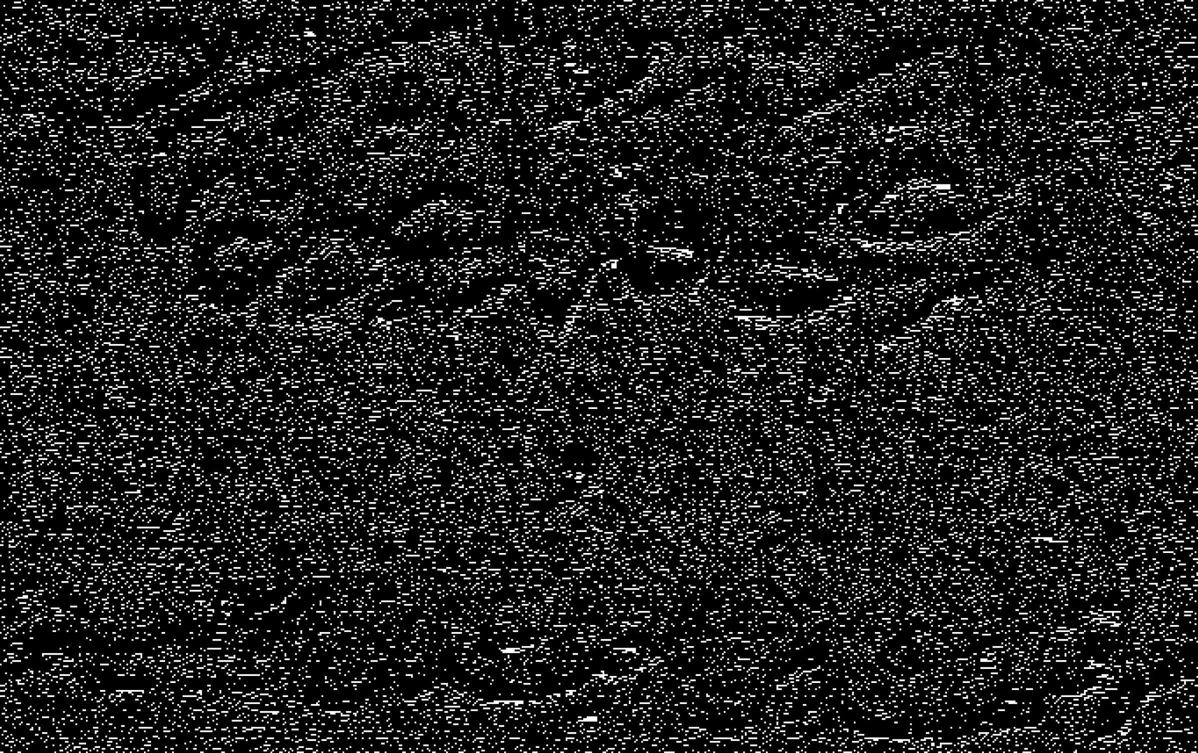


اهداءات ٢٠٠١

الأستاذ/ على حسين احمد

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

"المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر"

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة



الصحافة المصرية
و
موقفها من الاحتلال الانجليزى

تأليف
الدكتور سامى عزيز

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
بالقاهرة

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

مقدمة

فى التاريخ مئات من السنين لا يجد المؤرخ عناء فى أن يلخصها ويسجلها فى صفحة واحدة ، وفيه سنوات أخرى لايستطيع المؤرخ أن يسجل سنة واحدة منها فى أقل من الآلاف من الصفحات . ومن هذا القسم الأخير السنوات العشر التى يدور بحثنا حولها . والمهم فى هذه السنوات العشر ليس « الكمية » وحدها ، الأخطر من هذا هو التغير « النوعى » .

فالحقبة التى ندرسها فى هذا البحث تعد من أهم فترات تاريخ مصر الحديثة ، إذ تجاذبت البلاد تيارات سياسية مختلفة : فكان هناك التيار الوطنى الثائر الذى بلغ قمته إبان الثورة العرابية ، وكان هناك التيار العثمانى الذى يستمد قوته من الأمر الواقع ومن الأصول الكثيرة التى ربطت مصر بالدولة العثمانية . وكان هناك أيضاً إلى جانب ذلك تيار غربى ذو شقين : أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى وكل منهما يحاول الزحف والسيطرة على البلاد وهدم مقوماتها وتغيير أوضاعها الاجتماعية .

وتم الاحتلال الإنجليزى عام ١٨٨٢ فأصبحنا أمام عهد جديد ، وحاكم فعلى أجنبى عن البلاد ، وسياسة وأهداف جديدة . وكثرت المحاولات التى تستهدف خلق مجتمع جديد تتغير فيه القيم المادية والمعنوية والمثل التى يسترشد بها الشعب ، لا فى الأوضاع السياسية فحسب ، بل فى كافة نواحى الحياة الأخرى .

وكانت الصحافة إذ ذاك أهم مظاهر التعبير عما يدور بالنفوس من آمال وأهداف ، فلم تكن ثمة إذاعة أو تليفزيون أو أفلام تستغل فى نشر دعاية أو رسم خطة أو التعبير عن رأى أو مقاومة فكرة . كانت الصحف هى

المعبر الوحيد بين الشعوب وحكامها ، وبين أفراد الشعب وبعضهم البعض ، وبينهم وبين المفكرين والفلاسفة والزعماء وغيرهم . وهكذا كتب على الصحافة أن تكون – فى ذلك الوقت على الأقل – مرآة للشعب وموجهاً وناصحاً ومرشداً .

ووقفت كل هذه العوامل إلى جانب صحافة هذه الحقبة من تاريخ الشعب المصرى فأظهرت لنا أهمية الدور الذى قامت به الصحف وخاصة إذا استتبع تغير الحاكم والعهد والسياسة تغيرا فى العقائد المذهبية والسياسية ومحاولة إحداث تغيرات متلاحقة فى كيان الشعب وهز مقوماته التى رسخت حتى تسهل زحزحتها ثم دكها بعد ذلك لإرساء مقومات أخرى جديدة تتفق وأهداف الحاكم الجديد واتجاهاته . وتؤيد هذه الفكرة كثرة عدد الصحف والمجلات التى تناولت كافة نواحى النشاط البشرى ، فإلى جانب الصحف السياسية نجد صحفاً خاصة بالزراعة والطب والعلوم والتجارة والقضاء وغيرها . وكل منها يحاول تعميق مفاهيم جديدة فى أذهان المصريين لم يكن لهم بها عهد .



وقسمت البحث إلى أربعة أبواب يشتمل كل منها على عدة فصول :

فى الباب الأول : تحدثت عن نشأة الصحافة الشعبية المصرية فى عهد إسماعيل وظهورها كأداة هامة على مسرح الأحداث السياسية فى البلاد . ثم بينت الدور الذى قامت به خلال الثورة العرابية وأهميتها فى تطور أحداث هذه الثورة .

أما الباب الثانى : فقد أفردته لموقف الاحتلال من الصحافة المصرية وكتابها ومحاولة الاحتلال تصفية الصحافة الوطنية ، كذلك تحدثت عن موقف الصحافة من الصراع الداخلى بين القوى المتعددة : الوطنيين والخديو وسلطات الاحتلال .

وتناولت فى الباب الثالث : دور الصحف المصرية فى الصراع الذى احتدم بين

إنجلترا من ناحية وكل من تركيا وفرنسا من ناحية أخرى فى سبيل السيطرة على مصر ، وكيف استخدمت كل من هذه القوى الصحافة كوسيلة من وسائل فرض هذه السيطرة وتدعيم مركزها والدعاية لمبادئها وأهدافها .

أما فى الباب الرابع : فقد أوضحت قضية الإصلاح فى مصر والدعوة التى نشرتها الصحف عن انعدام الكفاءة لدى المصريين للاضطلاع بالمهام العامة . كذلك بينت دور الصحافة فى الدعاية لأساليب الحكم التى اتبعها الإنجليز فى مصر ثم أوضحت تطور الحياة الفكرية والاجتماعية بمصر ودور الصحافة فى هذا التطور .

وكانت خاتمة البحث تحليلاً عاماً للدور الذى قامت به الصحف فى فترة بحثنا وأهمية صحفيي هذه الحقبة والمدرسة التى أوجدوها وتأثيرها فى تاريخ مصر الحديث .

أما الملاحق فقد أفردت الأول منها لقانون المطبوعات الذى صدر عام ١٨٨١ وهو القانون الذى يحكم صحافة الفترة التى يتناولها البحث .

وأوردت فى الملحق الثانى بيانات عن الصحف المصرية قبل الاحتلال وخلال العقد الأول من وجود الإنجليز فى مصر وأصحاب هذه الصحف واتجاه تحريرها .



وتنقسم مراجع البحث إلى قسمين أساسيين :

أولهما : المراجع المعاصرة وهى الصحف والمجلات التى صدرت فى العقد الأول من الاحتلال وكذلك بعض الوثائق الخطية والمطبوعة .

ثانيهما : الكتب والمذكرات والدراسات المنشورة التى تناولت جوانب من هذا البحث سواء باللغة العربية أو بالإنجليزية أو بالفرنسية .

وبينما كانت الكتب والوثائق فى متناول اليد سهلة التداول إلى حد كبير

كانت الصحف والمجلات التى تدخل فى نطاق البحث مصدر إرهاق بالغ وجهد كبير . ذلك أن دار الكتب المصرية حشدت هذه الذخيرة القيمة فى ملحق لها بالقلعة ، هذا إلى جانب الإهمال الواضح فى طريقة حفظها مما أصاب كثيراً منها بالتآكل والتمزق فأضاف صعوبة أخرى أمام الباحثين .

ورغم أن الفترة التى يتناولها بحثنا لاتزيد عن عقد واحد إلا أنها تميزت بكثرة الصحف التى صدرت فى أثنائها ، وقد عاش بعضها معظم سنى هذه الفترة ، كالأهرام والوطن والاتحاد المصرى والزمان والمقتطف والفلاح واللطائف وغيرها ، وعاش البعض الآخر فترات قصيرة ثم اختفى . وبينما كان بعض هذه الصحف يصدر أسبوعياً كان الكثير منها يصدر يومياً كمعظم الصحف التى سبقت الإشارة إليها .

وإننى إذ أقدم هذا البحث لا أستطيع إيفاء أستاذى الدكتور محمد فؤاد شكرى ما يستحق من شكر فقد كان لإرشاداته الفضل الأول فى شق طريقى فى البحث . وانتقل الإشراف إلى أستاذى الدكتور عبد اللطيف حمزة وأستاذى الدكتور محمد أنيس ، وإننى أتقدم إليهما بواجب العرفان بالفضل لما قدمه كل منهما من جهد فى سبيل إخراج البحث بصورته الحالية وكانت إرشاداتهما معالم الطريق التى قادتنى فى دربى الوعر الشائك .

البَابُ الأوّل

نشأة الصحافة الشعبية المصرية
وتطورها من عهد اسماعيل الى أواخر الثورة العرابية

الفصل الأول

الصحافة والرأى العام فى مصر
على عهد اسماعيل
١٨٦٣ ــ ١٨٧٩

ــ الصحافة فى مصر فى منتصف القرن التاسع عشر

ــ نشأة الصحف الشعبية فى مصر

ــ هجرة الصحفيين السوريين إلى مصر

ــ الحرب الروسية التركية وأثرها فى تطور الصحافة المصرية

ــ جمال الدين الأفغانى وأثره فى إنشاء الصحف الشعبية

ــ الصحف والدعوة إلى الإصلاح

الصحافة فى مصر فى منتصف القرن التاسع عشر :

ولدت الصحافة المصرية فى كنف الحكام ، وعاشت فى أول أمرها على أموالهم ، ونمت بسلطانهم وخضعت لتوجيهاتهم ، ولم يكن لها بد من هذا الخضوع فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وتفسير هذه الظاهرة التاريخية أنه منذ استقر الأمر لمحمد على فى مصر ، شرع يفكر فى تنظيمها ، وكان أمامه المثل الذى جرى عليه الفرنسيون فى حكم مصر (١٧٩٨–١٨٠١) ، وكان من أخطر الأجهزة التى تألف منها حكم محمد على جهازان كبيران :

أحدهما : دواوين الحكومة (الوزارات) .

ثانيهما : خاص بالصحافة وكانت يومئذ عبارة عن النشرات واللوريات(١)؛

وأمر الوالى بإصدار جرنال الخديو سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) يطلع فيه على الشئون المالية وغيرها فى البلاد ولم يكن يطلع عليه سوى الوالى ونفر من كبار رجال الحكومة . (٢)

ثم أدرك محمد على أنه من الخير أن يكون الشعب على صلة بأعمال الحكومة فأمر بتوسيع نطاق جرنال الخديو وصدرت الصحيفة باسم الوقائع المصرية فى ديسمبر سنة ١٨٢٨ (٣) . وقامت فكرتها على الدعاية لمحمد على وجهوده . وكانت توزع على جميع موظفى الحكومة بلا استثناء ممن يتقاضون ألف قرش فأكثر شهرياً بشرط أن يدفعوا الاشتراك . (٤)

---

(١) عبد اللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى مائة عام ص ٩ (المكتبة الثقافية سنة ١٩٦٠)

(٢) إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ص ٩–١٢ (المطبعة الأميرية ١٩٤٢)
عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق الذكر ص ١٠ ، ١١ .
إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ٢٩ (الآداب الطبعة الثانية ١٩٥١)

(٣) عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق الذكر ص ١١ ، ١٢ .

(٤) عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ص ١٢ .

ثم ظهرت الجريدة العسكرية سنة ۱۸۳۳ لنشر أخبار الآلايات والجرائم التى تقع بها (١) .

وجاء عهد عباس (١٨٤٨-١٨٥٤) وأخذت الحياة المصرية فى الركود . وتلاه عهد سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣) . وفى مدة توليه شهدت مصر مولد الصحافة الشعبية فيها . ذلك أن سعيد عمل على التقرب من قلوب المصريين فباعدت أعماله بينه وبين السلطان الذى لم يجد بداً من أن يسلك طريق الدعاية ضد هذا الوالى ، ومن ثم أرسل اسكندر شلهوب إلى القاهرة وأصدر صحيفة « السلطنة » عام ١٨٥٧ للعمل على لفت نظر المصريين نحو الباب العالى وماله عليهم من حقوق ، وبيان أخطاء الحكومة . (٢) ولكنها سرعان ما اختفت (٣) ، بعد أن خلقت فى مصر جرائد الرأى التى تعنى قبل كل شيء بالاتصال بالقراء اتصال توجيه فكرى مستند إلى مبدأ معين وإلى رأى مقرر .(٤)

وتولى إسماعيل ولاية مصر عام ١٨٦٣ والبلاد فى حالة شلل لما أصابها على عهدى عباس وسعيد . ولكن سرعان ما دخل الشعب المصرى فى غمار تجارب حافلة فإسماعيل كبير المطامع فى السيادة الاستقلالية ، تتوق نفسه إلى القيام بمشروعات محمد على من حيث الاستقلال بمصر وملحقاتها الطبيعية .(٥) وكانت البعثات العلمية المصرية التى أرسلها محمد على قد أنتجت جيلاً من المثقفين اضطلعوا بدور هائل فى ميادين النهضة وأسهموا فى إحياء الثقافة المصرية وتجديدها ، ففاز عصر إسماعيل بثمرة هذه البعثات .

(١) عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ص ١٧ ، ١٨
إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ٣٦ ، ٢٧
(٢) إبراهيم عبده : المرجع السابق ص ٦١
C. Huart : Literature Arabe : p. 428.
عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية جـ ١ ص ١٥٨ (دار الفكر العربى ١٩٥٠)
محمود عزمى : ملخص مبادىء الصحافة العامة ص ٦٥ (١٩٤٢)
(٣) Ramadan. A: Evolution de la Legislation sur la Presse en Egypte p. 8 (Le Caire 1935.)
(٤) محمود عزمى : المرجع السابق ص ٦٨ ، ٦٩
(٥) مجلة الهلال : أول مايو ١٩١٠ مقال تاريخ النهضة الصحفية « الدور الإسماعيلى »

نشأة الصحافة الشعبية فى مصر :

وكان إسماعيل يؤمن بالدعاية ، وكان شديد الولع باحتذاء الأوروبيين ، أراد أن يقلدهم فى نظام الحكم ، وميدان الثقافة والتعليم ، وإذا كان لأوروبا صحافة شعبية إلى جانب الصحافة الرسمية فلا بأس من أن تكون لمصر صحافتها الشعبية (١) . وهكذا كانت الصحافة إحدى الوسائل التى اتخذها لتحقيق سياسته وتنفيذ أهدافه . فاهتم بالصحف الرسمية المصرية أولاً ثم الصحف خارج مصر (٢) ، بعد أن أدرك بعض أسرار تقدم أوربا وأهمية الصحافة فيها (٣) .

وتشبه إسماعيل بالنظام الأوروبى فأنشأ مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦ ، ووجد أن الصحافة الرسمية لا يجوز لها أن تكون معبراً عن هذا « المجلس الشعبى » ومن هنا أوحى إلى أبى السعود بإصدار صحيفة « وادى النيل »(٤) فى نفس العام . وكانت لها دار واسعة للنشر ، واستطاع أبو السعود نقل الصحافة المصرية من رسميتها إلى اللون الشعبى فى حيز ضيق من الحرية إذ كانت تخدم الخديو بإخلاص وكان هو من أكبر المساعدين لها (٥) . وأصبحت « وادى النيل » لساناً يدافع عن إسماعيل ضد جريدة « الجوائب » التى تصدر فى القسطنطينية .

ثم أنشأ إبراهيم المويلحى وعثمان جلال عام ١٨٦٩ مجلة « نزهة الأفكار » وكانت غريبة عن الوسط الصحفى إذ جاءت حرة فأبدى شاهين ناظر الحربية لإسماعيل تخوفه من أنها تهيج الخواطر وتبعث على الفتن فصدر أمر

---

(١) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة جـ ١ ص ١١ ، حمزة : الصحافة فى مائة عام ص٢٥

(٢) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ٦١ ، ٦٢ ،

زكى فهمى : صفوة العصر فى رسوم مشاهير رجال مصر جـ ١ ص ٥٣ (الاعتماد ١٩٢٦)

(٣) M. Hartmann : The Arabic Press of Egypt p. 3 (London 1899)

قسطاكى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف المصرية ص ١٠٩ (مطبعة التقدم ١٩٢٨)

(٤) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية جـ ١ ص ٦٩ (بيروت ١٩١٣)

M. Sabry : La Gènese de L'Esprit National Egyptien p. 113 (Paris 1924)

(٥) دار المحفوظات التاريخية وثيقة رقم ٢١١ معية تركى فى ٢ جمادى ١٢٨٩ (١٨٧٢) تحمل ميزانية الدولة مبلغ ٢٨ ألف قرش إعانة من الخديو لجريدة وادى النيل

إسماعيل بإلغائها (١) ، فلم يكن إسماعيل فى أول الأمر يريد صحافة تعبر عن مصر أكثر مما كان يعبر عنها مجلس شورى النواب ، يريدها صحافة موالية ، هادئة ، تخدمه لتنال عطفه ثم أباح لمحمد أنسى بن أبى السعود عام ١٨٧٥ إصدار جريدة « روضة الأخبار » وقد تخصصت فى السياسة والعلم والأدب والزراعة والتجارة . (٢)

هجرة الصحفيين السوريين واللبنانيين الى مصر :

فى هذه الفترة كانت تجرى فى سوريا أحداث جسام . فمنذ مذابح ١٨٦٠ ، أخذ النفور يدب بين سكان سوريا ولبنان وبين الحكم التركى . وكان السوريون قد تشربوا بروح الحرية من نهضة الأحرار العثمانيين فى الآستانة على عهد عبد العزيز ومراد . ثم جاء مدحت باشا « أبو الأحرار » بعد خلع مراد وتنصيب عبد الحميد ، إلى سوريا ونشط هذا الشعور فانتشرت الحرية « الصحفية » انتشاراً عظيماً (٣) . ولكن عبد الحميد الذى لم يهمه إلا صيانة حياته خشى سوء العاقبة من دولة الجرائد فأصدر أمراً بتقييد حريتها وضيق عليها المراقبة . وهكذا سئمت نفوس الأدباء فهاجر أكثرهم إلى مصر حيث أنشأوا الصحف (٤) .

وكان إسماعيل يختلف عن نظرائه من ولاة الدولة العثمانية ، وكان يختلف عن سلفيه فى ولاية مصر (٥) ، فشجع إسماعيل هؤلاء السوريين

---

(١) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة جـ ١ ص ٧٨ ، جـ ٢ ص ٢٧٧
عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية جـ ٣ – ص ٣٥ ، ٣٦ (١٩٥١) .
إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ٦٥
(٢) دار المحفوظات التاريخية : وثيقة رقم ١١٥–٢١ ذى الحجة ١٢٩١
(٣) قسطاكى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف المصرية : ص ١٠٩
(٤) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية جـ ٢ ص ٧ ، ٨ – جـ ٣ ص ٤ ، إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ٧٨ ،
إبراهيم عبده : جريدة الأهرام : ص ١٥ ، ١٦ (دار المعارف ١٩٥١) ، عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية جـ ١ ص ٢٧ ، ٢٨ ،
عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ١ ص ٦٣ ، ٦٤ (مطبعة الرسالة ١٩٤٨)
(٥) إبراهيم عبده : جريدة الأهرام ص ١٧

واللبنانيين على الإقامة فى مصر والإسهام فى نهضتها (١) . وكانت سمة هذه الهجرة الواضحة فكرية خالصة أهم جوانبها الصحافة والنشاط المسرحى (٢).

وهكذا يمكننا القول إن الصحف الشعبية التى ظهرت على عهد إسماعيل كانت على ضربين :

أولهما : الصحف الشعبية التى تولتها أقلام مصرية وعقول مصرية كالصحف السابقة .

وثانيهما : الصحف الشعبية التى تولتها أقلام شامية وعقول شامية وأول صحيفة صدرت منها هى الأهرام عام ١٨٧٦ (٣) . ولم يشعر السوريون بوحشة أو غربة فى الأراضى المصرية ، فمنذ أول عهد التاريخ لم تنقطع قط علاقات القطرين السورى والمصرى الجنسية والاقتصادية والصناعية ، فاتخذوا مصر وطناً لهم . (٤)

وكانت الروح التى سرت فى الصحافتين السورية والمصرية فى القرن ١٩ هى روح الإصلاح وإعداد البلاد الشرقية لاستقبال النهضة الحديثة ، وذلك عن طريق التهذيب الخلقى ومحاربة العادات السيئة والأوهام التى كانت تمنعها من فهم العصر الجديد . وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتسبونه من المعارف إلى بلادهم أيام العطلة ، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد والقاهرة (٥) .

الحرب الروسية التركية وأثرها فى تطور الصحافة المصرية :

ولم يكن من المحتمل أن تتجاوز الصحافة المصرية المرمى الذى رسمه لها إسماعيل ، غير أن الحوادث كانت أقوى منه ، بل ألزمته أن يفزع هو إلى

---

(١) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ١ ص ٨٧ ،
Hartmann : The Arabic Press of Egypt p. 3

(٢) إبراهيم عبده : جريدة الأهرام ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) عبد اللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى مائة عام ص ٢٦ .

(٤) بولس قرالى : السوريون فى مصر جـ ١ ص ٢ (المطبعة السورية بمصر ١٩٢٨)
مجلة الهلال : أول مايو ١٩١٠ « تاريخ النهضة الصحفية » .

(٥) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية جـ ١ ص ٢٣٨

الصحافة والصحفيين يستعين بها وبهم فيما جد على الوطن من أحداث ، الأمر الذى فرض عليه أن يفتح صدره للمصريين والشاميين ليتخذوا من الصحافة مهنة لهم (١) . وتركزت هذه الأحداث حول نشوب الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٨٧٧ ، وكانت مفترق الطرق فى رسالة الصحافة ، إذ وجد الناس من أنفسهم لذة فى الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع أعدائها ، وتطلعوا إلى ما يرد من أخبار الحرب(٢) . وكان ورود الجرائد الأوروبية للأجانب فى مصر ومخالطة هؤلاء للشعب المصرى تمهيداً للعلم بما يحدث . وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية التى كانت إلى ذلك العهد لا تزال مقصورة على مالا يهم فانطلقت فى إيراد الحوادث ، ووجد بين الناس الناقم على تلك الجرائد والمناصر لها ، وحدث بين الناس نوع من الجدال لم يكن معروفاً من قبل . وتعد هذه المجادلات الصحفية فى هذا الوقت أول حدث فى تاريخ الصحافة الشعبية المصرية ، وبذلك تغير الاتجاه التقليدى فى الاقتصار على تافه الأخبار (٣). وثمة نتيجة أخرى ، وهى أنها لفتت الصحف المصرية إلى الدول الأجنبية ، وخاصة ما كان منها متصلا بالسلطان والدولة العثمانية ، وأخذت الصحف تنشر عن أحوال الأمم الأخرى التفاصيل الغريبة وتشرح سيرتها السياسية والاجتماعية وتقارنها بما عليه مصر من سوء الأحوال (٤) .

ولم تحاول الجهات الرسمية فى مصر إذ ذاك عرقلة هذه النهضة الصحفية فغضت الطرف عما ينشر من آراء وأخبار تمس الدولة العلية ، وذلك لمحاولة الخديو التملص من التزاماته تجاه السلطان . فلا غرو أن شجعت الحكومة الصحف على التحدث فى أمور سياسية ما كان يسمح لها بالخوض فيها من قبل(٥) . فتقول الأهرام : « لقد شكونا من الاستبداد الموصل للدمار

---

(١) إبراهيم عبده : أبونظارة أمام الصحافة الفكاهية (الآداب ١٩٥٣) ص ١٢

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده جـ ١ ص ٣٧

(٣) ابراهيم عبده : تطور الصحافة ص ٧٤ ، ٧٥

(٤) جريدة الوطن فى ٢١ نوفمبر ١٨٧٧ ،

محمد رشيد رضا : تاريخ الإمام محمد عبده جـ ١ ص ٣٧ ، ٣٨.

(٥) إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ٧٦ ، ٧٧

فتهيأ الآن لنا أن نقصيه بعيداً . والخطاب السلطانى قال قد اشتهرت وثيقة الإصلاحات وأوجدت البرلمان مؤكداً للجميع العدالة والحرية (١) » . وفى عدد آخر بعنوان « خلاصة الأخبار الأخيرة » تنشر الأهرام مقالا يتميز بالحدة « قل لنا متى النهاية . تحملنا مالايطاق ، صبرنا على البلوى ، فحتام ننتظر (٢) » . وقد هلل إسماعيل لهذه الحرية التى نالتها الصحف والتى كشفت عن مواطن الضعف فى الدولة العثمانية (٣) .

ثم حزّ فى نفس إسماعيل ما رأى من اهتزاز العرش من تحته عندما انتصرت روسيا على تركيا ، وعندما قررت فرنسا وإنجلترا استبعاد عرض المسألة المصرية على مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، فعرف مطامع الدول فى السيطرة على مصر .

وعندئذ غض الطرف عما أخذت تنشره الصحف من آراء فى الحرية والاستقلال ، وشهدت البلاد فترة من فترات التمتع بالحرية الصحفية (٤) .

وقد صدرت فى عهد إسماعيل حوالى ثلاث وعشرين صحيفة ومجلة إحداها رسمية « الوقائع الرسمية » ، وواحدة لشئون الجيش « أركان حرب الجيش المصرى » ومجلة طبية « يعسوب الطب » ، ومجلتين علميتين هما « روضة المدارس المصرية » و « النحلة الحرة » . أما الصحف الباقية فكانت سياسية النزعة وهى : وادى النيل ، نزهة الأفكار ، الكوكب الشرقى ، الأهرام ، روضة الأخبار ، أبو نظارة زرقاء ، الوقت ، شعاع الكوكب ، صدى الأهرام ، مصر ، حقيقة الأخبار ، الوطن ، البسفور ، التجارة ، الكوكب المصرى ، مرآة الشرق ، الأسكندرية ، وبستان الأخبار (٥) .

وبذلك كان لحرب روسيا — تركيا نتيجتان على الصحافة :

---

(١) جريدة الأهرام فى ٢٢ مارس ١٨٧٧

(٢) جريدة الأهرام فى ١٢ ابريل ١٨٧٨

(٣) إبراهيم عبده : أبونظارة ص ١٢

(٤) محمود نجيب أبو الليل : الصحافة الفرنسية فى مصر ص ٢٤٢ (طبعة ١٩٥٣)

(٥) يلاحظ أنه ليس هناك سجل بالصحف التى صدرت فى عهد إسماعيل وقد تحدث مؤرخو الصحافة كل منهم عن عدد من هذه الصحف ، وأهم ما يرجع إليه فى هذا الصدد =

الأولى : تطور الصحافة ونقلها إلى جو من الحرية .

والثانية : قيام الصحافة بوظيفة الدفاع عن الشئون المصرية الدولية ، وبذلك شاركت الصحف المصرية الحكومة فيما كانت تختص به نفسها من مسئوليات(١) .

ومن ثم ظهرت الصحافة في مصر ناضجة ، وأتتها حرية المطبوعات عفواً لم تسفك في سبيلها دماً ولا أنفقت درهماً ، بل كانت الحكومة تساعدها ، والذين أصدروها وكتبوها كانوا من أكابر الكتاب. وأخذ الرأى العام في مصر يفرض وجود صحافة بدأت لينة ثم تطورت مع أحداث الزمن . فالصحافة أداة شعبية تعتمد في وجودها على محاولة توسيع دائرة جمهورها ، وعلى تنوع هذا الجمهور ، وعلى اجتذاب دائرة أكبر من القراء ، وهدفها هو كسب كل ملم بمبادئ القراءة .« وفى الوقت نفسه ساعدت الحكومة الصحف من كل وجه فاشتركت بمئات النسخ ولم تمنع مستخدميها من مساعدتها في تحصيل بدل الاشتراك الذى كان محتماً على العمد والفلاحين والأغنياء وهم لا يعرفون القراءة ، فتأتيهم الجرائد ولا يفتحونها ، وقد آلت هذه الطريقة من الضغط إلى تعود الناس قراءة الصحف بوساطة الذين يعرفون القراءة »(٢) ، إذ تمتاز الصحيفة بأنها تخاطب شعور القارئ وعقله وتفكيره فتتفاعل معه . وهى تتطور مع المجتمع اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً . وقد أجمع رجال الصحافة والمؤرخون لها والمشتغلون بالإعلام على أن الصحافة أكبر قوة في تكوين الرأى العام والتأثير فيه . ومع أن هناك وسائل أخرى هامة للإعلام ظهرت في السنوات الأخيرة ، إلا أن الصحف أهم هذه الوسائل في تكوين الرأى

= M. Hartmann : The Arabic Press of Egypt.

قسطاكى إلياس الحلبى : تاريخ تكوين الصحف المصرية ، عبد الله الأنصارى : جامع التصانيف المصرية الحديثة ، فيليب دى طرازى : أربعة أجزاء .

إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ، مجلة الهلال العدد الأول سبتمبر ١٨٩٢

(١) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ذكره ص ١١٠

العام (١) . فهى تقود الشعب وتجلبه إلى رأيها بتأثير كتاباتها . وهى الطريقة الحديثة لنشر الفكرة والمبدأ ، تدافع عنه وتعمل على إذاعته (٢) ، وتستطيع بتكرار الدعوة يوماً بعد يوم بصور مختلفة أن تؤثر فى الجمهور . هذا إلى جانب أن الكلمة المطبوعة لها تأثير على النفوس وسلطان كبير على العقول(٣) .

جمال الدين الافغانى وأثره فى انشاء الصحف الشعبية :

وهذا الجهاز الثقافى الهام بما له من أثر على المجتمع قد يتخذ اتجاهاً آخر مخالفاً لنشر الوعى الفكرى ، وقد يصيبه التجمد إذا لم يجد من يدفعه ويوجهه إلى وجهة أفضل . ووجدت الصحافة فى مصر من جمال الدين الأفغانى ذلك الدافع والمحرك . فقد أدرك حقيقة الشرق الضعيف القانع وحقيقة الغرب القوى الغادر فأراد أن يحيى وحدة الشرق الممزقة وأن ينهضه من رقدته الطويلة ، فكانت الغاية عنده إحياء الشرق الإسلامى على أسس سياسية وثقافية واجتماعية .

ووجدت دعوة الأفغانى فى مصر صداها فى نفوس متعطشة متطلعة ؛ هزتها الحياة الحديدة التى بدأت تتصل بها هزاً أثار أشواقها إلى مجهول لاتدركه إدراكاً واضحاً محدداً ، إلى نوع من الحياة أفضل من هذا النوع الذى رزح تحت وطأته آباؤهم مئات السنين . كانت دعوة الأفغانى تفسيراً لهذه الأشواق ، ولذلك سرعان ما استجاب لها هؤلاء الحائرون وآمنوا بها وأخلصوا لها كأنهم دعاتها الأولون . وقد رحبت القاهرة بمقدم جمال الدين فى عام ١٨٧١ إذ كان إسماعيل يعمل فى دأب على الاستقلال عن تركيا ، ووجد فى الأفغانى طريد الآستانة وسيلة كبرى للدعوة لأهدافه والعمل على تحقيقها . وقد أمضى

---

(١) خليل صابات : الصحافة رسالة — استعداد — فن — علم ص ٢٥١ (دار المعارف ١٩٥٩)
عبد اللطيف حمزة ، الصحافة والأدب فى مصر ص ٣ ، ٤ (معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٥) ،
حسنين عبد القادر : الصحافة كمصدر للتاريخ ص ٦٤ ، ٧٢ (الطبعة الأولى ١٩٥٨) .
(٢) يوسف محمد دسوقى : فى الصحافة ص ١٢ (مطبعة جريدة الصباح ١٩٢٩)
(٣) عبد اللطيف حمزة : المدخل فى فن التحرير الصحفى ص ١٤ ، ١٣ (الفكر العربى ١٩٥٧) .

جمال الدين فى مصر فترة من أخصب السنوات التى مرت بها البلاد حتى ١٨٧٩ . وانصرف إلى التدريس حتى إذا عرفه تلاميذه وعوفهم ، رأوا فيه عالماً مختلفاً عمن سبقوه أخذ يدرج بهم فى أفق أرحب ويصل بينهم وبين الحياة من حولهم ، وغذى تلاميذه ومريديه بعشق الحرية ووسائلها من العمل والكتابة (١) ، وأخذ ينفخ من روحه فى تلاميذه ففتحوا أعينهم وإذا هم فى ظلمة وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه فضلا عن العلم والفلسفة روحانية أرتهم حالهم كما هى ، وتمزقت عن عقولهم حجب الأوهام فنشطوا للعمل فى الكتابة (٢) . كانت مصر مهيأة حينئذ لتقبل الأفكار فاستغل السيد وتلاميذه هذه الأرض المحروثة وجعلوا يبذرون أفكارهم فيها . وعلى أثر ذلك أخذت الحركة الفكرية الوطنية فى الظهور (٣) إلى درجة « يظن الناظر فيها أنه فى عالم خيال (٤) » .

وبرغم أن السيد جمال الدين لم يكن صحفيا محترفاً إلا أنه أدرك ماستكون عليه الصحافة من قوة وتأثير فى القريب العاجل من حياة الشرق فشجع بعض الموهوبين على احتراف الصحافة وتكريس جهودهم لها وكان من بين هؤلاء أديب إسحق ويعقوب بن صنوع (٥) . ورسم الأفغانى الخطة التى يسير عليها تلاميذه وأوحى إليهم بالمعانى الجديدة التى يكتبون فيها ، وكتب هو فيها تحت أسماء مستعارة مثل « مظهر بن وضاح » وطلب إلى من يتوسم فيه المقدرة والمنفعة أن يكتب فيها . وكان لهذه الحركة أثران : أولهما ، تنبيه الأذهان إلى المسائل الحيوية وتعويد الناس الجرأة على الحكام ومطالبتهم بالنصفة والعدل وتبيان مكائد الأجانب وجشعهم .

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الإمام محمد عبده — مقدمة جـ ١ ص (ز)

(٢) عثمان أمين : محمد عبده ص ٢٤ ، ٢٥ (لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ١٩٤٤)
C. Adams, Islam and Modernism in Egypt pp. 34, 25 (London 1933)

(٣) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ص ٤٦ ، ٤٧ (بيروت ١٩٣١)

(٤) محمد رشيد رضا : تاريخ الإمام محمد عبده جـ ١ ص ٣٨

(٥) جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق فى القرن ١٩ جـ ٢ ص ٧٠ (مطبعة الهلال ١٩٢٢)

إبراهيم عبده : أعلام الصحافة العربية ص ٦٩ ، ٧٠ (الآداب ١٩٤٤)
J. M. Landau : Parliaments and Parties in Egypt p. 81 (N.Y. 1954)

وثانيهما : تكوين جيل من الكتاب متمكن من اللغة قدير على الإسهاب وشرح المعضلات دون اللجوء إلى المحسنات والزخارف ، خبير بتفتيق المعانى وتوليد الأفكار (١) .

وقد حصل الأفغانى لأديب إسحق على امتياز إصدار جريدة «مصر» عام ١٨٧٧ وكتب هو فيها فصولا «فصارت تلك الجريدة شيئاً مذكوراً »(٢) منها مقاله « الحكومات الشرقية وأنواعها » و« روح البيان فى الإنجليز والأفغان » . واشتهرت هذه الجريدة بمقالاتها فى تعريف الوطنية ، وهى الجريدة الأولى التى وردت فيها كلمة «مصر الفتاة» التى درجت فى الاستعمال عند أرباب النهضة المصرية(٣) . ثم أوحى إلى يعقوب بن صنوع بإصدار جريدة ظهرت باسم أبو نظارة زرقاء عام ١٨٧٧ . ثم أوحى إلى أديب إسحق مرة أخرى أن يصدر جريدة فى الأسكندرية باسم « التجارة » عام ١٨٧٩ ولقيت الجريدتان رواجاً كبيراً ولفتتا إليهما الأنظار بروحهما الجديدة (٤) .

وساعد الأفغانى الصحفى سليم عنحورى على إصدار جريدة « مرآة الشرق » عام ١٨٧٩ (٥) وكان الأفغانى من وراء هؤلاء جميعاً يغذيهم بروحه ويشجعهم بآرائه وكتاباته . وقد أنتجت هذه الحركة أدباً قومياً حيث وجهت الأدب إلى النظر فى شئون الشعوب العربية والدفاع عن حقوقها ووصف أمراضها وأدوائها وما تتطلبه من علاج (٦) . وبهذا تنبهت الأفكار

---

(١) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ١ ص ٢١١

(٢) سليم عنحورى : ديوان سحر هاروت ص ١٧٩ — ١٨٠ (دمشق ١٨٨٥) ، محمد رشيد رضا : تاريخ محمد عبده جـ ١ ص ٤٥

(٣) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية جـ ٣ ص ١٣

(٤) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٦٨ ، ٦٩ (لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٨) ، إبراهيم عبده : أبو نظارة ص ١٣ .

(٥) جورجى زيدان : مشاهير الشرق جـ ٢ ص ٧٠ ،
عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة : جـ ١ ص ٣٩ ، ٣٣ .
محمد رشيد رضا : المرجع السابق ص ٤٦

(٦) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ١ ص ٨٣ (ويجب التنبيه هنا إلى كلمة العرب وتناول هذه الكلمة بحذر فى هذه الفترة التى غلب عليها الطابع الإسلامى العام وكانت العربية ما تزال جنيناً لم ير النور بعد) .

وبدأت الحياة الاجتماعية تدب فى جسم أمة فرقها الظلم وأماتها الجور ، وانبعثت النفوس تطلب ما شعرت به من حاجاتها (١) . ورغم أن كثيرين أخذوا يغرسون بذور الوطنية كرجال الجيش والحانقين من الموظفين المطرودين والأفغانى ، إلا أن هذه البذور لم تتعد الأرض التى تعيش عليها فئات معينة من الشعب المصرى . وإلى يعقوب صنوع الصحفى يرجع الفضل فى نثر بذور الثورة عن طريق الصحافة على الأرض التى يعيش عليها عامة الشعب وبخاصة الفلاحين . ولم يكن هناك شخص فى القاهرة وغيرها من المدن أو أى قروى فى ريف مصر لم يسمع بهذه المقالات إن لم يكن قد قرأها بنفسه . وهكذا ظهرت الصحف الشعبية المصرية بكل ما تحمله الكلمة من معنى (٢) .

الصحف والدعوة الى الاصلاح :

وتجمعت فى هذه الفترة عوامل كثيرة كان لابد أن تفضى إلى حركة وطنية عامة وكان الاستياء يسود جميع طبقات الأمة (٣) سواء بين صفوف الجيش أو العلماء أو الأعيان . وكانت الحكومة فى أوائل عام ١٨٧٩ تحاول تعطيل مجلس شورى النواب ، ولكن اجتمع الأعيان والعلماء والتجار والموظفون وأصدروا فى ٢ من إبريل ١٨٧٩ (١٠ من ربيع الثانى ١٢١٦) ـ «المحضر الأهلى» يطلبون فيه من إسماعيل منح مجلس شورى النواب الحرية التامة وجميع الحقوق فى كافة الأمور المالية والداخلية كما هو جار فى بلاد أوربا ، وتعديل طريقة الانتخاب لتماثل ما يحدث فى أوربا وإقرار مبدأ مسئولية الوزارة أمام المجلس (٤).

وهكذا بدأت ثورة الأفكار والتطلع إلى الحرية والنظم الدستورية وتأصلت فى نفوس الطبقة المثقفة من الأمة (٥) . وكانت غاية المصلحين اقتباس

(١) رشيد رضا : تاريخ الإمام محمد عبده جـ ١ ص ١٨٠

(٢) The Nineteenth Century Review March 1901.

J. Ninet : Origin of the National Party pp. 126-128,

J. Landau : Parl. & Parties in Eg. P. 86.

(٣) Royle : Egyptian Campaigns,1882-1885 p. 53 (London 1886).

(٤) محمد خليل صبحى : تاريخ الحياة النيابية فى مصر جـ ٥ ص ٩٩ — ١٠٦ (مطبعة دار الكتب ١٩٣٩) .

(٥) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ص ١٩ (النهضة ١٩٤٩) .

المبتكرات السياسية الغربية كالنظم الدستورية مما باتت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة . وقد ازداد عدد المتشبعين بهذه الآراء باقتباسهم عن الكتب والنشرات والصحف والمجلات التى أخذت تزداد انتشاراً (١) .

وكانت هذه الفترة منشأ ظهور حركة المعارضة وصحافة المعارضة فى البلاد ، وبدأ الرأى العام يقوى أمام ضعف إسماعيل إزاء التدخل الأجنبى ، ووجدت فى البلاد حركة قومية دستورية ترمى إلى تقييد سلطة الحكومة المطلقة وإصلاح داخلية البلاد (٢) .

ويصف كرومر هذه الفترة بأنها من « فترات الانتقال من الحكم الاستبدادى المطلق إلى الحكومات الشرعية التى تحمل فى طياتها خطراً شديداً. فأذهان الناس لم تستقر بعد لكثرة ما يدور من مناقشات حول ضرورة التغيير الحقيقى . وإن حالة الرضا والطاعة التى كانت من مميزات المصريين والتى ورثوها عن أجدادهم سوف تتخلخل وتهتز ولا يمكن وقف ذلك بسرعة »(٣). فالحرية التى منحت للصحف الوطنية أعطت الوطنيين فرصاً عديدة للتحدث عن المظالم التى يحسون بها ونشر مطالبهم الوطنية (٤) . ونشأت فى مصر نواة لطبقة وسطى ذات وعى ونضوج ، وكانت مصالحها الاقتصادية وأوضاعها الطبقية تتعارض تعارضاً تاماً مع مطامع الأجانب ، وحاولت هذه الطبقة جهدها لتصحيح الوضع فى مصر وكان غيظ الأمة يزداد من وقت إلى آخر ضد الخديوى وضد الموظفين الأوربيين ، وازداد عدد المحرومين من حقوقهم إلى حد أصبح معه السخط عاماً (٥) .

وكان إسماعيل يعتقد أن من الأفضل منح الصحافة حرية تامة فى هذه الفترة على اعتبار أنها ستساعده فى تعبئة الرأى العام ضد أى تدخل أجنبى .

---

(١) L. Stoddard. The New World of Islam p. 116. (London 1921)

(٢) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار – مقدمة الجزء الأول المطبوع ص (هـ،و) (مطبعة مصر ١٩٣٠)

(٣) Cromer : Modern Egypt : V.I pp. 150, 151 (London 1908).

(٤) J. Alexander : The Truth about Egypt p. 13 (Cassell 1911).

(٥) هلس رزنر : مصر تحت الاحتلال الإنجليزى والمسألة المصرية ص ١٧ (مترجم عن الألمانية – مطبعة هندية ١٨٩٧)

ولم يفكر قط فى أن هذه الصحافة ستقوم بنقد تصرفاته الشخصية وإسرافه الباهظ وطريقته فى الحكم (١) . وكانت الصحف فى الوقت نفسه تهتم بالسياسة الخارجية ، وقد أدى ذلك إلى تحطيم الحواجز والسدود أمام التفكير المصرى السياسى ومكنه ذلك من متابعة الأحداث السياسية العالمية . وكانت الصحف عموماً تهاجم فرنسا وإنجلترا والتدخل الأوروبى فى شئون البلاد بلهجة عنيفة (٢) ، وخاصة بعد أن تكونت فى مصر وزارة دخلها عضوان : إنجليزى وفرنسى (٣) .

وهكذا نسى إسماعيل فى غمرة محاولاته لوقف التدخل الأجنبى أن الصحافة الشعبية سلاح ذو حدين : أما أحدهما فيمكن تصويبه نحو أعدائه ، أما الآخر فلا بد من تصويبه نحو اليد التى صنعته ولو كان ذلك بغير قصد من صاحبها (٤) . فلم يفطن إلى أن حرية الصحافة مكنتها من أن تعلق على مباذل الملك فى دولته ، وكان ذلك فاتحة لمهاجمة حاشية الخديو (٥) ، وكان فى الوقت نفسه أول ما أشعر الناس بقوتهم وحاجة الحاكم إليهم ونبه الرأى العام إلى أنه يستطيع أن يقف فى وجه الظلم ويطالب بالحقوق ، وأن من حقه مراقبة الحكام ورفع صوته بنقدهم . وهذا الشعور إذا وجد فى أمة كان لا بد له من قادة يشعرون شعور الناس ويصوغونه صياغة قوية يلهبون بها شعور من شعر وينبهون بها من لم يشعر ، فكان ذلك فى جمال الدين ومدرسته (٦) .

وكان أديب إسحق صاحب الفضل الكبير فى نقل الآراء النظرية والأفكار التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية وتقديم خلاصة منها للقارئ

---

(١) M. Sabry : L'Empirc Egyptien sous Ismail p. 333 (Paris 1933).

(٢) E. Plauchut : L'Egypte et L'Occupation Anglaisc p. 75 (Paris 1889)

(٣) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ٩٧

(٤) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية جـ ١ ص ١٤ ، ١٥ ، عبد اللطيف حمزة ، الصحافة المصرية فى مائة عام ص ٦

(٥) إبراهيم عبده : أبو نظارة ص ١٢

(٦) أحمد أمين : زعماء الإصلاح ص ٢٢١ ، ٢٢٢

المصرى ، وكانت طريقته تقوم على وصف الحريات التى تتمتع بها الدول الغربية وكانت ثمرة لجهادها فى سبيل الحصول عليها (١) .

وكان من نتيجة سياسة إسماعيل موافقته على تعيين شريف رئيساً لوزارة تكون مسئولة لدى مجلس شورى النواب فى أبريل ١٨٧٩ . وقدم شريف لائحة « لمجلس النواب » تنص على مبدأ فصل السلطات وإعطاء المجلس السلطة التشريعية وإقرار مبدأ مسئولية الوزارة أمامه(٢) . وكانت هذه خطوة كبرى يقدم عليها إسماعيل ولاشك أنه كان يهدف إلى اجتذاب الأمة إلى جانبه فى نضاله مع الدول الأوروبية .

وهكذا أصبح يسند إسماعيل — أوكما كان هو يعتقد — قوتان شعبيتان : مجلس النواب من ناحية ، والصحافة من ناحية أخرى ، وقد استطاعت الصحف مواصلة إثارة الشعور الذى اتخذ موقفاً معادياً للأوروبيين (٣) .

وكان انتصار وجهة النظر الوطنية انتصاراً للصحافة المصرية التى أسهمت فى ذلك إسهاماً تحملت وحدها نتيجته من التضييق والإنذار ، وقد احتفلت بتعيين شريف ولائحته وقوله « إن الأمة إذا اتفقت كلمتها على خلع ملك أو سلطان فلابد من تنفيذ إرادتها وإجابة رغبتها (٤) » .

ودافعت الصحف العربية عن الحركة الدستورية ضد الصحف الأجنبية فى مصر التى نشرت الكثير عن أن الحركة الدستورية إنما حدثت دون رغبة النواب ، وردت الصحف المصرية على هذا التشويه وتسفيه الرأى العام المصرى(٥) . وأخذت الصحف تؤيد وضع دستور «على أحدث المبادئ العصرية (٦) » .

---

(١) عونى إسحق : الدرر — منتخبات أديب إسحق ص ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ (بيروت ١٩٠٩)

(٢) محمد خليل صبحى : المرجع السابق الذكر جـ ٥ ص ١١١—١٣٦ (وقد أصبح اسم المجلس بمقتضاها مجلس النواب)

(٣) Royle : Eg. Campaigns 1882-1885 p. 54.

(٤) جريدة التجارة : ٩ ، ٢٧ ، ٣٠ إبريل ١٨٦٩ ،
جريدة الوطن : ١٩ إبريل ١٨٧٩ .

(٥) جريدة التجارة : ١٠ إبريل ١٨٧٩ .

(٦) جريدة الأهرام : ١٣ يونيو ١٨٧٩ .

ولكن هل كان ذلك شفيعاً للصحافة من بطش إسماعيل ؟ « إن اسماعيل الذى أوجد الصحف بمصر كان يسر لحرية الصحافة ، ولكنه لم يكن يصبر على انتقادها . ومن تجاسر على انتقاده من أصحاب الصحف أصبح فى خطر (١) » .

وكانت روح العصر الذى نشأت فيه الصحافة الشعبية تدعو إلى لون جديد من الصحف التى لم تعرف من قبل فى الشرق الأدنى . « ولم يكن من طبيعة الأشياء أن تصدر صحف ساخرة إلا فى البلاد المصرية التى ولى أمرها اسماعيل ، وأشاعت فيها الأزمات التى مرت بها أثناء حكمه كثيراً من الفكر الجديدة التى كانت منطوية فى نفوس النخبة المنتقاة من أعلام الرأى الذين درسوا فى مصر أو نهلوا من أوربا .

« واعتملت فى نفس إسماعيل تيارات مختلفة من القديم والجديد ، وتطاحن إرث الآباء والأجداد المنطوى على احتقار الشعب كبيره وصغيره مع فكرة التقليد (عن الأوروبيين) الذى يرفع من قدر الوطن ويضع فى الحساب وزناً واعتباراً . ودارت المعركة بين نفسية الحاكم الشرقى العتيقة وبين نفسية الأمير الذى يريد جديداً يماثل حياة الغرب المتحضر الوثاب . وخرج إسماعيل من هذا الصراع العنيف يترنح من هول المعركة ، كثير التردد ، يذهب مرة إلى أقصى اليمين . وأخرى إلى أقصى اليسار .

« ومن الأدلة على هذا الاضطراب الفكرى موقفه من الصحافة ورجالها ، فهو يأمر بنشر الصحف الشعبية ويساعد على نشرها وتتلقى منه الإعانات ، فإذا ظن البعض أنه ينهج نهج الغرب وينشىء اثنان جريدة « نزهة الأفكار » عام ١٨٦٩ ويكتبان فيها كما يكتب الأحرار فإذا هى مغلقة بأمر منه بعد العدد الثانى (٢) » .

ولكن روح العصر كانت تفترض أن تكون فى مصر صحافة لم تعرفها

---

(١) قسطاكى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف المصرية ص ١١٠

(٢) إبراهيم عبده : أبو نظارة ص ١٠ ،
فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة ج ١ ص ٧٨

من قبل ، ليست هى الصحافة الشعبية فقط . وإنما الجديد إصدار صحيفة ساخرة مثل « أبو نظارة زرقاء » ، وهى صحيفة كان فيها للمؤانسة والطرائف والفكاهات والرسوم مكان الصدارة ولم يكن فى صحيفة أخرى شىء من هذا فأصبح ما جاء فيها حدثاً لم يعرف له نظير فى الشرق . وقد لاءمت «أبو نظارة» طبع العصر نفسه وجاء فى زمن تعددت فيه ألوان الحياة وبداية التفرنج والأخذ عن الغرب (١) . وكان إسماعيل قد أخذ يرتاب من يعقوب بن صنوع لما كان يتجه إليه من نقد غير مستور فى الصحف التى أوصدت أبوابها دونه بأمر الخديو . فقرر أن ينشئ هو صحفاً ويتولى بنفسه القضايا التى يريد أن يتولاها . واستند إلى طريقة أصبحت معروفة فى الصحافة المصرية (٢) وهى الالتجاء إلى قنصلية دولة لينال حمايتها ، فالتجأ إلى قنصلية إيطاليا وأصدر عدة صحف بلغات أوروبية أغلقتها الحكومة. فقدم الندم لإسماعيل حتى نال رضاءه وسمح له بإصدار « أبو نظارة » (٣) .

وكان يقدم فى كل عدد فصولاً تمثيلية فيها نقد للحياة الاجتماعية ثم بدأ يكتب فى النواحى السياسية متحرزاً . ويصور بهذه المحاورات مدى الظلم والعبث بحياة الأفراد والجماعات فى عهد إسماعيل وإن أرجعها إلى تاريخ سابق (٤) .

ولم يكن خطر « أبو نظارة » كامناً فى فكاهاتها ومحاوراتها والجديد الذى احتوت عليه ، بل كان خطرها فى أسلوبها الذى تضمن عدة لغات ولهجات (٥)، واشتمل على كلمات بلغات أوروبية إلى جانب اللهجات العربية . وقد عرضت لمساوئ الحكم ومظالم الأمراء والموظفين « وسببت عدة فتن فى الصعيد ضد

---

(١) إبراهيم عبده : أبو نظارة ص ١٤ ، ١٥
(٢) إبراهيم عبده : جريدة الأهرام ص ١٥٠ ، ١٥١
(٣) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٢٥٤
(٤) إبراهيم عبده : أبو نظارة ص ٤٦ ،
عبد اللطيف حمزة : المدخل فى فن التحرير ص ٢٠٣
(٥) إبراهيم عبده : أبو نظارة ص ٥٤

مبعوثى إسماعيل الذين كانوا يدفعون السكان قهراً إلى بيع مواشيهم وأراضيهم ليسددوا الضرائب (١) » .

ثم أخذ يهاجم الخديو نفسه ، إذ شجعه نجاح الصحيفة المتزايد وقد بلغ توزيعها آلاف النسخ ، فكشف النقاب وهاجم إسماعيل فى صراحة (٢) . وقد أوعز الخديو بقتل يعقوب بن صنوع وفشلت المحاولات ، ولكن أشيع أنه مات فاضطرب الناس وخشى إسماعيل العاقبة فأمر بظهوره فى المدينة لتهدئة الجماهير . ثم أوعز إلى قنصل إيطاليا أن يطرده من الديار المصرية باعتباره من رعايا إيطاليا (٣) .

وهكذا تغيرت أحوال المجتمع « بعد أن لم تكن هناك أدنى أهمية للأهالى وقد يصاب منهم الآلاف نتيجة للجوع أو الحرمان . ومن يستطيع أن يحلم بمحاسبة المجرم العتيد (٤) » ، وأصبح المصريون يقرأون فى الصحف من يخاطبهم بأن « قد حان لكم أن تعلموا أن الراعى لكم ولستم للراعى . انبذوا الخوف جانباً وقاوموا سيوف الظلم ، لا تهابوا من يروم إبعاد الحق ، لا تخشوا سطوة مدير أو عامل أو حاكم ... (٥) » وقد ترك إسماعيل الحرية لهذه المقالات عندما كان يريد مساعدة من الصحافة ولكنه ما يكاد يشعر بشىء من استعادة القوة أمام الدول الأوروبية حتى يصدر أمره بمعاقبة الصحفيين وإغلاق صحفهم (٦) .

واتسع المجال فانتقل من المجال السياسى إلى النقد الاجتماعى وأخذت

---

(١) المرجع السابق ص ٥٥ — ٥٨

(٢) المرجع السابق ص ٥١

(٣) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية جـ ٣ ص ٨ ، ٩

(٤) إبراهيم عبده : المرجع السابق ذكره ص ٥٩

(٥) جريدة الأهرام : ٢٥ ديسمبر ١٨٧٨

(٦) فيليب دى طرازى: تاريخ الصحافة العربية جـ ٣ ص ٥ ، ٥٠ ، ٥١
(كاد مدير الأهرام يذهب ضحية مقال عن الإسراف . كذلك أصدرت المطبوعات أمراً بتعطيل جريدة صدى الأهرام لنقد المالية ...)

الصحف تدعو إلى العناية بالأخلاق والتعليم العام ووجوب جعله إجباريا (١) . وهكذا بدأت الصحافة تمثل النفسية الشعبية في مصر في هذه الفترة من تاريخها .

وما لبثت إنجلترا وفرنسا أن نجحتا في استصدار فرمان من السلطان بعزل إسماعيل في ٢٥ يونيو ١٨٧٩ فشيعته الصحف غير آسفة لتستقبل توفيق (٢) .

---

(١) عوني إسحق : الدرر ص ٢٤٤

جريدة الوطن : ٢٦ أكتوبر ١٨٧٨ ،

جريدة مرآة الشرق : أول ابريل ١٨٧٩ ،

جريدة التجارة : ٣ ، ٥ ، ١٧ ، ٣٠ إبريل ١٨٧٩ .

(٢) مرآة الشرق ، الوطن ، التجارة : منذ أول يوليو ١٨٧٩ .

الفصل الثانى

الصحافة المصرية والثورة العرابية

١٨٧٩ - ١٨٨٢

عهد توفيق

- عهد إرهاب الصحف
- الوقائع المصرية جريدة رأى - محمد عبده رئيس تحريرها
- تهريب الصحف من الخارج إلى مصر
- الصحافة وحركات تذمر الضباط
- قانون المطبوعات عام ١٨٨١
- وزارة البارودى - سياستها إزاء الصحافة
- صحف الثورة
- الخديو يستخدم المنشورات والصحف للقضاء على الثورة
- أهمية صحافة هذه الفترة

عهد توفيق :

دخلت البلاد فى طور جديد من الحياة فى عهد توفيق ، فقد تولى أمة غير الأمة التى كان يتصرف فيها والده تصرف الراعى المالك ، وتوقع طلاب الإصلاح من توفيق تحقيق آمال كبيرة (١) .

وكانت مصر فى تلك الأثناء تمر بفترة تمثل مرحلة الانتقال بين عهد حضارى أخذ يأفل وعهد حضارى أخذت صورته تزداد وضوحاً على مر الأيام ، وكانت أكثر إشراقاً وأملا بما تحمله من شعور الإنسان بأنه سيد نفسه ، وذوبان التأليه البشرى ، وتحول الحكم المطلق إلى حكم الشورى ، والاعتراف بحقوق الشعوب والعمل على خدمة المجتمع وتقدمه ورفاهيته .

وقد استطاعت البلاد منذ مطلع القرن التاسع عشر أن تمتص كثيراً من الآراء الحديثة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، واستطاع التعليم توسيع دائرة المعرفة والثقافة بالنقل عن الغرب .

ثم نشأت صحف الرأى منذ منتصف القرن التاسع عشر وحققت فى فترة قصيرة دورها كأداة من أهم أدوات الثقافة ونشر الوعى(٢) : وكان النقل عن الجرائد الأوروبية ومساجلتها عاملا من عوامل يقظة روح الشعب وإنضاج عواطفه الوطنية . ثم كانت صيحات المطالبة بالإصلاح الاجتماعى والسياسى وتخليص المجتمع من الأدران التى علقت به كالجهل والمرض واغتصاب الحقوق .

حدث كل ذلك وحكم إسماعيل لا يزال فى الأذهان بما فيه من انقلابات خطيرة لكثرة الحروب والفتوحات والصراع ضد القوى الأجنبية ، ومحاولة التملص من ربقة التبعية العثمانية ، وما صاحب ذلك كله من تطورات اقتصادية

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الإمام محمد عبده ج ١ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ،
قسطا كى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف ص ١١٥

(٢) راجع الفصل السابق : الخاص بإسماعيل والصحافة الشعبية بمصر .

وفكرية واجتماعية وعمرانية . فبدأ الشعب يجيش بتيارات عنيفة أخذت تهزه من أعماقه وتمثلت فى المثقفين من أهل البلاد الذين اكتسبوا آراء أوربا عن الحرية والإخاء والمساواة والوطن والوطنية . وتمثلت فى عامة الشعب التى أثارتها المظالم وأعمال السخرة فى حفر قناة السويس وغيرها .

وكان لابد أن تلتقى هذه الآمال بحركات الإصلاح الدستورى ثم بمطالب رجال الجيش من المصريين . وهكذا دخلت البلاد فى تجربة شاقة مريرة، « وكانت فترة كلها عبر ، انتهت بالثورة العرابية والاحتلال الأجنبى .وهى فترة كان المسئولون فيها يعتقدون فى قدرة القلم على توجيه الأمور ، واستقرارها (١) » .

أحاطت الصحف توفيق برعاية لم يظفر بمثلها أبوه فى أدق مواقفه . وعندما تأخرفرمان السلطان بتولية توفيق هبت الصحف على اختلاف نزعاتها وميولها تدعو إلى صدور الفرمان (٢) . ووقف الصحفيون أقلامهم تأكيداً لحقوق مصر المشروعة . فحدث وفاق عميق بين الصحافة والخديو وحكومته . وكان توفيق سهلا هيناً يحب الوطن المصرى (٣) وترك للصحافة فى بادئ حكمه من الحرية حداً أدى بها إلى الخوض فى مسائل يعد التلميح بها جريمة(٤).

ولكن أمور مصر ما كان لها أن تسير هكذا كما يريد الخديو وكما تريد الصحافة . إذ يرى السلطان الفرصة مناسبة لاستعادة سيادته على مصر وإلغاء الامتيازات التى منحتها الدولة العثمانية لإسماعيل (بمقتضى فرمانات ١٨٦٦ ، ٦٧ ، ٧٣) والتى تضمنت حق عقد المعاهدات التجارية والقروض المالية ووضع قوانين إدارة البلاد . فإذا بالسلطان يريد أن تعود مصر مجرد باشوية من باشويات الدولة العثمانية . وما كان لإنجلترا وفرنسا أن ترضيا بإلغاء هذه

---

(١) محمد شفيق غربال : مقدمة كتاب تاريخ الوقائع المصرية لإبراهيم عبده ص (س) — المطبعة الأميرية ١٩٤٢ .

(٢) مرآة الشرق ، الوطن ، الأهرام — يوليو ١٨٧٩ ،
إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١٠٢ — ١٠٤

(٣) مجلة الهلال : أول مايو ١٩١٠ — (نهضة الصحافة العربية)

(٤) قسطاكى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف ص ١١٥ ، ١٣٠

الامتيازات (١) فهما تتمسكان على وجه الخصوص بحق الخديو فى التصرف فى المسائل المالية . وأخذت الدولتان تضغطان على السلطان حتى أصدر الفرمان فى ٧ أغسطس ١٨٧٩ مؤكداً لتوفيق التصرف التام فى شئون بلاده المالية . ولكن السلطان حرص على توثيق الصلة بين مصر والدولة العثمانية بألا يعقد الخديو اتفاقات تخل بالمعاهدات السياسية المبرمة مع الحكومة العثمانية كذلك تأكيد أن الامتيازات المعطاة له منحت من الدولة صاحبة السيادة ، وأن تكون أعلام القوات العسكرية ورتب الضباط هى نفس الأعلام والرتب العثمانية (٢) » .

وهكذا تأكدت سيادة السلطان على مصر مرتين فى عام واحد : أولاهما عندما قاوم إسماعيل محاولات إنجلترا وفرنسا لإبعاده عن الخديوية ثم استسلامه لأمر السلطان (٣) ، والثانية هذا الفرمان الجديد لتوفيق .

وحمد توفيق لإنجلترا وفرنسا تدخلهما فأصبح خاضعاً لهما تمام الخضوع . وكان بطبيعته ضعيفاً تعوزه قوة الإرادة (٤) ليقيم حكماً كأبيه يقف أمام ألاعيب السياسة الأوروبية (٥) .

وكان توفيق قبل توليته يؤيد حركة الإصلاح الدستورى وكان عضواً فى المحفل الماسونى الذى أنشأه الأفغانى فى عام ١٨٧٧ مع شريف باشا ومحمد عبده وغيرهم (٦) . وقد تعهد توفيق عند توليه بتحقيق آمال الأمة فى الحكم

---

(١) Cromer : Modern Egypt. V.I. p. 139.
De Freycinet : La Question d'Egypte, pp. 179-181 - Paris 1904.

(٢) M. Sabry : L'Emp. Eg. sous Ismail, p. 166.

(٣) E. Dicey : The Story of the Khadivate p. 250 (London 1902).

(٤) Cromer : Mod. Egypt V. II p. 330,
W. S. Blunt : Secret History of the English Occupation of Egypt p. 484 (London, Fisher 1907).

(٥) A. Milner : England in Egypt pp. 165, 207, 208(sixth Ed. 1899),
E. Plauchast : L'Eg. et L'Occup. Ang. p. 58.

(٦) محمد رشيد رضا : تاريخ محمد عبده جـ ١ ص ٤١ ، د . عثمان أمين : محمد عبده ص ٣٤ ، ٣٥ ،
J. Landau : Parl. and Parties in Eg. p. 82.

النيابي وكلف شريفا برياسة وزارة شورية . ورفع شريف إلى الخديو لائحة المجلس المشتملة على حقوق النواب وواجباتهم ونظم الانتخاب . ولكن وكيل فرنسا أخذ يسعى فى إقامة الموانع دون إعطاء النواب حق النظر فى تصحيح الموازين وتقرير الأمور المالية ، ودعا وكيل إنجلترا إلى مساعدته فى إقناع الخديو بضرر هذه الأوضاع . فرفض الخديو لائحة شريف(١) . وكان الخديو يعتمد فى موقفه على السلطان إلى جانب إنجلترا وفرنسا ، إذ كان السلطان يعارض فى منح مصر مثل هذا الدستور الذى لاتتمتع به أى ولاية أخرى(٢) .

وكان ضعف شخصية توفيق واستسلامه للضغط الأجنبى هما حجر الزاوية فى الأحداث المتلاحقة منذ ١٨٧٩ حتى ١٨٨٢ ؛ ذلك أن رفض الخديو للإصلاحات الدستورية ترتب عليه استقالة شريف فى ١٧ أغسطس ١٨٧٩ وتولى توفيق بنفسه رياسة الوزارة . وحاول الخديو إخفاء سبب الاستعفاء . ولكن الحقيقة سطعت رغم المساعى . وكثر القيل والقال فى ذلك . وكان وكلاء الدول أرباب النفوذ فى مصر يظنون أن محرك هذه الأفكار وباعث الأنفس على طلب الحرية ووضع أصول النظام إنما هو جمال الدين فأخافوا الخديو منه (٣) ، وكان التخلص منه بالنفى فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ وقد ألزمت الصحف جميعاً بنشر خبر نفيه . وامتثلت الصحف للأمر عدا واحدة هى « مرآة الشرق » لم تشر إلى هذا الخبر بل استمرت تذكر جمال الدين فأمر توفيق بتعطيلها خمسة أشهر لأنها اعتادت الدخول فيما لا يعنيها ونشرت مطالعات سخيفة خرجت فيها عن حدود وظائفها ، وأنذر جريدة التجارة (٤). وكان هذان هما أهم الأعمال التى اضطلع بها توفيق خلال توليه الوزارة التى

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ محمد عبده جـ ١ ص ٧٦

(٢) E. Malet : Egypt 1879-1883 pp. 135, 138, 143 (London 1909).

(٣) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ذكره ص ٣٣ ، ٤١ ، ٧٦ (نقلا عن الشيخ محمد عبده فى كلامه عن الأفغانى) .

جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق جـ ٢ ص ٦٠ ، ٦١

(٤) الوقائع المصرية ٧ سبتمبر ١٨٧٩ .

دامت شهراً واحداً وتلقى خلال ذلك الشهر تأكيداً من بريطانيا بتأييد حكومة مصر تأييداً تاماً (١) » .

عهد ارهاب الصحافة :

إن ذلك يوضح سياسة توفيق فيما بعد ، فهو يتولى الوزارة بنفسه وليس له من هدف سوى القضاء على الأفغانى محرك الأفكار الثورية فى الصحف والذى يكاتب الجرائد ويدفع بأصحابها إلى تناول المسائل السياسية ، والباعث على إصدار عدد من الصحف (سبق ذكرها) . ثم لا يكتفى توفيق بذلك بل يحاول إرهاب الصحف بإغلاق إحداها وهى التى ساعد الأفغانى على إصدارها وإنذار الأخرى التى أصدرها أديب إسحق تحت إشراف جمال الدين وكان يكتب فيها . وكان توفيق يدرك تمام الإدراك مدى خطورة جمال الدين على الرأى العام فقد كان بصفته ولياً للعهد عضواً فى المحفل الماسونى الذى أنشأه الأفغانى وضم نخبة الصحفيين والكتاب ومنهم يعقوب بن صنوع وسعد زغلول وأديب إسحق ومحمد عبده والمويلحى وسليم النقاش وإبراهيم اللقانى وعلى مظهر والزرقانى والقونى ، هذا إلى جانب شريف وبطرس غالى ، وبعض أعضاء مجلس النواب وبعض ضباط الجيش من المصريين (٢) .

رأى توفيق أن يقضى على محرك الرأى العام فى مصر ثم ترك الوزارة لرياض فى ٢١ سبتمبر بناء على مانصحه به قنصلا إنجلترا وفرنسا (٣) .

وكان هذا المسلك السبب الرئيسى فى أحداث الأعوام التالية ذلك أن رياض كان يؤمن بالحكم المطلق (٤) وأن « الاستبداد والنظام أفضل من اللين والفوضى (٥) » .

---

(١) Blue Books, Egypt No. II(1884), p. 1. from Salsbury to Malet19-9-1879.

(٢) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ذكره ص ٤٦ .

Blunt : Secret Hist. pp. 484-429.

M. Sabry : L'Empire Eg. sous Ismail pp. 348-356.

Landau : Parl. and Parties in Eg. p. 82.

(٣) M. Sabry : La Gènese de l'Esp. Eg. p. 171

(٤) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ذكره ص ١٨٣ ، ١٨٨

(٥) A. Broadley : How we defended Arabi and his friends p.434(London 1887).

وكان رياض يهاب قوى النفوذ من الأجانب(١) . وعادت مصر فى عهد وزارته إلى أسوأ عهود الرجعية ومحاولة القضاء على العواطف الوطنية بالوسائل الآتية :

أولا : أبطل مجلس النواب (٢) .

ثانياً : وأعيد نظام المراقبة الثنائية الإنجليزية والفرنسية على مالية مصر وقد أصبحت هذه بمثابة سلطة ثنائية أو حماية على مصر تتدخل فى جميع شئون الحكم مهملة الإصلاحات المالية والإدارية والسياسبة التى تحتاج إليها البلاد (٣) .

ثالثاً : نسب إلى رياض عهد إرهاب الصحافة أو « الحجر على حرية الصحافة (٤) »، ذلك أن الصحف ساءها خضوع الخديو ورياض لإنجلترا وفرنسا ، وثارت على توسيع اختصاصات الرقيبين . فأنذرت الحكومة صحيفة « مصر الفتاة » (٥) التى كانت تمثل أحد عناصر المعارضة وكانت الصحف الأوروبية تذكر أن هذه الصحيفة لسان حال حزب يقلد حزب تركيا الفتاة وأنه جعل مبادئه صورة مطابقة لمبادئ الثورة الفرنسية من الحرية والإخاء والمساواة (٦) . ولكن رأى الرقيبان أن هذا العقاب هين لا يليق بجرم الحملة التى قادتها الجريدة فصدر الأمر بتعطيلها نهائيا « لنشرها مقالات وأخباراً مهيجة للخواطر والأفكار » (٧) .

أما أديب إسحق صاحب جريدتى « مصر » و « التجارة » فقد أصر على الاستمرار فى حملته الصحفية على الأجانب والرقيبين والحكومة فأنذرته

(١) رشيد رضا : المرجع السابق جـ ١ ص ١٦٥

(٢) محمد خليل صبحى : المرجع السابق ذكره جـ ٥ ص ١٥٤

J. Minet : Arabi Pacha p. 28, (Saint quentin 1884).

(٣) M. Wallace : Egypt and the Egyptian question p. 77 (London 1883)

(٤) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة جـ ١ ص ٣٥ .

(٥) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٥٧ .

(٦) جريدة الوطن : ٢٧ سبتمبر ١٨٧٩ .

(٧) الوقائع المصرية : ١٧ نوفمبر ١٨٧٩ .

الحكومة ثم أردفت الإنذار بتعطيل الجريدتين بعد أن « سبق صدور الإنذارات مراراً عديدة إلى أصحاب امتياز الجرائد الأهلية عموماً وإلى صاحب امتياز جريدتى مصر والتجارة خصوصاً بعدم الخروج عن حدود وظائفهم وحيث أنه لم يترك مسلكه الأول وأصر على أنه لا يرجع عما هو عليه ، وحيث أن ما اعتادت على نشره الجريدتان ضرره أكثر من نفعه ، اقتضى الحال بإلغائهما مؤبداً (١) » واضطر أديب إلى الهرب من مصر (٢) ، ويؤكد البعض أنه نفى (٣) . وعطلت جريدة المحروسة أسبوعين فى عام ١٨٧٩ ، وأسبوعين بعد عام آخر (٤) .

رابعا : الوقائع المصرية جريدة رأى – محمد عبده رئيس تحريرها :

وكان رياض يدرك ما تستطيع الصحافة القيام به فرأى أن يستخدم جريدة الوقائع المصرية كجريدة رأى وأخرجها عن نطاق مهمتها وقد بدأت التجربة فى أول يونيو سنة ١٨٨٠ فنشرت مقالاً عن « التعليم وتنوعه » . ثم مقالاً فى الدفاع عن الحكومة (٥) « والعدالة والعلم المتلازمان فى عالم الوجود » (٦) . ومن الشواهدعلى هذا الاتجاه تولى محمد عبده رئاسة تحرير الوقائع فى ٩ أكتوبر من نفس العام وأوضح محمد عبده أن « رئيس النظار شمل نظره إدارة الوقائع المصرية ، وصدر أمر دولته بأن تكون يومية بعد ما نظم لها لائحة تكفل لها أن تكون ذات المركز الأول والمقام الأعلى فى بابها وأن تسابق الصحف الشهيرة فى غزارة المواد المفيدة على نمط تألفه

(١) الوقائع المصرية : ٢٢ نوفمبر ١٨٧٩ .
(٢) قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ذكره ص ١٢١ ،
عبد اللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى مائة عام ص ٥٠ .
(٣) سليم عنحورى : سحر هاروت ص ١٨٠ ،
فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ١٤ ، ج ٢ ص ١٠٧ ،
قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ذكره ص ١٢١
(٤) الوقائع المصرية : ٢٨ ديسمبر ١٨٧٩ ،
الوقائع المصرية : ١٠ أكتوبر ١٨٨٠
(٥) الوقائع المصرية : ٦ يوليو ١٨٨٠ .
(٦) الوقائع المصرية : ٣ أكتوبر ١٨٨٠ .

النفس ولا يمجه الطبع » . ثم بين مقال محمد عبده اللائحة الجديدة للصحيفة ومنها :

نشر الأخبار الرسمية وإلزام الدواوين والنظارات بمد الجريدة بها بانتظام .

« كما أن المديرين والمأمورين ملزمون بالكتابة للجريدة عن نتيجة تحقيقهم فيما توجهه الجرائد الأهلية إلى بعض الموظفين حتى يمكن الرد على هذه الجرائد ثم تكليفها رسمياً بنشر التكذيب فيما قالت » . ومن بين أقسام الجريدة قسم للعلوم والآداب بأنواعها بعنوان «فنون متنوعة» .

وقد أراد رياض « أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة فى ذاتها تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ، ويكونون على بصيرة بما تريده الحكومة بهم ومنهم ومن غير إكراه من الحكومة لهم على ذلك ، وكان قد أحس بتوجيه الأفكار إلى طلب شىء من طلاوة العبارة . فطلب رياض وسيلة لتغيير طريقة التحرير على وجه يستميل الناس بالاطلاع عليها » (١) .

كذلك أخذت الوقائع تبحث أموراً تتصل بشتى نواحى الحياة وناقشت كل موضوع سواء كان أدبياً أو اجتماعياً (٢) ، وقد انصرفت معظم المقالات إلى النواحى الاجتماعية ، وقلما كان يخلو عدد منها من فصل فى انتقاد عمل عام أو الدعوة إلى فضيلة من الفضائل التى يبنى عليها المجتمع أو طلب إصلاح عادة رديئة ، وكانت « تخاطب الشعب بلسان الحكومة وتخاطب الحكومة بلسان الشعب » . لهذا كان لما تكتبه من الأثر فى النفس ما لم يكن فى غيرها من الجرائد (٣) .

وإن تطور تحرير الوقائع هو أقوى دليل على ذلك الاتجاه إذ يتبين من تحليل أعداد الصحيفة فى السنة التى سبقت تولى محمد عبده رئاستها (أكتوبر

(١) الوقائع المصرية : افتتاحية عدد ٩ أكتوبر ١٨٨٠ .
(٢) إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ص ٨٧ .
(٣) رشيد رضا : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ١٣٨ ،
قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ذكره ص ١٢٢ ،
عثمان أمين : محمد عبده ص ٤٧

١٨٧٩ إلى أكتوبر ١٨٨٠) أنها قد أصدرت ١٠٣ أعداد لم تظهر فيها مقالات اجتماعية أو سياسية سوى فى ٩ أعداد فحسب ، بينما صدرت من الصحيفة فى السنة الأولى من رياسة محمد عبده لها ٣٠٨ أعداد (أكتوبر ١٨٨٠ حتى أكتوبر ١٨٨١) لم يخل عدد واحد منها من مقال أو أكثر يتناول النواحى الاجتماعية والأدبية والسياسية .

وبذلت الحكومة جهداً شاقاً فى نجاح صحيفتها إذ كانت الوقائع تنافس الصحف الوطنية الأخرى التى تتحدث عن مثل وآراء جديدة محببة إلى الجماهير ، وليس فى وسع الجريدة أن تجاريها فى هذه الآراء الحرة المتطرفة . ومع هذه المنافسة الشديدة استطاعت الجريدة الحكومية أن تفوز بشىء كثير من رضا الناس وعطفهم ، ومصدر هذا كله الإعداد الذى أعدته لها الحكومة فقد هيأت المحررين والموظفين من ذوى الكفايات ، فإلى جانب محمد عبده كان جودت مدير قلم الوقائع وعبد الكريم سلمان وسعد زغلول وإبراهيم الهلباوى . (١) وكان القسم الأدبى فى الجريدة « يفيض بآراء محمد عبده وأعوانه فحاول خلق رأى عام متحد ليشجع الأفكار المعتدلة التى يرجو تحقيقها » (٢) .

وقد تأثرت الوقائع فى هذه الفترة بسياسة الحكومة إلى حد بعيد فهى فى عهد رياض كانت ترى الصحافة الوطنية والكتب الحماسية من الأمور التكميلية التى يجوز للحكومة أن تبيحها أو تمنعها (٣) .

واشتركت الجريدة مع شركة روتر وشركة هافاس للأنباء الخارجية لموافاتها ببرقياتها التجارية والسياسية منذ منتصف أكتوبر ١٨٨٠ ، هذا إلى جانب الأخبار الأخرى التى تتصل بموضوعات لها خطرها فى الغرب وتشغل الرأى العام الأوربى (٤) :

---

(١) إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع ص ٩١ .

(٢) Adams Ch. : New World of Islam p. 53.

(٣) إبراهيم عبده : المرجع السابق ذكره ص ٩٩ .

(٤) الوقائع المصرية : ١٢ ، ١٤ أكتوبر ١٨٨٠ ، ابراهيم عبده : المرجع السابق ص ٩٦

ثم ربطت الحكومة بين الوقائع وإدارة المطبوعات فكان محمد عبده محرراً للوقائع ورئيسا لقلم المطبوعات والمطابع المختصة بنشر الصحف العربية والتركية . لذلك فإدارة الجريدة أصبحت فى مركز يسمح لها بالتدخل فى كل شىء يمس الحكومة ونظاراتها . (١) هذا إلى أن ذلك منحه السلطة إلى لفت نظر الجرائد إلى تحريرها وتحسين أسلوبها وإلا أنذرت(٢) . وقد ساعد ذلك على أن تقوم الوقائع بفرض اتجاهاتها على الصحف الأخرى . « وكان من نتائج ذلك أن صارت الجرائد تلبى الدعوة فأصبحت تتسابق إلى إظهار مزاياها فى التحرير حتى تعجب إدارة المطبوعات أو العامل فيها . وتسابق الأدباء إلى التحرير كما تسابق المواطنون إلى القراءة وتعارف الكاتب بالقارئ على البعد وخلق فى الفئة المتعلمة رأياً عاماً وتيارات فكرية لم تكن معهودة من قبل » (٣) . وقد نتج عن قلة الصحف فى مصر إذ ذاك أن ازداد شأن الوقائع فى تكييف الرأى العام . (٤)

ومع ذلك فإن بعض المعاصرين كان يرى فى الوضع الجديد للوقائع المصرية نفعاً وطنياً كبيراً ، فمحمد رشيد رضا ، تلميذ الشيخ محمد عبده ، يقول : « وإن العجيب حقاً أن ترى صاحب عمامة أزهرية يدخل فى حكومة مطلقة بعيدة فى أعمالها عن رجال العلم والدين ، فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها . ثم يشرف من نافذة أخرى على الأمة فيقوم من أخلاقها ويصلح ما فسد من عاداتها . ويطل من نافذة ثالثة على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ويدربها على الصدق فى القول » . (٥)

وهكذا أصبح قراؤها كثيرين حتى اضطرت إلى تعيين ثلاثة متعهدين

---

(١) إبراهيم عبده : المصدر السابق ص ٩٠ .

(٢) الوقائع المصرية : ١٤ فبراير ١٨٨١ .

(٣) رشيد رضا : المصدر السابق ذكره ج ١ ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٤) Adams Ch : op. cit. pp. 47, 48.

(٥) رشيد رضا : المرجع السابق ذكره ج ١ مقدمة ى ، ص ١٣٨ ، ١٣٩

فى القاهرة وواحد فى الأسكندرية وآخر فى السودان وكانت ترسل لسكان الأقاليم بالاشتراك . (١) وبذلك نجح رياض فى اختيار الوسيلة لمقاومة تيار الرأى العام ومحاولة إبعاده عن هدفه السياسى ذلك لأن « دعوة محمد عبده لها ثلاث شعب : دينية وأدبية وسياسية . ولم يكن له ميل كبير إلى الهدف السياسى ومن ثم لم ينشط نشاطاً سياسياً حاراً إلا حين كان يتصل بأستاذه جمال الدين . وذلك يفسر لنا الخصومة العنيفة التى كانت بين الشيخ وعرابى أولاً ثم بينه وبين مصطفى كامل ثانياً ثم بينه وبين عباس حلمى » . (٢)

وكان العهد الذى قلد زمامه محمد عبده عهداً لا يجوز أن تكون عليه جريدة رسمية فإنها أصبحت أبعد ما تكون عن لونها الأصلى وطبيعتها . إذنقلها إلى صحيفة رأى وفكرة غلب الأدب والاجتماع فيها الصفة الرسمية(٣) .

خامسا : منع تهريب الصحف من الخارج الى مصر :

لم يكتف رياض بكل ما سبق من إجراءات للحجر على حرية الرأى العام ممثلاً فى مجلس النواب والصحافة ، فأصدر أوامره بضرورة منع وصول الصحف المصرية الصادرة فى الخارج وعدم توزيعها فى مصر ، وكان يعقوب ابن صنوع منذ نفيه عام ١٨٧٨ يحتال على تهريب صحيفته إلى مصر رغم أنف البريد وقد نجح فى توصيل آلاف النسخ منها ويقول « كنت غالباً ما أضع صحفى فى مجلات مصورة وكراسات موسيقى ووضعت فى الجرائد التى نشرت صورة الخديو عام ١٨٧٩ أكثر من ألف نسخة من صحيفتى . ولم أكتف بإرسالها للمشتركين العديدين ولكننى بعثت بها أيضاً إلى جميع أصدقائى ومعارفى وقد تلقى الخديو نفسه واحدة من تلك الصحف المصورة فوجد صحيفتى فيها ، وكان غضبه لهذه الجرأة شديداً وخاصة لما وجد أننى نشرت الخطاب الذى أرسله إلى يطلب منى فيه العودة إلى مصر ويعدنى

(١) إبراهيم عبده : المرجع السابق ذكره ص ١٠٠

(٢) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية جـ ٢ (عن محمد عبده) ص ٦٧ ، عبد اللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى مائة عام ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) راجع مقال « خطأ العقلاء » فى الوقائع المصرية للشيخ محمد عبده فى ١٤ إبريل ١٨٨١ عن كيفية تغيير المجتمع والتأثير فيه سلمياً .

بإحدى الرتب ورفضت العرض قائلاً : إننى أفضل أن أعيش فى المنفى على أن أكون فى خدمة طاغية . وكانت النسخ التى تضبط فى الجمرك يقرؤها الموظفون أولاً ثم يعطونها لأصدقائهم ثم يبيعها هؤلاء إلى الباعة الذين يوزعونها سراً بثمن مرتفع جداً » (١) . وكانت الصحف التى أصدرها ابن صنوع فى باريس امتداداً لصحيفته « أبو نظارة زرقاء » التى ألغيت بأمر إسماعيل فأصدرها مرة أخرى ثم أبو صفارة وأبو زمارة وزميلاتها . (٢)

ثم ذهب أديب إسحق إلى باريس تحت ضغط رياض بعد إلغاء صحيفتيه « مصر » و« التجارة » ، واتصل به نفر من زعماء مصر (٣) فأصدر جريدة « القاهرة » ثم أطلق عليها « مصر القاهرة » حملت على رياض وكانت تسميه رياضستون وصدرها بأنها «صحيفة مصر ، طواها الاستبداد ، ثم أحيتها الحرية ، وقد حاول رياض إطفاء نورى ، وإماتتى بدعوى الحرص على الخواطر أن أثيرها للفتنة ، بل خاف أن أكشف الحجاب عن حقيقة أحواله (٤)» . ويرجع إلى أديب إسحق الفضل فى نقل الآراء والأفكار التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية وتقديم خلاصة منها للقارئ العربى (٥) . وقد استطاع خصوم رياض توزيعها رغم سلطان رئيس الحكومة وعيونه من رجال الإدارة . (٦) وصدر أمر رياض بحظر دخول هذه الجرائد وكذلك جريدة النحلة والشرق . (٧)

وهكذا أحكم رياض الخناق على الرأى العام وبدا كأنه قد نجح فى

(١) إبراهيم عبده : أبو نظارة ص ٧٧ – ٧٩ نقلا عن تاريخ أبو نظارة الذى كتبه بنفسه وتحتفظ ابنته بالمخطوط فى باريس .

(٢) إبراهيم عبده : أبو نظارة ص ١٦٢ وما بعدها .

(٣) هم أعضاء جمعية حلوان أو الحزب الوطنى الأول وسيأتى الكلام عنه فيما بعد .

(٤) عونى إسحق : الدرر ص ١٤٣ – ١٤٤ ،

عبد اللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى مائة عام ص ٥١

(٥) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية جـ ١ ص ٥٩ .

(٦) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١٠٨ ،

فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٢ ص ١٠٧

(٧) الوقائع المصرية : ٢٨ ديسمبر ١٨٧٩ .

سياسته . ولكن إغلاق الصحف وتكميم أفواه ما بقى لم يكن وسيلة للقضاء على الشعور وذلك أن بعض الناقمين كشريف باشا وراتب باشا وعمر لطفى ومحمد سلطان وسامى البارودى وبعض الكبراء والعلماء والأعيان كانوا قد اجتمعوا فى أواخر عهد إسماعيل وكونوا مايسمى بجمعية حلوان أو ما أطلق عليه الحزب الوطنى فيما بعد (وهو الحزب الذى اتفق مع أديب إسحق على إصدار جريدته فى باريس وتعهد الأعضاء بالإنفاق عليها وتوزيعها) . ثم نشر الحزب منشوراً يعد نشرة صحفية طبع منها حوالى ٢٠ ألف نسخة لم تستطع الحكومة العثور على ناشرها وكاتبها . (١)

الصحافة وحركات تذمر الضباط :

وفى الوقت نفسه كانت حركة التذمر تزداد بين الضباط المصريين فى الجيش بعد أن أحيل عدد كبير منهم إلى المعاش وازدياد الكراهية المتبادلة بينهم وبين الضباط الأتراك الذين استأثروا بالرتب العليا . ثم تخوف توفيق نفسه من الجيش لهذا عمل على إنقاصه . (٢) وحدثت مظاهرة قصر النيل وظهر عرابى الذى نصب نفسه مدافعاً عن مطالب الجيش وتم له بسرعة ضم معظم القوة العسكرية تحت يده . (٣) واضطر الخديو إلى الاستجابة لهذه المطالب .

وكانت الصحف الباقية لا تزال تجاهد ضد قوة رياض والخديو والتغلغل الأجنبي مبينة أن « الواسطة الكبرى فى منع أية دولة من الاستيلاء على مصر إنما هى قوة مصر . ومدار هذه القوة على الرعية لا الراعى فقط فمهما كان الحاكم شهماً هماماً متيقظاً . ومهما كان عالماً فلا ينفع هذا ما دام الجهل

---

(١) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ٢٣٧ ،

J. Ninet : Orabi Pacha p. 37.

(٢) E. Newman : Great Britain in Egypt pp. 51-53 (Cassell 1928)

Landau : Parl. & Parties in Eg. p. 85.

(٣) أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١١٣ — ١١٥ (مطبعة مصر ١٩٣٤)، أحمد عرابى : مذكرات كشف الستار (مخطوط) ص ١٠٠ — ١٠٨ ،

سليم خليل النقاش : مصر للمصريين جـ ٤ ص ٨٧ (مطبعة المحروسة ١٨٨٤)

والحمول مستولين على الرعية فقوة الحاكم بقوة رعيته . وإن من أعظم الوسائط لحفظ استقلالنا مراعاة الحاكم لجانبنا قبل غيرنا » (١) . وما لبثت هذه الصحيفة أن عوقبت بالتعطيل شهرين بعد هذا المقال « حيث تكرر إخطار صاحب جريدة الوطن بعدم دخوله فيما لا يعنيه » . (٢)

وكان لما تنشره الصحف أثر ضخم على عامة الشعب فسرت بين الأهالى موجة من السخط وبدا الوفاق بين الحزب الوطنى وزعماء الجيش الثائرين (٣) ، وأخذت جماهير المصريين تتفهم معنى الوطنية الحقة التى أخذت تتغلغل فى نفوسهم . (٤)

وبذلك تقاربت القوتان وكانت الصحافة هى سبيل الوصل بينهما : (٥) إذ لما تمكن عرابى من الحصول على طاعة جميع الجند والضباط عمد إلى استمالة أهل البلاد وعمدها ومشايخها والعلماء والوجهاء (٦) ، وقد استخدم فى ذلك الصحفى عبد الله نديم يجوب البلاد ويدعو الناس إلى نصرة زعماء الحركة (٧) على صفحات صحيفته « التنكيت والتبكيت » واستطاع أن يفهم المصريين كثيراً من مبادئ الثورة الفرنسية . (٨) ذلك لأن عرابى وأعوانه كانوا قد شربوا الأفكار الثورية التى بثها الأفغانى . (٩)

وهكذا بينما كان الجيش يغلى بثورته كانت الصحافة العربية تنير الرأى

---

(١) جريدة الوطن ١١ يونية ١٨٨١ .

(٢) الوقائع المصرية ١٣ يونية ١٨٨١ .

(٣) Cromer : Mod. Eg. V.I. pp. 212, 213.

(٤) M. Travers : The Riddle of Egypt p. 7 (London 1913).

(٥) J. Landau : Op. Cit. p. 86, Cromer op. cit. V.I. pp. 212.

(٦) أحمد شفيق باشا : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ١١٩ ،
Cromer : Op. Cit. VII. p. 187, J. E. Bowen : The Conflict of East and West in Egypt p. 81 (N.Y. 1887).

(٧) أحمد تيمور: تراجم أعيان القرن ١٣ وأوائل القرن ١٤ هـ ص ١٧ (القاهرة ١٩٤٠)
ميخائيل شاروبيم : الكافى تاريخ مصر جـ ٤ ص ٢٣٦ – ٢٣٩ (بولاق ١٩٠٠)

(٨) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة جـ ١ ص ٥٩ ، جـ ٢ ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٦٣

(٩) قسطاكى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف ص ١١٩

العام المصرى وتتحدث عن مصر الضحية بين فرنسا وإنجلترا (١) . وترد على تخرصات الصحف الأجنبية « فإن قول جريدة التيمس إن المصريين منغمسون فى الجهل إنما هو تعصب ذميم . والدليل على تقدمهم أنها ذكرت وجود عشر جرائد عربية واستكثرتها على خمسة ملايين نفس . ولو كانت الأهالى كما قالت لما كثرت الجرائد إذ وجودها وكثرتها يدلان على تقدم الأهالى » . (٢) وقد « تشوف الأهالى إلى معرفة ما سيكون . وتزايد تساؤلهم عما فى صحف الأخبار وأكثروا من شرائها واضطر من لا يعرف القراءة إلى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم فى الشوارع جماعات وبينهم الرجل أو الصبى يقرأ عليهم . أو يقف صبى فى حانوت وبيده صحيفة وأمام الحانوت خلق محدقون بالصبى وهو يقرأ » (٣) . وهكذا استطاعت الصحافة أن تنقل حركة التذمر من صفوف الجيش إلى الشعب وأخذت الطوائف المختلفة تميل إلى جانب حركة الجيش . (٤) ونظراً لأن « الحزب اصطبغ بصبغة سياسية وليست دينية فقد ضم أناساً من مختلف العقائد . حقاً إن غالبيتهم كانت مسلمة ولكنه ضم الأقباط واليهود وكل من يفلح الأرض وعرف لغة مصر » . (٥)

وثار الضباط فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ مطالبين « بتنزيل رياض وجعل الحكومة دستورية » (٦) وطوحت الحوادث برياض وعاد شريف رئيساً للوزارة (٧) .

ولم يقف توفيق موقف المتفرج من الأحداث بل أوعز بإصدار بعض الصحف لتدافع عنه ولتحاول القضاء على الحركة الوطنية النامية . ولم يجد أمامه من وسيلة سوى إصدار صحف تحاول ضم الصفوف بإثارة العاطفة

(١) Cromer : Modern Eg. V.I p. 211.

(٢) جريدة الوطن فى ١٩ نوفمبر ١٨٨١

(٣) ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر ج ٤ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩

(٤) Cromer : Op. cit. V.I pp. 211, 212.

(٥) Blunt : Secret History Appendix V. pp. 558, 559.

(٦) جريدة العصر الجديد ١٣ سبتمبر ١٨٨١

(٧) الوقائع المصرية : ١٩ سبتمبر ١٨٨١

الدينية ، فأصدر معوض محمد فريد صحيفة البرهان فى ٥ مايو ١٨٨١ (١) ويحررها الشيخ حمزة فتح الله . وقد أعلنت البرهان أنها صحيفة السراى وأنها تفخر بذلك (٢) . وكانت مقالات حمزة تتسم بطابع الحماس المتدفق بالعواطف لمقاومة أطماع أوروبا واعتمد فى منطقه على أن الوطنية امتزاج عاطفتين ، عاطفة الولاء للوطن العربى الكبير الذى كان تحت نفوذ تركيا ، وعاطفة الولاء للدين الإسلامى الذى ينظم أصحاب هذا الوطن فى عقد واحد . أى أن الدين والإقليمية والعروبة والعثمانية كلها تنتظم فى شعور واحد هو الوطنية . (٣)

ثم أصدر حمزة فتح الله صحيفة أخرى هى الاعتدال ، اقتبست اسمها من سياستها التى أعلنت عنها . (٤) وظهرت لحث أنصار الحركة العرابية على الهدوء وإطاعة رؤساء البلاد ، وحاولت الصحيفة إلى جانب «البرهان» أن تثبت أن الانحراف عن القوانين الدينية سيؤدى إلى نتائج خطيرة . (٥)

وتوضح مراسلات توفيق مع السلطان موقفه من «موضوع الغيرة الإسلامية ... فإنى لأقول إننى أول من يتحاشى إيقاع التفرقة بين المسلمين ، وأول من يفى بدوام ارتباط مصر بالخلافة العظمى . ومن أجل ذلك فإنى لم أدخر وسعاً فى سبيل إنقاذ مصر من مصيبة القومية التى منيت بها منذ سنتين . وهذا ما حملنى على إزعاج مولانا ولى النعم طيلة هذه المدة ، بل لازلت حتى يومنا هذا أفعل ذلك وأقرر مرة أخرى أن إزالة الفكرة القومية من مصر فرض على . ذلك أن انتشار هذه الفكرة واتساعها بين الناس سيفضى إلى انفصال مصر عن الخلافة العظمى » (٦) .

---

(١) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٦٢

(٢) جريدة البرهان : ٢٦ مايو ١٨٨١ ، أول ديسمبر ١٨٨١

(٣) جريدة البرهان : من مايو إلى أكتوبر ١٨٨١ (مقالات حمزة فتح الله) .

(٤) Hartmann : Arabic Press of Egypt pp. 26, 27.

(٥) عبد الله الأنصارى : جامع التصانيف المصرية الحديثة ١٣٠١ - ١٣١٠ هـ ص٦٧ (المطبعة الأميرية ١٣١٢ هـ)

فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٦٢

(٦) دار المحفوظات التاريخية : ملف ثابت باشا محفظة ١٦٣ - من الخديو إلى ثابت فى ٢١ شعبان ١٢٩٩ (١٨ يوليو ١٨٨٢)

وكان عرابى قد أخذ يسيطر على الموقف وتمثلت فيه رغبات وآمال الحزب الوطنى ، وأخذ العلماء فى المساجد يطلقون عليه حامى الإسلام . وفى نفس الوقت كان فى نظر عامة الشعب رجل الثورة الذى ألقى على عاتقه طرد الأجانب وتخليص البلاد منهم (١) . وأخذ عرابى يروج للحركة الوطنية عن طريق الصحافة وكان النديم ساعده الأيمن إذ كانت خطبه التى يلقيها ثم ينشرها فى «التنكيت والتبكيت» سلاحاً يقوى الروح المعنوية فى الشعب والجند (٢) . وقد اشتهر النديم بحدته « وتهوره» خصوصاً بالنظر لما نشره مراراً فى جريدته فى حق الذات السنية وكان كاتب أحمد عرابى ودائماً ملازمه . (٣) » بل لقد أصبح النديم أحد زعماء الحركة . (٤) ثم أصدر حسن الشمسى صحيفة «المفيد» التى لم يخل عدد منها من الحديث عن الاستقلال والحرية . (٥)

قانون المطبوعات عام ١٨٨١ :

وأخذ توفيق يتدبر فى اتخاذ إجراء مشدد ضد الصحافة فى هذه الفترة التى كثرت فيها الحوادث (٦) وكان الباب العالى قد بعث مندوبين لتقصى الأحوال بمصر فأرسلا تقريرهما « بعد المحادثات طبق منطوق التعليمات السنية فتحادثنا مع الخديو قائلين إن من أهم المسائل التى تمس وتضر بمصالح مصر والدولة العلية خلق مسألة مضرة كبعث الفكرة القومية بين الشعب . وأن هذه الفكرة ليست موجودة بين أفراد الشعب . وكل ما هنالك من الأنباء والأخبار عبارة عن دعايات مغرضة تنشرها بعض صحف الأخبار والحوادث ، ويروج لها أنصار حليم باشا فى الصحيفة المعهودة التى تصدر

---

(١) plauchut : Op. cit.p.79.

(٢) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة جـ ٢ ص ١٢٣

(٣) سليم النقاش : مصر للمصريين جـ ٧ ص ١٣٨ محضر استجواب حسن باشا الدرملى وكيل الداخلية

(٤) J. Landau : Op. cit. p. 86.

(٥) صحيفة المفيد ٥ أكتوبر ، ١٤ نوفمبر ١٨٨١ ، ٢٣ يناير ١٨٨٢ .

(٦) رياض شمس : حرية الرأى وجرائم النشر جـ ٢ ص ٥٤٨

فى باريس فتدخل مصر خلسة وتوزع مجاناً على أفراد وضباط الجيش ، وإن ضرر مثل هذه الجرائد التى تتمتع بقسط كبير من الحرية بالحكومة المصرية لا يخفى على أحد ، وكان الجواب عليها إذن عدم إطلاق الحرية لهاته الجرائد والصحف من الدخول إلى مصر ، بل واتخاذ إجراءات فعالة ضدها . وأمن سمو الخديو على هذا وقال إن حكومته شارعة فى اتخاذ التدابير اللازمة نحو هذا الأمر »(١) .

يتبين من ذلك أن توفيق والحكومة شرعا فعلاً فى سن تشريع ضد الصحافة فى أواخر عهد رياض وأوائل عهد شريف . وقد مهدت الوزارة لذلك بإصدار إخطار شديد اللهجة لأن « الجرنالات العربية تعودت من مدة على الخوض فى كلام يتعلق بالأجانب مع غاية الحدة وإظهار التأثر منهم والتغيظ بلا سبب ولا موجب ، ولا يراعون فى كلامهم حالة البلاد المصرية وعلاقاتها السياسية . لذا لزم إنذار الجرائد العربية عموماً بأن لاتخرج عن حد

(١) دار الوثائق التاريخية : ترجمة الدفتر ٢٨٨ (البرقيات المتبادلة بين القاهرة — والآستانة) برقية من نظامى باشا وعلى فؤاد بك (مندوبى الباب العالى فوق العادة لمصر) إلى حمدى باشا كبير أمناء الحضرة السلطانية فى ٧/١٠/١٨٨١ .

أما حليم الذى ورد ذكره فهو ابن محمد على وقيل إن السلطان كان يريد تعيينه بدلا من توفيق بعد عزل إسماعيل ليقضى على الامتيازات التى أعطيت بمقتضى فرمانات ١٨٦٦ ، ٦٧ ، ٧٣ . وقد نال حليم تأييد فرنسا حتى تقاوم نفوذ إنجلترا فى مصر . واتصل بالعرابيين عن طريق حسن موسى العقاد (أحد رجال الحركة العرابية) ولكن عرابى كان لا يميل إليه . ويمثل يعقوب بن صنوع أحد حلقات الاتصال بين حليم وزعماء الحزب الوطنى والعرابيين (والصحيفة التى ورد ذكرها هى صحيفة « أبو نظارة » التى كانت تهرب إلى مصر وتدعو لحليم ضد توفيق) كذلك كان يؤيد حليم الباشوات الأتراك بمصر لرغبتهم فى استعادة مجدهم القديم .

Blunt : Secret Hist. pp. 216, 341, Cromer : Op. cit. V.I p. 139,

Malet : Eg. 1879-1883 pp. 282, 284, 291, De Fregeinet : La quest. d'Eg. p. 258.,

J. Landau : Op. cit. pp. 95, 96,

سليم نقاش : مصر للمصريين ج ٧ (محاكمات العرابيين) ص ١٠ ، ٣١ ، ١١٦ ، ١٣٤ — ١٣٧ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٣٠٨ .

محاضر استجوابات أحمد عرابى ، محمود فهمى ، حسن موسى العقاد ، عثمان فوزى وعلى راغب .

الاعتدال »(1) . وكذلك عطلت « المفيد » أسبوعين وأنذرت جريدة الوطن(2) .

وقد مهدت الصحف الرجعية للقانون بالمطالبة بسن تشريع للمطبوعات فطالبت « البرهان »(3) بأن يكون قانوناً قاسياً . وطلبت « المحروسة » أن يكون فيه من التضييق ما يلزم بالتزمت(4) .

كذلك عمدت الحكومة إلى ضم المطبوعات الأفرنجية إلى العربية فى إدارة واحدة ،(5) ثم صدر القانون فى ٢٦ من نوفمبر ١٨٨١ وهو أول تشريع للصحافة فى مصر يرتب شئونها ويحدد واجباتها ويعلن حقوقها(6) . وكانت البلاد تموج بالأحداث السياسية الخطيرة فى هذه الفترة ، « وإذا كانت غالبية الشعب على درجة كبيرة من الجهل فإنها أضحت فى حاجة إلى زيادة هائلة فى عدد الصحف التى تقوم بمهمة التعليم ولكن قانون ١٨٨١ عمل على مضاعفة العقبات أمام تدفق الصحافة . وعلى وجه الخصوص بزيادة الأعباء المالية التى تعترض سبيل رقيها ، وكان لذلك نتيجة عكسية فى تعليم الشعب . واضطرت الصحافة إلى الانزواء تحت سيل هذه الضربات التى وجهت إليها فبعدت عن مهمتها السامية التى كانت تقوم بها ، وقد أصبح فى يد السلطات الحاكمة سلاح قوى تستطيع به القضاء على كل صحيفة تحمل أقل معنى للاستقلال »(7) .

---

(١) سليم نقاش : مصر للمصريين ج ٤ ص ٢٠٧

(٢) الوطن : ٢٩ أكتوبر ١٨٨١ ،
المحروسة : ٧ نوفمبر ١٨٨١

(٣) البرهان : ١٠ نوفمبر ١٨٨١

(٤) المحروسة : ٧ نوفمبر ١٨٨١

(٥) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١١٧

(٦) صدر القانون فى ٢٣ مادة أهمها إيداع تأمين ١٠٠ جنيه لكل صحيفة ، وتستطيع الحكومة الامتناع عن الترخيص أو نزع الترخيص فى أى وقت (مادة ١) كذلك حرمت ورود الصحف من الخارج (لمقاومة سيل الصحف المصرية الواردة من باريس) مادة (١٧) ، وكانت الحكومة هى الخصم والحكم (مادة ٢٠) — انظر ملحق رقم ١ .

(٧) Ramadan A.M. : Evolution de la Legislation sur la presse en Egypte p. 63.

وسرعان ما حاولت الحكومة تجربة سلاحها إذ صدر إخطار رسمى إلى جريدة الأهرام فى أول ديسمبر « إذ رأينا فى عدد ١٢٦٠ (٢٧–١١) من جريدتكم عند الكلام على قانون المطبوعات جملة ذهبت فيها إلى أن سير المحاكم المختلطة يقضى بعدم اعترافها بهذا القانون . ثم ذكرتم أنكم مرتقبون لما تبديه الجرائد من آرائها فيه مع أنه لا يخفى على أحد خصوصاً محررى الصحف أن المطابع والمطبوعات ليست إلا من الأمور التكميلية التى يجوز للحكومة أن تبيح وجودها فى البلاد ويجوز لها أن لا تبيحه . ولها إذا أباحتها أن تجعلها تحت نظام تضعه على حدود ملائمة لمصلحتها وهذا من شئون الحكومة المحلية خاصة ، ثم الناس بالخيار بين أن يتعاطوا عمل الطبع تحت ذلك القانون والنظام ولهم أن لا يتعاطوه إذا رأوا من أنفسهم عدم القدرة على التزامه لا فرق فى هذا بين الأهلين والأجنبيين كما هو الحال فيما مضى ولايزال فيما يأتى وإن الإجراء فى هذا الأمر ليس إلا من الأمور الإدارية الصرفة وليس لغير الإدارة شأن فيه . ولهذا أخطرناكم بذلك هذه المرة لتكونوا على حذر من الوقوع فى مثلها »(١) .

ومن العجب أن يرتبط صدور هذا القانون القاسى بعهد شريف ، ولكن تحليل سير الحوادث يدلنا على أن شريف باشا كان يخشى ازدياد قوة الجيش وقد وافق على اشتراك البارودى معه ليضمن طاعة الجيش(٢) . وقد تقرر إبعاد الآلاى الذى يرأسه عرابى عن مسرح الحوادث بالقاهرة فأرسل إلى مديرية الشرقية ، وهناك أخذ يبث أفكاره ويساعده النديم فى جريدة « التنكيت والتبكيت » وحسن الشمسى فى جريدة «المفيد» وأديب إسحق فى جريدة « مصر » بعد أن سمح له بالعودة وجريدة « الحجاز » لصاحبها سراج إبراهيم المدنى . وقد لعبت هذه الصحف الدور الأول فى سير الأحداث التى كانت تجرى ، وكانت الصحف بمثابة منشورات يقرؤها الناس فى الجوامع والمقاهى(٣) وبينما عرابى فى الشرقية جاء الوفد

(١) الوقائع المصرية : أول ديسمبر ١٨٨١

(٢) Malet Op. cit. pp. 160, 161.

(٣) N. Scotidis : L'Egypte Contemporaine et Arabie Pacha. pp. 69, 70 (Pairs 1885)

السلطانى إلى مصر ، والتقى عرابى مع كامل باشا أحد كبار الوفد و«تشوف الناس يومئذ إلى معرفة ما سيكون بعد وصول رجال الوفد إلى دار السلطنة ، وتزايد التساؤل عما فى صحف الأخبار ، وكثر شراء الجرائد »(١) .

وهكذا لم ير شريف بداً لضمان السيطرة على الموقف من أن يحاول إبعاد الجيش عن مسرح الحوادث حتى لايصبح هو نفسه آلة فى يد الجيش . وفى نفس الوقت بدأ يعمل على تقوية مجلس النواب فتتحول الزعامة الوطنية من الجيش إلى المجلس فهو « الوسيلة الوحيدة لما نقصده من الاصلاح »(٢) . ورأى شريف أهمية الدور الذى تقوم به الصحافة فى الصلة التى أخذت توطد بين زعماء الجيش وعلى رأسهم عرابى وبين عامة الشعب « الذين وجدوا فيه مخلصهم من الأعباء . وتشوق الناس أن يكون فى الحكومة من يدافع عن مصلحة الأمة . ولقد وثق الناس فى اقتدار عرابى على تنفيذ ذلك »(٣) . فأصدر شريف قانون المطبوعات « لأجل كم ألسنة الجرائد الحرة »(٤) ، ولقطع الصلة بين الشعب والجيش إذ كانت الصحف هى حلقة الوصل بينهما وهى التى أظهرت مطالب الجيش أمام الشعب المصرى ، وكانت المعبر عن آمال الأهالى لدى ضباط الجيش .

ولكن تطور الحوادث لم يسمح لشريف بتنفيذ خطته ، إذ لم يستطع التوفيق بين رأى مجلس النواب فى ضرورة مناقشة الميزانية وبين رأى المراقبة الثنائية وكان يرى حرمان المجلس من هذه المناقشة(٥) .

ثم أرسلت إنجلترا وفرنسا مذكرتهما المشتركة فى ٧ يناير ١٨٨٢ تؤيدان فيها الخديو لمقاومة الاضطرابات الداخلية والخارجية(٦) .

وكانت نتيجة ذلك كله أن انحاز مجلس النواب إلى الجيش : فالمجلس

---

(١) ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر ج ٤ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩
(٢) الوقائع المصرية ١٩ سبتمبر ١٨٨١
(٣) هنس رزنر : المرجع السابق الذكر ص ١٢٦ ، ١٢٧ ،
Wallace M. : Eg. & the Eg. quest. pp. 86, 87.
(٤) أحمد عرابى : مذكرات مخطوطة ص ٤٠٦
(٥) محمد خليل صبحى : المرجع السابق الذكر ج ٥ ص ١٦٣ — ١٦٩ .
(٦) J. Marlowe: Anglo-Egyptian Relation 1800-1953 p, 118 Lon. (1954)

يؤيد زيادة عدد الجيش وهذا يؤيد المجلس فى نظر الميزانية . وفقد شريف سيطرته على المجلس وتحطمت الأسس التى قامت عليها وزارة شريف وكانت هى المعبر الوحيد بين المراقبة الثنائية والحركة الوطنية . واستقال شريف فى ٢ فبراير(١) .

وزارة البارودى ـ سياستها ازاء الصحافة :

وفى ٤ فبراير ١٨٨٢ تولى الحزب العسكرى الحكم وأصبح البارودى رئيساً للوزارة وعرابى وزيراً للحربية . وكانت الصحف العربية فى مصر قد أيدت الضباط منذ حركات التذمر التى قاموا بها ، ثم تحولت الصحافة إلى قوة دافعة هائلة للثورة العرابية(٢) . وكان العرابيون يعرفون أن الاتجاهات السياسية فى فترة الثورة العرابية قد تركزت حول الصحف السياسية التى لم تعد مجرد أبواق تتحدث ، بل أصبحت هى العقول المفكرة لهذه الاتجاهات (الأحزاب)(٣) .

وتوقعت الصحف أن تعمد « الحكومة إلى إلغاء قانون المطبوعات وتشكيل لجنة تنظر فى قانون جديد(٤) » ، بعد أن وصفه عرابى نفسه بأنه قد قصد به القضاء على الحرية(٥) . ولكن الذى حدث هو عكس ذلك كما يتضح من تطور صحف ذلك العهد . ويبدو أن حكومة الثورة وجدت نفسها مسلحة بسلاح لم تعمد هى إلى ابتداعه بل وجدته طوع أمرها ورأت أن تستخدمه لصالحها ، لذلك كثرت الأوامر والإنذارات وقرارات التعطيل لضرورة تحرى الدقة والتزام الكتابة فيما لا يخدش الذهن(٦) . والابتعاد عن تناول

---

(١) رشيد رضا : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ٢٤٠ ،

J. Marlowe : Op. cit. p. 119.

(٢) J. Landau : Op. cit. p. 97

(٣) يطلق لا نداو على هذه الاتجاهات كلمة الاحزاب

J. Landau : Ibid p. 97.

(٤) جريدة الأهرام فى ٢٧ فبراير ١٨٨٢

(٥) أحمد عرابى : مذكرات أحمد عرابى المخطوطة ص ٤٠٦

(٦) الوقائع المصرية فى ٢٠ ابريل ، ٦مايو (أمران رسميان) ، ٣٠ مارس ١٠ إبريل ، ١٧ إبريل ١٨٨٢ .

أحداث مصر . وقد صدرت ثمانية إنذارات لخمس صحف مختلفة فى الفترة من ٨ مارس إلى ١٤ مايو عام ١٨٨٢[1] . بل إنه فى يوم واحد صدرت صحيفة البرهان وفى صفحتها الأولى خبر بإلغاء صحيفة الزمان ، وفى صفحتها الثانية خبر بالافراج عن جريدة المفيد بعد أن عطلت عشرة أيام ، وظهور « مرآة الشرق » بعد طول الاحتجاب ، وصدور جريدة هى الفسطاط[2] (وهى من صحف الثورة) .

وتركزت سياسة الحكومة على :

أولاً : الحماة ضد صحف السوريين واللبنانيين بمصر وكان من نتائجها اختفاء جريدة الأحوال ثم جريدة الأهرام وتعطيل جريدة المحروسة ثلاثة أشهر ، وتعطيل جريدة (مصر) لأديب إسحق مرة ثانية[3] .

ثانياً : الضغط على الصحف الموالية للخديو فاضطرت « البرهان » أن تعزل الشيخ حمزة فتح الله من تحريرها لتحتفظ بوجودها ولا تتعرض لبطش حكومة الثورة[4] .

ثالثاً : الاستزادة من الصحف الموالية للثورة فظهرت بدلاً من « التنكيت والتبكيت » للنديم صحيفة : « الطائف » للنديم ، « المفيد » ثم « السفير » لحسن الشمسى ثم « النجاح » له أيضاً ، « الفسطاط » لعبد الغنى المدنى[5] .

وكانت للنديم أهمية كبرى فى أحداث الثورة وتطورها[6] إذ ملأ صحيفته

---

(١) الوقائع المصرية : ٨ مارس ١٨٨٢ ، ٩ مارس ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ مارس ، ١٤ مايو ١٨٨٢

(٢) جريدة البرهان : ١٣ إبريل ١٨٨٢

(٣) جريدة الطائف : ٢١ ، ٢٨ يونيو ١٨٨٢

(٤) البرهان : ٣٠ مارس ١٨٨٢

(٥) Scotidis : L'Eg. Cont.Ht Arabic Pacha pp. 96- 71

إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١٢٥

(٦) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ج ٢ ص ١٢١ ، ١٢٢

بمحامد العرابيين ودعا إلى القيام بناصرهم «وندب الوطن ورثاه ، وحض على الاجتماع فأثرت مقالته في النفوس وأشربتها القلوب »[1] :

صحف الثورة :

وقد أطلق عرابي على الصحف الثورية « لسان الأمة » كما كان يسمى بيته « بيت الأمة » وكانت هذه الصحف قد اتخذت لنفسها خطط الأفغاني الثورية بتقليد جرائد فرنسا قبل ثورتها على لويس السادس عشر . وكان ما كان من تلك الثورة التي وجهت ضد توفيق[2] .

وفي تلك الفترة كما في غيرها من الفترات نجد أن « وسائل تكوين الرأى العام إما عن طريق الكلمة المسموعة (ولم تتعد في تلك الفترة الخطب أو المواعظ وكانت محدودة بطبيعتها) ، أو عن طريق الكلمة المطبوعة ممثلة في النشرات والصحف والمجلات ، وهي ذات تأثير قوى على النفوس والعقول . ومن هنا يعتبر الرأى العام الآتي من هذا الطريق قوة عظيمة لا يمكن أن تقاوم[3] » . ويبدو ذلك « خاصة بين فئة المنقادين الذين ينقادون انقياداً أعمى لرأى من الآراء ، فهم عاجزون عن المناقشة والحكم . وهذه الفئة لا عمل لها إلا السير وراء الزعماء والقادة منساقة لهم متأثرة بهم وبآرائهم . ومن ثم نجد أفراد هذه الطبقة يتبعون أول ناعق ، ولا يملكون لأنفسهم القدرة على مناقشة المسائل التي ثاروا من أجلها والمشكلات التي أبدوا سخطهم عليها »[4] . وفي الوقت نفسه فإن الشائعات إذا سجلت في صحيفة سيارة يأنس إليها العامة قبل الخاصة تصبح أمراً خطيراً . فالشائعات حقائق عند الإنسان العادى إذا طبعت في كتاب أو مقال ، لأن المطبوع له أثره في النفوس في كل زمان ومكان[5] .

---

(١) أحمد تيمور : تراجم أعيان القرن ١٣ ص ١٧
(٢) قسطاكي الحلبي : تاريخ تكوين الصحف المصرية ص ١١٩ .
(٣) عبد اللطيف حمزة : المدخل في فن التحرير الصحفي ص ١٤
(٤) عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ص ١٩ ، ٢١
(٥) إبراهيم عبده : أبو نظارة ص ٥٣

ومن ثم يتبين مدى ما أصاب توفيق من اضطراب سجله فى خطاب لمندوبه فى القسطنطينية قائلا « إن جميع الجرائد المطبوعة هنا فى أيدى النظار وعرابى وهم يأمرونهم بالكتابة كما يشتهون . ولذلك يجب عدم اعتبار ما ينشرونه خاصاً بأسباب الاختلاف بين الخديو والنظار صحيحاً . فهذه المقالات كاذبة ومصنعة . أرجو عرض ذلك على الأعتاب وعلى الصدارة . وعليكم أن تفهموا صاحب الجوائب ألا ينشر شيئاً نقلا عن الجرائد المصرية حتى الوقائع المصرية »(١) .

وقد استطاعت صحيفة الطائف أن تصبح صحيفة الثورة الأولى فى السنة التى عاشتها (سبتمبر ١٨٨١ إلى موقعة التل الكبير فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢) ، ونالت من الرواج ما لم تنله صحيفة من قبلها من التأثير على الأفكار(٢) . ثم أصبحت لسان مجلس النواب رسمياً وحمل سلطان باشا النواب على الاشتراك فى هذه الصحيفة واكتتبوا لها بمبلغ كبير(٣) . وظهرت خطورة الطائف فى هذه الرسمية التى حبتها إياها الحكومة، فقد استطاع محررها أن يكون على بينة بشئون الدولة وأن يجد فى عطفها المادى والأدبى ما يعينها على تخطى الصعاب والتقدم(٤) . وكان النديم يكتب فيها بلغة سافرة لا يخشى فيها

---

(١) دار المحفوظات التاريخية محفظة ١٦٣ ملف ثابت باشا خطاب من الخديو إلى ثابت فى ٢٩ جمادى الآخرة ١٢٩٩ (١٨ مايو ١٨٨٢) .

ويلاحظ أن الخديو كان يعتمد على الجرائد لشرح وجهة نظره أمام الباب العالى ويتبين ذلك من خطاب الخديو إلى ثابت فيقول « وردت التوصية للاشتراك فى مائتى نسخة من جريدة الجوائب ، وقد علمنا بعد سؤال المالية بصفة غير رسمية أن الجريدة المذكورة تتقاضى ٣١٦ جنيهاً مصرياً مصريا سنوياً ، وأن أحمد فارس أفندى صاحب امتيازها يأخذ ٣٠٠ جنيهاً شخصياً . وبناء على ذلك يتضح أن المبلغ المرتب لإدارة الجريدة يعتبر اشتراكاً فيها ، فاعرضوا عليهم أن له مرتباً قديماً أو أنه صار ترتيبها بناء على التوصية . ومرتب أحمد فارس له صفة سرية »
محفظة ١٦٣ – ملف ثابت – خطاب من الخديو إلى ثابت فى ٢٣ من محرم ١٢٩٩ هـ (١٥ ديسمبر ١٨٨١) .

(٢) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية جـ ٣ ص ٦٢ ، ٦٣

(٣) رشيد رضا : تاريخ محمد عبده جـ ١ ص ٢٣٦ ،
سليم نقاش : مصر للمصريين جـ ٤ ص ٢٤٨

(٤) سليم نقاش: مصر للمصريين جـ٧ ص ١٣٨ . محضر استجواب حسين باشا الدرملى =

سلطاناً ولا يأبه بأمير . فهو « معلوم تهوره . وكان كاتب أحمد عرابى وملازمه(١) » .

ومما يؤكد ثقة رجال الثورة فى أهمية « الطائف » وأثرها فى الشعب أنه فى أثناء الأزمة التى حدثت بين البارودى والخديو فى مايو ١٨٨٢ ، ثم عودة البارودى لتولى الوزارة ، ترددت الأنباء عن إرسال السفن الحربية الإنجليزية الفرنسية إلى مصر فأثار ذلك مخاوف النواب ورجال الدين فانحازوا إلى جانب عرابى ، وقد حمل القنصلان الإنجليزى والفرنسى عرابى تبعة ما يحدث للأوربيين والخديو فأكد عرابى مسئوليته طالما أنه عضو فى الوزارة(٢) ، وأصدرت الوزارة قراراً بتعطيل « الطائف » و « المفيد » شهراً لتهدئة الرأى العام(٣) .

و «المفيد» التى ورد ذكرها مرادفة للطائف من صحف الثوار ،وقد صدرت فى أكتوبر ١٨٨١ ويحررها حسن الشمسى ويقول عنها دى طرازى « لانظن أن جريدة قبل هذا العهد نفخت روح الفوضى فى الأمة العربية مثل جريدة المفيد فقد حملت حملة شعواء على سلطة الخديو الشرعية(٤) » . وقد قرنت حملتها على الخديو بحملة على الإنجليز « فقد أتوا عراة وأصبحوا أقرن من قارون وقد ساعدهم الوقت بوجود إسماعيل الذى هو منبع الفساد ومحط الضلال فأخذ باسم الحكومة العشرة بمائة ونهب الفلاح وابتلع مال الحكومة وأعطاه للإنجليز (٥) » . ووصفت الأمة الإنجليزية بعدم مراقبة الإنسانية وعدم الذمة وعدم مراعاة التمدن وأسندت لها التوحش والظلم «مما هيج الأفكار بحث

= (وكيل الداخلية) كذلك ص ٢٩ ، ١٠٢ ، ١٧١ ، ٢٦٤ محاضر استجواب عرابى ، يعقوب سامى (وكيل الجهادية) وأحمد رفعت (مدير قلم المطبوعات) وحسن الشمسى (محرر المفيد) .

(١) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١٢٦،١٢٧

(٢) E. Malet : Egypt p. 330

(٣) الوقائع المصرية فى ١٧ مايو ١٨٨٢

(٤) فيليب دى طرازى : المرجع السابق الذكر ج ٣ ص ٢٠ ، ٢١

(٥) جريدة المفيد فى ٣٠ يونيو ١٨٨٢ ، راجع كذلك أعداد الجريدة فى شهور إبريل ومايو ويونيو ١٨٨٢ .

المصريين وتحريضهم على الحرب لأسباب وهمية »(1) . وعندما أغلقت أسبوعين فى وزارة شريف (نوفمبر 1881) أصدر الشمسى جريدة النجاح وسارت على نهج «المفيد»(2) . ثم عطلت «المفيد» مرة أخرى فى مايو 1882 فأصدر فى 16 أغسطس جريدة السفير التى كانت « ترمى إلى تعزيز مبادئ حزب مصر للمصريين ، بلهجة عنيفة وأسلوب يخالف مصالح الحكومة »(3) .

كذلك صدرت « الفسطاط » فى 20 إبريل 1882 وهى « من جملة الصحف التى استخدمها الثوار لبلوغ مآربهم ضد السلطة الحاكمة . وكانت كتاباتها تضرب على وتيرة « المفيد » فتثير الخواطر ضد الخديو بل تحرض الأهالى على الانتصار لزعيم الثورة العرابية(4) » . وقد أيدت البلاد عرابى وحركته وأرسلت إليه الأقاليم المؤن والإمدادات والأموال ليقف فى وجه الإنجليز والخديو الذى انحاز إليهم بالأسكندرية(5) .

الخديو يستخدم المنشورات والصحف للقضاء على الثورة :

وقد أدرك الخديو ما للدعاية من تأثير على تعبئة الرأى العام ضده وإثارة شعور البلاد العدائى نحوه ورأى أن يستعين بنفس سلاح عرابى :

1 — فأصدر فى 7 أغسطس منشوراً يعلن فيه عصيان عرابى وينذر الأهالى بالانفضاض من حول « هذا العاصى »(6) .

2 — كذلك أصدرت الوزارة (وكان يتولاها راغب باشا منذ 27 يونيو) منشوراً آخر بنفس المعنى(7) .

(1) سليم النقاش : مصر للمصريين جـ 7 محضر استجواب حسن الشمسى ص 268

(2) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ 3 ص 21

(3) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ص 21 ،
عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة جـ 2 ص 163

(4) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ 3 ص 23 ،
Broadley op.cit pp. 173. 175. 177. 183. 184.

(5) رشيد رضا : المرجع السابق ذكره جـ 1 ص 228

(6) سليم النقاش : مصر للمصريين جـ 5 ص 138 ، 139

(7) سليم النقاش : المرجع السابق جـ 5 ص 184 ، 185

٣ — وكتب حمزة فتح الله فى « الاعتدال » مقالات عديدة مناشداً المصريين « عباد الله لستم تجهلون أنى طالما ناديت فى « البرهان » بأن لاسبيل لنجاح الأمة الإسلامية سوى إقامة الدين . إن الفتنة تصيب الظالمين وتعم الجميع »(١) .

٤ — ثم أصدر الخديو منشوراً ثانياً فى ١٩ أغسطس محاولا إحداث انقسام بين الجيش والشعب وإضعاف الروح الوطنية الثورية .

٥ — وتلقى الخديو عوناً من السلطان إذ جاءته من الآستانة مئات النسخ من جريدة الجوائب (ذات الصلة بالخديو) وبها المنشور الذى أصدره السلطان فى ٦ سبتمبر ووصف فيه عرابى بالعصيان(٢) وطالب بمساعدة الإنجليز للقضاء على الاضطراب .

وهكذا استخدم الخديو نفس السلاح الذى استخدمه عرابى ، ونجح توفيق (مستعيناً بالجوائب) فى دق إسفين بين صفوف الثوار وكان أحد أسباب هزيمة عرابى فيما بعد(٣) . ولم تلبث الثورة أن خمد أوارها بعد هزيمة التل الكبير فى ١٣سبتمبر واحتلال الإنجليز للبلاد .

أهمية صحافة هذه الفترة :

تعد هذه الفترة الطور الأول من النهضة السياسية الحديثة وكان العامل فيه إطلاق الحرية ، وبعد أن كانت النار كامنة فى صدور المصريين إذ رفع الضغط فاتقدت نيران الثورة وانتشرت فى سائر أنحاء القطر(٤) .

وإن تاريخ الصحافة المصرية فى هذه الفترة تاريخ حافل فى كثرتها وفى أسلوبها المتميز بالعنف وإن غلبت عليه العبارة المشرقة والصور البديعة ، وهى صحافة غنية بدراستها للمسائل السياسية دراسة علمية موفقة ، إذ تحدثت

---

(١) سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ١٨٦ ، ١٩٣
(نقلا عن صحيفة الاعتدال بالأسكندرية)
(٢) سليم النقاش : المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٠٠ ، ٢٠١
(٣) محمود الخفيف : أحمد عرابى — الزعيم المفترى عليه ص ٤٢٨ (مطبعة الرسالة ١٩٤٧)
(٤) جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق جـ ١ ص ٢٩٢

صحف الثورة فى كل موضوع اتصل بالسياسة أو الأدب أو الاجتماع وكان التحدث فى هذه الأمور شيئاً جديداً على مصر (١) .

هذا وتوحي إلينا قراءة تاريخ الصحفيين (فى هذه الفترة) بأشياء منها :

أولاً : إن حياة كل صحفى يمكن أن تلخص حياة مصر كلها من النواحى السياسية والاجتماعية والأدبية . كان هناك شعور عام بضرورة الإصلاح ، وأن هذا الإصلاح لا ينجح فى نظرهم إلا إذا شمل هذه النواحى كلها فى وقت معاً .

ثانياً : بذرت بذور الإصلاح السياسى والاجتماعى والأدبى (٢) .

وتؤرخ هذه الحقبة القصيرة التى عاشتها الصحافة المصرية الشعبية منذ نشأتها حتى نهاية الثورة العرابية لتطور كبير فى نواح صحفية عديدة :

١ – بدأت الأحاديث الصحفية تظهر فى الصحف وكان الفضل فى ذلك للأهرام . وكان بعضها يتخذ عنوان « محاورة سياسية » (٣) .

٢ – أدخل نظام البرقيات الخاصة إلى جانب ما كان يرد عن طريق وكالات الأنباء .

٣ – تقدمت الطباعة الصحفية واستخدمت مطابع مستكملة المعدات .

٤ – وجود وكلاء للصحف خارج مصر وخاصة فى بلاد الشام .

٥ – ازدياد عدد المطبوع من الصحف باستمرار (٤) .

٦ – لم تعتمد الصحف على التوزيع على المشتركين فحسب بل أصبح هناك القارئ العادى الذى يشترى الصحيفة دون اشتراك . وكانت الصحف فى أول عهدها لا تعتمد إلا على عدد المشتركين فيها .

وإذا كانت الأحداث السياسية والثورات العنيفة ويقظة الشعب قد وضعت

---

(١) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١٣٠ ، ١٣١

(٢) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ج ٢ ص ٦٢

(٣) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١٣١

(٤) إبراهيم عبده : جريدة الأهرام ص ٨٧

أمام الكتاب مادة خصبة غزيرة وجعلتهم يخوضون فى شتى الموضوعات ، وإذا كانت الحالة الاجتماعية وما عليه الناس من جهل ومرض قد دعت زعماء الإصلاح الاجتماعى إلى حث الهمم للتخلص من تلك الرذائل ، فإن ثمة عوامل أخرى نهضت باللغة (بالنثر) من حيث الأسلوب والألفاظ ، وذلك لما قدمته النهضة الأدبية من وسائل كالمدارس والمكتبات وانتشار الصحف . كل ذلك أضفى على النثر طابعاً خاصاً فخلصه فى الغالب من المحسنات البديعية والبعد عن المقدمات :

فالنثر السياسى ، أو الصحفى امتاز بالسهولة والوضوح بحيث يكون معناه فى ظاهر لفظه لأن الصحف تخاطب الجماهير ويقرؤها الخاصة والعامة وتتحدث إلى الجهال كما تتحدث إلى المتعلمين .

والنثر الاجتماعى : تطلب صحة العبارة وخلا من السجع المتكلف والزخرف لأن الفكر فى هذا النوع ينصرف إلى تفتيق المعانى وسوق الحجج وضرب الأمثلة لا إلى الجرى وراء كلمة أو سجعة .

والنثر الأدبى : وهو أشد أنواع النثر حاجة إلى تخير اللفظ والتأنق فى النظم حتى يخرج الكلام مشرقاً لطيف الوقع فى النفوس ، واقتضى التأنق فى اللفظ وجودة السبك وتفتيق المعانى معرفة بأسرار اللغة ووفرة محصول المفردات .

أى أن الأنواع الثلاثة إنما تهدف إلى الارتقاء بالأسلوب والبعد عن العامية وإحياء للغة الفصحى(١) .

(١) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ١ ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٢٠١ — ٢٠٤ ، ٢٣٧ .

الباب الثاني

الاحتلال ومحاولات تصفية الشعور الوطني بمصر

الفصل الثالث

الاحتلال وتصفية الصحافة الوطنية

- الصحف تعكس هزيمة الثورة العرابية
- إغلاق صحف الثورة وإبعاد الصحفيين الوطنيين
- موقف الصحف من رجال الثورة العرابية
- منع تهريب الصحف العربية إلى مصر
- أمثلة لعدم الاهتمام بأحداث مصر
- قضية حرية الصحافة
- الصحافة أداة إرهاب فى يد كرومر
- استمرار العمل بقانون المطبوعات ١٨٨١
- صعاب أمام الصحف
- قلم المطبوعات

الصحف تعكس هزيمة الثورة العرابية :

استقبل الإنجليز عند احتلال القاهرة أمة فى شبه ذهول(١) ، وكان لإخفاق الثورة العرابية أثر جوهرى فى سريان روح الخضوع واليأس فى نفوس المصريين(٢) . وظهرت الصحف تعبر عن هذه الحالة بأنه انقشعت سحب الخصام والنزاع عن سماء السياسة وبزغت شمس السلم تنير ديار العلم، لتزيل كرب النفوس والأحزان ، وقد من البارى علينا بالعافية ونعيم البال . ويفتتح المقتطف بتهنئة القراء على «خمود نيران الثورة المصرية ورجوع ماء مصر إلى مجاريها ، وانكساف شمس باغيها ، ولا عجب أن حدا إليها حادى العمل وأوى إليها طائر السلام »(٣) .

وهكذا بدأت فترة من الظلام الكثيف تخيم على البلاد ، واتفق كثير من الخاصة والعامة على التسليم للقضاء ، وركن الناس إلى حياة فقدوا فيها الأمل فى الخلاص من هذه الدولة التى قضت على قادة الثورة(٤) . ووصل الأمر إلى أن الأهرام — وهى من الصحف الكبرى فى هذه الفترة — انصرفت عن الشئون الداخلية ومعالجتها . حتى لاحظ عليها ذلك إنجليزى يجيد اللغة العربية وقال لمدير الجريدة « إنى أعجب من عدم نشركم جملا من قلمكم عن الحالة والرأى العام »(٥) .

وحملت الأهرام على « العاصى عرابى ورفاقه البغاة »(٦) . ثم نشرت

---

(١) إبراهيم عبده : جريدة الأهرام ص ١٤٢

(٢) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٧٧

(٣) المقتطف : افتتاحية عدد نوفمبر ١٨٨٢ (وهو أول عدد ظهر من المجلة بعد نهاية الثورة)

(٤) عبد اللطيف حمزة : مصطفى كامل — أدب المقالة الصحفية جـ ٥ ص ٥٣ ، عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان ص ١٧٥

(٥) جريدة الأهرام : ١٣ نوفمبر ١٨٨٣ ، إبراهيم عبده : المرجع السابق ص ١٤٥

(٦) الأهرام : ٢٩ سبتمبر ، ٣ أكتوبر ١٨٨٢

صورة رائعة للجنرال ولسلى قائد الحملة الإنجليزية وأرخت لحياته فى صدر صفحتها الأولى(١) .

وظهرت الصحف السياسية الأخرى فى الشهور الأولى للاحتلال تصور انكسار النفوس وهزيمتها ويتنكر بعضها لزعماء الثورة ويتحامل عليهم ويحملهم مغبة المصير الذى آلت إليه مصر(٢) ، إلى حد دعا دوفرين — الذى كلفته الحكومة البريطانية بالنظر فى شئون مصر ووضع تقرير عنها — إلى أن يؤكد أن « الاضطراب الفكرى الذى نشأ عن الحوادث الأخيرة قد زال واستقرت الراحة بمصر تماماً(٣) » .

ولكن إذا كانت الثورة العرابية قد أخفقت ، فيقظة الرأى العام — إلى حد ما — وشعوره بنفسه وتنبهه لحالته الاجتماعية والسياسية لم يخفق ، ويتجلى ذلك إذا قورن بينه وبين حالته من قبل . وإذا كانت أقوال النديم قد تبخرت فيبقى جانب كبير من جوانب نفعه ، وهو إيقاظ الشعور فى الشعب بحقه فى الشكوى من الظلم والمطالبة بالعدل وإفهامه أن الحاكم يجب أن يكون مسئولا أمامه وأن هناك نوعاً جديداً من الحكم غير الذى ألفه من رجوع الأمور كلها إلى الحاكم . وهذا النوع الجديد هو حكم البلاد نفسها بنفسها . وهذه معان كانت عند خاصة الخاصة فنشرتها الثورة ونشرها النديم فى العامة(٤).

ويقول دوفرين فى تقريره الذى رفعه إلى حكومته فى ٦ فبراير ١٨٨٣ : « إننا وإن كنا مرغمين على التسليم بأن ضعف الرأى الذى اشتهر به المصريون فى الماضى لا يزال واضحاً فى السواد الأعظم منهم . إلا أن التحول والانقلاب اللذين حدثا فى الأفكار فى هذا العصر والصلات مع أوربا ، أوجدت عند

(١) الأهرام : ٥ أكتوبر ١٨٨٢

(٢) صحف الأهرام ، البرهان ، الاعتدال ، الوطن : أكتوبر ونوفمبر ١٨٨٢

(٣) خطاب دوفرين إلى شريف باشا مع نسخة من تقريره فى ٢٩ إبريل ١٨٨٣
Blue Books : Egypt No. 14 (1883) p. 64.

(٤) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٢٢٩ (لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٤)

الفلاح حاسة معرفة حقوقه وواجباته ، وأنه وإن لم ينطق بطلب الإصلاح فقد تحركت به شفتاه »(١) .

وكانت الصحف منذ بداية الحركة العرابية قد أصبحت الوسيلة لتفهم الجماهير معنى الوطنية الحقة التى أخذت تتغلغل فيهم(٢) ، وكانت « أقوى الوسائل لترقية البلاد وتنشيط أهلها ، وبث روح الاتحاد والوطنية ، وهى لسان حال الأمة والحامى عنها والمحافظ على حقوقها »(٣) .

وقد أدرك الإنجليز مدى ما كانت تقوم به الصحف من جهود وأيقنوا مقدار تأثيرها فى الرأى العام إلى حد أنه « عندما ذاعت أنباء الثورة العرابية فى كل قطر وشغلت أذهان الشرقيين قاطبة ولا سيما الشعب الهندى ، اشترت السفارة الإنجليزية فى الآستانة من صاحب جريدة الجوائب التى كانت تصدر باللغة العربية مليون نسخة من العدد الذى نشرت فيه ترجمة الإرادة السلطانية بعصيان عرابى لكى توزعها فى الهند وتستعين بالأثر الذى تحدثه على إخماد حركة التشيع للعرابيين ، وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر إنجلترا بشر العواقب »(٤) .

وكان رئيس وزراء بريطانيا قد حدد مهمة الصحافة وبين مدى خطورتها وما تستطيع القيام به ، إذ أعلن لورد ديربى فى مجلس اللوردات عام ١٨٥٢ أن : « الصحف أصبحت تشاطر رجال الحكم فى النفوذ وفى نفس الوقت تقع عليها مسئوليات رجال الحكومة »(٥) .

اغلاق صحف الثورة وابعاد الصحفيين الوطنيين :

لذلك كان من الأعمال الأولى التى أقدم عليها الاحتلال تعطيل الصحف

(١) تقرير دوفرين إلى وزارة الخارجية البريطانية فى ٦ فبراير ١٨٨٣

Blue Books : Egypt No. 6 (1883) p. 42.

(٢) M. Travers : Britain & Egypt Rise of Egyptian Nationalism p. 7 (Southampton).

(٣) مجلة الطائف ١٥ يونيو ١٨٨٩ ص ٦٥ – ٦٨

(٤) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٨٥ (مطبعة مصر ١٩٣٤)

(٥) Francis W. : Press, Parliament & People pp. 138, 139.(London 1946).

الوطنية الموالية للعرابيين عن الظهور ، وكان تاريخها حافلا فى كثرتها وأسلوبها المتميز بالعنف وتناولها كل موضوع اتصل بالسياسة أو الأدب أو الاجتماع (١). وصدر أمر ناظر الداخلية فى ٢٣ سبتمبر ١٨٨٢ بإلغاء جريدة الزمان وإلغاء جريدة السفير (٢). ويقول عرابى « إن الالغاء كان من قبيل الاستصواب أى الاستبداد(٣) » . كذلك توقفت صحف النديم بعد أن أصبح طريداً يجد فى القبض عليه رجال الاحتلال والأمن فى مصر . كذلك قبض على حسن الشمسى صاحب جرائد المفيد والسفير والنجاح الثورية(٤) .

وقد أصدر رياض —ناظر الداخلية فى وزارة شريف فى بداية الاحتلال — أمراً بمنع حسن الشمسى من إعادة إصدار جريدة السفير مرة أخرى وذلك لأن قرار الترخيص بإصدارها كان مخالفاً لقانون المطبوعات إذ أن المادة ١٢ تقضى بوجوب دفع مبلغ ٥٠ جنيهاً بصفة تأمين على مثل هذه الجريدة . ويضيف سليم نقاش أنه « فوق هذه الحجة القوية فإن حسن الشمسى كان من أهل العصابة الثائرة وكان مستخدماً « سفيره » أثناء الحرب العرابية فى تهييج الخواطر وإثارة الأفكار وحمل النفوس على الاندفاع إلى ساحات القتال كزميله عبد الله النديم(٥) . » ولم يلبث الشمسى بعد خروجه من السجن أن أصبح محامياً واضطر إلى الابتعاد عن العمل الصحفى(٦) .

وشهدت البلاد فى هذه الفترة يأساً وخضوعاً من جانب رجالها والمسئولين فيها ويصف سعد زغلول لمحمد عبده أن « الناس أخذوا فى نسيان ما فات من الحوادث وأهوالها ، وقلت قالتهم فيها وخفت شماتة الشامتين منهم ، وأصبح المادحون للإنجليز من القادحين فيهم وبالعكس »(٧) . وترك

(١) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١٢٩ ، ١٣٠
(٢) سليم نقاش : مصر للمصريين جـ ٦ ص ٦
(٣) أحمد عرابى : كشف الستار (مخطوط) ص ٤٠٦
(٤) سليم نقاش : مصر للمصريين جـ ٧ محاكمة حسن الشمسى ص ٢٦٣ — ٢٦٨
(٥) سليم نقاش : مصر للمصريين جـ ٦ ص ٦
(٦) جريدة القاهرة الحرة : ٣٠ يوليو ١٨٨٧
(٧) رشيد رضا : تاريخ الإمام محمد عبده جـ ١ ص ٢٧٦

سعد زغلول العمل فى الصحافة بعد أن برز اسمه بين كبار محررى الوقائع وعمل فى المحاماة بعد انتهاء الثورة العرابية مباشرة(١) . وعندما صدرت جريدة المقطم تقدم سعد « لامتهان مهنة الصحافة وحصل على رخصة بتصدير جريدة باسم « العدالة » ليدفع بها عن وطنه شر أصحاب المقطم ، ولكن اختياره قاضياً فى ذلك الحين منعه عن عمله هذا(٢) » .

هكذا أبعد المسئولون أقطاب الصحافة المصرية : إذ نفى محمد عبده وعند السماح برجوعه إلى مصر اشترط عليه عدم العمل فى الصحافة ، والنديم مختف يجد رجال الأمن فى البحث عنه لتنفيذ حكم النفى فيه ، والشمسى وسعد اضطرا إلى العمل فى المحاماة وتمكن الاحتلال بذلك من القضاء على أقوى السنة الثورة العرابية ودعاة الإصلاح السياسى والاجتماعى .

الصحافة ورجال الثورة العرابية :

ورأى رجال الاحتلال اتخاذ وسيلة أخرى للقضاء على روح الثورة والشعور بالوطنية . وكانت الخصومة قد اشتدت — قبيل الاحتلال — بين الصحف الثورية من ناحية وبين صحف بعض اللبنانيين التى لم ترض عن أحداث الثورة العرابية . واضطر كثير من أصحاب هذه الصحف إلى الهجرة من مصر (٣) وأصيبت صحفهم بخسائر وكان من هؤلاء أصحاب الأهرام وقد « قرر لهم مجلس التعويضات ١٨٠ ألف فرنك فى حالة كون المطبعة لا تساوى مع ما فيها أكثر من ٥٠٠ فرنك »(٤) ، كذلك سليم نقاش صاحب جريدة المحروسة « الذى أعاد إصدار جريدته بعد ما قبض مبلغ ٤٠ ألف فرنك من الحكومة تعويضا عما لحق به من الخسائر باحتراق المطبعة »(٥) .

---

(١) رشيد رضا : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠

(٢) قسطاكى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف ص ١٢٧ ، ١٢٨

(٣) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١٢١ — ١٢٣

(٤) جريدة الفلاح : ٧ يونيو ١٨٩١ ،

الوقائع المصرية : ٢٠ أغسطس ١٨٨٣ (وذكرت أن التعويض بلغ ١٩٠ ألف فرنك)

(٥) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٥٧

واستطاع المسئولون بذلك الإجراء اجتذاب بعض الصحف إلى صف العهد الجديد للقضاء على نتائج الثورة العرابية ، وحملت الأهرام حملة متصلة على رجالها وسمتهم الطغاة مرة والعصاة مرة أخرى(١) .

ورأت جريدة الوطن التي كانت لسان حال عرابي والحزب الوطني (٢) أن تدبر خطة لتغيير منهجها وما لبثت أن كشفت قناعها يوم دخول الخديو القاهرة بعد الاحتلال وأشادت به وبرياض ووصفت عرابي ورجال الثورة بأنهم « أشبه بالطاعون إذ مطمح أنظارهم موجه إلى غايتهم الذاتية فلايبالون بتخريب البلاد . ولو حلت بمصر داهية طامة لكانت أخف من هؤلاء الناس الذين خسروا دنياهم وآخرتهم »(٣) . ويشرح ميخائيل عبد السيد محرر «الوطن» سر تحوله عن رجال الثورة بأن «سياستهم كانت كناية عن إلقاء الوحشة في الصدور وتمزيق البلاد بالتعصبات . وكانوا أعداء لكل مصري عاقل »(٤) . وتحدثت جريدة الوطن عن عقاب عرابي وكأنها كانت تدرك ما سيحدث من تدخل الإنجليز في محاكمة العرابيين « فإن إنجلترا لا تريد التشفي بسبب مروءتها ، فإذا فرض حقن دم عرابي وحزبه وجب عقابهم بصورة لا يخشى منها عودهم إلى الضرر فلا يسمح لهم بالبقاء في مصر ولا نفيهم في ممالك السلطان في إفريقيا ، ومن المستحيل نفيهم إلى الآستانة »(٥) . وحدث ذلك فعلاً بعد شهرين مما أدى إلى دهشة الأهرام لأن « حكم الإعدام وحكم تخفيفه صدرا في وقت واحد »(٦) . وما لبث رياض أن استعفى من نظارة الداخلية على أثر ما ظهر له من نيات الإنجليز لمساعدة عرابي . وحمدت بعض الجرائد فعل رياض في إيثاره الاستعفاء على قبول خدمة لا يستطيع فيها إجراء الأعمال الوطنية من غير معارض(٧) .

---

(١) جريدة الأهرام : ٩ يناير ١٨٨٣ .

(٢) جريدة الوطن : ٦ يونيو ١٨٨٢ ، ١٣ يونيو ، ٢٩ يوليو ، ٤ أغسطس ١٨٨٢

(٣) جريدة الوطن : ٢٦ سبتمبر ١٨٨٢

(٤) جريدة الوطن : ٩ أكتوبر ١٨٨٢

(٥) جريدة الوطن في ٢ ، ١٤ ، ٢١ ، ٣٠ أكتوبر ١٨٨٢

(٦) جريدة الأهرام : ٧ ديسمبر ١٨٨٢

(٧) سليم نقاش : مصر للمصريين ج ٦ ص ١٩٤

وفى الوقت نفسه خلق الإنجليز لأنفسهم أثراً طيباً فى نفوس الشعب المصرى الذى تلقى بالفرح عدم تنفيذ حكم الإعدام ونجاة عرابى من الموت(١) .

وهكذا ظهرت إساءة بعض الصحف للروح الوطنية وبدا رجال الاحتلال أكثر وطنية من كثير من رجال الصحافة الذين استمروا يتحدثون عن «الأشقياء المفسدين المتمردين »(٢) .

ونشرت القصائد والمقالات ضد الفئة الباغية(٣) ، ونشرت محاكمات العرابيين « للعبرة وأن التهاون الذى كان معهوداً من قبل قد تبدل واعتصم المأمورون بعزة النفس إذ صار فى علمهم جميعاً أن المخالف مرذول مهان »(٤) .

منع تهريب الصحف العربية الى مصر :

ثم فطن رجال الاحتلال إلى الصحف العربية المصرية التى تطبع فى الخارج وفى فرنسا بالذات داعية إلى الوطنية ومقاومة الاحتلال وعلى رأس هذه الصحف مجلات «أبو نظارة » ليعقوب بن صنوع ومجلة العروة الوثقى . وقد تعقبت الوزارات المصرية وبخاصة وزارة نوبار صحف يعقوب فكان هذا يتحايل على إدخالها بتغيير أسمائها حتى بلغت أكثر من عشرٍ ، فإذا حدث أن صودرت صحيفته الكبرى ظهرت مكانها مجلة أخرى وحلت محل صحيفته الأصلية عند القراء(٥) .

وقد استطاع السيد جمال الدين وهو فى باريس أن يتعاون مع محمد عبده

---

(١) Lyall : The Life of the Marquis of Dufferin V. II p.36(London 1933).

(٢) جريدة الزمان : ٢٤ مايو ١٨٨٣ (صدرت مرة أخرى بعد أن تولى امتيازها أرمنى يدعى الكسان صرافيان – سيرد ذكره وذكر جريدته وميلها لإنجلترا فيما بعد)

(٣) جريدة الزمان : ٢٤ ، ٢٥ مايو ، ١٦ أكتوبر ١٨٨٣

(٤) جريدة الأهرام : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ يونيو ، ٤ ، ٥ ، ٦ سبتمبر ، ٨ أكتوبر ١٨٨٣

(٥) إبراهيم عبده : أبو نظارة ص ١٦٢ – ١٦٦ ، ١٩٩

فى فترة نفى هذا الأخير على إصدار جريدة سميت بالعروة الوثقى(١) ، وكان الغرض منها « إرشاد المسلمين بالقرآن وتوجيه جميع الشعوب الإسلامية إلى استقلال بلادهم واتحادها وتعاونها على إحياء مجده بترك عصبيات المذاهب والجنسيات المفرقة لكلمة أهله »(٢) ، واهتمت مقالاتها بالدفاع عن مصر والسعى لإنقاذها من الاحتلال الإنجليزى والدعوة إلى اتخاذ الدولة العثمانية خطوة فى سبيل ذلك(٣) . فقرر مجلس النظار فى ٢١ يوليو ١٨٨٤ منع دخولها إلى مصر(٤) . وكان تنفيذ هذا القرار من الصعوبة بمكان إذ استمر ورود الجريدة « وتضرر بعض مستخدمى النظارات من ورودها داخل جرائد إفرنكية ، ونبهت نظارة الداخلية عموم البوستة وذكرتها بالمنشور السابق وأن تتخذ كل طريقة موصلة لهذا الغرض حفظاً للنظام »(٥) .

وأحس بعض ساسة الإنجليز حملة جريدة العروة الوثقى وتهييجها الرأى العام على إنجلترا فرأوا أن يتفاهموا مع القائمين على إصدارها فى باريس ، وسافر محمد عبده بعد وساطة بلنت ، وقابل المحرر كثيراً من رجال السياسة « وسأله وزير الحربية الإنجليزية ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الإنجليزية. فأجاب المحرر : كلا إن المصريين قوم عرب وفيهم من محبى الأوطان مثل ما فى الشعب الإنجليزى فلا يخطر فى بال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين(٦) » . ولم تجد الحكومة المصرية بدأ من مخابرة الحكومة الفرنسية لأن إدارة البريد الفرنسى لا يمكنها منع إرسال الجريدة من باريس إلا بأمر خاص من

---

(١) رشيد رضا : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦

(٢) رشيد رضا : المرجع السابق ص ٣٣١

(٣) رشيد رضا : المرجع السابق ص ٣٣١

(٤) الوقائع المصرية : ٢٢ يوليو ١٨٨٤

(٥) الوقائع المصرية : ٢٥ سبتمبر ١٨٨٤

(٦) جريدة العروة الوثقى العدد ١٤ فى ١٤ أغسطس ١٨٨٤

الحكومة الفرنسية[1] . وهكذا نجحت خطة الاحتلال فى القضاء على هذه الصحيفة الوطنية أيضاً فأغلقت بعد العدد ١٨ الصادر فى ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ .

أمثلة لعدم اهتمام الصحف بأحداث مصر :

ووصل عدم الاهتمام بمصر وقضيتها إلى حد إهمال بعض الصحف أمرهما ، فإن الأهرام فى أول عهد الاحتلال — وكانت لا تزال على علاقات طيبة مع إنجلترا[2] — كانت تفرد صفحاتها الأولى للتحدث عن الشئون الخارجية « ولى عهد ألمانيا — إعلان — منشورات — البلقان — بعض الأمريكان »[3] . وكانت هناك أزمة وزارية فى مصر بسبب مناقشة مسألة إخلاء السودان ووزارة جديدة تتولى تحت ضغط إنجلترا ، وكانت هذه الموضوعات رغم خطورتها بالنسبة للقضية المصرية تنشر فى الصفحات الداخلية دون أى إبراز .

وفى أثناء المحادثات التى جرت بين تركيا وإنجلترا بشأن مصر — مما سيرد تفصيله — تتحدث جريدة الصادق فى صفحاتها الأولى فى خمسة سطور فقط عن أن « المسألة المصرية متعلقة بالمسألة البلغارية »[4] ، وفى يوم آخر تفرد صفحاتها الأولى لأخبار : سعادة السردار — ظهور الهيضة فى ميلان — بيكر يسافر إلى بورسعيد — نقب اللصوص محلا — وتأخر وابور السويس — سيحتفل السير بارنج بعمل وليمة رقص . بينما فى صفحتها الثالثة خطبة سالسبورى عن مصر والميعاد الذى تخلى فيه الديار المصرية لا يكون إلا بعد الميعاد الذى تم فيه خطتنا . وإخلاؤنا متوقف على إتمام العمل[5] . بل إنه عندما تقرر الاتفاق على الوفاق بين المعتمدين الإنجليزى والعثمانى نشرت صحيفة الصادق ذلك فى الصفحة الثانية بينما امتلأت الصفحة الأولى بأخبار «أمين باشا— التماس لوزارة الأوقاف بتغيير شيخ أحد الجوامع — اجتماع اللجنة الإنجليزية

---

(١) أحمد شفيق : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ٢٩٠

(٢) راجع الفصل الخاص « بفرنسا وإنجلترا فى مصر » وموقف جريدة الأهرام .

(٣) جريدة الأهرام : ١١ ، ١٤ يناير ١٨٨٤

(٤) جريدة الصادق : ١٨ أكتوبر ١٨٨٦

(٥) جريدة الصادق : ٢٤ نوفمبر ١٨٨٦ .

الخاصة بترتيب الاحتفال بمملكة إنجلترا – موسيو مارتين سلرزو وأولاده أصابتهم مصيبة فى البحر » وتكرر ذلك عدة مرات(١) .

أما جريدة القاهرة الحرة فكانت تنشر فى صفحتها الأولى : أخبار الدولة العلية وإيطاليا – وأحوال كريد – وأشقياء الألبانيين – وسوء الحال بين إيطاليا والبابا . وفى نفس اليوم فى الصفحة الثانية « استعفاء الوزارة : أفادت التلغرافات أن دولة نوبار باشا قدم استعفاءه » على عمود واحد ، وتكرر ذلك(٢) .

أما صحيفة « الاتحاد المصرى » فلم تكن تتحدث طوال سنوات بأكملها عن القضية المصرية مع أنها صحيفة سياسية(٣) ، حتى عندما حدثت أزمة الخديو عباس وتأخر الفرمان الخاص به لم تكتب الصحيفة عن ذلك سوى سطرين فقط(٤) .

وهكذا بدأت هذه الحالة الشنيعة من القنوط والاستسلام ، والاستعمار يمكن لأقدامه ويوطد من دعائمه(٥) .

قضية حرية الصحافة :

وقد سلفت الإشارة إلى أن دوفرين نصح فى تقريره الخاص بتنظيم شئون مصر أنه « يلزم لجعل هذه النظم مثمرة وفعالة ، أن تمنح الصحافة حرية تامة »(٦) ، ويضيف أنه قد بدأ فى مخابرة حكومته فى هذا الصدد وأنه لايرى صعاباً فى هذا المجال .

أما كرومر فإنه منذ توليه منصب المعتمد البريطانى فى سبتمبر ١٨٨٣ لم يتحدث فى تقاريره السنوية عن الصحافة حتى عام ١٩٠٣ فصدرت منه

---

(١) جريدة الصادق : ٧ ، ٢٦ مايو ، ١٤ ، ٣٠ يونيو ، ١ ، ٢ يوليو ١٨٨٧

(٢) جريدة القاهرة الحرة : ٦ مارس ، ١٣ مارس ١٨٨٧ ، ٩ يونيو ١٨٨٨

(٣) جريدة الاتحاد المصرى طوال عام ١٨٩٢

(٤) جريدة الاتحاد المصرى : ٣ مارس ١٨٩٢

(٥) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٧٧

(٦) تقرير دوفرين فى ٦ فبراير ١٨٨٣ Blue Books, Egypt No. 6 (1883) p. 50

فى هذا العام أول إشارة إلى الصحافة المصرية ويقرر أنه « كان هناك فى بدء الاحتلال الإنجليزى ما يسمى (بمسألة الصحافة) إذ أن الكثيرين من ذوى الآراء الجديدة بالاعتبار من الأوربيين ، والوطنيين — موظفين وغير موظفين — رأوا أن منح الحرية التامة للصحف فى مصر موجب للضرر . أما الرأى العام الإنجليزى فيبالغ من يقول إنه كان يؤيد تقييد الصحف إلا أن قوماً كانوا يشيرون بذلك فى بعض الصحف الكبرى بلندن أحياناً . ولانكران فى أنه إذا نظرنا إلى العناصر التى يتألف منها المجتمع المصرى وإلى ما كان عليه القطر منذ مدة قصيرة ظهر لنا لأول وهلة أن منهج الحرية التامة للصحافة قد لا يخلو من الضرر »(١) . ويوضح كرومر فى تقريره الأسباب التى دعته إلى ترك الحرية النسبية للصحافة . فهناك اعتراضان على تقييده هذه الحرية :

« الأول أن وجود حامية إنجليزية فى القطر يضمن أن الكتابات المهيجة لا تفضى إلى الإخلال بالأمن إخلالا عظيما .

« والثانى أن من العبث سن قانون خاص بالجرائد الوطنية ما لم يطبق ذلك القانون على الصحف الأجنبية أيضاً لأن كل صاحب جريدة وطنية يخشى طائلة القانون يستطيع نقل حقوقه وامتيازه إلى شخص أوربى فعلا أو اسماً . ثم أن الدول الأوروبية وفى مقدمتها إنجلترا ، على الأرجح ، تعترض على أى قانون يقصد به تقييد حرية الصحافة تقييداً حقيقياً .

« أما أنا فكنت مخالفاً لتقييد حرية الصحافة منذ البداية ، ولكنى لم أعول كثيراً على الاعتبارات السالفة . فإنى رأيت أولا أن الحجج التى تقدم لتقييد حرية الصحافة لا تعادل الحجج التى تقدم على إطلاق حريتها . وثانياً أن كبار رجال الحكومة كانوا يستطيعون احتمال نقد الصحف لهم بل على إيرادها أقوالهم وأعمالهم على غير صحتها حتى فى أحرج الفترات التى مرت بمصر أى قبل أن يؤتى الإصلاح ثماره المطلوبة . وقد أيدت الحوادث هذا الرأى ، فمرت سنوات عديدة والصحف المصرية تامة الحرية .

---

(١) Blue Books, Reports of Consul General, Egypt No. 1 (1904) p. 31.
تقرير كرومر عن سنة ١٩٠٣

« ولكن الحكومة اضطرت إلى إقامة قضايا على بعض الصحف لطعنها على الملوك الأجانب والخديو وأعضاء الأسرة الخديوية . وكان الرأى العام مؤيداً للحكومة فى هذه القضايا القليلة العدد . ولم تتخذ القضايا شكلا سياسياً ، ومع أن القانون يخول للحكومة الحق فى أن تطلب من صاحب كل جريدة أن يحصل على رخصة قبل إصدار جريدته إلا أنها لم تنفذ ذلك فترة طويلة . ويقال بالإجمال أن النتيجة جاءت على مايرام »(١) .

ويعلق بعض الكتاب على ذلك بأن الصحافة فى مصر نالت على عهد الاحتلال حرية لم تعرف فى شمال إفريقيا أو غرب آسيا وأهمل العمل بقانون المطبوعات لعام ١٨٨١(٢) .

وقبل أن نحلل ادعاء كرومر فى إعطاء الصحافة المصرية حريتها يتضح لنا أنه كان يدرك مدى خطورة هذا السلاح فى الشعب المصرى فيعقد مقارنة بين وجود الحامية الإنجليزية وبين الأثر الناتج عن« الصحافة المهيجة وإخلالها بالأمن إخلالا عظيماً » ، فهى إذن سلاح لا يقل عن الجيش فى عمله .

فهل كانت الصحافة المصرية حرة حقا ؟

بينما كان دوفرين يدرس شئون مصر وينصح فى تقريره بمنح الصحافة حرية تامة ، كانت الصحف الشعبية المصرية تلقى حتفها واحدة تلو الأخرى(٣) : فأغلقت الطائف والمفيد والسفير والنجاح والزمان .

ثم أخذت الأوامر تصدر للصحف بعدم المساس بالاحتلال بعد أن كتبت صحف الوطن وروضة الأسكندرية ومرآة الشرق والبرهان « بضعة أسطر نهجت فيها منهج الحدة بالنسبة للدولة البريطانية ، ومن حيث أن هاته الجرائد تعلم أن مثل هذه الكلمات لا تفيد شيئا سوى إثارة الخواطر ، وأن الجرائد لم تنشأ إلا لتهذيب الطباع لذا وجب تنبيه الجرائد بلزوم خطة الاعتدال ، والتباعد عما من شأنه أن يمس حقوق إحدى الدول المتحابة التى بيننا وبينها

(١) Blue Books, Reports of Consul General, Egypt No.1(1904) pp.31, 33.

(٢) عمر دسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٦٤، ٦٥ Young : Egypt pp. 179-180.

رياض شمس : حرية الرأى جـ ٢ ص ٥٤٩

(٣) إبراهيم عبده : جريدة الأهرام ١٤٣ .

روابط ودادية وعلاقات حبية . فإن الجرائد تعتبر اللسان العام المعبر عمايقوم بالأفكار ومن هذه الجهة يجب أن لا تنشر شيئاً مما يشير إلى مس تلك الروابط والعلاقات.ولتعتبر الجرائد المحلية عموماً أن هذا بلاغ عمومى لها فمن تجاوزته عوملت بما تقضى به نظامات المطبوعات فى البلاد »(١) .

وقد صدرت خلال العامين الأولين من عهد الاحتلال أوامر عدة « لأرباب الصحف بمراعاة فائدة البلاد فلا يأتون فى جرائدهم بشىء من قبيل مايشوش الفكر » . وتؤكد الأوامر أن مهمة الجرائد فى البلاد المتمدنة « إنما هى العمل على تنوير الأفكار وتثقيف العقول . وليكن فى معلوم كافة أرباب الجرائد المحلية أن نظارة الداخلية لا تتأخر عن معاملة أى جرنال كان بنص المادة ٣ إذا أخل بمصلحة البلاد »(٢) .

وقد اختلفت الصحف التى صدرت فى هذه الفترة فيما بينها فى نظرتها إلى هذه الحرية ، وكان فارس نمر يرى أنها أوسع نطاقاً من حرية الصحافة فى فرنسا ذاتها(٣) . كذلك كان هذا رأى حسن حسنى أحد محررى « الزمان » وصاحب «النيل» «فالحرية المعطاة لجرائدنا المصريةهى فوق الكفاية(٤)» . بل لقد طالبت جريدة « الزمان » بأن يتصف أرباب الجرائد بالحق والاعتدال وذلك بأن يلتزموا الحدود المقررة ، وإلا فقيد الأفكار الساذجة هو الأحرى بأربابها(٥) . وأيدت جريدة الوطن « وضع ضوابط للمطبوعات المصرية ، فالحكومة المصرية إذ جعلت الأمر بلا رابط أضرت بالبلاد عوضاً عن أن تفيدها »(٦) .

هذا بينما صحف أخرى تنادى بأن البلاد فى حاجة عظيمة إلى « حرية

---

(١) الوقائع المصرية فى ١٤ أغسطس ١٨٨٣ ،
الأهرام فى ١٨ أغسطس ١٨٨٤

(٢) الوقائع المصرية فى ٣١ مايو ، ٣ سبتمبر ١٨٨٣ ، ٢٨ أكتوبر ١٨٨٤

(٣) Wood : Egypt under the British p. 169 (London 1896).

(٤) جريدة النيل فى ٢٧ سبتمبر ١٨٩٢

(٥) جريدة الزمان فى ١٢ فبراير ١٨٨٣

(٦) جريدة الوطن فى ٢٨ يونيو ١٨٩٠

الجرائدفهى لسان حال الأمة،وهى المنبه للحاكم،وكيف تساعد وأبواب الكلام أمامها مغلقة وشمس الحرية محجوبة عنها،وأعنة الأقلام تمسكها الموانع »(١). ويؤكد محررو الصحف أن الأقلام أمضى من السيوف « ولكن الكتاب عندنا مكتوف وبالقيود محفوف »(٢) وطالبت جريدة المحروسة ولاة الأمور « بأن يتساهلوا مع أرباب الجرائد الصحفية(٣) » ، ثم يؤكد بلنت أن الإنجليز قد وضعوا حداً لحرية صحافة المصريين بعد أن احتلوا بلادهم(٤) .

الصحافة أداة ارهاب فى يد كرومر :

يتبين أن « حرية الصحافة » على عهد كرومر إذن كانت أسطورة ضخمة كثر الحديث عنها . ولكن كرومر كان يعتقد أن حرية الصحافة وحرية الخطابة هما صمام الأمان للتعبير عن الشعور الذى قد يتخذ — بدونهما — مظاهر أخرى خطيرة(٥) . وهذا يفسر لنا لماذا كان يطلق العنان أحياناً للصحف تصدر كيفما تشاء وتكتب كما يريد محرروها ، ولكن سرعان ما تبطش بها يد الاحتلال إذا وجدت مساساً بوضع الإنجليز وحقوقهم فى مصر . أما إذا انصرف اهتمامها وصراعها حول المشاكل الثانوية والمسائل الشخصية فهى تكتب ما يعن لها .

بل لقد اتخذ كرومر الصحافة أداة إرهاب فيقول إن « حرية الصحافة فى بلاد كمصر تستلزم من رجال الحكومة أن يجمعوا بين صفتين متضادتين نوعاً وهما : أولا أن يحترموا آراء الجرائد إذا كانت ترمى إلى غرض سام وتسعى إلى تأييد آرائها بالدليل القاطع كما هو الغالب . وثانياً أن يكون لهم من الشجاعة الأدبية قدر يكفى لمقاومة الجرائد التى ترمى إلى غاية غير شريفة

---

(١) جريدة البرهان فى ١٥ فبراير ١٨٨٣

(٢) جريدة البرهان فى ٨ أكتوبر ١٨٨٣

(٣) جريدة الفلاح فى ٣ نوفمبر ١٨٩١ (نقلا عن جريدة المحروسة)

(٤) Rothstein : Egypt's Ruin, Introduction by Blunt p. VIII (London 1910).

(٥) J. Marlowe : Anglo - Egyptian Relations 1800-1953 pp. 191-193.

وتحاول تأييد أقوالها بأدلة لاتستحق الالتفات أحيانا »(١) . فكأن الصحافة أصبحت سيفاً مسلطاً على رجال الحكومة المصرية بل والخديو نفسه . ويضيف إلى ذلك « أنه فضلا عما لحرية الجرائد من الفائدة الإيجابية فلاريب أن الصحف تمنع بعض الضرر فإن خوف التشهير على صفحاتها يمنع كثيراً من الشرور ويقلل العيوب »(٢) .

ومما يؤكد عدم صحة ما يدعيه كرومر من ترك الحرية للصحافة أن كاتباً وصحفياً ممن يؤيدون كرومر شخصياً والاحتلال الإنجليزى عموماً ومن معارضى السلطان العثمانى عبد الحميد وهو ولى الدين يكن يذكر أن « قانون المطبوعات الذى وضع فى ١٨٨١ — ونصب معه البارون مالورتى مديراً لقلم المطبوعات (على عهد الاحتلال) ضيق الخناق على أرباب الصحف والأقلام وسلب الأمة المصرية حريتى الفكر والسياسة . فكانت الجريدة تنشر الخبر لا يوافق سياسة الحكومة فيأتيها الإنذار ، وإذا أنذرت مرتين ألغيت فى الثالثة ، وقد يحكم عليها بتعطيلها شهراً أو أكثر وقد تلغى بغتة وكل ذلك على ما يبلغ ذنبها وجنايتها السياسية . واستمر ذلك إلى أواخر عام ١٨٩٢ »(٣) .

استمرار العمل بقانون المطبوعات لعام ١٨٨١ :

وأصبح قانون المطبوعات سلاحاً تشهره الحكومة فى وجه الصحف غير المرغوب فيها(٤) . من ذلك أن نجيب غرغور اضطر إلى تعطيل مجلته « حديقة الأدب » لأن نظارة الداخلية رأت أن تعاملها بموجب قانون المطبوعات « ولما مثل نجيب بين يدى المحافظ أخذ هذا يقرأ القانون حتى جعل مجموع الغرامات التى استحقها تسعين جنيهاً . وكلما حاول غرغور أن يفهمه

(١) Blue Books, Reports of Consul General : Egypt No. 1 (1904) p. 32

(٢) Blue Books, Reports of Consual General, Egypt No. 1 (1904) p. 33

(٣) ولى الدين يكن : المعلوم والمجهول جـ ١ ص ٢٣ (مطبعة السعادة ١٩٠٩)

(٤) Ramadan A.E. Ev. sur. la leg. de la Presse p.64.

بأن المجلة أدبية يزيد فى نغمته حتى كادت الغيرة والغيظ يخنقانه ، وكان ذلك عام ١٨٨٨ »(١) .

بل لقد طبقت الداخلية القانون على بعض الصحف التى ينتمى أصحابها إلى رعوية فرنسا كما حدث لجريدة المحروسة ومحررها عزيز زند(٢) . وقد رفضت المحكمة الاستئنافية المختلطة دعوى الحكومة وأثبتت أن لصاحب الجريدة الحق فى فتح مطبعته وإصدار جريدته(٣) . كذلك « صدر قرار بإلغاء الرخصة التى أعطى امتيازها إلى حسنى البديوى لعدم تقديمه الضمانة القانونية(٤) .

وفى ٢٤ أكتوبر ١٨٨٣ صدر قرار بتعطيل جريدة الزمان لمدة ٣ شهور .

وفى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ صدر قرار بتعطيل جريدة البرهان نهائياً .

وفى ١٢ مارس ١٨٨٤ صدر قرار بتعطيل جريدة الوطن نهائياً ثم ظهرت بعد يومين .

وفى ٩ فبراير ١٨٨٥ صدر قرار بتعطيل جريدة الزمان لمدة شهر .

وفى ٩ فبراير ١٨٨٥ صدر قرار بتعطيل جريدة مرآة الشرق لمدة شهر.

وفى ٢٥ مارس ١٨٨٦ صدر قرار بتعطيل جريدة مرآة الشرق نهائياً .

وفى ٢٩ أغسطس ١٨٨٦ صدر قرار بتعطيل جريدة الزمان نهائياً .

وفى ٢ ديسمبر ١٨٨٦ صدر قرار بتعطيل جريدة القاهرة نهائياً .

وفى ٨ أغسطس ١٨٨٨ صدر قرار بتعطيل جريدة الوطن لمدة شهر(٥).

ولم تحو قرارات التعطيل سوى العبارة التقليدية بأن ما نشر « مما يشوش الأفكار ويخدش الأذهان » .

---

(١) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية جـ ٣ ص ٩٤

(٢) جريدة الصادق فى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٦

(٣) جريدة المحروسة فى ٥ مايو ١٨٨٨

(٤) الوقائع المصرية فى ٢٦ يونيو ١٨٨٩

(٥) الوقائع المصرية فى التواريخ المبينة

ومن مراجعة الصحف التى أنذرتها الحكومة أو عطلتها لا تجد فيها ما يستوقف النظر بل إن « جريدة الوطن خاصة يغلب عليها فى تلك الأيام الزلفى الملحوظة للإنجليز إن جاء ذكرهم فى خبر أومقال . وليس هناك صحيفة منها جميعاً ناقشت الاحتلال فى أمر من أموره . كما أن الاحتلال الإنجليزى كان رقيق الحاشية رقة لا تحتمل مناقشة صحيفته الشبه الرسمية الإجبشيان جازيت لأمر من الأمور وهو يوقع بها الجزاء مستمداً قوته القانونية من قانون المطبوعات الذىزعم الكتاب أنه أهمل إهمالا تاماً »(١).

أما الإنذارات فكانت تنهال على الصحف المختلفة وعلى الصحيفة الواحدة(٢) ولأسباب تافهة أوبدون أسباب حقيقية ، إنما كان الأمرمجرد إرهاب كما يقول المقطم منذراً « فلاتكون العاقبة على الجرائد إلا شراً ووبالا لأن الحكومة تنزلها منزلةالسيف المسنون فى يد المجنون بين قوم عزل راتعين فى بحبوحة الأمن ، وتضطر إلى تقييدها ومنع حريتها(٣)» . وهذا ماحدث لجريدة الفلاح التى نشرت خبراً عن عدم رضا الجيش المصرى عن ضباطه الإنجليز(٤) فأصدرت رياسة الوزارة أمراً للداخلية بإغلاق « الفلاح »(٥) . وحاول صاحب الجريدة إلغاء التعطيل وتمكن بعد خمسة شهور من ذلك ولكنه امتنع عن الحديث عن الاحتلال بل بادر — فى أول عدد يصدر بعد التعطيل — إلى تهنئة البلاد بأن « السير منكريف وكيل نظارة الأشغال قدعدل عن استقالته » ، وكرر ذلك مرة أخرى(٦) .

---

(١) إبراهيم عبده : جريدة الأهرام ص ١٤٤

(٢) الوقائع المصرية : ٤ ، ٧ مارس ، ٢٥ إبريل ، ٤ ، ١٠ يوليو، ١٤ أغسطس ، ١٩ ، ٢٤ أكتوبر ، ١١ نوفمبر ١٨٨٣ ، ٢٥ أغسطس ١٨٨٤ ، ٢٥ سبتمبر ١٨٨٦ ، ٢٤ مارس ، ٢٦ سبتمبر ٨٧ ، ٢٥ إبرابل ٨٨ ، ١٦ يوليو ١٨٩٠

(٣) المقطم : ١٢ مايو ١٨٩٠

(٤) جريدة الفلاح : ٢٣ يونيو ١٨٩١

(٥) الوقائع المصرية : ٢٩ يونيو ١٨٩١

(٦) جريدة الفلاح : ٣ نوفمبر ، ٣١ ديسمبر ١٨٩١

صعاب أمام الصحف :

وأقيمت الصعاب المختلفة فى وجه الصحف « فبعض مكاتب البوسطة يؤخرون إيصال الجريدة إلى المشتركين »(١) . بل إن المجلات العلمية كانت إذا أشارت أحياناً إلى وجوب إجراء بعض الإصلاحات الخاصة بإحدى الوزارات أو المصالح فيبدأ من ثم الوقوف فى وجهها . من ذلك ماكتبته مجلة الشفاء الطبية عن إصلاح حال القابلات والغريب أن ديوان الصحة بعث بكتابة رسمية يطلب من المجلة قطع اشتراكاته فى السنة التالية (٢) . « وكأنه قد ضاقت على الحكومة سبل الاقتصاد فعمدت إلى الجرائد وحرمتها من مرتبها وما هو بالشيء الكثير » (٣) .

وقد لاقت بعض المجلات الأدبية ضغطاً بالغاً وبخاصة ما كان يصدره مصريون «فالآداب» لاقت من الصعوبات وفتور الهمم عنها ، فاحتجبت ، ثم « خرقت حجب الشدائد وعادت حتى نفذما فى الجيب والقراء لامساعدة منهم (٤) » ، واحتجبت مرة أخرى .

وأخذت الصحف تتحدث عن رسوم التمغة التى تقرر وضعها وكان منها ضريبة على الجرائد نصف مليم عن كل نسخة من الصحف التى تطبع فى مصر « وهذه الضريبة هى تكليف مالا يطاق ، وطرح الضريبة بهذه الحالة على الجرائد التى هى فى أسوأ حالة بدون الضريبة ، ولربما أوجب تعطيل أكثر الجرائد وإغلاق أبوابها » (٥) .

ويعترف المقطم أن « الحكومة كانت تود تنزيل أجرة البريد على الجرائد المحلية ولكن قسماً من الجرائد وهو الجرائد المعارضة التى لا تعترف بها الحكومة أبى إلا ركوب هواه وتجاوز أقصى ما بلغته الجرائد المعارضة فى سائر البلدان ، ولهذا تقول الحكومة — كما أخبرنا من يوثق بصحة علمه وصدق

---

(١) جريدة البرهان : ١٨ أكتوبر ١٨٨٣

(٢) مجلة الشفاء : ١٥ يوليو ١٨٨٧

(٣) مجلة الشفاء : ١٥ يناير ١٨٨٨

(٤) مجلة الآداب : ١٢ يناير ١٨٨٩

(٥) جريدة القاهرة الحرة : ٢ إبريل ١٨٩٠

روايته — إنى كنت أود تقليل أجرة البريد على الجرائد المحلية وتسهيل انتشارها فى بلادى لو لم يكن انتشارها ينشر الأضرار فى البلاد ويوسع خرق الشر بين الأهالى(١) » .

قلم المطبوعات :

عندما أصدر سعيد عام ١٨٥٧ قانونين للمطبوعات أحدهما خاص بالأجانب والآخر خاص بالمصريين أنشأ فى نفس العام « مكتباً للصحافة » بنظارة الداخلية .

وفى ٢٦ أكتوبر ١٨٦٦ أصدر إسماعيل أمراً بتوزيع اختصاص مكتب الصحافة وتحويله إلى « قلم الصحافة » تابع لنظارة الخارجية على أن يتكون من خمسة أعضاء ثلاثة منهم أجانب واثنين من المصرين يجيدان اللغات بشرط أن يكون رئيس القلم أجنبياً (وكان أول رئيس هو جودار بك) .

ثم صدر قانون المطبوعات لعام ١٨٨١ وتحدد الاختصاص لشئون المطبوعات والصحافة المحلية لتنفيذ القانون ، فأنشئ فى نظارة الداخلية « قلم المطبوعات » ونقل الموظفون المصريون (الذين كانوا تابعين للخارجية) إلى القلم الجديد ، أما الأجانب فظلوا كما هم . وأصبح نظام العمل كما يلى :

من يريد رخصة ويكون مصرياً يتقدم للداخلية (قلم المطبوعات) .

من يريد رخصة ويكون أجنبياً يتقدم للخارجية .

وفى بعض الأحيان كان المشرف على تحرير الوقائع المصرية هو الذى يشرف على قلم المطبوعات ، كما حدث فى عهد محمد عبده ، وظل « القلم » تابعاً لإدارة الأمن العام بنظارة الداخلية(٢) .

وقد عين البارون دى مالورتى مديراً لقلم المطبوعات فى عام ١٨٨٩ «وكانت وظيفته محصورة فى مطاردة المؤيد وصاحبه فى كل ديوان يحاكم هذا

---

(١) جريدة المقطم : ٢٣ ديسمبر ١٨٩١

(٢) أمكن الحصول على هذه المعلومات من الاستاذ محمد حسن تحسين مدير إدارة المطبوعات (مايو١٩٦٢) ، إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ٢٦١ — ٢٧٢

ويطرد ذلك من المستخدمين الذين كانوا يتهمون بإعطائنا الأخبار . فلما تولى رياض منحه إجازة لم يعد بعدها إلى العمل وخلص المؤيد من عوامل الاضطهاد(١) » .

أما تعطيل جريدة الأهرام فقد تم بعد أن بدأت هجومها ضد الإنجليز والاحتلال وقد عطلت شهراً(٢) .

والحق أنه طبقاً للتقارير الرسمية التى أرسلها كرومر منذ تعيينه حتى عام ١٩٠٣ فإنه أخفى عن حكومته ما أصاب الصحافة المصرية على يديه وأيدى أعوانه الإنجليز الذين اختفوا وراء نوبار بالذات وبدأوا عهد الإرهاب الصحفى ولما يستكمل الاحتلال عامه الثانى ، وأخذت الصحف تختفى واحدة تلو الأخرى(٣) .

وكانت المصروفات السرية سلاحاً فى يد الحكومة « فإنه لايخفى أن الجرائد اليومية تقتضى مصروفاً واسعاً ومساعدات مادية فهى لولا المخصصات الواسعة المستمر صرفها لها سراً وجهراً لما أمكن صدورها يومية ، فإنك ترى هاته الجريدة لها مساعدة من هاته الدولة والأخرى من هذا الديوان والأخرى من هاته الدائرة »(٤) .

ثم عمدت نظارة الداخلية إلى منع المستخدمين من مكاتبة الصحف(٥) ، وأذاع رياض (رئيس الوزراء ووزير الداخلية) منشوراً إلى جميع موظفى الحكومة « ينبههم إلى ما هو وارد بمنشور النظارة الصادر فى ٥ نوفمبر ١٨٨٢ من أنه لا يجوز لهم مطلقاً مخابرة أية جريدة تطبع فى مصر أو فى الخارج عربية

---

(١) جريدة المؤيد : ١٣ شعبان ١٣٢٤ (١٩٠٦)

(٢) الوقائع المصرية فى ١٩ أغسطس ١٨٨٤ (سيأتى ذكر ذلك تفصيلا فى الفصل الخاص بالصراع بين إنجلترا وفرنسا) .

(٣) تقارير كرومر من ١٨٨٤ إلى ١٩٠٣ Blue Books, Reports of Consul general,

(٤) جريدة الفلاح فى ٥ ، ٢٦ مايو ١٨٩٢ (وقد حاولت الحصول على أية بيانات خاصة بالمصروفات السرية من إدارة المطبوعات أو وزارة الداخلية ولكننى لم أستطع وكانت الحجة فى ذلك أنها أمور تتسم بطابع السرية المطلقة برغم انقضاء أمد طويل على حدوثها) .

(٥) سليم نقاش : مصر للمصريين ج ٦ ص ٤٢

كانت أو غير عربية ، ولا يسوغ لهم قط إبداء أفكارهم فى الجرائد ولا القيام بمكاتبتها أو التوكيل عنها »(١) .

ويتناول جورجى زيدان ذلك الأمر ويتحدث عن اشتهار الحكومة « بمساعدتها للجرائد حتى أنها كانت تنفق على اشتراكها فيها نحو ١٣٠٠ جنيه سنوياً فضلا عما كانت تبذله لها من المساعدات الأخرى بين أجور إعلانات وكان عمالها ومستخدموها فى المديريات يحذون حذوها فى تنشيط تلك الجرائد فيحثون الناس على اختلاف طبقاتهم على الاشتراك فيها ولو اقتضى ذلك استعمال العنف والشدة . ورأت الحكومة أن مساعدة عمالها ومستخدميها على هذه الكيفية لا تخلو من الضغط . ورأت أيضاً أن بعض المستخدمين كانوا يكاتبون الجرائد ويبدون فيها آراءهم وربما كشفوا عن أعمال الحكومة ما كانت تود بقاءه فى طى الكتمان لحكمة كانت تقتضيها الأحوال ، فأصدرت هذا القرار . ولكن الحجر على أفكار مستخدميها أصبح من العبث وخصوصاً أنهم لا يعدمون وسيلة فى إبداء أفكارهم بواسطة أناس آخرين »(٢) .

وأصدرت الحكومة فى ٢٠ أكتوبر ١٨٨٧ قراراً « بمعاقبة كل شخص ساعد على نشر إحدى الأوراق الديوانية فى إحدى الجرائد وعدم إمكان حصر شبهة التبليغ فى شخص معين ، فيجازى كل موظفى القلم بخصم ١٥ يوماً(٣) » . وحصرت الداخلية « مصادر الأخبار لجميع الجرائد فى ثلاث محلات بها ، ولا ريب أن هذه الفكرة من رغائب قلم المطبوعات الذى يريد أن يكون الحجاب بين الأخبار وبين الجرائد فلا تأخذ عنه إلا ما يكون موافقاً لسياسة الحكومة »(٤) .

وكان كرومر يرمى من وراء نشر أسطورة حرية الصحافة إلى الامتنان

---

(١) الوقائع المصرية : فى ٧ يوليو ١٨٨٨
(٢) مجلة الهلال : ١٥ سبتمبر ١٨٩٤
(٣) جريدة الصادق : ٢٧ أكتوبر ١٨٨٧
(٤) جريدة المؤيد فى ٧ يناير ١٨٩٢ ،
جريدة النيل : ٣١ يناير ١٨٩٢

على الأمة بإطلاق الحرية لها وإعلان ذلك أمام العالم الأوربى ليوهمه أن الاحتلال الإنجليزى فى مصر يتبع سياسة الإصلاح والحرية(١) . أما فى الظروف التى نالت فيها الحكومة المصرية الصحف بالاضطهاد فقد تستر كرومر وراء النظار وأنكر أن له يداً فى ذلك الاضطهاد(٢) .

---

(١) إبراهيم عبده : جريدة الأهرام ص ٣٣٠

(٢) جريدة العلم : ٢٥ أكتوبر ١٩١٠ من خطبة عبد الرحمن الرافعى فى بروكسل عن حرية الصحافة المصرية .

الفصل الرابع

صحف في خدمة الاحتلال

- امتداد تأثير الصحافة فى الرأى العام المصرى بعد الاحتلال
- سلطات الاحتلال تساعد على إصدار صحف سياسية تؤيدها
- إصدار صحيفة المقطم
- الصراع بين المصريين واللبنانيين فى الوسط الصحفى ونتائجه
- صحيفة الاتحاد المصرى تنحاز إلى صفوف الاحتلال
- ازدياد العناصر غير المصرية فى الصحافة المصرية
- الإكثار من إصدار الصحف المتخصصة غير السياسية

امتداد تأثير الصحافة فى الرأى العام لما بعد الاحتلال :

تبين من الفصل السابق أن كرومر كان يدرك مدى أهمية الصحافة وأثرها ، وقد شرح الطريقة التى اتبعها مع الجرائد المصرية فقال إنه أفاد منها « فائدة تذكر ، وأشير على الموظفين الأجانب والوطنيين باتباعها . وهى أنى أقرأ بعض الصحف المهمة وقد وجدت بالتجربة أنه ليس من الصعوبة التمييز بين ما يستحق وما لا يستحق الاعتبار منها . فإذا قرأت خبراً مهماً لم أعلم به قبلا استفسر عن مدى صحته وقد يحدث أن يكون بعيداً عن الصحة أو لا يكون دقيقاً . ولكننى مدين للصحافة بأخبار استفدتها منها وربما لم أستطع الوصول إليها لولا الصحف . أما من ناحية آراء الصحف فيتراوح اهتمامى طبقاً للمصدر وقوة الأدلة وما إذا كانت صادرة عن الشخص الواحد أو جمهرة من الرأى العام تستحق الالتفات . ولست أظن أن رجال الحكومة سواء أكانوا أوروبيين أو وطنيين ينبذون آراء الجرائد، بل لقد لاحظت مراراً أنهم يبالغون فى التعليق عليها وهم لا يميزون بين ما يستحق الاعتبار وما يستحق الإهمال(١) » .

كذلك أدركت الصحف — فى هذه الفترة — أهميتها فى « أنها أقوى البواعث تأثيراً وفائدة فى عصرنا الحاضر ، ومع قلة أهمية الجرائد فى مصر نسبياً عن أوربا فلا ننكر أنها لعبت أدواراً مهمة ، فهى تطلعنا على الحوادث وتنبئنا بأعمالنا »(٢) .

وقد رسمت الصحف لنفسها ما تستطيع القيام به من مهام « فهى دليل على حالة كل بلد من التمدن العصرى ، وشأنها فى الوجود السياسى ، ودرجتها فى العرفان ومبلغها من استقلال الآراء وحرية الخواطر . فهى بمثابة مرشد

---

(١) Blue Books, Reports of Consul General, Egypt No. 1 (1904) p. 32.

(٢) جريدة الزمان : ٢١ يونيو ١٨٨٣

لكل أمة إلى الوقوف على أحوال غيرها وعنوان على ما هى عليه »(١) .

ولا شك فى أن مجتمعاً كالمجتمع المصرى فى أواخر القرن الماضى والتعليم فيه لا يتجاوز نسبة ضئيلة من عدد السكان كان فى حاجة إلى من يرشده ، وإذا كانت « كثرة المصريين لا تقرأ فلا أقل من أن تتلى عليها الصحف التى تعلمها وتهذبها . وإلى أن تتعلم الكثرة المصرية نستطيع أن نعتمد على الصحافة (وفى القرن العشرين على السينما والإذاعة) على أنها وسائل إلى تثقيف الشعب وتهذيبه وإرشاده إلى الخير فى سيرته والصواب فى رأيه »(٢) .

كان هذا شأن الصحافة بوجه عام ، بل إن جورجى زيدان يقول « إن الطعن الشخصى فى الجرائد ولو أنه ضار بآداب القراء إلا أنه قد حصلت فائدة له إذ أن عالم القراء فى مصر لا يزال آخذاً فى النمو ، ونموه إنما يكون بوساطة التعليم والتهذيب فلا ينشأ جيل من تلامذة المدارس إلا وفيه ميل للمطالعة ، أما الكهول والشيوخ والشبان الذين لم يدخلوا المدارس فهؤلاء إنما سيقوا إلى المطالعة بحكم الميل إلى استطلاع ما تكتبه الجرائد من المناظرات العنيفة »(٣) .

وقد اعترف كرومر مرة أخرى بمقدرة الصحافة على التأثير فى الأمة فقال إن «السواد الأعظم من المصريين من أعظم الناس تصديقاً لما يقال(٤) » . وهذا ما يؤكده مؤرخو الصحافة بوجه عام وبخاصة أن « الشخص الشرقى حساس جداً من ناحية النقد الصحفى ، وهو سريع التصديق لما يقرؤه فى الصحف ، بل إن مجرد نقد شخصى فى صحيفة محلية يحيل الحياة إلى شىء لا يطاق »(٥) .

وفى الوقت نفسه كان الإنجليز يقدرون أن الحركات الوطنية آخذة فى

---

(١) جريدة المحروسة : ١٢ مايو ١٨٨٥ ،
جريدة الأعلام : ٤ أغسطس ١٨٨٧
(٢) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر جـ ٢ ص ٥١٥ (المعارف ١٩٣٨)
(٣) مجلة الهلال : ١٥ أكتوبر ١٨٩٧
(٤) Blue Books, Reports of Consul Ceneral (1905), Egypt No. 1 pp. 65,66.
(٥) Newman : Great Britain in Egypt pp. 166, 167.

النمو لا محالة مما سيقضى على آمالهم فى تحقيق سياستهم التى لخصوها فى أنهم إنما جاءوا إلى مصر لإنقاذها من الخراب المالى الذى جره إسماعيل عليها ، ولإنقاذها من استبداد الخديو ومن حوله من الأتراك ، والجراكسة ، ولإقامة العدل بين أبنائها ، ولإلغاء الرقيق والسخرة والكرباج ، ولتوزيع الضرائب توزيعاً عادلا ، » وكان من اليسير أن تلقى هذه الدعوة سميعاً بين الذين عاصروا حكم إسماعيل وبطشه ، ورأوا السنوات الأولى من حكم توفيق وضعفه ، وأيدوا ثورة عرابى للتخلص من الأتراك والجراكسة ، ثم رأوا فى حكم الإنجليز مساواة بين الجميع لا فرق بين تركى وجركسى ومصرى »(١) .

كان هدف الإنجليز إذن محاولة تخدير الأعصاب وإيجاد رأى عام معتدل يسكت عن الاحتجاج على الاحتلال فى ذاته ويسير فى سبيل الاتفاق والتفاهم مع السياسة البريطانية فى وادى النيل(٢) .

وقد وجد الإنجليز فى مصر صحافة ناضجة عندما وقع الاحتلال ، ويبدى وود دهشته من أنه بعد الاحتلال كانت أول ظاهرة فى الصحافة المصرية هى أن الصحف المعارضة كانت تفوق عدداً تلك التى تؤيد الاحتلال(٣) . ويفسر تشارلز آدمز ذلك بأن الشعور الوطنى أفصح عن نفسه فى تلك المدة فى مقالات الصحف الفرنسية والعربية التى كانت تفيض بالمطاعن والتهييج العنيف ضد الإنجليز(٤) . ويضيف إلى ذلك أن الشعور الوطنى تجدد فى مصر بعد أن كبته — لفترة ما — إخفاق الحركة الوطنية التى تزعمها عرابى لذلك سمى هذا الطور من أطوار الحركة الوطنية باسم « الطور الصحافى » فى مصر .

وهكذا تبلورت الحركة الوطنية بعد الاحتلال واتخذت شكلا جديداً هو

---

(١) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ ص ٢٢ ، ٢٣

(٢) عبد الرحمن الرافعى : من خطبته فى بروكسل عن الصحافة المصرية جريدة العلم فى ٢٥ /١٠/١٩١٠

(٣) Wood : Eg. Under the British p. 117

(٤) C. Adams : Islam and Modernism in Eg. p. 220

الصحافة فقد كان ما تنشره الصحف موضوع المناقشات على مقاهى المدن وفى أعماق الريف بكل حرية ، وكان المتحدثون بلسان هذه الحركة هم الصحفيين ، ومفكريها ورجالها المحاربين من رجال الدعاية ، فتزايدت أنواع الصحف وتضاعف عددها . « وإذا كانت الحركات الوطنية قبل الاحتلال قد اتخذت الجامعة الإسلامية مظهراً لها فإنها بعد الاحتلال اتخذت طابعاً اجتماعياً كانت الصحافة هى مظهره الوحيد »(١) .

هذا إلى أن نفور الفلاحين من الحياة السياسية الذى كان من أهم الخصائص الاجتماعية فى مصر قبل الثورة العرابية ، هذا النفور تحول فى أثناء الاحتلال البريطانى وساعد على ذلك تطور الصحف ، وبداية التحسن المادى الذى طرأ على الأحوال المعيشية مما كان له أثره فى الاتجاه نحو الإسهام فى الحياة السياسية(٢) . « وقد لعبت الصحافة المصرية فى تاريخ البلاد دوراً كان أهم من الدور الذى لعبه الجيش فيما خلا أيام محمد على ، ولعبت فى تاريخ مصر السياسى دوراً أهم من الدور الذى لعبته المجالس النيابية ، ذلك أن الوزارات المصرية كانت تخشى الصحف الشعبية أكثر مما تخشى سطوة المجالس النيابية »(٣) .

سلطات الاحتلال تساعد على اصدار صحف سياسية تؤيدها :

هذه العوامل — السالفة الذكر — دفعت رجال الاحتلال إلى الاهتمام بالصحافة العربية فى مصر ، ومن ثم رأوا المساعدة فى إصدار صحف يحاربون بها الصحف المناوئة لهم بدلا من الضغط والإرهاب . وقد أيد الاحتلال صحفه أدبياً ومادياً حتى يضمن لها التوسع والانتشار فظهرت غنية بالمال والخبر اللذين حبسهما عن الصحف الوطنية ليلزم المواطنين بقراءة ألسنته والتأثر بما يرد فيها من الثناء على الاحتلال وبيان حسناته ، « وكانت الصحف تصدر دون رقيب وتقذف من غير حساب ، وما ضر الاحتلال أن يصيبه قذف المصريين وفى ذلك تنفيس عن المتطرفين فيهم والحملة على الاحتلال من طبائع

---

(١) Young G. Egypt pp. 179, 180.

(٢) Landau J. : op.cit. p. 105

(٣) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ج ١ ص ٤٠

الأشياء ما دامت للإنجليز صحف تقذف خصومهم بالمثل وتجرحهم وتنال منهم من صغيرهم وكبيرهم حتى من الخديو . ولو وزنا الكسب والخسارة فى هذا الميدان لكان الإنجليز الكاسبين وكان غيرهم والخديو هم الخاسرين »(١).

وكان من نتيجة ذلك تشجيع جريدة التايمز السياسية الأسبوعية التى تصدر باللغة العربية وكانت قد صدرت قبيل الاحتلال واستمرت بعده لمدة أربع سنوات . « وقد توخى فيها صاحبها مستر بيمن خدمة مصالح بنى جنسه المحتلين وإفهام سكان مصر الوطنيين منافع الاحتلال لتوفير أسباب نجاحهم وتأييد الأمن فى البلاد(٢) .

ووجد الإنجليز فى محمد بيرم الخامس التونسى سنداً قوياً للاحتلال إذ أصدر بالقاهرة صحيفة « الأعلام » السياسية فى يناير ١٨٨٥ للتقبيح بسياسة الحكومة الفرنسية فى تونس ، وكان بيرم قد هرب إلى الآستانة بعد رسوخ قدم فرنسا فى بلاده ثم جاء إلى مصر عام ١٨٨٤(٣) . « وكانت الأعلام صحيحة العبارة كثيرة المواد جزيلة الفوائد نالت مقاماً رفيعاً بين رصيفاتها . وكان لها صوت مسموع عند قرائها المنتشرين فى كل البلاد العربية لشهرة صاحبها فى عالم السياسة والكتابة . وكانت خطتها محاسنة الإنجليز والاستفادة منهم وخدمة مصالحهم فى وادى النيل وساء ذلك بعضهم وانتقدوا عليه هذه الخطة لأنها تعاكس ما كانت عليه سياسته فى تونس التى هجرها من حكم الأجانب فكيف يكلف المصريين عكس ذلك ؟ ولكن الواقفين على آرائه كانوا يعتذرون بأنه إنما تحرى الخطة المذكورة لأن مجافاة الاحتلال الإنجليزى

---

(١) إبراهيم عبده : جريدة الأهرام ص ٣٣٠

(٢) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٢١ ، ٢٢

ولا يوجد من هذه الصحيفة أعداد فى دار الكتب المصرية ولم نستطع العثور على نسخ منها . ولكن يؤكد وجودها إلى جانب ما كتبه دى طرازى أن صحيفة الأعلام لصاحبها محمد بيرم التونسى كتبت عندما ظهرت التيمس بعد احتجابها « تغيبت شمس التيمس المصرى مدة خيمت فيها غيوم الأسف ، ثم سطع نورها فأزال الخفا عن حقائق الأخبار وجميل النصائح . لا زال نورها مشرقاً فى سماء الصدق وحرية الأفكار » .

جريدة الأعلام فى ٢٨ فبراير ١٨٨٥ .

(٣) جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧

لا تجدى نفعاً وقد ألجأه إلى انتهاج هذا المسلك ما قاساه من ظلم الحكم الاستبدادى فى تونسه وما آنسه من العوامل المحركة فى مصر بإغراء بعض الأجانب الذين يوغرون صدور الناس على حكامهم »(١) .

ويؤكد على يوسف صلة بيرم بالإنجليز إذ « عندما وشى إلى الحكومة بأن جريدة المؤيد تنفق عليها جمعية سياسية للكتابة فيها ضد الحكومة والاحتلال تولى التحقيق مقرب من الوكالة الإنجليزية ومن رئيس النظار ونعنى به محمد بك بيرم فظهرت له الحقيقة »(٢) . ويؤيد هذا الاتهام بعض مؤرخى الصحافة المصرية من المعاصرين للفترة الأولى من الاحتلال(٣) .

وهكذا كسب الإنجليز صحفياً وسياسياً أخذ يمزج فى براعة بين الدين والسياسة خدمة للإنجليز . « فإذا كان لا مندوحة عن أجنبى فالذى رأيناه فعل مع أبناء جنسنا الحسن يكون أولى ممن فعل معهم الأضرار . فنرى مثلا الأموال الذريعة تأتى فى كل عام من الهند إلى مكة والمدينة ، ولا نرى درهماً واحداً أتى من الجزائر أو القوقاس حتى أن نفس أوقاف الحرمين لم يبق لها هناك ذكر »(٤) . ثم يتحدث عن أن إنجلترا « هى الدولة الوحيدة فى معاملة جميع رعاياها باللطف واللين والمحافظة على عوائدهم ودياناتهم فلا بدع إذا استماتوا فى المحافظة على تخليد وزيادة شرفها »(٥) . وأخذ يدافع عن الاستعمار الإنجليزى فى الهند وتحسن أحوال هذه البلاد تحت السيطرة الإنجليزية(٦) . وأفرد صفحة كاملة وعموداً للحديث عن اللورد ريبون الحاكم العام للهند وأعماله « مما يشهد له بحرية الضمير وخدمة الإنسانية »(٧) .

---

(١) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ١ ص ١٣٩ — ١٤١ ، ج ٣ ص ٣٤

(٢) جريدة المؤيد ١٣ شعبان ١٣٢٤ هـ

(٣) Hartmann : The Arabic Press in Eg. pp. 27, 28,
Fredolin : John Bull sur le Nil p. 276 (Paris 1886)

(وهو صحفى فرنسى عاش فى مصر فى أوائل عهد الاحتلال ونشر كتابه عام ١٨٨٦) ،
عبد الله الأنصارى : جامع التصانيف المصرية ص ٦٧

(٤) جريدة الأعلام فى أول مارس ١٨٨٥

(٥) جريدة الأعلام : ٣١ مارس ١٨٨٥

(٦) جريدة الأعلام : فى ١٩ إبريل ١٨٨٥

(٧) جريدة الأعلام : ١٧ يناير ١٨٨٥

ومن ثم أصاب الإنجليز فائدة كبرى باستخدامهم الصحافة العربية فى مصر للدعوة لإنجلترا فى العالم الإسلامى . وكافأت الحكومة المصرية بيرم بأن عينته عام ١٨٨٩ قاضياً فى محكمة مصر الابتدائية(١) .

اصدار صحيفة المقطم :

وفى هذا العام (١٨٨٩) ظهرت صحيفة المقطم « وهى من الصحف الشريفة Honourable Papers » كما يصفها سلاطين فهى « تعمل بكل جهدها على إقامة علاقات من حسن الحوار بين المصريين والأجانب المقيمين فى البلاد ، وتعمل على تسيير دفة أمور مصر لرفعها إلى مصاف الدول الأوربية إذا لم يتمكن الوطنيون المصريون فاقدى الخبرة والتجربة من إعادتها إلى حالتها البربرية »(٢) .

ويؤرخ أحد أصحابها — الدكتور فارس نمر — لصدور الجريدة قائلا إنه حضر من الشام إلى مصر مع زميليه يعقوب صروف وشاهين مكاريوس تلبية لدعوة كبراء مصر الذين اقترحوا عليهم إصدار المقتطف فى مصر . « ثم اقترح علينا بعض الأصدقاء أن نصدر جريدة . فقدمنا طلباً باسم « الإصلاح » فرفضت وزارة الداخلية هذا الاسم وقدمنا سواه فرفض . وكان اللورد كرومر معتمد إنجلترا فى مصر حينذاك وحدث أن ذكر له صديق اسمى « فارس نمر » فحسبنى أحمد فارس صاحب « الجوائب » ولما ألم بقصتنا ذهب إلى وزارة الداخلية وسأل عن السبب فى امتناعها وفى اليوم التالى استدعيت إلى الداخلية فوجدت اهتماماً ملحوظاً وعناية تامة وطلبت اسم «المقطم » ولما سئلت عن السبب فى اختيار هذا الاسم بالذات قلت لأنه الجبل الذى بنيت من حجارته الأهرام الثلاثة »(٣) .

ويقول وود إن الاحتلال اعتمد على صحيفة الإجبشيان جازيت الإنجليزية

---

(١) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ١٤١

(٢) Sladen D.: Egypt & the English p. 134 (London 1908)

(٣) مجلة الاثنين عدد ٤٠٤ فى ١٩ مارس ١٩٤٢ ص ٤٥ « مقال فارس نمر »

وصحيفة المقطم الصادرة باللغة العربية ، هذا إلى جانب البروجريه الفرنسية اللغة (١) .

ويعتبر إصدار المقطم الحلقة الثالثة من حلقات إحكام الحصار حول الرأى العام فى مصر إذكان أصحابه الثلاثة يصدرون مجلة « المقتطف » العلمية فى مصر منذ ١٨٨٥ ثم أصدر أحدهم « شاهين مكاريوس » مجلة « اللطائف » الأدبية الاتجاه عام ١٨٨٦ (وسوف نتناولهما بالبحث عند الكلام عن الصحف العلمية والصحف الأدبية) ثم صدر المقطم الذى اختص بالنواحى السياسية . وقد نشأ أصحاب المقطم فى أكبر مدرسة غربية تأسست فى الشرق وهى الكلية الأمريكية فى بيروت ، وعرفوا التمدين العصرى وبرعوا فى العلوم الحديدة (٢) . وقد اقترن فارس نمر فى عام ١٨٨٨ بابنة قنصل إنجلترا السابق فى الأسكندرية (٣) ثم سافر إلى لندن واجتمع فيها بكبار السياسيين (٤) . ولا غرابة إذن فى أن يصف نمر وجود الإنجليز فى مصر بأنه « كان أكبر نعمة وسوف يستمر كذلك لهذا القطر » (٥) .

وهكذا اجتمع للاحتلال ثلاثة من الصحفيين « التزموا فى جريدتهم اليومية تنفير الأمة ، وتحسين الاعتراف بسلطة الغير والتلويح بما يشف عن سوء مقاصدهم فى الجانب الخديوى . والتزموا ترجمة أوهام مستأجريهم التى توهم الوعيد والتهديد ليظهروا للأمة وهن المسند الخديوى وقوة مستأجريهم » (٦) . ويحاول صاحب كتاب مرآة العصر تبرير هذا الاتجاه « فقد يتهمها البعض بالمغالاة فى مدح المحتلين والتطرف بالطعن فى الدولة العثمانية ولكنها متى فعلت ذلك فهى تقف فيه عند حد الحقيقة لا تتعداها فى شىء إلى ما وراء النزاهة (٧) » . ويعترف كرومر باتجاه المقطم نحو الاحتلال فيقول إنه فى

(١) WOOD : Egypt under the British p. 118

(٢) ولى الدين يكن : المعلوم والمجهول جـ ١ ص ١١ ، ١٢

(٣) جريدة الحقوق : ٢١ يوليو ١٨٨٨

(٤) إلياس زاخورة : مرآة العصر جـ ٣ ص ٥٣٣ ، ٥٣٤

(٥) WOOD : Eg. under the British p. 170.

(٦) مجلة الأستاذ ٢٣ مايو ١٨٩٣

(٧) الياس زاخورة : مرآة العصر جـ ٣ ص ٥٣٥

أثناء الخلاف مع الخديو (عباس) حول الوزارة المصرية فى أول عهده قامت مظاهرة غاضبة وقعت فيها بعض أعمال العنف اتخذت مسرحاً لها أمام جريدة المقطم الموالية للإنجليز (١) . وكان الإنجليز يدفعون مبلغاً ضخماً من المال للمقطم كما يؤكد هارتمان « فهو لسان حالهم ، ويحاول الإنجليز استخدامه فى مصر كوسيلة لإفساد الرأى العام ، فكان أصحابه أكبر المدافعين عن مصالح إنجلترا ، ولا شك فى أنهم كانوا رجال أعمال من الطراز الأول (٢) » .

ولا عجب إذن فى قيام الصحف الموالية للإنجليز بالدعاية للمقطم قبل صدوره فإنه « النبراس الجديد ، وكفى أصحابها ثقة الحكومة بهم ، وكفاهم شرفاً أنهم منشئو المقتطف لنحرض الناس على الاشتراك بهذه الجريدة والإقبال عليها » (٣) . وكان المقطم أول جريدة عربية فى مصر تصدر فى ثمان صفحات كبيرة (٤) .

وظهر تحيز السلطات الحاكمة لصحيفة المقطم وتشجيعها بكافة السبل فعلى الرغم من تمكن المطبعة الأهلية من إنجاز كل ما يطلب إليها من مطبوعات فإن الجهات الحكومية كانت تؤثر عليها مطبعة المقطم (٥) ، مما أثار حفيظة جريدة البسفور إجبسيان التى كشفت تحيز سلطات الاحتلال للمقطم إذ « عندما أسست الحكومة المطبعة الأهلية احتكرت صناعة كان يعيش عليها عدد من الناس . وبرغم النفقات الكبيرة فإن البوليس لا يزال يؤجر مطبوعاته لمطبعة المقطم دون إجراء مناقصة ويدفع فى ذلك أسعاراً جنونية . ويؤكد البعض أن صاحب نفوذ كبير له دخل فى الموضوع . وهكذا اكتشفت طريقة جديدة على حساب مصر لزيادة مكافأة تلك الصحيفة العربية التى تعمل جاهرة لخدمة الإنجليز (٦) » . وتناولت صحيفة الفلاح الموضوع قائلة إن « رجال

---

(١) Cromer : Abbas II p. 35 (London 1915)

(٢) Hartmann : Op. Cit. p. 11.

(٣) مجلة الحقوق فى ١٥ إبريل ١٨٨٨ (عندماصدر تصريح الداخلية بإصدار المقطم)، جريدة الوطن فى ١٦ فبراير ١٨٨٩ .

(٤) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٣٥

(٥) خليل صابات : تاريخ الطباعة فى مصر ص ٢٠٩

(٦) Le Bosphore Egyptien, 10 Dec. 1892.

الدولة المحتلة يعضدون أصحاب المقطم فى المطالب ويمدونهم بالمال ويساعدونهم فى الأشغال وينفعونهم بعلة المطبوعات . وحسبنا أن جرنال وقائع البوليس يطبع منه فى كل أسبوعين ألف نسخة على نصف فرخ بحيث يكلف فى السنة خمسمائة جنيه ، ولو طبع فى غير مطبعة المقطم لم يكلف أكثر من ٥٠ جنيهاً فى السنة . هذا فضلا عما يأخذه مقابل طبع أوامر البوليس وما يأخذه قيمة مطبوعات من دفاتر وحوافظ كشوفات لأعمال الحفر مما يوازى ٣٠٠٠ جنيه أو يزيد عنها (١) » .

وقد أشاد كرومر بقيام المقطم بمهمة طبع تقاريره السنوية باللغة الإنجليزية ثم ترجمتها إلى العربية والفرنسية وطبعها وتوزيعها على المشتركين (٢) ، إلى جانب نشر التقارير بأكملها فى أعداد متتالية من المقطم فى الصفحة الأولى .

ولم تلبث الحكومة كذلك أن ساعدت المقطم بتعيينه رسميا لنشر الإعلانات القضائية لمحكمة الاستئناف الأهلية (٣) ، ثم للمحكمة الابتدائية الأهلية (٤) .

وقد بلغ من مساعدات الاحتلال للمقطم أن « أعدت للصحيفة مطبعة خاصة فى إنجلترا كانت تطبع المقطم ثم تقوم بطيه فى طيات صغيرة حتى يسهل حملها ، وبخاصة فى جيوب العمد ومشايخ البلاد . وأطلق على هذا النوع من المطابع تعبير « مطبعة حجم المقطم Mokattam Size » واشتهر أمرها فى إنجلترا واستخدمتها صحف كثيرة بعد ذلك (٥) .

وكان لهذا كله أثر بالغ فى التحكم فى التوزيع فكان المقطم الذى يناصر الاحتلال يوزع ضعف أو ثلاثة أمثال عدد نسخ المؤيد (٦) . واستنجدت جريدة المقطم بالحاكم والمأمور ، وتهاجمها جريدة « الاتحاد المصرى »

---

(١) جريدة الفلاح : أول يونيو ١٨٩٣

(٢) Blue Books, Reports of Consul General, Egypt No. 1, (1906) p. 2.

(٣) جريدة المقطم : ١٢ إبريل ١٨٨٩

(٤) جريدة المقطم : ٢٨ مايو ١٨٨٩

(٥) من حديث جرجس يوسف سكرتير تحرير المقطم ما بين ١٩٣٥ ، ١٩٥٤ نقلا عن فارس نمر .

(٦) WOOD : Eg. under the British p. 153.

فقد « وعدت كل مشترك بأن توصله إلى درجة الحكام ومقام الشرفاء ألم تجعل الاشتراك فيك بتعهدات وقسائم ، ألم تتخذ لك مع الحكام أنصاراً يأخذون ختم المشترك فيدفعونه على قسيمة الاشتراك فى يدك حتى لا تعود تقبل لهم فى رده إنكاراً (١) » . وقد أوهم بعض وكلاء الجرائد الناس أن من لم يشترك فى جريدة (كذا) أو من اشترك فيها ورفضها ربما ناله ضرر فى معاشه أو تعطلت عليه مصالحه (٢) .

وكان من أثر ارتباط المقطم برجال الاحتلال أنه عندما ترددت الأنباء فى إنجلترا فى أواخر ١٨٩١ عن قرب تحديد موعد للجلاء ، يعترف كرومر بأن ذلك أثار موجة من الانفعال فى مصر وتوقف ١٢٠ مشتركاً فى جريدة كبرى تؤيد السياسة البريطانية فى مصر عن الاشتراك فى الجريدة(٣) .

وقد قامت سياسة المقطم بوجه عام على تأييد أعمال الإنجليز فى مصر وتأييد الاستعمار الإنجليزى عامة والاحتلال الإنجليزى لمصر بوجه خاص لما «نال مصر من خير على يديه» ثم الإشادة بالإنجليز وتقدمهم حربياً وعلمياً وتفوقهم على جميع دول العالم ، وفى الوقت نفسه يعقد المقارنات بين تأخر المصريين وتقدم الإنجليز . وهو فى الوقت الذى يؤيد فيه إنجلترا يعارض تركيا وسياستها وأحوالها المضطربة وفرنسا وسياستها غير المستقرة وأطماعها فى مصر : « فالاحتلال فى مصر والاحتجاج فى باريس والغضب فى الآستانة ، والرضى فى لندن وسائر الدول شهود (٤) » .

وأفرد المقطم عدة مقالات بعنوان : هل مصر فى تقدم ؟ . ويرد على ذلك بأنها « تقدمت وتتقدم وهى الآن فى تقدم لا ينكره إلا طامع بنا أو ذو رغبة ، كيف لا ، وهى راتعة فى ظل خديويها ووزيرها . وآمنة بهمة أعوانهما الإنجليز من كل طارق(٥) » . أما عن تحسن مالية مصر « فيطول

(١) جريدة الاتحاد المصرى : ٧ نوفمبر ١٨٨٩

(٢) مجلة الأستاذ : ١٦ مايو ١٨٩٣ ، ٢٣ مايو ١٨٩٣ – « مقالات فى مهاجمة المقطم » .

(٣) Zetland : Life of Lord Cromer p. 19? (London 1932)

(٤) جريدة المقطم : ١٨ ديسمبر ١٨٩١

(٥) جريدة المقطم : ٢٦ فبراير ، ٢٧ مايو ١٨٨٩ وما بعده (راجع الفصل الخامس من البحث) .

بنا تعداد الفوائد الجمة التى أدخلت عليها (١) » . كذلك تحسنت المحاكم الأهلية ، ولكنها تحتاج إلى زيادة التدقيق فى انتقاء القضاة ، ولا بد من زيادة الإنجليز عما هم عليه الآن حتى يتفقدوا المحاكم ويفتشوا كل أعمالها ويجعلوا القضاء صحيحاً . أما إدارة داخلية البلاد فيكفى لبلوغ التقدم تعيين اثنين من الإنجليز ، والتعليم يحول بينه عدم تيسر المال ، والضرورة تقتضى إبقاء زمام التعليم بأيدى الأساتذة الأوروبيين (٢) » . هذا وقد تقدمت الأشغال العمومية « بفضل ويلكوكس وفوستر ، وهؤلاء أعيان الفلاحين يعترفون بأن الهناء الذى شملهم وشمل وطنهم كان للاحتلال فيه اليد الطولى (٣) » . وينشر المقطم بياناً بزيادة الإيرادات عن المصروفات « وفى أى عصر غير هذا العصر سمعت الرعية بإلغاء الضرائب(٤) » .

أما عن الجلاء « فإذا كان لابد منه على تمادى الأيام فلا يتم قريباً كما يتبادر إلى الأوهام (٥) » . وتحبذ الجريدة سياسة الحزم والحكمة التى اتبعها الخديو فى استناده على الدولة الإنجليزية صاحبة النفوذ والكلمة(٦) .

وتعقد الصحيفة مقارنة بين « البلاء الذى نزل بالبلاد فى عام ١٨٨٢ ، وكيف صال شيطان الفوضى ، ولم تكن اليد المنقذة شرقية ولكنها أرجعت المياه إلى مجاريها وشيدوا دعائم الحضارة فهل نلام إذا شكرناهم وفاء الدين الجميل(٧) » .

ويتحدث المقطم عن إنجلترا سلطانة البحار (٨) ، وجيش هذه الدولة التى تحكم ٣٢١ مليوناً من الأنفس (٩) ، وكانت خطب ملكة إنجلترا

---

(١) جريدة المقطم : ١٨ يونيو ، ٨ أكتوبر ١٨٨٩ ، ٢٥ فبراير ١٨٩٠
(٢) جريدة المقطم : سلسلة مقالات (مصر فى سنة ١٨٩٠) فى ٦ ، ٨ ، ٩ سبتمبر ١٨٩٠
(٣) جريدة المقطم : ٢٦ أكتوبر ١٨٩١
(٤) جريدة المقطم : ٤ يناير ١٨٩٢
(٥) جريدة المقطم : ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٩ نوفمبر ١٨٩١
(٦) جريدة المقطم : ٢٧ إبريل ١٨٨٩ ، ٦ ، ٨ سبتمبر ١٨٩٠
(٧) جريدة المقطم : ١٦ أغسطس ١٨٩٠ ، ٢٢ يوليو ، ١٨ ديسمبر ١٨٩١
(٨) جريدة المقطم : ٩ ، ١٥ مارس ١٨٨٩
(٩) جريدة المقطم : ١٩ مارس ١٨٨٩

تنشر كاملة باللغة العربية فى الصفحة الأولى (١) . أما عيد ميلاد الملكة فكان يستغرق الحديث عنه معظم الصفحة الأولى وما يقيمه بارنج من احتفالات وما يقوم به الجيش من استعراضات (٢) . بل إن وفاة ابن ولى عهد إنجلترا كانت لدى المقطم أشبه بوفاة توفيق إذ « كان المصابان فى أسبوع واحد ، وقد تشابهنا كلانا فى المصاب القادح كما تشابهنا فى المصالح » (٣) ، صفحة أولى بأكملها فى رثاء «الغصن الذى ذوى » .

ولعل أشد المقالات قسوة على الشعور الوطنى المقال الخاص بشروع إنجلترا لعقد وفاق مع تركيا حول مصر وأن « ذلك لن يتم إلا إذا وثقت تمام الثقة ببقائها بعد جلائها ، وهذه الثقة لن تحصل إذ لم يروا من الأهالى إلا جفاء ونفوراً ومعاندة ومقاومة ، فيحكموا على المصرى أنه ليس أهلاً لتولى أموره بنفسه . والعاقل يرى اتباع سياسة المحاسنة والموادعة . ثم ما هو الاستقلال الذى يبكونه والحرية التى يندبونها ؟ فى زمان أى الآباء والجدود تمتعوا باستقلال وحرية حرموهما الآن ؟ ومتى كان زمام البلاد فى قبضة يدهم وسلب الآن منهم ؟ وأى شىء تغير عليهم . وما ضرهم إذا انفردت بالنفوذ دولة واحدة بينهم لا سبع عشرة دولة أجنبية وأى خسارة خسروها بتقليد رجال من الإنجليز وظائف كان يتقلدها غيرهم من سائر الأجانب . وما ضرهم وجود فرقة من الجنود الإنجليزية لزيادة توطيد الأمن ، ومشاورة دولة واحدة لا مرضاة سبع عشرة دولة . لهذا كله لا نزال نتبع سياسة المحاسنة ونحض على ترك سواها فهى النافعة لهذا القطر والكافلة لتأييد الاستقلال » (٤) . وبعد أربعة أيام من هذا المقال يكتب المقطم فى صفحته الأولى « علمنا أن ما كتبناه تحت عنوان الاحتلال والاستقلال حل لدى العقلاء محل القبول لمطابقته مصلحة البلاد وأحكام العقول » (٥) . ولا عجب

---

(١) جريدة المقطم : ٧ سبتمبر ١٨٨٩ ، ٢٠ فبراير ١٨٩٠

(٢) جريدة المقطم : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ مايو ١٨٩٠

(٣) جريدة المقطم : ١٥ يناير ١٨٩٢

(٤) جريدة المقطم : ١٧ إبريل ١٨٩٠

(٥) جريدة المقطم : ٢١ إبريل ١٨٩٠

بعد هذا إذا « كان ما لاقاه المقطم من أعدائه أمرا عظيما ، فتآمروا عليه جماعات وقصدوا إلى إدارته ليضربوا أصحابه ويلحقوا بهم كل سوء فتعجلتهم الحكومة ودفعت عن المقطم شرهم ، وكم حاولت حكومة الاستبداد كسر تلك الأقلام التى نمقت ديباجة المقطم فحال اللورد كرومر بينهم وبين ما يشتهون (١) » . فكان دفاعاً أقوى من أى اتهام يوجه إلى المقطم وهكذا نجح كرومر فى الحرب الصحافية فى استخدام المقطم ليجتهد فى إكسابه ثقة الأغلبية من الأمة (٢) .

وأصدر الاحتلال صحيفة أخرى تصدع بأمره وتذيع آيات فضله ، بل كانت هى لسان حال الاحتلال الإنجليزى (٣) ، ألا وهى « الجريدة المصرية » وكانت نسخة عربية من صحيفة الإجبشيان جازيت الإنجليزية . وكان المراد منها أن يكون للمصريين الاطلاع على أفكار الإنجليز الحقيقية فيما يتعلق بأعمالهم فى مصر وفى إيضاح الإصلاحات (٤) .

كذلك لما رأى رجال الاحتلال أن جريدة المؤيد تلاقى قبولاً شديداً فى أوساط الوطنيين المصريين استدعوا حسن حسنى باشا من الآستانة لإنشاء جريدة تقوم لدى الرأى العام مقام المؤيد ، « إلا أن حسن حسنى جاء إلى مصر وأنشأ جريدة النيل على خطة نفر منها الناس فبقى المؤيد كما كان الجريدة الوطنية الإسلامية الوحيدة فى القطر المصرى (٥) » .

وإذ شعر حسن حسنى بيد الاتهام توجه إليه حاول الدفاع عن جريدته « فدولة إنجلترا غنية جداً من أن تحتاج إلى ترويج سياستها عن التيمس أشهر جرائد العالم وأشدها فضلاً عن النيل وأمثاله ، إنجلترا غنية بقوتها

---

(١) ولى الدين يكن : المعلوم والمجهول جـ ١ ص ١٠٩ ،
Cromer : Abbas II p. 35.

(٢) عبد الرحمن الرافعى : خطبته فى بروكسل — جريدة العلم فى ١٩١٠/١٠/٢٥

(٣) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٣٢ ، ٣٣

(٤) جريدة القاهرة الحرة : ٢ يناير ، ٤ فبراير ١٨٨٨ ، اللطائف فى ١٥ ابريل ١٨٨٨
(لا توجد أعداد من هذه الجريدة فى دار الكتب المصرية أو فى الإجبشيان جازيت)

(٥) إلياس زاخورة : مرآة العصر جـ ٣ ص ٤٥١

وجنودها وما لها ومقامها الأعظم السياسى فى البر والبحر عن المساعدة ، فهى أعز مكاناً من أن تستعين على سياستها بمعين ، فهى ترفع أعلامها على ٣٠٠ مليون من العالم (١) » . وكان الدفاع أقوى برهان على توليه الدعاية لإنجلترا ، بل يتمنى حسنى أن يخدم إنجلترا إذ « لو أن الأمر كما يقول الاسفنكس لعددته من الأهمية بمكان عظيم فإن اعتماد السياسة الإنجليزية لايقع إلا على ذوى أهمية فى العالم السياسى (٢) » .

ويحس « النيل » بما سيثيره موت توفيق من اضطراب فى أمور مصر فينشر بعد نعى الخديو « أنه كان قد منح إنجلترا عدة امتيازات وأنها ستغتنم بوفاته وسيلة لتحديد زمن الانجلاء (٣) » . فكأن الجريدة تضع أمام الخديو الجديد السياسة التى يجب عليه اتباعها مع الاحتلال وإطاعة أوامره .

وقد استخدمت جريدة النيل طريقة تحاول البعد بها عن اتهامها بتأييد الاحتلال ذلك أنها كانت تعمد إلى اقتباس آراء وأقوال الصحف الإنجليزية فى توضيح مزايا الاحتلال وتحاول الجريدة الرد على ذلك مؤيدة فإذا قالت التيمس إن المنكر لفوائد احتلال الجيش الانجليزى فى مصر لم يزل يحتاج إلى دليل وعليه أن يطالع الكشوف ليعلم نمو سعادة مصر ، « فالنيل يذكر التيمس أنها قد نسيت أن ذات الاحتلال لم يحصل إلا بسبب عدم الانتظام ، والذى نعلمه أن أعالى رجال الإنجليز لم يفدوا إلى مصر إلا لمعاونة الحكومة على تتميم الإصلاح (٤) » .

وأخذت بعض الصحف منذ واقعة التل الكبير تنحاز إلى صفوف الإنجليز ، وكانت جريدة الوطن على رأس هذه الصحف فقررت أنه بعد أن استتب الأمن العام فمن الواجب على كل مصرى « الإقبال على أشغاله مطمئن ، غير متعرض لما لا يعنيه من السياسة والإدارة ، فقد اتضح من جرائد إنجلترا حسن نوايا الإنجليز ومقاصدهم نحو مصر وقالت البال مال

(١) جريدة النيل : ٣ يناير ١٨٩٢
(٢) جريدة النيل : ٤ يناير ١٨٩٢
(٣) جريدة النيل : ٩ يناير ١٨٩٢
(٤) جريدة النيل : ١٠ ، ٣١ مارس ، ٢٤ يوليو ١٨٩٢

جازيت إنه لا يصح أن تكون سياسة إنجلترا مبنية على اللائحة الوهمية وهى مصر للمصريين (١) » .

ثم عادت إلى الظهور فى بداية الاحتلال جريدة الزمان لصاحبها الأرمنى ألكسان (علسكان) صرافيان ومحررها حسن حسنى باشا (٢) ، ويقول قسطاكى « إن الاحتلال راق للأرمنى ألكسان فصدر جريدة الزمان وصار يتغنى على صفحاتها بمزايا هذا الاحتلال ويتمناه لعاصمة بنى عثمان لراحة أبناء جنسه (٣) » . ويقول دى طرازى عند وصفه للزمان إنها « أول جريدة عربية أخذت بناصر الإنجليز لأنها توسمت فيهم خيراً لمصلحة البلاد(٤) » .

وأظهر « البرهان » بعد عودته إلى الصدور ميله إلى « المسالمة والتوفيق بين القلوب بلا نظر للجنسية والمعتقد ، وقد جمعت إنجلترا من جنودها ما يكفى لردع العصاة الذين تمزقت قوتهم بعد ٣٠ دقيقة(٥) » .

ومن أهم الصحف التى استطاع الإنجليز اجتذابها إلى صفوفهم صحيفة « مرآة الشرق » ويقول إلياس زاخورة « إن هذه الصحيفة توزع نيفاً وستة آلاف نسخة وكان الناس يقبلون عليها إقبالاً شديداً . ثم صدر قرار بتعطيلها لمدة ثلاثة شهور فى عام ١٨٨٤ لمعارضتها الاحتلال ، ثم أخذ بناصرها جماعة من رجال البرلمان الإنجليزى فصدر قرار العفو عنها وظهرت مرة أخرى بعد قليل(٦) » . ثم سافر صاحبها نقولا توما فى نفس العام الى لندن « وعندما تقابل مع بعض رجال البرلمان تغيرت أفكاره السياسية بما اكتسبه من خبرة وتدقيق البحث(٧) » .

كذلك من الصحف ذات الأهمية والتى غيرت اتجاهها السياسى

---

(١) جريدة الوطن : ٢ أكتوبر ١٨٨٢
(٢) جريدة الزمان : ١٢ فبراير ١٨٨٣ (العدد الأول لفترة ما بعد الاحتلال) .
(٣) قسطاكى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف ص ١٢٧
(٤) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية ج ٣ ص ٢٣
(٥) جريدة البرهان : ٥ فبراير ، ٢٢ مارس ، ١٤ ، ١٧ ، ٣١ مايو ١٨٨٣
(٦) إلياس زاخورة : مرآة العصر ج ٣ ص ٤٠٦ ، ٤٠٧
(٧) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ١٥ — ١٧

صحيفة (الاتحاد المصرى) وكان قد أصدرها روفائيل مشاقة (اللبنانى) عام ١٨٨١ ويحررها جورج ميرزا وكان قد تجنس بالجنسية الفرنسية (١) ، والبحث فى موضوع هذه الصحيفة يصل بنا إلى موضوع هام هو :

الصراع بين اللبنانيين والمصريين فى الوسط الصحفى ونتائجه :

تخطى أهالى الشام العمل فى الصحافة فى مصر إلى التجارة ثم إلى المناصب الحكومية فضيقوا الباب أمام الناشئة المصرية وهى الراغبة فى ذلك العمل تصرف إليه همها وتقف عليه علمها (٢) .

ذلك أنه عندما أراد إسماعيل صبغ البلاد بصبغة أوروبية اشتد الطلب على الموظفين الذين يتقنون اللغة الفرنسية إلى جانب العربية لأن معظم أعمال الإدارة كانت تتم باللغة الفرنسية . ويقول كرومر إنه « لم يكن هناك كبير أمل فى قيام المصريين المسلمين أو الأقباط بذلك ، ومن ثم اشتدت الحاجة إلى العنصر السورى ، وكانت فرصة اهتبلها أهل الشام فهم يملكون كل ما تستلزمه الإدارة فى مصر : إتقان العربية والفرنسية وشغف بالعمل والطموح .

« وعندما استولى الإنجليز على شئون الإدارة فى مصر واتت الظروف السوريين مرة أخرى ، فالإنجليز يجهلون اللغة العربية ولا يعرفون سوى القليل من الفرنسية . ولم تكن هناك فائدة كبرى ترجى من وراء استخدام مسلمى مصر وأقباطها ، وهكذا لم يكن هناك سوى السوريين الذين كانوا فى نظر الإنجليز أرقى من المصريين سواء منهم من أخذ بالتمدن أم لم يأخذ » .

وفى نفس الوقت يتساءل كرومر عن موقف السوريين من الإنجليز ويجيب على ذلك التساؤل بأن أهالى الشام كانوا موزعين بين عاملين : عامل الثقافة الفرنسية التى تبعدهم عن كل ما هو إنجليزى ، وعامل احتقار الإنجليز للإجراءات والرسميات التى كان يعتنقها الشوام ذوو العقلية البيروقراطية مما يدفع السوريين إلى البعد عن الإنجليز .

---

(١) J. Landau : Op. Cit. p. 104

(٢) حافظ إبراهيم : ليالى سطيح ص ٣٤ (القاهرة الحديثة ١٩٥٩) .

وعلى أية حال فقد خدم السوريون فى الإدارة المصرية تحت الإشراف الإنجليزى ، وكان لذلك نتائج طيبة وخاصة فى بداية الاحتلال(١) .

وحدث النفور بين المثقفين من المصريين والسوريين ، وكانت الصحف هى ميدان الصراع بين الفئتين ، وكانت فرصة أمام سلطات الاحتلال عادت عليه بأكثر من فائدة :

أولاً : فالصحف المدافعة عن اللبنانيين – مهما كانت صبغتها وميولها لفرنسا – تقربت من الإنجليز ووجدت فيهم ملجأ وملاذاً فى صراعها ضد صحف الجانب الآخر .

ثانياً : خلق ثغرة لزيادة التدخل فى شئون البلاد باعتبار الإنجليز مسئولين عن توطيد الأمن وإطالة أمد الاحتلال نتيجة لذلك .

ثالثاً : كذلك إيجاد متنفس للصحف تصرف فيه جزءاً من نشاطها وكتاباتها بعيداً عن الاحتلال وأعماله والقضية الوطنية .

رابعاً : ثم أن مداومة تناول الموضوع أوجد النظرية القائلة بالقومية المصرية وهذه بداية لتفكيك رابطة هامة كانت تربط مصر والبلدان العربية بالكيان العثمانى العام ، فإذا نجحت فكرة القومية المصرية كان ذلك تمهيداً للمناداة بالقومية المستقلة لكل بلد عربى ، وذلك نجاح للدول الأوروبية وسبيل للتدخل دون خوف من إثارة الكيان العثمانى العام .

خامساً : كذلك فإن الصراع بين بعض اللبنانيين (أدوات الاحتلال الإنجليزى فى مصر) وبين المصريين من المحتمل أن يكون من بين الأسباب المعوقة أمام انسجام الحركة الوطنية المصرية والحركة الوطنية العامة فى البلاد العربية .

---

(١) Cromer : Modern Egypt V. II pp. 214-219 يطلق كرومر لفظ السوريين على أهل الشام الذين وفدوا إلى مصر ويلاحظ أن معظم هؤلاء من لبنان ومن بيروت بوجه خاص (ذلك أن لفظ سوريا رادف لفظ الشام قبل التقسيم الحديث إلى سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) .

صحيفة الاتحاد المصرى تنحاز الى صفوف الاحتلال :

وبدا هذا الصراع فى أوضح صوره فى المساجلات التى حدثت بين المؤيد من ناحية وجريدة « الاتحاد المصرى(١) » من ناحية أخرى فقد ردت هذه على المؤيد « لأن صاحبه يعيرنا بلبنان ، يعيرنا بجبل رفيع الشأن فى التاريخ ، أتعامى عن أن اللبنانيين هم السابقون على إنشاء الجرائد العربية ، ومنها النجاح والمقتطف والأهرام والطبيب والشفاء والمقطم واللطائف والحقوق والمحروسة ، فأصحابها من أهالى لبنان (٢) » . ثم تشرح الوطنية فى مصر « وتعريفات الوطنية كلها تنطبق على حالة المصريين والسوريين فهى تتناول كل فرد من أفراد الرعية على شرط أن يكون خاضعاً لشرائع الدولة ، وهل السورى والأرمنى وغيرهم من العثمانيين يعتبرون أنفسهم غرباء والحكومة عثمانية أم يعدون أنفسهم عثمانيين والحكومة أجنبية . وإذا أريد الاقتصار على القانون العثمانى كان لجميع السوريين المقيمين فى مصر حق الظهور لدى الحكومة بمظهر المصريين جنساً وواجباً وحقاً (٣) » . وتابعت جريدة الاتحاد المصرى بيان وجهة نظرها وأوردت أقوال رجال القانون الدولى فى الوطنية والجنسية (٤) .

ورغم ذلك أصدر رياض قراراً فى عام ١٨٩٠ بوقف توظيف أهالى الشام فى المصالح الحكومية ، فتدخل كرومر وأصدر أمراً للوزارة بأنه « طالما كان هناك جندى بريطانى واحد فى شوارع القاهرة فلن يصدر قرار يفرق بين الناس على أساس الجنسية أو الدين(٥) » .

وهكذا وجدت الصحف اللبنانية فى المعتمد البريطانى سنداً وعوناً فى قضيتها ، ولم تلبث جريدة الاتحاد المصرى أن تحولت إلى حد الدفاع عن

---

(١) يلاحظ أهمية هذه الصحيفة فهى رغم قيام لبنانيين على إصدارها كانت تسمى « الاتحاد المصرى » وتدافع عن مصالح اللبنانيين فى مصر .

(٢) جريدة الاتحاد المصرى : ٢٤ إبريل ١٨٩٠

(٣) جريدة الاتحاد المصرى : ٢٠ أبريل ١٨٩٠

(٤) جريدة الاتحاد المصرى : ٢٤ ، ٢٧ إبريل ١٨٩٠

(٥) Cromer : Modern Eg. pp. V. II p. 217.

الإنجليز ورفعت إلى السير بارنج « بلسان المصريين والسوريين واجب الشكر (فهو) صاحب الفضل الذى لا يعبأ بتفاوت المذاهب واختلاف المشارب بل يقابلها بكرامة الطبع واستقلال الضمير ، وشهد الله أن السوريين كإخوانهم المصريين لا ينكرون منافع الإصلاح الظاهرة على يديه ولا يملون من توجيه الثناء إليه ، ومصر فى نظر الإنجليز بلد أراقوا فى نجاتها من الفوضى الدماء ، وكانت لديهم بعد متاعبهم غالية لا يهون عليهم أن يخرجوا منها لمجرد طلب لدولة غريبة قبل أن يتموا مشروعاتهم ووقاية مصالحهم [1] » .

ثم صدر القانون عام ١٨٩٠ بمنح السورى الذى عاش فى مصر ١٥ سنة الحق فى التوظف لدى حكومة مصر [2] .

وقد أدرك حافظ إبراهيم مغبة النتائج التى تترتب على ازدياد هذا النفور وناشد المصريين والسوريين أن يتناسوا ما يجد بينهم من خلاف فيقول فى قصيدة تحية الشام [3] : (ألقيت فى بيروت عام ١٩٢٩) :

متى أرى الشرق أدناه وأبعده عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
إن دام ما نحن فيه من مدابـــرة وفتنة بين أجنـــاس وأديان
رأيت رأى (المعرى) حين أرهقه ما حل بالناس من بغى وعدوان
إنى مللت وقوفى كل آونة أبكى وأنظم أحزانا بأحزان

وفى موضع آخر [4] (من قصيدة سوريا ومصر . نشرت فى مارس ١٩٠٨) :

إذا ألمت بوادى النيـــل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب
لولا رجال تغالوا فى سياستهم منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا

تحولت «الاتحاد المصرى» إذن بل أصبحت تعارض فرنسا وصحيفة الأهرام بعد « أن علم الوزير أن الجريدة (الأهرام) ليست لسان حال

(١) جريدة الاتحاد المصرى : أول مايو ١٨٩٠
(٢) Cromer : Modern Eg. V. II p. 216
(٣) ديوان حافظ : جـ ١ ص ٩٠ (المطبعة الأميرية ١٩٥٣) .
(٤) ديوان حافظ : جـ ٢ ص ٢١٦ (المطبعة الأميرية ١٩٥٣)

السوريين ، فعقلاؤهم غير راغبين عن تنديدها ولا مشاركين لها فى سياستها ، وكان قد ترتب على منهج بعض جرائدنا المدعية بكونها لسان حال السوريين أن اعتقد الإنجليز والوطنيون معاً أن السوريين إنما هم عاملون على خدمة المصلحة الفرنسوية ورغائب الفرنسويين فى مصر ، وجميع نزلاء العاصمة من السوريين يقولون لافض فوه «الاتحاد» ولا عدمنا مثل «المقطم» نظيراً مساعداً (١) » .

وقد جر ذلك النقاش إلى إشاعة أن الأهرام لم يعد لها مجال فى مصر إذ «أبلغنا ثقة أن أصحاب الأهرام قد عقدوا النية على الانتقال بأهرامهم إلى الآستانة حيث يقصدون أن يمثلوا فى ملعب أغراضهم دوراً جديداً فقد خمد فى مصر سعير مقاصدهم . ولكن لنا بدراية سليم فارس الشدياق ضمانة كافية لتدفع عن المصلحة العثمانية مساعى المفسدين ، فما له فى الآستانة من رفعة المكانة لا يترك لذوى الغايات مجالاً (٢) » .

وبعد أن كانت صحيفة « الاتحاد المصرى » تفرد معظم صفحاتها فى الحملة على المقطم وسياسته الإنجليزية (٣) ، والدعوة لفرنسا ولاستعمارها تونس ، انتقلت «الاتحاد المصرى» إلى سياسة مسالمة الاحتلال « وتذكير الدولة الإنجليزية بالوعد غير منكرين لها فضل إصلاح وأريناها الكفاءة والتروى فتركنا وشأننا (٤) » ، وأطلقت على رجال الاحتلال عبارة « الضيوف النزلاء » ، وتحول هجومها ضد المقطم إلى دفاع عنه ضد الأهرام (٥) والبسفور ، بل التمست من الحكومة أن « تسعى لإلغاء جريدتى السفنكس والبسفور لئلا يتأتى عن طريقتهما ما تسوء عاقبته (٦) » .

وهكذا نجح كرومر فى جذب صحيفة الاتحاد المصرى إلى صفه ومعاداة فرنسا .

---

(١) جريدة الاتحاد المصرى: ١٤ سبتمبر ١٨٩٠
(٢) جريدة الاتحاد المصرى : ١٨ سبتمبر ١٨٩٠
(٣) جريدة الاتحاد المصرى : سلسلة مقالات من ٢٧ يونيو١٨٨٩ إلى ١٢ ديسمبر ١٨٨٩
(٤) جريدة الاتحاد المصرى : ٢٤ أغسطس ١٨٩٠
(٥) جريدة الاتحاد المصرى : سلسلة مقالا ت من ٢١ سبتمبر ١٨٩٠ إلى يونيو ١٨٩١
(٦) جريدة الاتحاد المصرى : ٢٩ يناير١٨٩١

ازدياد العناصر غير المصرية فى الصحافة المصرية :

وقد عمد الاحتلال إلى استخدام مختلف الجنسيات لإصدار الصحف العربية فى مصر، ويقول الخديو عباس حلمى« إن الصحافة المصرية كانت فى تلك الفترة إلى حد ما فى أيدى أجانب أو فريق من الأمة يؤثر إرضاء مطامحه على المحافظة على مصلحة مصر . كما كانت تلاطف الدولة المحتلة(١) ». وهكذا انتهى الحال بعد الاحتلال بأن أصبحت الصحافة فى مصر صناعة أجنبية كاد ينساها المصرى ، « وكان عاراً علينا أن يوكل تكوين الرأى العام المصرى إلى أقلام غير مصرية ، غريبة عنا فى المزاج ، لايشغل قلوب أصحابها ما يشغل قلوبنا من أمانى وآمال ، وكان علينا جميعاً أن نقرأ كل يوم ما يكتبه لنا الصحفيون غير المصريين فيما يجب علينا وما لا يجب أن نتبعه فى سياسة بلادنا من الخطط ، وكانت الصحف والمجلات غير المصرية (الأجنبية) تنساب بين العامة كأنها الحيات السامة ، وبها هذر وهذيان وسخف لتسميم العامة وإضعاف عقولها (٢) » .

ويصف محمود عزمى هذه الحالة « بأن كرامة الصحافة وحريتها تهونان فى اللحظة التى تقبل فيها الصحافة مكان التبعية ، وأنه لكى تؤدى الصحافة واجباتها فى استقلال كامل حتى يستفيد الشعب منها لاتستطيع أن تتفق مع الساسة المعاصرين أو ترتبط بهم (٣) » . وهذا الرأى يخالف ما يذهب إليه بعض مؤرخى الصحافة من أن التبعية ليست عاراً « فإن حماية فرنسا للأهرام أو إعجاب صاحبيها بها لم يحل قط دون أداء رسالتها الوطنية (٤) » . أما ولى الدين يكن فيقول إن « صاحبى الأهرام محميان بقوة فرنسا ولم يريا من المروءة أن يخالفاها فى سياستها الاستعمارية ، ولولا

---

(١) مذكرات الخديو عباس حلمى الثانى : جريدة المصرى فى ١٠ مايو ١٩٥١

(٢) سلامة موسى : الصحافة حرفة ورسالة ص ٦ ، ٧ ، ١٢ ، ١٣

(٣) محمود عزمى : مبادىء الصحافة ص ٦٠ ، ٦١ (نقلا عن روبرت لو بجريدة التيمس) .

(٤) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ١٤٠ ،
إبراهيم عبده : جريدة الأهرام ص ١٥١

ما سبق منهما من الإفراط فى العصب لها لكان عذرهما أوسع » .(١)

ولا جدال فى أن فتح الباب على مصراعيه بأن يصدر كل من يشاء صحيفة عربية فى مصر كانت نتيجته الأولى تضارب المصالح الدولية ، « و ساعد الناس على ذلك احتماء بعضهم بالنفوذ الأجنبى المساعد على إصدار الصحف بلا استئذان فتكاتفوا على استخدام أقلامهم فكثرت الجرائد والمجلات فى مواضيع مختلفة ومشارب متنوعة ، ولبعض الجرائد السياسية فى بلادنا عذر فى انتمائها إلى الاحزاب التماساً لما يساعدها فى قيام أودها لأنها إذا لم تفعل ذلك سقطت لا محالة ولكنه عذر لا يقبله جمهور القراء »(٢) .

وكانت الصحف تفخر بانتمائها إلى الدول الأجنبية وأصبح مقرراً فى الأذهان أن الجريدة السياسية بمصر لا تفلح إلا إذا انتمت إلى دولة من الدول . فمن يقدم على إنشاء جريدة يبدأ أولاً باختيار الخطة السياسية التى يتخذها وأشهرها : الحزب الوطنى المصرى أو الحزب العثمانى أو حزب الاحتلال أو الحزب الفرنساوى . ولكن يندر أن تكون الجريدة منقطعة إلى حزب دون سواه فالغالب أن تجمع بين اثنين كأن تكون عثمانية وطنية ، ومعنى هذا الإنشاء تصويب سياسة حزبها وأنها أنفع لمصلحة القطر فى مقابل منفعة ترجوها منه (٣) .

ولم يكف الاحتلال ما صدر فى مصر من صحف « فصدرت فى لندن جريدة باللغة العربية تسمى ضياء الخافقين . . ووجدناها تغتذى من اللبان التى يغتذى منها المقطم وتنسج على منواله فى ذم الشرقيين واضمحلال الدولة العلية (٤) » .

وهكذا أصبحت البلاد مسرحاً لجرائد كثيرة « تتكلم بما تريد وتتصرف فى أفكارها كيف تشاء ، هذه تقول أنا وطنية ، وهذه تدعو للإنجليز أو لفرنسا ، وهذه مذبذبة وهذه علمية ، وهذه تورد لهم من مصادرات

---

(١) ولى الدين يكن : المصدر السابق ذكره ص ١٢

(٢) مجلة الهلال : ١٥ أكتوبر ١٨٩٧

(٣) المصدر السابق

(٤) جريدة الفلاح : ١٢، ١٩ ، ٢٦ مايو ، ١٦ ، ٢٣ ، ٣٠ يونيو ١٨٩٢

الأديان ما يوقعهم فى الشك والتردد ، وهذه دينية ، وهذه حقوقية ، وهذه طبية . وتركت إنجلترا للجرائد أن تخوض فى المواضيع المتضادة وتلعب بالأفكار الجامدة ونحن فى بحار اللهو غارقون »(١) .

ويصف هارتمان هذه الحالة بأنها قد تكون مثار إزعاج لدى بعض الناس ، « ولكن ليس هناك ثمة داع لهذا الانزعاج فإن الجهل والبلادة المسيطرين على العقول كانا فى حاجة إلى بذل جهد ضخم للتخلص منهما وإلى جانب المدارس لم يكن هناك من وسيلة فعالة سوى الصحافة »(٢) .

أى أن الصحافة فى مصر أصبحت فى هذه الفترة مدرسة للرأى العام ، « والصحافة مرآة الأمة تريها نفسها الآن وتريها نفسها فى المستقبل ، وهى لهذا السبب يجب ألا يقوم بها أجنبى غريب عنها فى الدم أو المزاج ، فإن لكل أمة مزاجها ولا يمكنها أن تستجيب للغريب فى الأدب أو الصحافة بل هى إذا استجابت له فى ذلك فاستجابتها برهان على أن ذوقها قد فسد ونفسها قد وهنت لطول ممارستها لهما ، وهذه الصحف لم تكن تعبر عن النفس المصرية أو الذوق المصرى ومن الإفساد لأكبر أذواقنا ونفوسنا أن نطبعها بطابع أجنبى »(٣) .

الاكثار من اصدار الصحف المتخصصة غير السياسية :

ويتبين من مراجعة الصحف والمجلات المتنوعة التى صدرت فى فترة بحثنا كيف زاد عدد الصحف المتخصصة ، فظهر منها المجلات العلمية والقضائية والزراعية والدينية والأدبية(٤) التى تتناول كل فروع الأدب أو ما كان منها خاصاً بالشعر أو بالقصة أو بالشئون النسائية ، «وقد اتخذ بعضهم ذلك دليلاً على انتشار العلوم والمعارف ولاقترابنا من صرح المدنية »(٥) .

---

(١) مجلة الأستاذ : ١٧ يناير ١٨٩٣
(٢) Hartmann : Op. Cit. p. 51.
(٣) سلامة موسى : المصدر السابق ذكره ص ١٠
(٤) مجلة الهلال : ديسمبر ١٨٩٢
(٥) مجلة الهلال : سبتمبر ١٨٩٢

ومن أكثر الإحصائيات فائدة تلك التى أوردها الأنصارى عن الجرائد التى صدرت عام ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ المتداخلة فى ١٨٩٣) فيقول إنه صدرت ثلاث عشرة مجلة علمية وأدبية هى : الأستاذ والثمرة والراوى والرشاد والفتى والفتاة والمدرسة ومرقى النجاح والمنتقد والمهندس والنديم والهدى والهلال . أما الصحف السياسية فلم يصدر منها جديد فى ذلك العام[1] .

ومن تحليل اتجاهات تحرير الصحف فى العقد السابق للاحتلال وفى العقد الأول من عهد الاحتلال يتبين أنه صدرت فى السنوات العشر السابقة للاحتلال ٣٣ صحيفة ومجلة : منها ٣٠ صحيفة سياسية ، ٣ صحف فقط علمية وأدبية . بينما فى العقد الأول من عهد الاحتلال صدرت ٥٣ صحيفة ومجلة : منها ٤٠ صحيفة علمية وأدبية وفكاهية وتجارية ، بينما لم يصدر من الصحف السياسية سوى ١٣ صحيفة فقط[2] .

فهل كان هذا الاتجاه فى صالح مصر ؟ الواقع — كما يقول البعض — إن بلاداً كمصر لها قضايا تحريرية وسياسية واجتماعية كان من المفروض أن تقوى فيها صحافة الرأى قبل صحافة التخصص ، فهذه الأخيرة تستنفد جزءاً ليس بالضئيل من مجهود الكتاب والصحفيين وتشغل وقت القراء مما ينسيهم — إلى حد ما — أن لهم قضايا كبرى يجب أن تطلعهم الصحف على تطوراتها دواما[3] .

ولم تصدر سوى مجلة واحدة تهتم بالعلوم قبل الاحتلال ، وهى مجلة المنتخب التى ظهرت عام ١٨٨١ ، هذا إلى جانب صحيفة يعسوب الطب الرسمية التى صدرت عام ١٨٦٥ .

وقد صدر فى العقد الأول من الاحتلال ثمان عشرة مجلة علمية منها اثنتا عشرة عامة تتناول فروع العلم المختلفة إلى جانب ثلاث مجلات تخصصت فى الزراعة وثلاث أخرى للصحة . وتدافع مجلة «الفرائد»

---

(١) عبد الله الأنصارى : المرجع السابق ذكره ص ٧٢ ، ٧٣

(٢) راجع الجداول المنشورة فى الملحق رقم ٢ بنهاية البحث .

(٣) مجلة روز اليوسف : يونيو ١٩٥٢

عن الإكثار من هذه المجلات واتساع نطاقها « فربما قال البعض إن الجرائد العلمية كثرت فى مصر فى هذا العصر وأصبحت فى مقام الابتذال ، فنقول له مهلاً أين هى جرائدنا القليلة من تلك الجرائد الغربية الوفيرة وهى وإن كانت عديدة فالناس فيما يعشقون مذاهب » (١) .

وتعد مجلة المقتطف أولى هذه المجلات إذ نقلها أصحابها من بيروت إلى القاهرة وصدر العدد الأول فى القاهرة فى مطلع عام ١٨٨٥(٢) .

وإذا كان المقتطف قد صدر لنشر العلم وتوسيع نطاقه فإن أصحابه كانوا يبثون فيه آراء سياسية تنساب إلى القراء مع الأنباء العلمية ويصبح لها صداها وأثرها . فأفرد المقتطف على سبيل المثال ست صفحات كاملة عن قوات الدول الأوروبية « وتعد قوة إنجلترا الحربية على رأسها »(٣) . ثم يتحدث عن الأحزاب الإنجليزية بعد أن « اقترح علينا بعض وجهاء مصر إدراج مقالة فى أحزاب الإنجليز السياسية وأصلها وتاريخها ، والناقد المنصف يحكم أن أعمال الحزبين ، المحافظين والأحرار ، آلت إلى تقدم وطنهما وأن إصلاح الوطن جرى تارة على يد الحزب الواحد وطوراً على يد الحزب الآخر »(٤) .

وفى سلسلة مقالات بعنوان « شذر الإبريز فى نوابغ العرب والإنجليز » أخذ يقارن بين هؤلاء النوابغ الكثيرين المتشابهين فى كثير من أطوارهم . وتحدث فى العدد الأول من هذه السلسلة عن صلاح الدين الأيوبى وريتشارد قلب الأسد وسمو أخلاق كل منهما(٥) . وفى العدد التالى عقد المقارنة بين المعرى والشاعر الإنجليزى ملتون(٦) . أما عن ابن خلدون وهربرت سبنسر الفيلسوف الإنجليزى فيقول « إن أكثر المواضيع التى طرقها

(١) مجلة الفرائد : ١٥ يوليو ١٨٩٦

(٢) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٢ ص ٥٢ — ٥٤

(٣) مجلة المقتطف : عدد أغسطس ١٨٨٥

(٤) مجلة المقتطف : عدد أكتوبر ١٨٨٥

(٥) مجلة المقتطف : عدد ابريل ١٨٨٦

(٦) مجلة المقتطف : عدد مايو ١٨٨٦

ابن خلدون طرقها سبنسر أيضاً حتى المواضيع العلمية واللغوية والطبيعية والرياضية . ولكن معارف البشر قد نمت فى هذا العصر وزادت زيادة بالغة ولذلك نرى الموضوع الذى كتب فيه ابن خلدون صفحة كتب فيه سبنسر فصلاً أو كتاباً كبيراً »[1] .

وتحدث المقتطف عن « مصادر الثروة » وخصص ست صفحات عن تقدم الإنجليز مما « ينطق باتساع الصناعة والتجارة فى بريطانيا العظمى[2] » .

ولم يكتف بذلك بل نشر كتاب « سر النجاح » وهو مؤلف « روحانيته إنجليزية وجسمانيته عربية ، وقد حوى من المبادئ الصادقة ما يشهد بجليل الفطرتين فكان أرفع روح فى أجمل جسد »[3] .

وظهرت مجلة النور التوفيقى عام ١٨٨٨ لصاحبها ديمترى مسكوناس ويصفها دى طرازى بأن البعض انتقدها فجريدة البشير البيروتية أشارت إلى خطئها فى بعض المباحث[4] . وقد تميزت أخبارها العلمية بتفاهتها فكانت تخصص ثلاث صفحات مثلا فى الكلام عن الحواس الظاهرة ، بطريقة ساذجة تتناول الكلام عن العين[5] أو الأذن . وكان أسلوبها ركيكاً[6] ، ففقدت المجلة المقومات التى كان يجب أن تستند عليها . وفى الوقت نفسه كانت كل صحيفة علمية تفتتح عددها الأول متحدثة عن أهمية العلوم وأن مطالعتها من الأمور الأولية لتثقيف عقول الفتيان وتهذيب أخلاق الشبان[7] . وكان وصف مجلة الرشاد لهذه الحالة من أصدق ما قيل فى هذا الصدد « فالعجب أن نرى رجلا يشرع فى تحرير جريدة علمية وهو فى المبدأ جاهل بالغاية التى يجب أن تقصد من مثل هذا المشروع بنشر الحقائق فى العقول ، فهو يغفل

---

(١) مجلة المقتطف : عدد يونيو ١٨٨٦
(٢) مجلة المقتطف : عدد نوفمبر ١٨٨٩
(٣) مجلة الحقوق : ١٥ يناير ١٨٨٧
(٤) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٣٤
(٥) مجلة النور التوفيقى : ١٥ فبراير ١٨٨٩
(٦) مجلة النور التوفيقى : أول ديسمبر ١٨٨٨
(٧) مجلة الفتى : أول سبتمبر ١٨٩٢

كل هذا ويجعل همه الاتجار وجمع الدرهم ، وهيهات أن نرى جرائدنا ناهجة المنهج القويم »(١) .

وظهرت مجلات زراعية قررت « أن القطر المصرى بلد زراعى ، وأن طيب حياة أهاليه ورغد عيشهم متوقفان على الزراعة »(٢) .

أما المجلات الطبية فكان أول ما ظهر منها بعد الاحتلال مجلة (الشفا) لصاحبها ومحررها شبلى شميل وهو باكورة الأطباء الذين تخرجوا فى المدرسة الكلية السورية الإنجيلية ببيروت(٣) . ثم تبعتها مجلة الصحة لصاحبيها الدكتور حسن باشا رفقى وإبراهيم مصطفى(٤) . وظهرت بعد ذلك مجلة الفوائد الصحية لصاحبها الدكتور شلهوب(٥) .

ومن المجلات التى أمكن للاحتلال النجاح فى انحرافها عن وجهتها التى صدرت من أجلها بعض المجلات القضائية وعلى رأسها « مجلة الحقوق » لصاحبها أمين شميل الذى تلقى تعليمه فى مدرسة الأمريكان ببيروت ثم « سافر إلى انجلترا وتعاطى فيها التجارة »(٦) ، فقد أشادت المجلة بتقدم مصر تحت الاحتلال فهى « لم ترتع منذ قرون عديدة بما ترتع به فى الأزمنة الحاضرة من مجابح الأمن والعدالة ، ولم تشاهد منذ نشأتها حرية شخصية وآمالا ونظاماً قضائياً عادلا و .. مثل ما نراه الآن »(٧) .

وكانت مناسبة الاحتفال بعيد جلوس الملكة فكتوريا على عرش إنجلترا فرصة أفردت لها مجلة الحقوق الصفحتين الأولى والثانية لهذه « الملكة الجليلة المملوء من الحوادث السعيدة وفى عهدها نهضت البلاد الإنجليزية إلى قمة

---

(١) مجلة الرشاد : ٣ إبريل ١٨٩٣
(٢) مجلة الزراعة : ٢٣ إبريل ١٨٩١ (راجع الفصل الخاص بأسطورة إصلاح مصر)
(٣) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٧٤ — ٧٦
(٤) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧
(٥) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ج ٣ ص ٨٣
(٦) لويس شيخو : الآداب العربية ج ٢ ص ١٣٩ (المطبعة الكاثوليكية ببيروت: ١٩١٠) .
(٧) مجلة الحقوق : ٥ مارس ١٨٨٧

السلطة ، وقد نالت مصر من المسرات والمظاهرات الولائية قسماً تحرزه التواريخ ما بين الإنجليز هنا وفى الأسكندرية(١) » . ومن المهم أنه فى العدد نفسه كانت مناسبة الاحتفال بجلوس الخديو فأوردت المجلة « التهنئة القلبية » فى أربعة سطور فقط .

وفى مقال آخر بعنوان « ربى وحقى » مزجت الحقوق بين السياسة والناحية القضائية فهما « كلمتان ليس بينهما فاصل . شعار أمة لها فى البحار أساطيل وفى البيد جحافل ، فالحق والخلق ممتازجان متكافلان ، ربى وحقى كلمتان جعلتهما الدولة الإنجليزية لتصرفها أساساً ، وقد يرسم أهل التصوير هذا الشعب حاملا بيده الواحدة التوراة وفى الثانية المدفع ، فمن قبل الأولى فسلام ، وإلا فاجأته بالثانية وهى لا تأنف من استعمال القوة مادياً أو أدبياً ضد من يرفض موالاتها ، وليس هناك مملكة ولا شعباً إلا مديوناً لها فالعالم لديها كالنحل يجنى وغيرها بالذى تجنيه ينتفع لأنها تحافظ على الشرائع والحقوق »(٢) .

وصدرت كذلك مجلة « الأحكام » لصاحبها نقولا توما(٣) ، ثم مجلة « المحاكم » لصاحبها يوسف آصاف اللبنانى(٤) .

ومما يلفت النظر كثرة الصحف الهزلية الفكاهية التى صدرت فى هذه الفترة وكان فى مقدمتها مجلة « الببغاء » لصاحبها نجيب غرغور (اللبنانى) وكانت تحتوى على « لطائف وفكاهات وطرائف »(٥) ، « وفواكه الأرواح » لمحررها نقولا زكا(٦) ، ثم مجلة « السرور » لصاحبها نقولا

---

(١) مجلة الحقوق : ٢٥ يونيو ١٨٨٧

(٢) مجلة الحقوق : ٣ سبتمبر ١٨٨٧

(٣) إلياس زاخورة : مرآة العصر جـ ٣ ص ٤٠٧ — ٤٠٩ ، فيليب دى طرازى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٧٨

(٤) عبد الله الأنصارى : المرجع السابق ذكره ص ٧٠ ،
فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٤١

(٥) فيليب دى طرازى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٦٤ — ٦٥ ،
جريدة القاهرة الحرة : ٣ مايو ١٨٨٧

(٦) فيليب دى طرازى : المرجع السابق جـ٣ ص ٨٠ ،
جريدة القاهرة الحرة : ٣٠ نوفمبر ١٨٨٩

عبد المسيح ومحررها جورجى ميرزا(١) ، وصدرت بعد ذلك مجلة « ثمرة » ثم « النديم »(٢) .

وأوعز الإنجليز – كما يقول دى طرازى – إلى ديوان عموم البوليس بإصدار مجلة مصورة بعنوان « وقائع البوليس » ، وكانت تنشر أهم الحوادث الجنائية وكيفية وقوعها وطرق الاستدلال عليها(٣) .

هذا إلى جانب الصحف التى تخصصت فى الإعلان ، كالمخبر المصرى « والإعلان »(٤) ؛ والصحف الخاصة بالتجارة : كالنشرة التجارية المصرية والدليل التى أصدرها نجيب هندية(٥) . وبدأت بعض الأقاليم تهتم بإعداد الصحف فصدرت فى أسيوط مجلة النزهة لصاحبها جورجى خياط الذى وجدها فرصة للتحدث عن « أكبر مدينة فى الدنيا ، هى مدينة لندن عاصمة بريطانيا ومقر كرسى جلالة ملكة إنجلترا وإمبراطورة الهند ، وللحكومة فيها ميل مفرط لانتشار المعارف وتعميم الآداب ، وهى معمورة بأسباب التقدم وبواعث الارتقاء يتسابق فى مضمارها العام والصناعة والتجارة(٦) . كذلك صدرت « الراوى » بأسيوط(٧) أيضاً ومجلة « المنصورة » واختصت بالإعلان (٨) .

ومن الصحف الفنية ظهرت مجلة « الأزبكية » وكانت تنشر « أخبار التشخيص وتأتى لقرائها العديدين بتفصيلاته »(٩) .

---

(١) Hartmann : Op. Cit. p. 66

(٢) الأنصارى : المرجع السابق ذكره ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١

(٣) فيليب دى طرازى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٤٧

(٤) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ص ٧٨ ، ٨٣ ، Hartmann : Op. Cit. p. 44

(٥) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ص ٤٣ ، ٤٤

(٦) مجلة النزهة (بأسيوط) العدد الثالث فى ١٥ مارس ١٨٨٦

(٧) Hartmann : Op. Cit. p. 64-65.

(٨) جريدة الزمان : ٢٧ يونيو ١٨٨٣ (لا يوجد أعداد فى دار الكتب من مجلة المنصورة) .

(٩) جريدة الزمان : ٢٦ يونيو ١٨٨٣ (لا توجد أعداد فى دار الكتب من مجلة الأزبكية) .

وقد أفردت جريدة الزمان عدة أعداد تؤرخ فيها للصحافة العربية بمصر .

وكثرت الصحف الأدبية كثرة ملفتة ، وانصرف إلى تحريرها كثير من الصحفيين المصريين والوافدين ، ولم يسلم بعضها من الانحراف عن هدفه والاتجاه نحو الدعاية لإنجلترا . وكان على رأس هذه الفئة مجلة « اللطائف » لصاحبها شاهين مكاريوس أحد أصحاب « المقتطف » و« المقطم » ، وكانت أعياد الملكة فكتوريا تجد نصيباً ضخماً من التمجيد والإشادة بها فأفردت لها اللطائف عشر صفحات كاملة « بمناسبة مرور خمسين عاماً على ترقيها سدة الملك »(١) ، ومرة ثانية تحدثت عن « هذه المرأة الشهيرة التى أظهرت من مناقب الرجال الهمة والعزم وأصالة الرأى وحسن التدبير ، ومن أهم أعمالها امتيازات الشركات التجارية فتأسس فى الشعب الإنجليزى حب الاستعمار . لذلك فإن عصرها يعد عصر التقدم أدبياً ومادياً(٢) » . أما عن سبب نجاح شعب الإنجليز فهو « اعتماده على تقوية عضلاته وتمكنه من السيادة على ربع المسكونة . وقد أشاع المرجفون أقوالا عن سقوط السلطنة الإنجليزية وهذا أمر بعيد الوقوع ، مادامت رجال إنجلترا أشداء وعساكرها لا تهاب الموت »(٣) . أما مساحة بلاد الإنجليز ومستعمراتهم والبلاد الداخلة فى حماهم فهى تساوى ثلاث قارات مثل أوروبا(٤) . والأساطيل الإنجليزية دائمة الحروب . وكان الفوز لها دائما ضد فرنسا وأسبانيا وهولندا . « فملكت إنجلترا البحار ، واتسعت أملاكها ، ومنذ ذلك الوقت لم يقم فى البحار عدو كفء لها »(٥) . وإلى جانب هذا النشاط طبعت « اللطائف » قاموساً للإنجليزية والعربية « وجاء وافياً باحتياجات طلبة اللغة الإنجليزية التى يتسع نطاقها يوماً فيوماً ، واحتياجات جمهور المترجمين »(٦) .

---

(١) مجلة اللطائف : عدد ١٥ مايو ١٨٨٦

(٢) مجلة اللطائف : عدد ١٥ مايو ١٨٨٩

(٣) مجلة اللطائف : عدد ١٥ سبتمبر ١٨٨٩

(٤) مجلة اللطائف : عدد ١٥ مارس ١٨٩٠

(٥) مجلة اللطائف : عدد ١٥ إبريل ١٨٩٠

(٦) مجلة اللطائف : عدد ١٥ سبتمبر ١٨٨٨

وتصف مجلة « الجامعة » لصاحبها فرح أنطون الصحف الأدبية فى مصر بأنها أصبحت من أضر الأمور بالعامة ، « فإنه إذا سدت السبل فى وجه العاجز وكان يقدر على صف الكلمات بعضها بجانب بعض بادر إلى إنشاء جريدة تحت اسم ضخم ونادى فى مقدمتها بأنه لا يريد إلا تقويم العقول وتغذية الأرواح »(١) .

ونستطيع أن نخرج بعدة نتائج على جانب كبير من الأهمية من تحليلنا لصحف هذه الفترة :

أولاً : إن انتشار المجلات المتخصصة ليس انعكاساً لتقدم صحفى شامل وإنما هو على حساب الصحافة السياسية وتحويل اهتمامات الناس عن الموقف السياسى .

ثانياً : كان الاحتلال يرغب فى أن يصرف الناس إلى الاهتمام بالمسائل الداخلية فى ظل الحكم الإنجليزى دون مناقشة وجود الاحتلال من أساسه .

ثالثاً : من الطبيعى أنه مادام بعض الصحفيين اللبنانيين هم الذين يؤيدون الاحتلال فهم الذين يتولون مسألة إصدار الصحف المتخصصة . هذا إلى جانب أن اللبنانيين أقرب إلى التقدم الفكرى والعلمى الغربى بصفة عامة بحكم اتصالهم بالثقافة الغربية .

وليس هناك من شك فى أن مداومة القراء الاطلاع على مثل ذلك ستتكون منه رواسب ترسخ بمرور الوقت حتى تصبح يقيناً . وهذا ماكان الاحتلال يعمل على تحقيقه متبعاً هذه الخطط الملتوية التى يغفل عنها الكثيرون فتتسرب إليهم دون وعى وتتركز فى أذهانهم وتتخذ طابع الحقيقة يوماً ما .

---

(١) مجلة الجامعة (فرح أنطون) عددا يناير ، مارس ١٩٠٢ :
(مقالات النهضة الأدبية الحديثة فى مصر والشام) .

وفى الوقت نفسه كان توزيع الصحف يزداد زيادة مطردة ، وبعد أن كانت الصحف فى أوائل نشأتها تطرح على المشتركين فمن اشترك عد ذلك أريحية ، أصبح القراء يطلبون الجرائد والمجلات وكثيرون يرسلون البدل مقدماً . وصار للصحافة تأثير شديد فى نفوس الوطنيين وكثر قراؤها وبعد أن كانوا لا يتجاوزون ٣٠ ألفاً زادوا على مائة ألف فى عهد عباس حلمى الثانى وربما بلغوا أضعاف ذلك فى بعض الأحوال(١) .

---

(١) الهلال : أول مايو ١٩١٠

ومما يؤيد ذلك إحصائية نشرتها مجلة الأستاذ قائلة « وقفنا على إحصاء الجرائد المحلية بحسب ما ورد لقلم المطبوعات حين تحريه ذلك عن عام ١٨٩٢ فعلم أن ما يوزع عن طريق البوسطة بخلاف ما يوزع على الأفراد ما يلى لأهم الجرائد :

المؤيد	١٢٠٠	نسخة
الهلال	٧٤٠	»
المحروسة	٨٠٠	»
المقطم	١٤٥٥	»
الأستاذ	٢٢٨٨	»
الأهرام	٢٧٧٥	»
الزراعة	٦٠٠	»
الفلاح	٥٤٥	»
المقتطف	١٣٠٠	»
النيل	١٠٠٠	»
الوطن	١٠٠٠	»
الآداب	١٠٠٠	»

فيكون المجموع حوالى ١٤,٧٠٠ نسخة عدا ما يوزع بدون اشتراك ، هذا إلى جانب الصحف الأخرى الأقل أهمية . نقلا عن مجلة الأستاذ فى ٣ يناير ١٨٩٣

الفصل الخامس

الصحافة المصرية والصراع بين القوى السياسية في مصر

- دور الصحافة فى الموقف بين توفيق والاحتلال
- الصحف والدعوة إلى الاستكانة
- الصحف وإثارة البلبلة الفكرية
- الصحف والحياة الحزبية فى مصر

دور الصحافة في الموقف بين توفيق والاحتلال :

قضى الاحتلال على الثورة العرابية ، وشتت شمل العناصر الوطنية العسكرية والمدنية التى اشتركت فى الثورة . ولكن لم ير الاحتلال فى ذلك وحده ضماناً لاستقرار الأمر له فى مصر ، فدأب على اتباع سياسة تفتيت القوى المختلفة الداخلية فى مصر وتحريضها بعضها ضد البعض الآخر.

وكان وجود توفيق على كرسى الخديوية أكبر مساعد لإنجلترا على تنفيذ ما تريد من سياسة وتحقيق أهدافها من وراء احتلالها لمصر ، إذ رأى توفيق بعد القضاء على الثورة أن يتعاون هو وعدد من رجال السياسة ، مع الاحتلال قلبياً ودون أية شروط (١) . ذلك لأن الخديو أدرك أنه إذا ما حاول إثارة أية اضطرابات بين المصريين فإنه لن يجد صدى كبيراً لمحاولاته . فهو غير محبوب من الكثيرين ، والأهم من ذلك انضمامه إلى جانب الإنجليز ضد الشعب منذ ظهور خطر الغزو ، ثم الاحتلال . هذا إلى جانب أن توفيق لم يكن لديه بعد النظر الذى يتصف به الحاكم الممتاز ، وقد حرص الإنجليز على منعه من استخدام الطرق والوسائل التى كانت معروفة فى الشرق للوصول بالحاكم إلى هدفه ، كالدس والوقيعة (٢) .

ويصف كرومر موقف توفيق بأنه كان فى غاية الصعوبة « فمن جهة معارضة إنجلترا كان ذلك خطرا عليه ، وفى الوقت نفسه كان انضمامه صراحة للاحتلال باعثاً على فقدانه محبة بعض الفئات ذات النفوذ فى الشعب ، أى رجال الدين ، وقد استطاع إثبات براعته فى الجمع بين الطرفين وأصبح حلقة اتصال بين المصريين والإنجليز . وقد تعرض توفيق بذلك للنقد من كلا الطرفين ، ولكنه كان قد تلقى درساً من الثورة العرابية وأدرك ما عليه موقفه من صعوبة

---

(١) Landau : Op. Cit. p. 106

(٢) Wallace M. : Eg. & the Eg. Question p. 383

وإنه إذا لم يعتمد على ذراع إنجلترا القوية فإنه يتعرض لثورة أخرى تقضى على عرشه. وفى الوقت نفسه يعرف توفيق أنه يدين بمركزه لتدخل إنجلترا »(١).

وهكذا أصبح الخديو بين يدى رجال الاحتلال وخاصة عندما كان كرومر يثير رعبه من جانب إسماعيل الذى استقر فى الآستانة وكان من المحتمل — كما قال له — أن يعود إلى القاهرة إذا تغيرت الظروف السياسية .

وقامت سياسة الإنجليز بإزاء توفيق على أساسين :

أولهما : إظهاره فى نظر الشعب بمظهر الحاكم المعتمد على سلطة الاحتلال دواماً ، وفى الوقت نفسه المن على توفيق بحماية إنجلترا وتذكيره بذلك .

ثانيهما : القضاء على الصحف التى تحاول الدفاع عن توفيق وتحاول أن تخلق له كياناً سياسياً منفصلا عن سلطات الاحتلال .

ولتحقيق الشطر الأول من هذه السياسة كانت الصحف الضالعة مع الإنجليز تمزج الكلام عن الخديو بالحديث عن الاحتلال فتتحدث مجلة « الحقوق » عن العهد التوفيقى وما به من حرية شخصية « ونالت المطبعة وهى ركن عظيم من أركان التمدن حرية صادقة ، وانتظم فى جيدها جرائد وطنية »(٢) . ووجد الاحتلال فى محمد بيرم صاحب « الأعلام » سنداً قوياً إذ قامت جريدته على أساس المزج بين الدين والسياسة وهى طريقة تجذب القراء وفى الوقت ذاته تدعوهم إلى صف الحاكم باتباع أوامر الدين ونواهيه التى تقضى بإطاعة الحاكم « فالخديو توفيق منـذ صعد منصة الخديوية كان أول خطاب له مؤذن بإجراء الحرية ومن فروعها حرية المطبوعات ، ولقد رأينا إصدار جريدتنا لتنحو « منحى » الملاءمة بين الشريعة والسياسة ، وهذا الأمر جار فى سائر الممالك المتمدنة حتى فى باريس التى زالت منها جميع محترمات الشعائر الدينية ، لذلك أسسناها لنعضد سياسة حكومتنا السنية ، وإذا كانت السياسة مطابقة للشريعة وعمل على مقتضاها جمهور الأمة يتمكن الملك على الأرواح »(٣) .

---

(١) Cromer : Op. Cit. V. II pp. 331, 332

(٢) مجلة الحقوق : ٥ مارس ١٨٨٧

(٣) جريدة الأعلام : ١١ ، ١٧ يناير ١٨٨٥

وتحاول « الأعلام » تبرير اعتماد توفيق على الإنجليز فتأتى من التاريخ الإسلامى بشواهد على أن « القسم من المصريين المعضد للإنجليز محق ساع فى نفع وطنه والشريعة تؤيده ، فإن الرسول أمر جمعاً من أصحابه وفيهم ابنته بالاحتماء بملك الحبشة وهو نصرانى من ظلم مشركى العرب ، وأقاموا عنده مدة وهذا دليل لجواز الاحتماء بغير المسلم . وقد استدل به الفقهاء فى الأفراد والعلة جارية فى الكل ، والحالة الراهنة شاهدة به ، فإن لم يكن تسلط الإنجليز الذى هو عبارة عن حراسة فقط مع بقاء الأمور على مجراها كان تسلط غيرهم وحالة الذين تحت أيديهم معلومة ولو مع أبناء ملتهم(١) » . ويعنى ببرم بذلك بطبيعة الحال الدولة العثمانية وأعمالها فى البلاد العربية وفرنسا وأعمالها فى تونس . أما عن أسباب احتلال إنجلترا لمصر ، « وهى الحاكمة فعلا لا قولا ، فإن الحكومة ما فعلت ذلك إلا لأنها تروم المساعدة والمعاونة للمصريين فى تعليمهم كيف يحكمون بلادهم ويديرون إدارتها »(٢) . فالجريدة تلقن الخديو والحكام درساً بأن يأخذوا عن الإنجليز.

وقد دأب المقطم على الحديث عن الاحتلال ، « والتزم أصحابه تحسين الاعتراف بسلطة الغير والتلويح بما يشف عن سوء مقاصدهم فى الجانب الخديو ، والتزموا ترجمة أوهام مستأجريهم التى توهم الوعيد والتهديد ليظهروا للأمة وهن المسند الخديوى وقوة مستأجريهم(٣) » . وكانت زيارة ولى عهد إنجلترا لمصر فى نوفمبر ١٨٨٩ فرصة للتطاحن واللغط بين « الصحف العربية المحازبة للإنجليز وأصحاب الصحف الأخرى »(٤) . وكانت مناسبة للتحدث عن العلاقات بين البلدين « وقد قضت ضرورة الأحوال بأن يكون الاحتلال شبه دائم ، وقد قيل إن هناك محاولات من بعض ذوى السيادة، على أن سمو الخديو لا يجهل شر تلك الحالة وأنها تأتى على مصر بالويل والدمار ولذلك يميل إلى دوام حماية الإنجليز على بلاده

(١) جريدة الأعلام : ٣١ يناير ، ٢٥ فبراير ١٨٨٥
(٢) جريدة الزمان : ٤ فبراير ١٨٨٤
(٣) مجلة الأستاذ : ٢٣ مايو ١٨٩٣
(٤) ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر ج ٤ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩

حباً بوطنه وغيرة عليه . نعم إن ذلك يعد من باب التبعية فى الظاهر ولكن سموه يرى الصبر على ذلك أحب من تضحية مصالح وطنه وحرمان رعيته من المنافع العظيمة التى ينالونها بمساعدة إنجلترا وإرشادها لهم وأكثر وزرائه على رأيه ، ولو سئل الناس لحكم أكبرهم بوجوب بقاء الأمور على حالها » .
نقل المقطم هذا الرأى عن جريدة جلوب البريطانية وكان تعليقه عليه أن « إنجلترا لم تخلف وعدها بالجلاء متى رأت أن أهله أصبحوا بحيث يستطيعون الاستقلال ومنع الأجانب من التداخل فى أمورهم ، وأنها لا تخرج منه مادام بعض الدول يلقى العثرات فى سبيلها »(١) . وإذا ماوقعت بعض الخلافات بين الوطنيين والأجانب يسرع المقطم إلى انتهاز الفرصة لبيان «سياسة الحكمة التى اتبعها الخديو فى استناده إلى الدولة الإنجليزية صاحبة النفوذ والكلمة ، وذلك يدل على أن حكومة خديوينا إنما اختارت الاستناد إلى من يعينها على حل مشاكلها ويريد راحتها ويفيد رعيتها »(٢) .

أما عن عجز الإدارة المصرية وضرورة اعتماد الخديو والبلاد على الإنجليز فى ذلك « لأن مصر لم تتعلم أن تدبر أمورها بنفسها بل إن الإنجليز يديرون ماليتها واسأل البلاد تجد أنه لايعترف بالكفاءة والمقدرة على تولى مهام الأمة تحت يد الخديو إلا رجلين اثنين »(٣) . وهكذا يبث المقطم دعوة كبرى بعجز المصريين جميعاً عن حكم البلاد وإدارتها وتنظيمها وأن الخديوى راض عن أعمال إنجلترا فى جميع الميادين ، هذا إلى جانب حديثه المتصل عن دوام الاحتلال فلم يكن يخلو عدد من المقطم من الحديث فى هذا الموضوع وتفنيد أقوال المعارضين وبخاصة جريدة الأهرام .

وعضدت المقطم فى ذلك صحيفة « الاتحاد المصرى » بعد أن شاع أن « الحكومة قد دعت عساكرها للانجلاء عن وادى النيل ، وذهب قوم فى لندن أن الجلاء قد بدئ ، والذى نعلمه أن هذا الخبر مختلق ، وأحسن طريقة

(١) جريدة المقطم : ٢ ، ٧ ، ١٤ ، ١٨ نوفمبر ١٨٨٩
(٢) جريدة المقطم : ٢٧ إبريل ١٨٨٩
(٣) جريدة المقطم : ٦ ، ٨ سبتمبر ١٨٩٠

جاهرنا بها منذ مدة هى أن نترك المياه فى مجاريها ولنا فى الأمير عضد ونصير »(١) .

وتتضح سياسة إضعاف صحف الخديو الداعية له ، وهى الأساس الثانى من أسس سياسة الاحتلال إزاء توفيق ، بالعمل على إبعاد الشيخ حمزة فتح الله داعى الدعاة للخديو فى صحيفتى الاعتدال والبرهان فى فترة الثورة العرابية « وكانت الاعتدال اسماً على مسمى لأن صاحبها توخى فيها أن يكم أفواه مشايعى عرابى ويبين لهم استناداً إلى الشرع أن عملهم يفضى إلى عواقب سيئة . وقد ازداد انتشارها وعمت فوائدها بين خاصة الشعب وعامته ، ولكن منشئها عطلها فى السنة التالية (١٨٨٣) لأن خيرى باشا اختبر مكانته فى العلم فعينه مفتشاً للعلوم العربية »(٢) .

ووقفت الخسائر المادية عقبة فى وجه صحيفة البيان (التى ظهرت فى ١٨٨٤) وكانت موالية للعرش الخديوى تناضل عنه وتتفانى فى الإخلاص له ، وصدرت طافحة بالمقالات الشائقة والأبحاث النافعة وكانت خطتها وطنية ولكنها احتجبت فى سنتها الثالثة للخسائر(٣) .

وقد يفسر لنا تأييد على يوسف للخديو توفيق — فى مجلة الآداب(٤) ثم فى صحيفة المؤيد (وفيما بعد تأييده لعباس) — ماقام به الاحتلال من وضع الصعاب فى وجه الآداب حتى احتجبت مرتين على عهد على يوسف، ثم محاربته لجريدة المؤيد ، كما سيأتى ذكره .

ولم تستطع مجلة « النور التوفيقى » ان تعيش سوى عامين ، وكانت صحيفة أدبية علمية بسط لها توفيق يد المساعدة(٥) فأخذت تتحدث عن مآثر عهده

(١) جريدة الاتحاد المصرى : ١٥ سبتمبر ، ٦ أكتوبر ١٨٩١

(٢) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٦٤

(٣) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٤ ، ٢٥

(٤) مجلة الآداب لعلى يوسف خلال عامى ١٨٨٧ ، ١٨٨٨

ومنها قصيدة فى مدح توفيق فى ثلاث صفحات كاملة (عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٨) .

أنت المليك الذى تعنو الوجوه له ويخضع الدهر فى الأعتاب كالصور

وأنت أنت وما التطويل ينفع يا روح المعالى وليس الدر كالمدر

(٥) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٣٤

وتنشر له ولأفراد أسرته صوراً عديدة فى كل عدد منها ، وقد دعيت بهذا الاسم تيمناً وكان شعارها :

إذا رمت أن تهدى إلى الرشد فاستضىء
بأنوار توفيق الأنـــام فتهتـــــدى

وتصف جريدة النيل حالة مجلة « النور التوفيقى » وتدهورها إذ « طفقت تتجرع غصص البوار وتتقلب على جمر اللظى ، وهى صابرة ولله درمنشئيها فإنهم صرفوا عليها أكثر من مدة من ماليتهم الخصوصية ، وأخيراً لما أوشكت روحها أن تزهق أنت ثم ودعت(١) » .

الصحف والدعوة الى الاستكانة :

كانت حالة مصر فى السنوات الأولى للاحتلال حالة أمة خرجت منهزمة بعد ثورة قومية لتقرير حقوقها السياسية والدستورية ، وأخفقت الثورة وضاعت هذه الحقوق بل وضاع معها الاستقلال إذ كان إخماد الثورة على يد إنجلترا التى استبقت احتلالها تحقيقاً لأطماعها الاستعمارية ووضعت يدها على زمام الحكم وصار إليها الأمر والنهى فى كافة الشئون ، واستسلمت الحكومة لسلطان الاحتلال كما استسلم الخديو ، وخيم على البلاد جو من الخضوع والإذعان للحكم الأجنبى (٢) ، وكانت أحداث ١٨٨٢ ضربة فظيعة لمصر فقد نشرت فى أرجائها الارتباك والانقسام وفقد كل امرىء فيها طريقه وسط القلق العام ، واختفت عند خدام الدولة فكرة الواجب ولم يعودوا يعرفون أين الخلاص وإنما تدفعهم غرائزهم إلى إرضاء مصالحهم دون أن تدفعهم إلى النشاط الوطنى المنزه عن الغرض . (٣) ووجد الأهالى أنفسهم فى تيه

---

(١) جريدة النيل فى ٣٠ أكتوبر ١٨٩٢

(وقد حدث سجال طويل بين جريدة البشير البيروتية وبين « النور التوفيقى » وكثيراً ما كانت البشير تورد أخطاء النور التوفيقى فى مباحثها – دى طرازى ج ٣ ص ٣٤) .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل الاحتلال ص ١٧٤ ،
محمد مظهر سعيد : نحن والإنجليز ص ١٧ (نهضة مصر ١٩٥٢) .

(٣) عباس حلمى : مذكرات ، جريدة المصرى فى ٦ مايو ١٩٥١

مدلهم من الأحداث وأحاط بهم جو غريب من الفزع والأحاسيس المتضاربة (١).

وقد أدرك رجال الاحتلال أن تفتيت آثار الثورة العرابية يقتضى عملا متشعب الاتجاهات، وقد رأينا فى الفصل السابق كيف حاول الإنجليز تصفية الصحافة الوطنية إدراكاً منهم للدور الذى أسهمت به فى إحداث الثورة العرابية.

ولكن تحطيم الثورة لم يحمل بالضرورة ضياع الرأى العام المصرى مباشرة وتحوله عن المبادئ التى كانت قد انتشرت واستقرت فى النفوس — إلى حدما — فقد أيقظت الثورة، وبخاصة عن طريق الصحافة، فى الشعب حقه فى الشكوى، وبدا أمام المصريين نوع جديد من الحكم لا يلغى الشعب بل يعترف بوجوده (٢).

وسرعان ما استعاد بعض الوطنيين نشاطهم فتألفت الجمعيات السرية الوطنية لاغتيال توفيق وإزعاج المحتلين، ولم يعرف التاريخ من هذه الجمعيات إلا ما كشف أمره واستطاعت يد الاحتلال القاسية أن تمزق الأستار عنه، ذلك لأن رجال المقاومة رأوا ألا يفصحوا عن نواياهم، وفى الوقت نفسه أسهموا فى تكوين جماعات معادية للاحتلال تستمد قوتها من أحد مصدرين: إما الدولة العثمانية إذ كان السلطان يتطلع بمزيد من الشغف إلى استعادة سيادته على مصر. وإما من فرنسا التى شعرت بالأسى لانفراد إنجلترا بمصر (٣). ويؤكد هذا الأمر الطبعى أن الاحتلال الأجنبى أو تقييد الحريات العامة أو محوها فى بلد ما يخلق تيارات سياسية خفية كإنشاء الجمعيات السرية وتأليف جمعيات الإرهاب ومؤامرات الاغتيال أو توزيع المنشورات الثورية وإصدار الصحف السرية (٤).

وهذا ما حدث فى مصر، إذ ظهر «ذيل» للثورة العرابية فى يونيو ١٨٨٣، وذلك باكتشاف جمعية سرية غرضها إخراج الإنجليز وقلب نظام الحكم

---

(١) Ramadan A. : Evol. de la Leg. sur la presse p. 64

(٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح ص ٢٢٩

(٣) Landau : Op. Cit. p. 10 ; Milner : Eng. In. Eg pp. 270,371

(٤) عبد الله حسين : الصحافة والصحف ص ٢٧٣ (لجنة البيان العربى ١٩٤٨).

فى مصر . و قد أطلقت هذه الجمعية على نفسها اسم « المؤامرة الوطنية المصرية » وجاء فى قانونها الأساسى الذى ضبط أنها تقبل فى عضويتها كل شخص مصرى أو أجنبى مسلم أو مسيحى(١) . وكان ذلك دليلا على اضطرام النفوس بنار الوطنية ، وعلى أن تعاليم الأفغانى وما بثه من حب للحرية وتشرب تلاميذه (وخاصة من رجال الصحافة والكتابة) مبادئ الثورة على الاستبداد ومحاولة إصلاح المفاسد ، كانت هذه كلها لا تزال تطن فى الأذن وتتردد فى الأذهان (٢) ، وأنه رغم سحق الثورة إلا أن روح السخط استمرت تعتمل فى النفوس على مر الأيام (٣) . هذا إلى أنه كانت هناك مجموعة أخرى من موظفى الحكومة الساخطين المتطلعين إلى الترقى ، وقد انضم عدد كبير منهم إلى « الجمعية وطنية » التى اتخذت مظهر جمعية ولكنها « كانت تمارس الحياة السياسية ، وكان مركزها القاهرة ولها فروع فى المنصورة والزقازيق (٤) » . وهذه كلها أدلة على خطأ ما يذهب إليه بعض المؤرخين من أن تحطيم الروح الوطنية فى مصر لا يرجع فى أساسه إلى معركة التل الكبير فحسب بل كذلك إلى المفهوم العام من أنها لن تجنى شيئاً إذا ما ظهرت مرة أخرى (٥) .

وتطوع الواشون بإخبار رجال الاحتلال بالجمعية السرية ، فاتخذ الإنجليز كافة الوسائل لتحطيمها وكان غرضهم من وراء ذلك صرف ميول ذوى الأفكار القويمة والآراء السديدة عن المناداة بها (٦) .

وبدأت فى الصفحة الأولى من صحيفة البرهان الدعوة إلى الإخلاد للسكينة وعدم القيام بأى حركة ضد الإنجليز لإخراجهم من البلاد فى مقال

---

(١) أحمد شفيق : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ٢١٢

(٢) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٧٨ ، ٧٩

(٣) Alexander : The Truth about Eg. p. 5

(٤) Landau : Op. Cit. pp. 10 , 107

(٥) Young G. : Egypt p. 149

(٦) أحمد بك شهاب : إنجلترا فى مصر ص ٨٤ ، ٨٥ (القاهرة ١٩٢٨) ، هنس رزنر : مصر تحت الاحتلال الإنجليزى (مترجم عن الألمانية) ص ٦٨

بعنوان « جمعية العصبة الوطنية » (١) . وقالت الزمان فى صفحتها الأولى إن الخديو وشريف والنظار تلقوا «تحارير تهديدية » ورجحت وجود جمعية ثورية فى القاهرة من ضباط عرابيين وضباط مرفوتين وبعض مستخدمى الحكومة . وفى مقال فى نفس اليوم تخاطب المصرى بأن « الاعتدال أسلم فلم تمر بك الأيام التى تنسيك هذه الغصص والصروف التى جلبتها أعوان الحماقة ، فإن كنت راجياً لنفسك السلامة مما أنت فيه فاسمع نصيحة وسلم نفسك لأولى الرشد القائمين بتدبير شأنك ، وإن ذلك لا يتم مالم يتطهر أرجاءك من وساوس الضالين المفسدين الذين يخدعونك ، أو ليس ما أصابك من النقم جرى على يد أشرار تزينوا لك بمثل هذا القول » (٢) .

ثم طلبت « البرهان » إشراف الإنجليز مع المصريين فى تكوين لجنة للبحث ومحاكمة كل من يظهر له دخل فيها ، أى أن « تكون اللجنة مختلطة وليست قاصرة على المصريين بل تشمل من تبعة الدول الأجنبية من يهمه حقيقة نجاح مصر . وقد تأسست جمعية من الوطنيين (والنزلاء) للبحث فى منشأ تلك العصابة الباغية وتتبع كل ما من شأنه أن يهدى إليها ليتبينوا أسماء من لهم أقل اتصال بها فينشروا بها المنشورات فى الجرائد فيجعلوها شوهة فى وجه المجتمع الإنسانى » ، وتتمنى الصحيفة أن يتحقق القول فعلا « حتى يطهر القطر من رجس المفسدين (٣) » . ووجدت السلطات قانون الجمعية فى أحد المحال فنشرته الزمان « كأضحوكة للعموم على تلك الأفكار السخيفة » وتحاول الصحيفة فى نفس المقال التهوين من شأن الجمعية إذ أخذت الأفكار تنسج أهمية كبرى حولها ، وعبرت عنها بتأويلات لا أصل لها ، وظهر أن الجمعية لم تبن إلا لمقاصد دينية » ، وتطمئن الأهالى بأنه لا يمكن أن يخشى وقوع الاعتساف بحق أحد (٤) .

وتابعت صحيفة البرهان مقالاتها التى تحض على التقليل من أهمية الجمعية

---

(١) جريدة البرهان : ٣١ مايو ١٨٨٣

(٢) جريدة الزمان : ٢٩ مايو ١٨٨٣

(٣) جريدة البرهان : ١٤ يونيو ١٨٨٣

(٤) جريدة الزمان : ٢٠ يونيو ١٨٨٣

واتهمت الإنسان المصرى بأنه غافل عن الحقوق جرئ على العقوق ، وحذرته من بطش الخديوى والحكومة . وتبدى الجريدة دهشتها من وقوع مثل هذا هذا الأمر « فكنا قد ظننا أنه لا يجرأ أحد من أبناء البلاد على هذا السعى الممقوت غير أن شواهد الأحوال نبأتنا بغير ما كان فى الحسبان » ، وطالبت الحكومة بإقامة العيون والأرصاد « ليتيسر لها القبض على كل من له دخل بالجمعية (١) » . وتقبض السلطات على بعض الأشخاص . « وظهرت الخبايا وارتاحت البلاد واطمأنت العباد (٢) » ، وكان ذلك « من أكبر الأسباب الباعثة على هدوء الخاطر .. ومما يستوجب مزيد العجب أن من المقبوض عليهم قوما كان المأمول فيهم أنهم عقلاء » . وطالبت الصحيفة بالعمل على إرضاء الحكومة والعاقل من يتخذ كافة الوسائل لذلك . وطلبت من الحكومة تشديد العقوبة على المتهمين (٣) .

وتحدثت الأهرام عن جلسات الجمعية وعقدها فى منزل بعض الباشوات (٤). وأجمعت الصحف بعد ذلك على ضرورة التشديد لاقتلاع الجمعية من أساسها (٥) . وما لبثت « البرهان » أن انتهزت الفرصة للدعوة إلى مسالمة الاحتلال « إذ ماذا يفيد نداء الحرب مع قلة العدد وفقد العدد . وهل تقدر على مقاومة أمم عز جاهها واتسع نطاق ملكها ، فما مثل من يتشبث بهذه الأعمال إلا كمثل من يرى شفاء الجرح فى تعميقه ، كما زعمت جمعية السوء السرية ، فإلى متى التخاذل والتنابذ وعلام التنافر والشقاق » (٦) .

وتحقق اللجنة المختصة وتحكم بالنفى على محمد سعيد بك (٧) ، وسيبقى تاريخه — فى نظر هذه الصحف — « مخلداً بخزائن السجن ، فقد اتضح أنه هو

---

(١) جريدة البرهان : ٢١ يونيو ١٨٨٣
(٢) جريدة الزمان : ٢٢ يونيو ١٨٨٣
(٣) جريدة البرهان : ٢٥ يونيو ١٨٨٣
(٤) جريدة الأهرام : ٢٧ يونيو ١٨٨٣
(٥) جريدة الزمان : ٢ يوليو ١٨٨٣
(٦) جريدة البرهان : ٢٨ يونيو ١٨٨٣
(٧) زكى فهمى : صفوة العصر جـ ١ ص ١٣٥ ،
أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٢١٢

الذى أوقد نارها وسيلقى نهاية العمل » . وظهرت الدعوات بتطهير البلاد من كل خائن أثيم(١) .

ولكن رغم ذلك استمرت حالة التذمر تسيطر على بعض النفوس وعملت جريدة العروة الوثقى على إثارة نار الثورة وانتهاز فرصة انشغال الإنجليز فى أحداث السودان ودعت إلى القيام « بحركة خفيفة فى الشرقية والبحيرة والفيوم ، فيرتبك الإنجليز وتخور قواهم فيتركوا البلاد لأهلها »(٢) . وظهرت جماعات من شبان « القاهرة وسموا أنفسهم الوطنيين الأحرار والتفت حولهم جماعة من المحازبين لرياض (٣) وأخذوا يتكلمون فيما وصلت إليه الحكومة من ضعف » (٤) . وكان هذا منشأ الحزب الوطنى الذى تألف منذ أوائل أيام الاحتلال . ولم يكن حزباً منتظماً ولكنه ضم نخبة من الوجهاء والنبهاء والشبان ممن يكرهون الاحتلال . ولرجال هذا الحزب فضل على أكثر الصحف الوطنية التى نشأت فى أثناء الاحتلال لأنهم كانوا يساعدونها مادياً وأدبياً فى الخفاء(٥) .

ولا شك أن فى ذلك تفسيراً لما سيحاول رياض القيام به من تشجيع الصحف المعادية للاحتلال وبخاصة المؤيد — كما سيأتى ذكره — وكان وجوده العامل الأساسى فى نشأة هذه الصحيفة وازدهارها (٦) واتخاذها الوجهة الوطنية الإسلامية وهو ماكان يخشاه الإنجليز .

وكان كرومر يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الحركة الوطنية المصرية لم تخمد نارها تماماً رغم تحطيم الثورة وإجراءات القمع والعنف التى وسمت أعمال الاحتلال فى بدايته . ويعترف عميد الاحتلال بأن هذه « الوطنية الحقيقية

---

(١) جريدة البرهان : ٩ يوليو ١٨٨٣

(٢) جريدة العروة الوثقى : العدد ١٧ فى ٢٥ سبتمبر ١٨٨٤

(٣) يلاحظ أن رياض كان فى هذا الوقت قد استقال من نظارة الداخلية على عهد شريف لتمسكه بالانتقام من زعماء الثورة العرابية ومعارضة الإنجليز فى تنفيذ ذلك .

(٤) ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر ج ٤ ص ٤٣٩ ، ٤٤٠

(٥) مجلة الهلال : أول مايو ١٩١٠

(٦) جريدة المؤيد : ١٣ شعبان ١٣٢٤ ،
عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ذكره ص ١٦٩

استمرت حية طوال الاحتلال ولو أن صوتها كان خافتاً إلى حد كبير »(١) .

يؤيد هذا ما يقوله بعض المؤرخين بأن الاهتمام الذى أبداه الاحتلال تجاه النواحى المادية والعمل على رخاء البلاد « ولو بلغ مهما بلغ ماكان ليطفىء فى مصر جذوة القومية ، وقد استمرت بذور النهضة التى بذرت قبل الاحتلال تنمو نمواً بطيئاً مستمراً وأخذ الشعور القومى فى المصريين يزداد ويقوى »(٢) .

ويؤكد الرأى الذى نذهب إلى تأييده من أن آثار الثورة كانت لا تزال عالقة بنفوس المصريين بعد الاحتلال ، استمرار الصحف فى تناول زعماء الثورة العرابية بالنقد والتجريح بعد أن نفى أغلبهم وشرد الباقون . ذلك أنه أثناء اشتداد أزمة السودان ووصول ثورة المهدى إلى أوجها وتحطيم القوة الإنجليزية هناك ظهر رأى بإشراك عرابى فى حملة على السودان ويقوم بلنت بالمخابرة (٣) ، فتجد جريدة المحروسة الفرصة مواتية لنصح « حكومة جلالة الملكة أن لا تأذن لزعيم القتلة المخربين الآثمين فى ١٨٨٢ أن يرجع ماراً بالأسكندرية أومصر فإن فى هاتين المدينتين نساء ورجالا وأطفالا قد فجعوا بأفلاذ أكبادهم بسبب زعيم العصابة (٤) » . ورددت صحيفة الصادق ذلك فى مقال استغرق صفحة كاملة (٥) . وتسب جريدة الوطن المصريين سباً عنيفاً فى مقارنتها الثورة العرابية بحركة كانت ستحدث فى فرنسا ، « وقد أصابت حكومة فرنسا بمحاكمة المتهم الذى يشبه فى سلوكه سلوك العصاة العرابيين ، ولكن يوجد فرق بين الأمرين فإنه يوجد بين الفرنسويين أناس عقلاء مهذبون لا يطاوعون الغاوى على غوايته بخلاف المصريين »(٦) . وإذ تحدث مناقشة حول إنهاء نفى عرابى فى مجلس العموم يرى بعض النواب أن المسألة كانت سياسية انهزم فيها عرابى لكن يعلق المقطم متسائلا « هل

---

(١) Cromer : Abbas II pref. p. XV.

(٢) Stoddard L. : New World of Islam p. 149.

محمد حسين هيكل .. تراجم شرقية وغربية ص ١٣١ (مصر ١٩٢٩) .

(٣) Le Bosphore Eg. Mars, 10, 1885

(٤) جريدة المحروسة : ١٢ مارس ١٨٨٥

(٥) جريدة الصادق : ٢٠ سبتمبر ١٨٨٧

(٦) جريدة الوطن : ٢٤ مارس ١٨٨٨

اغتصاب البلاد وسفك دماء العباد واهتضام الحقوق مسألة سياسية »(١).
ثم أورد رفض رئيس وزراء بريطانيا للرأى القائل بإرجاع عرابى . واستمرت الصحيفة بعد ذلك تتحدث عن الارتباك الذى أحدثته الثورة العرابية التى لم تبق ركناً قائماً من أركان السلطة (٢) .

وتحاول « الوطن » الغض من أهمية عبد الله نديم فترسم أساساً لمن يريد الاشتغال بالسياسة « فليس معناها التهور والخروج عن طريق التبصر والتفكير ، وليس معناها مجرد معرفة بعض أشعار هزلية أو فكاهية أو مقالات أدبية فهذا شىء والسياسة شىء آخر ، وخطأ هؤلاء الناس تصديهم « مما »لايعنيهم وحشر أنفسهم فى زمرة السياسيين » (٣) .

غير أنه من ناحية أخرى فإن الدأب على الكتابة والتجريح المستمر لرجال الثورة لاشك سيكون له أثره فى بعض النفوس التى يرى أصحابها جبروت الاحتلال وقوته ماثلين أمامهم فى كل مكان .

وإلى جانب هذا العمل الدائم للقضاء على ما خلفته الثورة العرابية من آثار بدأ الاحتلال يعمل على بث فكرة الاستسلام والاستكانة بين نفوس الشباب المصرى بالذات وذلك لاختلاف طبيعة الوطنية المصرية بعد الاحتلال عنها قبل وقوعه ، إذ كانت الروح الوطنية فيما قبل التدخل العسكرى الإنجليزى تسرى بين جميع الطبقات وبخاصة الفلاحين وظهرت الثورة العرابية تمثل آمال ومطالب وأمانى هذه الفئات إلى جانب ما كان يعتمل فى نفوس ضباط الجيش من رغبة فى تحقيق مطالبهم ، أما وطنية ما بعد الاحتلال فإنها تمثل آمال الطبقة المثقفة (٤) . ذلك لأن القضاء على الثورة العرابية لم يقض على بقايا الحزب الوطنى . فإن الشباب المصرى المتعلم أدرك مقدار الإهانة التى لحقت به من جراء الاحتلال . (٥)

---

(١) جريدة المقطم : ٢٤ إبريل ١٨٩٠
(٢) جريدة المقطم : من ١٢ فبراير إلى ١١ ديسمبر ١٨٩١
(٣) جريدة الوطن : ٧ أكتوبر ١٨٩١
(٤) Newman : Great Brit. in Eg. p. 164
(٥) Plauchut. L'Eg. et C'Occup. Angl. pp. 109, 110
(ويلاحظ أن هذا الكتاب وضع فى عام ١٨٨٩ وقد عاش مؤلفه فى مصر فى عهد الاحتلال)

وقد أدركت السلطات الإنجليزية أن الوطنية المصرية منذ بداية الاحتلال إنما كانت مزيجاً من الرابطة الإسلامية مع طموح إلى الوطنية بمعناها الحديث ، وقد اندمجت هاتان الحركتان فى بعضهما بعضاً وأصبح من الصعوبة بمكان وضع حدود لكل منهما (١) . وكان معنى ذلك التمسك بالشرق والغرب ، أى وجود برنامجين يخالف كل منهما الآخر . (٢) فكان هناك الوطنيون الذين يرغبون فى التخلص من الإنجليز مهما كانت النتائج ، أما الفئة الأخرى فهى من الوطنيين الذين يرغبون فى قيام الإنجليز بإبعاد كل تدخل أجنبى آخر بينما بلادهم تمر فى دور جديد من أدوار حياتها . ولكن الوطنية المتطرفة كانت هى السائدة فى البلاد ذلك لأن صاحبها لا يخشى العواقب (٣) . ويصف فارس نمر ذلك بأن « المصريين عندما يتحدثون عن الاستقلال إنما يعنون حالة مشابهة لما عليه تركيا من سوء إدارة وإرهاب وبربرية فى كل صورها » . (٤) ويؤكد سلاطين هذا الرأى فإن استقلال مصر وخروجها من قبضة إنجلترا كان معناه فى نظر الإنجليز ، وقوعها فى قبضة الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليها من قبل . (٥)

كان على الإنجليز ، تحقيقاً لهدفهم ، أن يعملوا على تشجيع فكرة القومية المصرية الذاتية المنفصلة عن الفكرة الإسلامية ، وبالتالى فإن فكرة القومية تدعو إلى استقلال مصر عن الدولة العثمانية . وهكذا يعمد الإنجليز إلى تكوين رأى فى مصر يمكن الاعتماد عليه بدعوى أن هذا التطور لا يخشى منه بل على العكس فإنه سيصبح حائلاً دون الاستبداد الخديوى . (٦)

أى أن الإنجليز وضعوا نصب أعينهم محاولة غرس مبادئ جديدة بين الشباب المصرى لتأخذ مكان المبادئ الاولى التى قامت على الروح التحررية ،

---

(١) Newman : Op. Cit. pp. 162, 163

(٢) Newman : Ibid. p. 167

(٣) Sladen : Op. Cit. p. 101

(٤) Wood : Op. Cit. pp. 162, 163

(٥) Sladen : Op. cit. p. 102

(٦) Llyod : Egypt Since Cromer V· I p. 40

ومن ثم « تركت الصحف تبث فى طبقات الأمة فكرة الاستقلال . وكانت تتخذ من مساوئ الإدارة الإنجليزية حجة لها فى نشر مبادئها ، ولكن من ناحية أخرى كانت صحف الاحتلال تضعف تأثيرها بتذكيرها الأمة بمظالم العهد القديم ومقارنته بحكم الاحتلال الإنجليزى . وكانت هذه الصحف الاحتلالية تجد سبيلاً للتأثير فى أذهان الكثيرين من البسطاء وإضعاف فكرة المطالبة بالاستقلال » (١) .

وصدرت المقالات صدى لنفوس ضعيفة مهزومة « فياأيتها النفوس المطمئنة إن بعد العسر يسراً ، وإن الشدة مؤذنة بالرخاء ، بالصبر تنقاد الأمانى وتدنو المعالى وتنال النفوس ما به تطمئن فاخفضوا الطرف وهونوا أمركم » . (٢) وتطالب الصحف الشعب بالابتعاد عن السياسة « التى هى تدبر الصالح الخاص بمصاحبة رأى سديد وعزم قوى ، وهى السر الذى لم يطلع على خفاياه عقول المصريين . أو أنها الحقيقة التى لا تدركها حقائق إدراكاتهم » (٣) . وتمتزج الدعوة إلى الاستكانة بمعارضة الآراء المطالبة بالجلاء « فلا يصح لعاقل أن يصغى لقول الجهال إن الانجليز ترغب فى إضافة مصر إليها ، بل إن مقصدها تأييد سلطنة الراحة والنظر فى مصالح الأهالى محبة منها وكرامة لهم » (٤) . وتدعى جريدة الزمان أن القدر قد أرسل إنجلترا لتساعد المصريين وتعاونهم وتدير شئونهم وتقتبس لتأييد كلامها شعراً ومنه :

وإذا العنـــاية لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف كلهن أمان (٥)

وتميزت جريدة الأعلام باستخدام عناوين مقالاتها فى هذا الصدد ببراعة محاولة اجتذاب انتباه القارئ بمثل « ما أجمل اللين ، فإنجلترا لا تتداخل فى أمور الديانة وهى تعامل أهالى مستعمراتها باللين ، وبسبب ذلك حصلت

(١) عبد الرحمن الرافعى ، من خطبته فى بروكسل – جريدة العلم فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٠
(٢) جريدة الزمان : ١١ أكتوبر ١٨٨٣
(٣) جريدة الزمان : أول أكتوبر ١٨٨٣
(٤) جريدة الزمان : ٢٣ أكتوبر ١٨٨٣
(٥) جريدة الزمان : ٤ فبراير ١٨٨٤

على اتحاد الأمم الكثيرة معها فتراهم من جهات الكرة الأرضية الأربع يهرعون إلى معاضدتها بالقلب والجسم » . (١) ومقال « إن الله لا يستحيي من الحق . فإن عقلاء الأمة و« الخبيرين » بأغوار السياسة لا يكرهون احتلال الإنجليز لا حباً فى ذاتهم بل لما يرونه من المنافع لبنى جنسهم مما يحصل بأيدى الإنجليز ودفع المضرات أيضاً التى لا يمكن دفعها بدونهم » . (٢) وفى نفس المعنى مقالات « إن الله يأمر بالعدل والإحسان» ، « اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » (٣) .

وتتحدث الأهرام فى أوائل الاحتلال عن عدم الرغبة فى زيادة عدد الجيش الإنجليزى فى مصر « لأن الأمن سائد فى جميع أنحاء البلاد وليس ما يخشى منه الاحتلال بالراحة العمومية . وإنا لفى يقين من أن عقلاء البلاد عارفون صعوبة المركز الحالى وأن السكينة والمواظبة على حفظ الأمن من أخص واجباتنا ولا تنال الرغائب إلا بالتمسك بهذه المبادئ الشريفة حفظاً لحقوقنا السياسية » (٤) .

والدعوة إلى الاستكانة يصحبها من ناحية أخرى دعوة إلى عدم الإقدام على العمل والرضا بالواقع والقناعة بما عليه المرء . ومما يدعو إلى النظر بعين الاهتمام أن يتولى هذه الدعوة الحاخام مزارحى صاحب جريدة الحقيقة اليومية السياسية ومحررها فيكتب المقالات العديدة ضد المال « ذلك الجبار السائد والملك الظافر الذى انقادت إليه القلوب ، فغدا أربابه يغترون كبراً ويعيشون ظلماً حتى جعلوا الحق باطلاً والصدق ختلاً . وكم من الناس سفكوا الدماء حباً بالمال . وكم انصرفوا بعيداً عن الأحبة والأصدقاء طمعاً فيه . ومحبو المال كالأسرى فى أيدى الشياطين . ثم إن المال يحمل صاحبه على الظلم ، والمال لا يوطن نفس صاحبه بل يحدث فيها اضطراباً وتهويلاً بعكس الفقير ، فهذا بالكاد يسند رأسه على مخدة النوم فيرقد

(١) جريدة الأعلام : ٢٥ فبراير ١٨٨٥
(٢) جريدة الأعلام : ٣١ يناير ١٨٨٥
(٣) جريدة الأعلام : ١٩ ، ٢١ ، ٢٤ يناير ١٨٨٥
(٤) جريدة الأهرام : ١٤ يناير ١٨٨٤

مستريحاً ، أما ذاك فيحيا الليل تائهاً فى بيداء الأفكار » .(١)

ويحاول محرر جريدة الحقيقة أن يتلاعب بمشاعر القراء فيتحدث عن « حسن الصيت » وأنه أفضل من المال المجموع ، « لذا فالواجب على المرء أن يجاهد للحصول على حسن السمعة والصيت ، وعدم العناية بجمع المال »(٢) . ثم يعقد المقارنة بين العلم والمال ويحاول إثبات أنهما « عدوان طالما قام الخصام بينهما وعظم الخطب ، فنحث أفراد الناس على اقتناء العلم فإنه أشرف مقتنى » (٣) .

وتظهر هذه المقالات التى تبعث على الخمول والتكاسل فيركن الناس إلى ماهم فيه وتخرج أجيال خانعة تنعدم فيها روح الإقدام ، وينال الاحتلال بغيته وتعمل أجهزته الأخرى على تنفيذ أهدافه والشعب سادر فى حالة من القنوط والخنوع .

أما صحيفة المقطم فكانت صفحاتها تفيض بالدعوة التى رسمتها الصحف الاحتلالية الأخرى « فالقنوع من ربى نفسه على الرضا والسرور ، فيرى البهجة والحبور فى نور الشمس وضياء القمر وتلألؤ الكواكب ، وإذا أردت أن تعيش العيش الرغد ناعم البال فاطرد الهم من قلبك ، وانظر إلى نعم الله التى لا تحصى :

وانعم بعيشك . فالحياة معينهـــا صاف لمن لم يقصد الأقدارا » (٤)

بل إن المجلات الأدبية بمالها من التأثير العميق فى الشعور والإحساس اتجه بعضها إلى التعبير عن هذه المعانى السابقة بمقالات صدى لنفوس تغلب عليها الاستكانة والضعف مثل مقالات « كلمة الشرف » و« التعساء » و« الأمانة »(٥) إلى آخر هذه العناوين التى تشف عن العذاب والقلق والهوان تملأ أحلاماً

---

(١) جريدة الحقيقة : ١١ فبراير ١٩٨٠

(٢) جريدة الحقيقة : ٢٥ فبراير ١٨٩٠

(٣) جريدة الحقيقة : ٢٧ فبراير ١٨٩٠

(٤) جريدة المقطم : ٣ مايو ١٨٩٠

(٥) مجلة الراوى : مارس وابريل ومايو ١٨٨٨

صغيرة وقلوباً فارغة ، « ويلاه ماذا أسمع ، وما هو هذا الأنين ؟ ، وما هى هذه الأصوات الحزينة المتقطعة الواصلة إلى الآذان تجرحها » . (١)

وهكذا بدت الحياة فى القاهرة هينة هادئة كمياه الجداول المنسابة فى رفق فإن عصر عباس الثانى امتاز بالسكون والدعة السياسية فلا ثورات ولا حروب والاحتلال قد جثم على مصر بعد الثورة وأخذ بتلابيبها فتنفس الناس فى النوادى والبيوت والطرقات ودور اللهو . (٢) ويعيب حافظ إبراهيم على المصريين ما يراه من عيوب اجتماعية فيقول :

حطمت اليراع فلا تعجبى وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يامصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب
أنابتة العصر إن الغريب مجد بمصر فلا تلعبى
يقولون : فى النشء خير لنا وللنشء شر من الأجنبى
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرب (٣)

كذلك يصف حافظ إبراهيم تدهور أحلام الشباب وتفاهة حياتهم وضياع المثل العليا التى يجب التمسك بها ، وأصبح الشباب المصرى يحلم بالعمل اللين السهل الذى يدر عليه الدخل الجسيم دون ما جهد أو عناء ، والطمع فى الألقاب والرتب « ومال غير مكتسب وخيال به الوهم ذهب ، وضياع وقت من ذهب » . (٤)

الصحف وإثارة البلبلة الفكرية :

وقد أوضح كرومر فى تقاريره — التى سبقت الإشارة إليها — أنه كان يرى ترك الحرية النسبية للصحافة ذلك لأن وجود حامية إنجليزية بمصر يضمن

---

(١) مجلة الراوى : أول أغسطس ١٨٨٨

(٢) أحمد محفوظ : حياة حافظ إبراهيم ص ٧٧ (طبعة ١٩٥٧) .

(٣) ديوان حافظ إبراهيم : جـ ٢ ص ٢٠٤ قصيدة فى زواج على يوسف نشرت فى سبتمبر ١٩٠٤ (المطبعة الأميرية ١٩٥٣) .

(٤) حافظ إبراهيم ليالى سطيح ص ٣٩ عن أمانى الشباب ، ص ٣٨ مفاخر المصريين

أن الكتابات المهيجة لاتفضى إلى الإخلال بالأمن إخلالاً عظيماً (تقرير ١٩٠٣) وكان كرومر يرى أن نقد الصحف لن يسىء إلى رجال الحكومة. وهكذا رأينا كيف عمد المعتمد البريطانى إلى ترك الحرية للصحافة فى بعض الأحيان وكان يهدف من وراء ذلك إلى إيجاد نوع من البلبلة الفكرية بين المصريين ذلك لأنه كان من الطبيعى أن تصبح السمة الغالبة على الصحافة المصرية أن تكون صحافة رأى أكثر منها صحافة خبر (١) ، فظهرت الصحف المؤيدة للاحتلال والصحف التى تؤيد الدولة العثمانية أو فرنسا ثم الصحف الوطنية (٢).

ويؤيد مؤرخو الصحافة هذا الرأى ويقول محمود عزمى إن تطاحن هذه الوجهات الثلاث المختلفة بلغ الذروة بعد صدور المقطم ثم المؤيد وذلك لأن المقطم ظهر يمثل نظرية الاحتلال الإنجليزى بينما كان الأهرام يمثل النظرية الفرنسية ، ثم ظهر المؤيد يمثل وجهة النظر للحكومة المصرية (وكان رياض رئيساً للوزارة) (٣).

ويمكننا أن نقول إن القسمين الأخيرين كانا يمثلان المعارضة بينما يمثل القسم الأول الصحف المؤيدة للاحتلال، فكأنه قد أصبحت للصحف بالنسبة لموقفها من الاحتلال خطتان رئيسيتان :

خطة احتلالية رئيسها المقطم ومن انضم إليه.

وخطة وطنية رئيسها المؤيد وعدة جرائد أخرى(٤). ويقول هارتمان إن الأهرام لم تكن ذات أهمية فى معارضة المقطم ، إذ نظر أصحاب المقطم

(١) عبد اللطيف حمزة : المدخل فى فن التحرير الصحفى ص ٤٠ ، ٤١

(٢) Sladen : Op. Cit. p. 125

(٣) محمود عزمى : ملخص مبادئ الصحافة ص ٦٦ ،
إبراهيم عبده : جريدة الأهرام ص١٨

(٤) قسطاكى إلياس الحلبى : المرجع السابق ذكره ص١٢٨ ،
فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٥ – ٧ ،
مجلة الهلال : أول مايو ١٩١٠

إلى المؤيد باعتباره الصحيفة المعارضة لهم (١) . وتضاربت مشارب الصحف وكثر الطعن والتحزب مما لايقع تحت الحصر (٢) . ونجح الاحتلال منذ بدايته فى الإيقاع بين الصحف فى مصر فإذا « تحرك أحد إلى الكتابة فى أمر ما ينفع به أقرانه ليحرز لنفسه فخراً يقوم له ضد يناصبه فى الحق وفى الباطل فكأن المناظرة جارية فى المشاغبة لا فى التسابق إلى أفضل . وقل أن عرضت مطارحة أدبية أو علمية أو سياسية إلا وانقلبت مكافحة فتشاغل أصحابها بالشتم وخاضوا عباب كل وقيعة » (٣) .

ووصل التنافس حداً أدى إلى أن تصدر نظارة الداخلية أمراً رسمياً بعد أن شاهدت من « غالب الجرائد أمراً يسقط من اعتبارها من درجة الجرائد ويخرجها من عداد المنافع ويدخلها ضمن المضار ، وربما تعرضت الواحدة للثانية مجاناً بدون سبب ذكر ولا أصل نشر ، لذلك نشرت النظارة هذا لكافة أرباب الصحف العربية إخطاراً لهم بالتزام جانب الأدب ، فالحكومة لم تصرح بالجرائد لتكون معلمة الفحش ، ولكنها رخصت بها لتكون أستاذاً عمومياً يعلم الفضائل وينهى عن الرذائل ويدعو إلى تحسين الأحوال والأعمال » (٤) .

وقد ادعت كل صحيفة أنها إنما تهاجم غيرها دفاعاً عن البلاد وأهلها والشرف ، وكانت صحيفة البرهان من الصحف التى اتخذت جانب الاحتلال وكانت تحاول الحط من قدر الصحف عموماً وتصفها بأنها شرك يقتنص به طيور الأغراض السيئة . (٥) وبلغ من أمر هذا الصراع أن « البرهان » هاجمت « الزمان » (٦) هجوماً مقذعاً مع أنهما محالفتان للاحتلال ولكن يبدو أن التنافس على من يكون أثيراً لديه دفع كلاً منهما

---

(١) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٤ ص ١٦٦ ، ١٦٧ ،
Hartmann : Op. Cit. p. 11

(٢) مجلة الهلال : ١٥ أكتوبر ١٨٩٧ ، عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ص٢٠

(٣) جريدة البيان : ٢٩ مايو ١٨٨٤

(٤) الوقائع المصرية : ٢٨ أكتوبر ١٨٨٤

(٥) جريدة البرهان : ١٩ فبراير ١٨٨٣

(٦) جريدة البرهان : ٥ مارس ، ٢ ، ٩ ، ٣٠ أبريل ١٨٨٣

إلى أن تحاول الحط من قدر الأخرى بل والقضاء عليها . » وقد علم الناس ما فطرت عليه جريدة الزمان من نشر أعلام البهتان ، واتخاذ الهجاء والقذف وسيلة للشهرة » (١) ثم خصص البرهان مقالات بعنوان « ألف صاعقة وصاعقة على رأس صاحب الزمان » (٢) ، تحدث فيها عن الدب الأرمنى ، واستخدم ألفاظاً نابية وهجواً مقذعاً :

كلب أرمنى خاين وكله عيـــوب   ومن يصدق فى الكلاب الأمان »(٣)

هذا بينما ينشر الزمان مقالات عن التمامين ، (٤) واستخدمت الصحيفة ألفاظاً مسفة « ليعلم هذا البهيم أننا لم نقصد رداً عليه حيث تبين أنه أجهل من الجهل » . (٥)

ورأى قلم المطبوعات أن يتدخل لوضع حد لهذا المسلك فى المطاعن الشخصية وأنذر الصحيفتين « فإن الجرائد لم تخلق لتكون سوق قبائح ومعرض شتائم (٦) » . هذا وقد اتفقت البرهان والزمان على معارضة الأهرام وتكذيبه حتى فى الأخبار المحلية (٧) . ومن أصدق الأمثلة على ما وصلت إليه الصحف آنذاك من تدهور أنه فى القضية التى رفعها سليم شقره ضد صرافيان للمطالبة بحقه بعد قرار إغلاق الزمان ، يقول محامى شقره يصف صرافيان بأنه كان دائم العراك مع زملائه « فقد نازع الفارد الكسندرى ، وندد بروضة الأسكندرية ، وطعن فى الأهرام ، وقدح فى المحروسة ، وذم البسفور وعنف الاعتدال ، بل لم يسالم الإجبشيان جازيت وإن تكن أفكاره مشابهة لأفكارها » . (٨)

---

(١) جريدة البرهان : ١٢ يوليو ١٨٨٣

(٢) جريدة البرهان : ٢٧ ، ٢٨ أغسطس ١٨٨٣

(٣) جريدة البرهان : ٣٠ أغسطس ١٨٨٣

(٤) جريدة الزمان : ٢٦ مايو ١٨٨٣

(٥) جريدة الزمان : ٩ ، ١٤ ، ١٧ يوليو ، ٢٦ ، ٢٣ أغسطس ١٨٨٣

(٦) الوقائع المصرية : ٢ سبتمبر ، البرهان فى ٣ سبتمبر ١٨٨٣

(٧) جريدة الزمان : ٣١ يونيو ، ٧ يوليو ١٨٨٣ ،
البرهان : ٢٥ يونيو ، ٣٠ يوليو ، ١١ ، ١٨ ، ٢٢ أكتوبر ١٨٨٣

(٨) جريدة الصادق : ١٦ مايو ١٨٨٧

أما المقطم فبدأ هجومه ضد الأهرام برغم أنه ادعى أنه قد « عقد العزم قبل صدوره على اجتناب الأهرام فهى تقوم بالمقاومة سراً وجهراً » ، ولكن فى المقال نفسه نجد هجوماً ضد الأهرام واتهامها بأخذ تعويضات لا تستحقها وتقربها من المعية وإرغام الأهالى على الاشتراك فيها . (١) ويهاجم المقطم نظام المعارضة « فإن النقد لا فائدة منه إنما يأول إلى إلقاء النفرة والوحشة بين الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة » (٢) . وفى خلال هجومه ضد الأهرام يدعو للحكومة والاحتلال معارضاً فرنسا وسياستها بإزاء مصر « فإن الاحتلال أضر بتجارة فرنسا وقل ربحها منها كما قال الوزير الفرنسى » (٣) أى أن المقطم كان يحاول إظهار فرنسا بمظهر الطامع فى الأراضى المصرية . وهكذا سارت صحيفة الاحتلال فى خطتها للحط من قدر الصحف المعارضة وبخاصة الأهرام ثم المؤيد (٤) .

وكانت صحيفة الوطن فى الوقت نفسه تؤيد المقطم والاحتلال وتعارض الأهرام ثم أدخلت المؤيد فى المعارضة (٥) . وظهرت جريدة النيل وفى صدر صفحتها الأولى من العدد الأول « إنه نيل مصرى لا يشارك الجرائد المتشيعة للإنجليز بغير الحق فى ترجيح كل أعمالهم وتحسينها فى أعين المواطنين . كما لا يقاسم الصحف المتطرفة ضدهم بلا تبصر ولا ترو فى اهتضام مساعيهم وتقبيح أعمالهم جميعها » (٦) . وسرعان ما ظهرت ميوله الاحتلالية منذ العدد الثانى ، وأخذ يعارض الجرائد المتطرفة « أرباب الأفكار الملتهبة فهم لا يسوقهم إلى تحريك الخواطر إلا الاستفادات الخصوصية » (٧) وتولى

---

(١) جريدة المقطم : ٢٠ إبريل ١٨٨٩

(٢) جريدة المقطم : ١٣ أكتوبر ، ١٨ نوفمبر ١٨٨٩ ، ٩ مايو ١٩٨٠ ، ١٩مارس ١٨٩١ وغيرها .

(٣) جريدة المقطم ، ٢٣ ، ٢٦، ٢٧ مايو ، ١٣ يونيو ، ١٦ أكتوبر١٨٨٩

(٤) معظم أعداد المقطم ومنها : ٢٠ نوفمبر ١٨٨٩ ، ٨ ، ١٢ يناير ، ١٠ فبراير ٤ مارس ، ١٧ مايو ، ١٣ ، ١٩ سبتمبر ١٨٩٠

(٥) جريدة الوطن : ٢٠ إبريل ، ١١ ديسمبر ١٨٨٩ ، ٣ مايو ، ٢٠ أغسطس ، ١٠ سبتمبر ١٨٩٠ .

(٦) جريدة النيل : العدد الأول فى ١٧ ديسمبر ١٨٩١

(٧) جريدة النيل : ٣ إبريل ١٨٩٢

«النيل» مهاجمة جريدتى الأهرام والمؤيد فى كل عدد من أعداده تقريباً (١) .

كان هذا شأن أكبر صحف الاحتلال . ولم تقف صحف المعارضة صامتة ، وكانت الأهرام أول من حمل على دعاة الاحتلال ولكن حملاتها كانت خفيفة وتتميز بالأقوال السريعة وعدم التفنيد فهى مجرد رد (٢) .

وظهرت صحيفة «القاهرة الحرة» ، أحد ألسنة تركيا ، وقد هاجمت الصحف عموماً فى مصر والأهرام (٣) بوجه خاص ، ثم المقطم بعد ظهوره(٤) .

أما صحيفة المؤيد فإنها تولت منذ ظهورها مبدأ المعارضة لصحف الاحتلال والصحافة العربية التى يحتمى أصحابها بحماية دول أجنبية ، كما فعل أصحاب جريدتى المحروسة والأهرام ، (٥) « فمن منا خلع سلطة حكومته ودولته واتخذ له حماية دولية أجنبية يفتخر بالانتساب إليها وخدمة مصالحها ولو تناقضت مصلحة البلاد والوطن » . (٦) وخصص على يوسف عدداً من المقالات بعنوان « الألغام فى هدم الأهرام » لخروج مدير الأهرام من الساحة العثمانية وتقيده بالتبعة الفرنساوية . « وكيف يرجى الخير ممن فطر على بغض مولاه وأشرب فى قلبه حب سواه » (٧) ويعلم هذا المدير « أنفة نفسنا من مطالعة جريدته العائبة ، وأنها تطرح إلى الكناسة ، ويأتى خادم المطبعة فيرجع استثقالاً لما فى جريدة القبائح من الأقذار » (٨) .

---

(١) جريدة النيل : ١١ ، ١٦ إبريل ١٥ ، ١٥ ، ١٩ مايو ، ٢٠ أغسطس ، ٩ ، ٢٤ أكتوبر ، ٢٦ ديسمبر ١٨٩٢

(٢) جريدة الأهرام : من أغسطس ١٨٨٤ وبخاصة مقالات « الصحافة » فى يوليو ١٨٨٦

(٣) جريدة القاهرة الحرة ، ٢٠ أغسطس ، ٨ سبتمبر ١٨٨٧ ، ٩ يوليو ، ٢٨ أغسطس ، ٢ سبتمبر ١٨٨٨

(٤) جريدة القاهرة الحرة ، ١٠ ، ١٧ ، ١٨ إبريل ، ١٢ ديسمبر ١٨٨٩ وغيرها

(٥) ، (٦) جريدة المؤيد : ١٥ ، ١ ، ٢٢ ، ٢٣ إبريل ، ٢٤ أغسطس ، ١١ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ سبتمبر ، ٣ نوفمبر ٩٩٠ ، شهر فبراير ١٨٩١

(٧) جريدة المؤيد : ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ إبريل ١٨٩١ « مقالات الألغام » .

(٨) جريدة المؤيد : ٥ مايو ١٨٩١

وأخذت الحرب بين المقطم والمؤيد منذ ظهور الصحيفة الأخيرة تبدو ثم تختفي لتشتعل من جديد إلى أن أصبحت مدار مباحث كل من الصحيفتين ، ويقف رجال الاحتلال من وراء المقطم ، بينما يسند المؤيد رياض باشا وشهرة أخذت تزداد بين ربوع العالم الأسلامي (١) .

وكانت مجلة الأستاذ للنديم خاتمة المجلات الهامة التي صدرت في العقد الأول من عهد الاحتلال وقد اتخذت موقف المعارضة للسياسة الإنجليزية منذ صدورها (٢)، وأخذت تهاجم المقطم هجوماً مستتراً أولاً ثم في صراحة فتحدثت عن الصحف الموجودة في مصر وأنها خدمت البلاد خدمة صادقة ولم تذكر المقطم (٣) ، وإذ يهاجم المقطم عبد الله نديم ويدعى أنه سينفى (٤) من البلاد تزداد نغمة «الأستاذ» شدة ثم تخصص ثمان وعشرين صفحة من العدد لمهاجمة أصحاب المقطم « الذين صادف دخولهم مطرودين من وطنهم غيبة طبقة المنشئين المصريين إذ ذاك كمحمد عبده وحسن حسنى وإبراهيم اللقانى والهلباوى وحسن الشمسى واحمد سمير ووفا محمد وسعد زغلول ، فما لبثوا أن كفروا بالنعمة وأنكروا المعروف وانحازوا للغير ، وأصبحوا أعداء الله ونبيه والسلطان ، والخديو و ... » (٥) .

وقد أغضبت هذه النزعة أصحاب المقطم فكادوا له عند الإنجليز وطلب كرومر من الخديو نفى النديم من البلاد . (٦) وقد أشار نديم إلى ذلك فى ختام العدد الأخير (٧) من مجلته مستنكراً مبدياً عدم تصديقه ولكنه يودع قراءه وسرعان ما تأيدت الشائعات ونفى إلى الآستانة .

---

(١) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٥ — ٧ ، المؤيد من يوليو ١٨٩٠ وما بعده . Hartmann : Op. Cit. p. 11,

(٢) مجلة الأستاذ : مقالات الصحافة واختلاف كلمتنا منذ ١٣ ديسمبر ١٨٩٢

(٣) مجلة الأستاذ : ٣ مايو ١٨٩٣

(٤) جريدة المقطم : إبريل ١٨٩٣

(٥) مجلة الأستاذ : ٢٣ مايو ١٨٩٣

(٦) محمد خلف الله : عبد الله نديم ومذكراته السياسية ص ٤٢ (الأنجلو المصرية ١٩٥٦) .

(٧) مجلة الأستاذ : ١٣ يونيو ١٨٩٣

هكذا تضاربت الصحف المصرية بين مؤيدة للاحتلال — أو ما يسميه البعض صحف المعتدلين — وصحف المتطرفين ، وهو اللفظ الذى أطلق على الوطنيين . (١) ولم يكن هناك عنان عقلى يكبح جماح الكتاب ويردهم إلى استخدام الحقائق فى هذه الصحف المتزايدة (٢) التى يصفها حافظ إبراهيم قائلا :

جرائد ما خط حرف بها لغير تفــريق وتضليل
يحلو بها الكذب لأربابها كأنها أول أبريـــل(٣)

واستمرت النفوس فى مصر واجمة ، يحز فيها ألم الاحتلال وهى ساكتة تتألم ولكن ألم اليائس الضعيف ، وهذا اليأس لم يكن ليثير الأمة ولا ليوقظ فيها روح الإباء والمقاومة ، بل كان من شأنه لو دام أن يزيدها يأساً وهواناً واستسلاماً . (٤) وهذا ما كانت تهدف إليه سياسة الاحتلال ، وأصبحت مصر بعد حوالى ربع قرن من دخول الإنجليز موطناً للاضطراب الفكرى «ولم تكن تيارات الرأى السياسية فى البلاد لتلتقى عند أمر يجمع الكل عليه فيكون صيحة للشباب وللجماهير » . (٥)

الصحف والحياة الحزبية فى مصر :

وهناك نقطة أخرى يثيرها البحث فى أهمية الصحافة فى فترة الثورة العرابية ذلك أن الأحزاب السياسية — كما يسميها لاندو — تركزت حول

---

(١) Young G. : Egypt p. 180

(٢) Travers : Britain & Egypt. Rise of Eg. Nationalism p. 312

ولى الدين يكن : المعلوم والمجهول جـ ١ ص ١٣ — ١٥

(٣) ديوان حافظ إبراهيم جـ ٢ ص ١١٠

(٤) عبد الرحمن الرافعى : كتاب عندما دخلوا التاريخ الفصل الخاص بمصطفى كامل ص ٣٣٨ (مطبعة بيروت ١٩٥٨ — تأليف ولاس بروكورى وترجمة ناصر الدين النشاشيبى وبه فصول ملحقة عن بعض زعماء مصر) .

(٥) محمد حسين هيكل مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ ص ١٩ (وكان المؤلف يؤرخ لفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى وحالة مصر العامة فى هذه الفترة (النهضة ١٩٥١) .

الصحف السياسية التى لم تكن مجرد أبواق تتحدث بل قامت بمهمة العقل المدبر لهذه الأحزاب . (١)

وقد اقتضت السياسة التى سار عليها الإنجليز من إطلاق حرية الصحافة فى بعض الأحوال إلى ظهور جماعات من الكتاب والمحررين تدرجوا حتى أصبحت تدور حولهم وحول صحفهم أحزاب سياسية(٢) تؤيد الاحتلال أو تعارضه . ذلك أن اعتماد الاحتلال على صحف بعينها وظهور صحف أخرى مناوئة خلق سبيلاً إلى نشأة الأحزاب فى دور هذه الصحف (٣) . وقد استمر الحزب الوطنى يتلمس طريقه بين صحف هذه الفترة ولكنه لم يجد منها ما يعبر عن أمانيه ، ونشأت على سياسة المقطم ، ما يسميه قسطاكى ، الحزب الوطنى الحر الذى يقوم على مسالمة الإنجليز والسعى فى نيل ثقتهم والاتفاق معهم ، ونشأ فى دار المؤيد وحول على يوسف حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية مؤيداً الخديو معتمدا على الوعود التى أعلنتها بريطانيا ومطالبتها بتحقيقها ، (ثم ظهرت أحزاب حول صحف ما بعد الفترة التى نتناولها : الحزب الوطنى وقام على سياسة جريدة «اللواء» لمصطفى كامل ، وحزب الأمة على سياسة صحيفة «الجريدة» لأحمد لطفى السيد وزملائه) (٤) . وفى ذلك يقول حافظ إبراهيم ناعياً فوضى الرأى :

وصحف تطن طنين الذباب   وأخرى تشن على الأقـــرب
وهذا يلوذ بقصر الأمـــير   ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير   ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين   على غير قصد ولا مأرب(٥)

---

(١) Landau J. : Op. Cit. p. 176
(٢) جورجى زيدان : مشاهير الشرق جـ ١ ص ٢٩٣
(٣) عبد اللطيف حمزة : المدخل فى فن التحرير الصحفى ص ٣٢٣ ، ٣٢٤
(٤) قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ذكره ص ١٣٩ – ١٤٣
(٥) ديوان حافظ إبراهيم : جـ ٢ ص ٢٠٤

وهكذا كانت الأحزاب ثمرة من ثمرات الصحافة ونتيجة من نتائجها فيتجمع الأفراد حول شخصية غالباً ما تكون شخصية صحفية لها آراؤها فى إصلاح المجتمع ثم تستطيع عن طريق الصحيفة أن تقنع هؤلاء الأفراد برأيها (١) ، وذلك على عكس أمم العالم المتمدن فتشكل الأحزاب السياسية ولكل حزب وجهة أو خطة وينشىء كل حزب منها جريدة أو عدة جرائد يجعلها لسان حاله للدفاع عن سياسته (٢) .

واستطاع الاحتلال بذلك إحداث نوع من الاستكانة والخضوع والتفكك ووجدت بعض العناصر فى الغزاة الجدد أسناداً يمكن الاعتماد عليها لتحقيق مآربها فتنكروا للحركة الوطنية ، وعمل رجال الاحتلال كذلك على توطيد هذه الحالة النفسية متلمسين لأنفسهم العون ولحكمهم الأنصار والمؤيدين حتى تضاءلت الروح الوطنية بين جمهرة من أبناء الشعب شاعت بينهم أسباب الفرقة والخلاف . وتحقق للإنجليز شيء من الطور السياسى من أطوار الاحتلال فى مصر . (٣) وخيم على البلاد ظلام كثيف ودخلت فى موجة من اليأس والخضوع . (٤) وإذ تقبض السلطات على عبد الله نديم — زعيم خطباء الثورة وكاتبها الأول — بعد تسع سنوات من التخفى تحاول جريدة الوطن التقليل من شأنه فتقول فى صفحتها الأولى « إن الحكومة لو أمسكته قبل الآن لكان لمسكه أهمية كبرى ، أما الآن فلا أهمية له مطلقا فإن مصر انتقلت وتحولت ، بل لو ظهر ألف عرابى فى الوقت الراهن لحل بهم وبال عنادهم ، فجميع المصريين متأكدون من أن جناب خديويهم زينة ملوك أوربا من جهة العدل والحرية والحكم بالقوانين والرغبة فى راحة الرعية »(٥) .

---

(١) عبد اللطيف حمزة : مقال (الصحافة المصرية) مجلة كلية الآداب مايو ١٩٥٤ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ،

Travers G. Brit & Eg. p. 243.

(٢) مجلة الهلال أول مايو ١٩١٠

(٣) Trail H: England, Egypt and the Sudan p. 227 (London 1900)

(٤) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة جـ ٥ (مصطفى كامل) ص ٥٣ ،

عمر الدسوقى : المرجع السابق ذكره جـ ٢ ص ٧٧

(٥) جريدة الوطن : فى ٧ أكتوبر ١٨٩١

وليس هناك من شك فى أن ذلك كله كانت له نتائجه فى تضاؤل الروح الوطنية فى النفوس ، وصار عدم الاكتراث للوطنية شعار هذا الجيل ، « وأصبح سبيل النجاح سواء فى المناصب أو الحياة الاجتماعية هو الولاء للاحتلال والزراية بالمبادىء الوطنية وقلة الاخلاص للبلاد . ودرج الناس على هذه الحالة وألفوها ، حتى عدوها كأنها حالة عادية وكان الخروج عليها ضرب من السخف أو الجنون . وهكذا يمسخ الحكم الأجنبى نفسية الأمة ويفقدها الروح القومية والكرامة ، وينشىء نفوسا ضعيفة مريضة يروضها على التفريط فى حقوق الوطن وتضحية مصالحه فى سبيل التهافت على موائد الغاصب . وإذ فقد الناس التطلع إلى المثل العليا ، فقد انصرفوا إلى الصغائر والسفاسف ، وتعلقوا بها واطمأنوا إليها وتنكروا لمعانى الشهامة والبطولة والاستمساك بالحق والواجب فلم يعودوا يأبهون لهذه المبادئ السامية أو يقدرونها حق قدرها ، ونشأت عن كل ذلك حالة نفسية هى أبعد ما تكون عن الوطنية »(١) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان ص ١٧٥ – ١٧٧

البَابُ الثَالِثُ

موقف الصحافة المصرية فى الصراع
بين انجلترا وتركيا وفرنسا

الفصل السادس

الصراع بين انجلترا وتركيا على مصر

- الدولة العثمانية والرأى العام المصرى
- صحف تؤيد الدولة العثمانية
- الدولة العثمانية تساعد على إصدار صحف بمصر أثناء مفاوضاتها مع إنجلترا
- مظاهر الصراع بين إنجلترا وتركيا
- إنجلترا تستخدم الصحف للدعوة لفصل مصر عن الدولة العثمانية
- الأتراك الأحرار يصدرون صحفاً بمصر ضد السلطان
- استخدام الصحفيين اللبنانيين بمصر لمناوأة السيادة العثمانية على الشام
- الصحف الأرمنية بمصر تناوئ الدولة العثمانية
- الإنجليز يساعدون على إصدار صحف يهودية بمصر

الدولة العثمانية والرأى العام المصرى :

تعتبر سياسة إنجلترا بإزاء الدولة العثمانية الحلقة الثانية من الحلقات التى تدور حولها السياسة الإنجليزية التوسعية فى مصر خاصة وفى الشرق العربى بوجه عام ، ذلك لأن كلمة عثمانى كانت تنسحب على كل شخص فى البلاد العربية وكل من يقطنها حتى ولو لم يكن من مواليد هذه البلاد . (١) هذا وقد انتظمت العلاقة بين مصر والدولة العثمانية بمقتضى عدة فرمانات صدرت بعد اتفاقية لندن ١٨٤٠ ، ولكن لم يكن هناك ما يسمى جنسية مصرية ، ولم يكن للخديو حق عقد معاهدات مع الدول الأجنبية إلا أنه كان يستطيع عقد اتفاقيات خاصة بالشئون التجارية أو بالإدارة الداخلية . (٢)

ولا يمكن لإنجلترا أن تنسى – وهى الآن تسيطر على مصر – أن السلطان لايزال له تأثير واضح فى شئون الحكم فى مصر ، فعندما رأت إنجلترا وفرنسا عزل إسماعيل اضطرت الدولتان إلى استخدام السلطان لتنفيذ ذلك مما كان له أكبر الأثر فى نفوس عامة المصريين إذ أظهر ضعف التدخل الثنائى إذا لم يكن مصحوباً بأمر من السلطان . (٣) كذلك كان لمنشور السلطان بعصيان عرابى أثره البالغ فى إضعاف الحركة العرابية ، كما رأينا .

ورأت إنجلترا أنها لكى تستأثر تماماً بأمور مصر وتدخل فيها ما تراه من تطور فلابد أن تعمل على إخراجها من سيطرة الحكم العثمانى وخاصة على عهد توفيق (٤) الذى تميز ببعض مظاهر الضعف . وفى الوقت نفسه كان

---

(١) Duc d'Harcourt : L'Egypte et Les Egyptiens p. 84 (Paris 1893)

(٢) Newman : Op. Cit. p. 123.

(٣) Dicey E. : The Story of the Khedivate pp. 250, 251.

(٤) Trail H. : England, Egypt and the Sudan p. 33 (London 1900), Greville J. : Some Truths about Egypt p. 589, Fortnightly Review 1880.

السلطان ينظر إلى مسألة مصر على أنها مسألة عثمانية قبل كل شىء ، وسارت المفاوضات متعثرة بينه وبين إنجلترا فترة الاضطرابات قبل الاحتلال (١) إلى أن بدا سقوط عرابى فى الأفق ، وحينئذ بلغ قلق السلطان مداه ، إذ كان يود الاشتراك بعدد ولو ضئيل من جنوده فى الأعمال الحربية بمصر ، ومن ثم يدعى لتركيا بالحق فى القضاء على عرابى . ولكن إنجلترا لم تقبل ذلك فبدأ التعارض بين وجهة نظر السلطان ووجهة النظر البريطانية ، ووضح منذ ضرب الأسكندرية أن الإنجليز طمعوا فى احتلال البلاد دون إشراك تركيا معهم . (٢)

واستمرت مصر بعد الاحتلال ولاية تابعة للدولة العثمانية بمقتضى الفرمانات ، وتخضع للدول الأوروبية بمقتضى الامتيازات وبمقتضى معاهدة ١٨٤٠ (الوصاية الدولية) ، كذلك تخضع مصر لإنجلترا بمقتضى التدخل العسكرى . حقاً إن الخديوى يمثل رأس الدولة ولكنه كان خاضعاً لوصى إنجليزى فى يده كل الأمور (٣) .

كانت هذه حالة مصر منذ وقوع الاحتلال . ونظرت معظم الدول إلى أعمال إنجلترا فى غير اعتراض ما عدا الدولة العثمانية (٤) . وحاولت إنجلترا القضاء على شكوك السلطان فصدرت عشرات التصريحات من الملكة ورؤساء

---

(١) Bowen J.E. : The Conflict of East and West in Egypt pp. 82-85, 94, 95 (N.Y. 1887),

Broadley A. : How We Defended Arabi & his Friends pp. 169, 170 (London 1887),

محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه ص ٤٨ ، ٤٩ ، (دار الفكر العربى ١٩٥٢) .

(٢) Ch. Royle : The Egyptian Campaigns 1882-1885 V.I pp. 356 -362.

(٣) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ص ١٨٩ ، ١٩٠ ،

Cocheris J. : Situation International de l'Egypte et Sudan pp. 1. 2) Paris 1903).

(٤) هانس رزنر : المرجع السابق ذكره ص ١٢١ ، ١٢٣

الوزارات ووزراء الخارجية فى بريطانيا بأن الاحتلال إجراء مؤقت لتوطيد سلطة الخديو والسلطان (١) .

ويبدو أن الباب العالى كان قد اعتاد لحقبة من الدهر امتهان أوروبا لكرامته واعتداءها على حقوقه وتعديها على سلطاته ، لذا كان السلطان عبدالحميد قد وطن العزم على كظم غيظه وانتظار الظروف . وقد ثابر على موقفه من عدم الاعتراف بمركز الإنجليز فى مصر ، ولا ريب فى أن فرنسا كانت تؤيده فى ذلك الموقف وتتبعها روسيا(٢) . وقدرأت إنجلترا أن تحطيم سيادة السلطان فى مصر سيثير كثيراً من المتاعب والشعور بالعداء ضدها ، هذا إلى جانب أن سياستها كانت تقوم على أساس إغلاق المضايق فى وجه روسيا وذلك بمعاونة من السلطان (٣) .

وهكذا لم تكن مصر فى عهد الاحتلال جزءاً من أملاك إنجلترا بل استمرت جزءاً من الإمبرطورية العثمانية ولكن كان ينظر إليها باعتبارها قد دخلت فى نطاق « السيطرة البريطانية » ، وهى عبارة لا يقصد بها سوى إسكات شكوك الدول (٤) .

ويؤكد كرومر أن سياسة بريطانيا قامت على أساس « استقلال » مصر عن كل تدخل فى شئونها (٥) ، « وكان على أن أؤيد سيادة السلطان على مصر

---

(١) Aubin Eug. : Les Anglais aus Indes et en Egypte p. 200 (Paris 1899),
Travers S. : Britain & Egypt pp. 275-280.

ويسجل كتاب « القضية المصرية من ١٨٨٢ — ١٩٥٤ : بعض وعود إنجلترا بالجلاء عن مصر » ٢١ وعداً رسمياً صادرا من الملكة ورؤساء الوزرات ووزراء الخارجية البريطانية بالجلاء عن مصر حتى عام ١٨٩٢ (المطبعة الأميرية — القاهرة ١٩٥٥) .

(٢) محمد صفوت : المرجع السابق ذكره ص ١٩٠ ، ١٩١ ،
Duc d'Harcourt : Op.Cit. p. 258,
Bourguet A : La France et L'Engleterre en Egypte p. 281. (Paris 1897).

(٣) Farman E. : Egypt & Its Betrayal p. 339 (N.Y. 1908)

(٤) Meiville W. : What British Administration has done for Egyptp.217 (The Empire Review March 1901).

(٥) Britains Work in Egypt by an Englishman in theEgyptian Service pp. 22. 23 (Edinburgh 1892)

رسمياً ، ولكن كان عليّ في نفس الوقت أن أمنع أى تدخل فعلى من جانب تركيا فى شئون حكومة مصر » (١) .

صحف تؤيد الدولة العثمانية :

واتخذ الصراع بين الدولتين فى بداية الاحتلال مظهراً غير واضح إذ كان من المتعذر على إنجلترا تغيير مركز مصر الدولى دون مصادقة تركيا والدول التى اشتركت فى إبرام معاهدة لندن عام ١٨٤٠ (٢) . ويبدو أن إنجلترا كانت فى السنوات الأولى من الاحتلال فى حالة من التردد وكأنها تترنح من ثقل المسئوليات الضخمة التى كان عليها أن تتحملها (٣) . ومن ثم بدت المعارضة ضد تركيا فى صحافة مصر ضعيفة لاتعدو مقالات فى صحيفة « الوطن » التى حاولت إشراك تركيا فى تحمل تبعة أحداث الثورة العرابية ، وأن عرابى كان آلة فى يد أرباب الدسائس الخارجية (٤) ، وأن السلطان حاول التعرض فى محاكمة عرابى « لإخفاء المخبآت وأملا فى تأييد حقوقه السلطانية ، وغاية مناه محاكمته فى الآستانة ولكن هيهات » (٥) . ولكن « الوطن » تمادت فى إظهار عواطفها نحو إنجلترا فأظهرت السلطان بمظهر المرتعد من عزم دوفرين على السفر إلى مصر ، « وأكد دوفرين للوزير الأول حسن نوايا إنجلترا نحو تركيا وأفهمه عدم مس الحقوق السلطانية ، ومع ذلك فلم يزل هذا القلق مستولياً فى يلدز فإنه يخشى أن اللورد يفصل مصر عن تركيا» . كتبت الصحيفة هذا فى صفحتها الأولى وفى صفحتها الثالثة رأى الصحف الإنجليزية فى أن تكون السلطة العثمانية بالاسم فقط « إذ كان السلطان من زمرة عرابى » (٦) .

ووقفت إلى جانب السلطان صحيفتان من أهم صحف هذ الحقبة هما « البرهان » و « الأهرام » وبدأت صحيفة « البرهان » — رغم ميلها

---

(١) Cromer : Mod. Eg. V. II p. 324.

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، مصر والسودان ص ٢٧

(٣) De Freycinet La Question d'Egypte pp. 325, 326 (Paris 1904)

(٤) جريدة الوطن فى ٩ ، ١٤ أكتوبر ١٨٨٢

(٥) جريدة الوطن فى ٣٠ أكتوبر ١٨٨٢

(٦) جريدة الوطن ١١ نوفمبر ١٨٨٢

للإنجليز – تعضد الجانب العثمانى وتعارض الاحتلال بطريقة هينة ليس فيها عنف ، « فالدولة العثمانية ساعدت إنجلترا وأعلنت عصيان الشرذمة المخالفة وبذلك سهل لإنجلترا أن تتم عملها فعليها أن تحفظ للدولة حق سيادتها على مصر » (١) . وتعارض الصحيفة الرأى القائل بأن التدخل العسكرى معناه تحول مصر إلى مستعمرة إنجليزية مستندة إلى أن الواقع وخطب رجال بريطانيا يكذب ذلك . (٢)

أما « الأهرام » فكانت أكثر جرأة من « البرهان » وانتهزت فرصة النصائح الإلزامية التى أرسلها جرانفيل فى ٣ يناير ١٨٨٣ إلى الدول بتنظيم أمور مصر ثم سحب الجنود بعد تثبيت سلطة الخديو (٣) ، وطالبت الأهرام بوجوب اتفاق إنجلترا أولا مع الباب العالى قبل مباشرة التنظيمات ، « وإذا لم توقف أعمالها فى مصر حتى تنتهى المخابرات فهى تبرهن بوضوح على أنها تعدت العدالة فى الأعمال المصرية » (٤) . ويسافر بشارة تقلا مدير الأهرام إلى الآستانة ليوافى القراء منذ أكتوبر ١٨٨٣ بأنباء العاصمة وكانت كلها تدور حول أحقية الخلافة فى التدخل فى شئون مصر (٥) . وكان من الواضح أن « الأهرام » تقف نفس الموقف الذى تتخذه فرنسا من المسألة المصرية ، وكانت الصحيفة لا تترك مناسبة دون الإشارة إلى فرنسا « فإن أمام إنجلترا لتنفيذ أغراضها مانعين وهما الدولةالعثمانية وفرنسا». وإذ تعطل «الأهرام(٦)» شهراً لمعارضتها إنجلترا وتأييدها فرنسا فتبدأ منذ ذلك الحين حدة فى المقالات لترسم صورة لإنجلترا عدوة تركيا وهى تبدو فى « صورة المحب المستتر » (٧) .

---

(١) جريدة البرهان ١٩ فبراير ، ١٩ ابريل ١٨٨٢

(٢) جريدة البرهان فى ٣ مايو ، ١ ، ٨ أكتوبر ١٨٨٢

(٣) سليم نقاش ، مصر للمصريين ج ٦ ص ١٨٥ – ١٨٨ ،
Milner : Eng. in Eg. p. 68.

(٤) جريدة الأهرام : فى ٣ فبراير ١٨٨٣

(٥) جريدة الأهرام : من ٣٠ أكتوبر إلى ١٧ ديسمبر ١٨٨٣ (بعنوان رسائل بشارة من الأستانة) .

(٦) جريدة الأهرام : من ٢ يناير إلى ١٨ يناير ١٨٨٤

(٧) جريدة الأهرام : فى ٢٨ أكتوبر ١٨٨٤

وكانت أمور مصر المالية فى السنوات الأولى للاحتلال حرجة للغاية ، هذا إلى جانب أن الكراهية التى كان المصريون يضمرونها للأتراك قد أخذت تخف وبدأت تحل محلها الكراهية ضد الأجانب ، وقد اعتمدت بعض الجماعات المعادية للاحتلال على العنصر التركى أو الجركسى الذى أحس بالاستياء لفقده ماكان يتمتع به من امتيازات قبل الاحتلال(١) . وفى الوقت نفسه كانت إنجلترا تخشى أن يكون لسيطرتها التامة على مصر أثر فى دفع تركيا وفرنسا وروسيا إلى تكوين كتلة فى شرق البحر المتوسط(٢) .

لهذا لم يكن غريباً أن تقترح إنجلترا الدخول فى مفاوضات مع تركيا بشأن الجلاء . وأرسلت الحكومة الإنجليزية سير هنرى دروموند وولف صيف عام ١٨٨٥ إلى الآستانة ليضع اتفاقاً تنظم به المسألة المصرية ، وتم وضع الخطوط الرئيسية لهذا الاتفاق فى ثلاثة شهور وكان يقتضى إرسال مندوبين ، تركى وبريطانى ، ليبحثا حالة مصر من جميع وجوهها ثم يضعا تقريراً ينظم مسألة الجلاء(٣) . وأرسلت تركيا مختار باشا الغازى وأرسلت إنجلترا هنرى دروموند وولف . ودار صراع ضخم بين الجانبين التركى والإنجليزى فى مصر وكانت الأسلحة الوحيدة التى استعملت هى أقلام الكتاب الذين اتخذوا من الصحافة ميداناً لحرب استغرقت أعواماً طوالا .

الدولة العثمانية تساعد على اصدار صحف بمصر أثناء مفاوضتها مع انجلترا :

وكانت تركيا على الرغم من ضعفها تحاول إثارة النفوس ضد الاحتلال ضناً بمصر أن تفلت من يدها إلى الأبد ، وفى الوقت نفسه كان كثير من المصريين يدين لتركيا بالولاء ، وهو ولاء دينى مبعثه وجود الخلافة العثمانية ، والمسلمون مكلفون شرعاً بطاعة الخليفة ، وكانت هذه النزعة تتملك قلوب الجمهرة الغالبة من المصريين وبعض السوريين المقيمين بها(٤) . لذا ظهرت صحف

---

(١) Landau J. OP; Cit. p. 100.

(٢) Marlowe J. : Anglo - Eg. Rel. 1800-1953 p. 104.

(٣) Blue Books, Reports of Consul General, Egypt (1886) No. 1 pp. 37. 38

(٤) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ١ ص ٣١٣ ، جـ ٢ ص ٧٨

تميل إلى الدولة العثمانية إلى جانب ما ظهر بإيعاز منها ، وكان الباب العالى يدفع لها مبالغ طائلة(١) ، ويحدد بلنت مبلغ ١٥٠٠ جنيه لكل صحيفة(٢) .

وقد كرر السلطان عبد الحميد ما فعله الباب العالى من قبل على عهد سعيد حينما أصدر صحيفة « السلطنة » لمعارضة الخديو والدعوة للسلطان ، وكان رجل عبد الحميد والداعى له هو سليم فارس نجل أحمد فارس الشدياق صاحب ومحرر جريدة « الجوائب » التى تصدر فى الآستانة باللغة العربية . وجاء سليم إلى مصر وأصدر صحيفة « القاهرة » ، وفى صدر الصفحة الأولى من العدد الأول كلمة من المحرر بأنه « لما كان صدور جريدتنا « القاهرة » بغتة ومن الصعب علينا فى بادئ الأمر تأسيس هيئة الإدارة على حسب ماتقتضيه مصلحة جريدة يومية استنسبنا طبعها مرتين فى الأسبوع حتى يتم تشكيل هيئة الإدارة فتصدر يومياً(٣) » . وأفرد بقية الصفحة الأولى للتحدث عن « المرخص العثمانى » والمسألة المصرية « فهى أعظم المسائل التى تهم المسلمين اليوم عموماً حيث أن الخديوية تابعة للسلطنة . وقد زادت العراقيل بينهما بسوء تدبير إنجلترا » . واستغرقت المقالات الخاصة بالدولة العلية ثلاث صفحات من أربع هى صفحات الجريدة كلها ، يتحدث فيها عن البلغار ومؤتمر الآستانة والعرب واليونان . ونبهت الجريدة الأذهان إلى قرب وصول مختار باشا والآمال المعقودة عليه .

وخصص سليم الصفحة الرابعة باستمرار للإعلان عن جريدة الجوائب ومطبوعاتها التى « تطلب من إدارة جريدة القاهرة فى مصر »(٤) . ويقول دى طرازى إن سليم حذا فى « القاهرة » حذو « الجوائب » فنالت نصيباً عظيماً من الشهرة فى عالم الصحافة لما هو معهود بمنشئها من علو المكانة فى الشئون السياسية . وكان لا يبالى بالنفقات فى سبيل مصلحة الجريدة فاستكتب

---

(١) Landau J. : Op. Cit. p. 104

(٢) Blunt W.S. : My Diaries Part I p. 167 (London 1919)

(٣) جريدة القاهرة : العدد الأول فى ٢٣ نوفمبر ١٨٨٥

(٤) جريدة الأعلام : فى ٢٩ نوفمبر ١٨٨٥ ، Hartmann : Op. Cit. p. 29

أفاضل الكتاب المصريين والسوريين برئاسته »(١) . فهذه السرعة فى إصدار الصحيفة ومجىء سليم فارس من الآستانة على عجل ثم الإتفاق عليها دون حساب ، وطبعها على ورق ناعم يغرى القارئ مع استخدام حروف متنوعة وعناوين خطية أحياناً ، كل هذا كان يحمل فى طياته تمهيداً لأمر معين ، وهذا ما تكشف عنه أعداد « القاهرة » منذ صدورها حتى نهاية عهدها ، فهى لم تترك سبيلا إلى التحدث عن السلطان والدولة العلية والخلافة وأهميتها إلى غير ذلك من المسائل المتصلة بتركيا إلا طرقته .

وأعلنت الصحيفة أنها ترسل مجاناً للمشتركين فى « الجوائب » ، كما أنها أرسلت إلى عدد كبير من الأهالى مجاناً لمدة أسبوع (٢) . أما الاشتراك فكان يترك للأفراد يرسلونه متى يشاءون على عكس « بعض الجرنالات التى ترسل إلى المشتركين عرض حالات بقيمة الاشتراك وترسل لهم سفراء ونواباً وقواصين ليحصلوا قيمة الاشتراك » وأعلنت « القاهرة » أن ذلك يجلب العار على حرفة أهل السياسة(٣) .

وأصبحت الصحيفة المتحدث بلسان مختار باشا فهى منذ وصوله(٤) — وقد أصبحت يومية — تفرد الصفحة الأولى لانتقالاته واجتماعاته ومقابلاته وما ورد إليه من البريد وما يقدمه من تقارير ، وأن « سرور الأهالى من مجىء المرخص العالى ناتج من أملهم فى الالتئام مع السلطنة العثمانية »(٥) . ثم تنشر خطبه باللغة التركية فى صدر صفحتها الأولى(٦) وتورد ترجمتها العربية بعد ذلك . وتحاول الصحيفة الترويج لمهمة مختار بين الأهالى فقد أصبح أهم من الخديو إذ هو يجتمع بأعيان المصريين ليستعلم أفكارهم

---

(١) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٢٦
(٢) جريدة القاهرة فى ٢٣ ، ٣٠ نوفمبر ١٨٨٥
(٣) جريدة القاهرة فى ٢٨ ديسمبر ١٨٨٥
(٤) جريدة القاهرة من العدد ١١ فى ٢٨ ديسمبر ١٨٨٥ وما بعده .
(٥) جريدة القاهرة فى ٢٩ ديسمبر ١٨٨٥
(٦) جريدة القاهرة فى ٣١ ديسمبر ١٨٨٥ ، ٣ ابريل ١٨٨٦

وآراءهم(١) . وكانت أخبار الغازى مقدمة على أنباء الخديو إذا كان للخديو ذكر فى الصحيفة فى اليوم نفسه(٢) .

ثم خصصت عموداً من الصفحة الأخيرة (الصفحة الرابعة) لنشر نصوص المعاهدات المبرمة فى أحوال مصر وفى المسألة الشرقية ، وتناولت المعاهدات بين تركيا والدول الأخرى تحت اسم « مجلة المعاهدات » ، بحيث أنه بعد نشر جميع هذه المعاهدات نجعلها فى كتاب باسم « مجلة المعاهدات »(٣) . وبدأ سليم فارس ينشر منذ منتصف ديسمبر مقتطفات من كتاب مصور وضعه هو عن سلاطين آل عثمان(٤) ، ثم كتاب « قصائد من الشعر فى تاريخ الدولة العلية ، التى تتطاول إليها الأعناق ، وتواريخها نادرة باللغة العربية ، والكتاب يشمل أسماء السلاطين وهو أفيد وأوقع من أخبار الأسبوع »(٥) .

وإذ يسافر سليم إلى الآستانة فترة تحدث فى خلالها متاعب فى إدارة الجريدة فيأتى مرة أخرى من الآستانة ليطلب إغلاق « القاهرة » ويصدر « القاهرة الحرة » على أنقاض صحيفته السابقة ، « وكانت خطتها انتقاد سياسة بريطانيا فى الشرق »(٦) . ولا تكاد « القاهرة الحرة » تختلف عن رصيفتها الأولى إلا فى زيادة كلمة « الحرة » إلى اسمها وتزداد فيها المقالات عن الدولة العثمانية باللغة التركية ، وتتحدث عن ميلاد السلطان فتخصص لذلك الصفحتين الأولى والثانية من ثلاثة أعداد متتالية (٧) بينما عيد ميلاد

---

(١) جريدة القاهرة من ٢ يناير ١٨٨٦ وما بعده .

(٢) جريدة القاهرة فى ٢ ، ٣ ، ٤ ، يناير ١٨٨٦

(٣) جريدة القاهرة من ٢٨ ديسمبر ١٨٨٥ وما بعده يومياً .

(٤) جريدة القاهرة من ١٤ ديسمبر ١٨٨٥

(٥) جريدة القاهرة فى ١٥ فبراير ١٨٨٦

(٦) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٢٧ (يلاحظ اختيار اسم « القاهرة » بالذات ثم « القاهرة الحرة » ، وما يحمله هذا الاسم من مغزى لجريدة يصدرها عثمانى فى مصر) .

(٧) جريدة القاهرة الحرة فى ١٦ يوليو ، ٣ سبتمبر ١٨٨٨ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ إبريل ١٨٨٩

توفيق لا يأخذ من الصحيفة سوى نصف عمود إلى جانب الأخبار المحلية والخارجية[١] .

ويؤيد صلة الجريدة بالسلطان أن محمد المويلحي عندما عاد إلى مصر فى عام ١٨٨٧ اشترك مع عارف بك المرديني (الذى أخذ امتيازها من سليم فارس) فى تحرير « القاهرة الحرة » اليومية ، وظل يكتب فيها حتى وقفها صاحبها لسفره إلى الآستانة بناء على دعوة السلطان عبد الحميد[٢] . وكانت الجريدة فى هذه الفترة قد نجحت نجاحاً باهراً وكتب فيها ولى الدين يكن وعزيز زند وأيوب عون وغيرهم[٣] .

لم يكتف الباب العالى بجريدة « القاهرة » بل ساعد على إصدار جريدة « الفلاح » سياسية أدبية علمية لصاحبها سليم باشا حموى فى أكتوبر ١٨٨٥. « ووقفها لخدمة مصر تحت سيادة الباب العالى . وكان منشئها يتزلف كثيراً إلى السلطان عبد الحميد وينشر الفصول الطوال فى مدح عدالته ، ويقيم الزينات الشائقة فى كل سنة بمناسبة تذكار ولادته وجلوسه »[٤] . وقد منحه السلطان لقب البكوية ثم الباشوية « وكان القصد من وراء ذلك منح صاحبها درجة رفيعة من المكانة الرسمية مما يجعلها مقروءة لدى فلاحى مصر »[٥] ،

ثم تصدر صحيفة « الصادق » لصاحبها أمين بك ناصف اللبنانى ، «ودعاها بهذا الاسم مختار باشا الغازى، وجعلها تحت رعايته ، وقد نجحت وأقبل الناس بلذة على مطالعة أخبارها الصادقة . وكانت أشد لهجة من « مرآة الشرق » ضد الاحتلال الإنجليزى ومكتوبة بعبارة بليغة لأن المحررين فيها كانوا من أعلام حملة الأقلام »[٦] .

---

(١) جريدة القاهرة الحرة فى ١٣ مارس ١٨٨٩

(٢) محمد المويلحى : حديث عيسى بن هشام ج ١ ص ٢٣ من المقدمة بقلم إبراهيم المويلحى حفيد إبراهيم بك المويلحى (كتاب الهلال ١٩٥٦)

(٣) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٢٧

(٤) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ج ٣ ، ٢٥

(٥) WOOD : Op. Cit. p. 121.

(٦) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٣٠

ويلاحظ أن أصحاب الصحف الكبرى الثلاث التى أنشأها الباب العالى بالعربية فى مصر لم يكونوا مصريين بل كانوا رعية عثمانية (غير مصرية) حتى لاتستطيع يد الاحتلال البطش بهم أولا ، ولكى يضمن السلطان طاعتهم التامة ثانياً ثم تنفيذهم لأوامره دون تردد ولو كان ذلك على حساب مصر نفسها .

وإلى جانب « القاهرة » و « الفلاح » و « الصادق » اتخذت صحيفة « المحروسة » جانب الباب العالى فى صراعه ضد إنجلترا وذلك بعد أن أصبحت فى « عهدة يوسف آصاف وعزيز زند ، وامتازت إلى ذاك بالدفاع عن مصر تحت سيادة الباب العالى ومناهضة الاحتلال الإنجليزى . ثم استقل بها عزيز زند ووالده وكانا يتقاضيان راتباً سنوياً من السلطان عبد الحميد للغاية المذكورة »(١) . وكان اهتمامها بأنباء الغازى لا يقل عن الصحف السابقة ، فهى تأتى فى صدر الصفحة الأولى(٢) . أما الأهرام فتنتقد أعمال إنجلترا محذرة من عدم جدوى المفاوضات« فرجاؤنا أن لا يغتر رجال السلطنة بنوال بعض الشيء فأوربا بالمرصاد ولا تستطيع إنجلترا أن تجرى أمراً دون إرادة الدول »(٣) . وعندما يصل المندوبان إلى مصر تتحدث « الأهرام » عن ضرورة تصديق الدول الأوروبية على ما يتفقان عليه(٤) .

ويلاحظ أن « الأهرام » كانت تخصص صفحتها الأولى للأنباء الخارجية وبعض الأنباء المحلية دون إشارة إلى ما يدور من مفاوضات ، بل تورد أخبارها مقتضبة فى صفحتها الثانية ، وكان حديثها عنها دون تحليل بل مجرد سرد « فإن دولة الغازى مجتهد فى تثبت المسائل جميعاً وقد وقف على باطنها وظواهرها وعرف دقائقها » . وفى اليوم نفسه كان حديث مدير الجريدة اليومى يتناول أنباء البلقان وبلغاريا بالتعليق متتبعاً موقف الروسيا بإزاء المسألة الشرقية (٥) ، واستمر على هذه الخطة طوال النصف الأول من

---

(١) فيليب دى طرازى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٥٨

(٢) جريدة المحروسة : فى ١٣ ، ١٥ ، ٢٧ يوليو ١٨٨٦ وما بعدها .

(٣) جريدة الأهرام من ٣ أكتوبر إلى أول ديسمبر ١٨٨٥

(٤) جريدة الأهرام فى ٢٩ ديسمبر ١٨٨٥

(٥) جريدة الأهرام فى ١٢ فبراير ١٨٨٦

عام ١٨٨٦[١] . ولم يحدث أن تناولت « الأهرام » هذه المفاوضات فى صفحتها الأولى سوى مرتين فأوضحت أن « ما تخافه إنجلترا من لحوق العار بشرفها هو نفسه الذى وقعت فيه فإنه ليس بالفخار لها أن تبقى زمناً طويلا فى مصر »[٢] .

وتحقيقاً لسياسة المسالمة واللين التى أظهرتها إنجلترا فى خلال مفاوضاتها مع تركيا رأت أن تغلق جريدتى « الزمان » و« مرآة الشرق » ، ذلك لأن الصحيفة الأخيرة نشرت عدة مقالات فى شهر مارس ضد الأحوال العامة فى تركيا ومصر بعنوان « نبذة فى الأحوال الحاضرة ، مصر وبعثتها المختلطة »[٣] . فأصدر مجلس النظار قراراً بإلغاء الجريدة طبقاً للمادة ١٣ من القانون[٤] . ويرى فيليب دى طرازى أن سليم فارس الشدياق صاحب « القاهرة » كانت له اليد الطولى فى ذلك ، إذ أنه « بلغ الباب العالى زوراً أن « مرآة الشرق » تنشر الفصول المهيجة ضد السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية . فطلب الباب العالى تلغرافياً من الحكومة المصرية إلغاءها وللحال قرر مجلس النظار برئاسة نوبار تعطيلها »[٥] .

كذلك صدر القرار بإلغاء جريدة الزمان إلغاءاً نهائياً فى آخر يوليو ١٨٨٦ « لأن سلوكها خصوصاً فيما يتعلق بالدولة العلية خارج عن حد اللياقة والأدب »[٦] . ويرى سليم حموى صاحب الفلاح « أن الفرصة ملائمة لإظهار مدى تدخل الغازى فى شئون مصر فيقول إنه « بناء على طلب الغازى معتمد دولتنا السامى قد قررت وزارتنا إلغاء جريدة الزمان[٧] » . ثم يشير إلى الموضوع مرة أخرى بعد أن « تناولت بعض الصحف إقفال مطبعة الزمان فاستغربنا غلوها فى الرواية حتى لقد خلنا لولا أننا فى مصر أنه كادت تحصل

(١) جريدة الأهرام منذ يناير إلى يوليو ١٨٨٩

(٢) جريدة الأهرام فى ٢٢ مايو ، ٢٣ يوليو ١٨٨٦

(٣) جريدة مرآة الشرق فى ٤ ، ١١ مارس ١٨٨٦

(٤) الوقائع المصرية فى ٣١ مارس ١٨٨٦

(٥) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ١٧

(٦) الوقائع المصرية فى ٢ أغسطس ١٨٨٦

(٧) جريدة الفلاح فى ٢ أغسطس ١٨٨٦

فتنة فى البلاد . فإن كان مرادها التهويل فهى جديرة بالعيب ، فالأهالى فى راحة وسكون والإنجليز أرفع رأياً من أن يتشاغلوا بمثل هذه السخافات »(١).

كان رجال الاحتلال فى الواقع يقومون فى هذه الأثناء بمحاولة لتحقيق أهدافهم التى سعوا إليها ذلك أن مصر شهدت تحسناً عظيماً فى ماليتها كما حدث تقدم كبير فى النواحى الإدارية . وكان من أثر ذلك أن طلب كرومر عدم إجلاء القوة البريطانية بمصر إذ أن ذلك لو تم فإنه سيقضى على كل ما وصلت إليه البلاد من تقدم(٢) . وهذا ما استقر عليه فكر الحكومة البريطانية فعلا(٣) . وتحقيقاً لذلك اشترطت إنجلترا أن تسحب القوة البريطانية بعد ثلاث سنوات على أن يكون لها حق بقاء هذه القوة إذا ما طرأ خطر يهدد القطر المصرى من الداخل أو من الخارج ، وأن تشترك بريطانيا مع تركيا فى إعادة الاحتلال ، فإذا ما تقاعست تركيا فللحكومة البريطانية حق احتلالها بمفردها(٤).

وتقف فرنسا خلف السلطان تحضه على عدم إقرار هذه الاتفاقية مؤكدة « حمايتها له من كافة النتائج التى قد تنجم عن عدم التصديق(٥) » . كذلك تؤيد روسيا السلطان « وقد ضجت الجرائد الفرنساوية من طول المقام الإنجليزى فى مصر ، ولتحرك الخواطر إلى هذه المسألة ومناسبة الظروف ، جاءت الجرانيل الروسية مقوية لحجتهم »(٦) .

وتنقل صحيفة الصادق عن الصحف الفرنسية أن « جيلنا الحالى لن يرى الجلاء ما دامت إنجلترا تطلب أن يكون لها الحكم فى تعيين الإخلاء »(٧) .

وتمهد الصحف الموالية للباب العالى الطريق لعدم التصديق على الاتفاقية

---

(١) جريدة الفلاح فى ٥ أغسطس ١٨٨٦

(٢) Blue Books : Egypt (1887) No. II p. 7.

(٣) De Freycinet : Op. Cit. p. 326.

(٤) Rothstien : Egypt's Ruin pp. 335-337, Milner : Op. Cit. p. 123.

(٥) Blue Books : Egypt (1887) No. 8 p. 5.

(٦) جريدة الصادق فى ٩ ، ١١ نوفمبر ١٨٨٦ ، جريدة الفلاح فى ١١ نوفمبر ١٨٨٦

(٧) جريدة الصادق فى ٢٧ ، ٣٠ نوفمبر ، شهر ديسمبر ١٨٨٦ ، شهور يناير وفبراير حتى أول مارس سنة ١٨٨٧

« فإن إنجلترا تتظاهر بأنها تود طي المعضلات السياسية ، ومقصدها الحقيق هو اتخاذ الطرق المسكتة لحاج دولتنا العلية على انجلائها تحت ستار المفاوضة لتذليل المصاعب »(١) . وأن إنجلترا ترى أن تحفظ السيادة المعنوية على مصر للدولة العثمانية ، « ومعنى ذلك انسلاخ مصر عن صاحبتها(٢) » . ورأت الدولة العلية أن يكون الإخلاء فى مدة سنتين أو ثلاث ولكن هناك « عوائق فيما يختص برجوع العساكر الإنجليزية إلى مصر والاستيلاء عليها إذا وقعت فيها اختلالات مرة أخرى »(٣) .

ثم تؤكد الصحف أن السلطان طلب أن يكون الجلاء خلال سنتين « ورفض كل الرفض رجوع العساكر إذا حصل أدنى خلل » (٤) . وتعارض الصحف ماتنادى به الإجبشيان جازيت من أن المصريين كبيرهم وصغيرهم يودون بملء الرغبة عدم انجلاء الجنود الإنجليزية(٥) . وتقول الصحف المؤيدة لتركيا إن هذا وهم صوره الخيال على صفحات الغرض ، وأن الوطنيين قرروا إرسال عريضة إلى دار السعادة بعدم قبول جلالته إطالة أجل الاحتلال(٦) . ثم تؤكد أن سفير روسيا فى الآستانة اعترض اعتراضات قوية على الاتفاقية(٧) ، وقالت الصحف نقلا عن صحف فرنسا إنه إذا أمضيت الاتفاقية فإن روسيا تزحف إلى أرمينيا(٨) .

---

(١) جريدة الفلاح فى ٢٥ مارس ١٨٨٧ ، جريدة الأهرام فى شهور يناير وفبراير ومارس سنة ١٨٨٧

(٢) جريدة الأهرام فى ١٤ ، ١٦ إبريل ١٨٨٧ ، جريدة الصادق فى ١٦ ، ٢٩ إبريل ١٨٨٧

(٣) جريدة الفلاح فى ١ ، ٢ مايو ١٨٨٧ ، جريدة الأهرام فى ٣٠ إبريل ، ٣ مايو ١٨٨٧ ، جريدة الصادق فى ٣ مايو ١٨٨٧

(٤) جريدة الصادق فى ١٨ مايو ١٨٨٧ ، جريدة الأهرام فى ١٧ ، ١٨ مايو ١٨٨٧ ، جريدة الفلاح فى ٢٤ مايو ١٨٨٧

(٥) The Egyptian Gazette : May 2. 1887.

(٦) جريدة الفلاح فى ٢٧ ، ٣١ مايو ١٨٨٧

(٧) جريدة الفلاح فى ٧ يونيو ١٨٨٧ ، جريدة الأهرام فى ٥ ، ٧ ، ٨ يونيو ١٨٨٧

(٨) جريدة الصادق فى أول يوليو ١٨٨٧

وهكذا كشفت الصحف للشعب ما دار حول عقد الاتفاقية إلى أن عاد هنرى درموند وولف إلى لندن بعد فشله فى عقدها(١) .

ورأت إنجلترا أن استقرار الأحوال فى مصر كان خطوة لعهد جديد من السكينة وعدم الاضطراب وتحول آراء الأهالى – إلى حد ما – تجاه الأجانب بوجه عام وضعف حدة الكراهية نحو الإنجليز . لذلك خفتت الأصوات الصادرة من بريطانيا بأن الاحتلال إجراء مؤقت وبدأت السلطات البريطانية تنظر فى تغيير سياستها المستترة فى العمل على تفكيك أواصر الرابطة بين مصر والدولة العثمانية بل والقضاء على كل ما يربط بينهما(٢) .

ومن المحتمل أن فشل الإنجليز فى عقد هذا الاتفاق أصبح لديهم تكأة لينبذوا تعهداتهم السابقة وأعلنوا أنه لولا موقف السلطان لنفذوا الاتفاقية(٣) . وعلى ذلك يمكننا اعتبار عام ١٨٨٧ بداية عهد جديد فى موقف إنجلترا بإزاء مسألة الجلاء(٤) ، بل وبإزاء المسألة المصرية بوجه عام ، وأرسلت الحكومة الإنجليزية إلى سفيرها فى الآستانة مؤكدة وجود الاحتلال حتى تطمئن إلى « أن الحكومة المصرية أصبحت من القوة بحيث تستطيع الحيلولة دون حدوث أخطار خارجية أو داخلية »(٥) . ويتبين من ذلك أن إنجلترا لم تقصد من هذه المفاوضات سوى تسويغ مركزها فى مصر وجعل احتلالها شرعياً(٦) . ويؤكد ذلك أنها بعد فشل عقد الاتفاقية ، لم تحاول إشراك تركيا معها فى أى شأن من شئون مصر(٧) . أما « المطالبة بالجلاء فإنه أمر يجب عدم الاهتمام به فإنه يعرض إنجلترا ومصالحها لأشد المخاطر »(٨) .

---

(١) جريدة الصادق فى ٣٠ ، ٣١ يوليو ١٨٨٧

(٢) Travers S. : Britain & Egypt pp. 279, 280
Selim Faris: The Decline of British Prestige in the East p. 10 (London 1887).

(٣) M. de Zetland : Life of Lord Cromer p. 179.

(٤) Milner : Op. Cit. p. 102, Rothstein : Op. Cit. p. 338.

(٥) Blue Books : Egypt (1887) N. p.

(٦) عبد الرحمن الرافعى ، مصر والسودان ص ٧٣ ، ٧٤

(٧) Marlowe J. : Op. Cit. pp. 163. 164.

(٨) Tachard A. : The Future of Egypt p. 20 (2nd Ed. 1897)
Bowen J. A.: op. Cit. p. 198.

الصراع بين الصحف المؤيدة للاحتلال والمؤيدة للدولة العثمانية :

وكان من نتائج بعثة وولف أن استمر مختار باشا الغازى فى مصر ، ويصفه كرومر بأنه كان من عوامل زيادة التعقيد فى الجهاز الإدارى بمصر ، وكان مصدر متاعب فى أغلب الأحيان(١) ، إذ كانت أعماله تدور حول الدس والمكيدة(٢) . ولم يكن لهذا المبعوث السامى مهمة معروفة فهو لم يكن سفيراً إذ لم يرسل السلطان قبله سفراء إلى أجزاء من البلاد التابعة له ، وفى الوقت نفسه كان الخديو يمثل السلطان فى مصر ، وهكذا لم يكن من وراء وجود الغازى سوى إثارة المتاعب والاضطراب(٣) . وفى الوقت نفسه لم تكن مهمة المبعوث سهلة ميسورة إذ كان عليه أن يقضى على كل مقومات استقلال مصر ، وأن يمنع الخديو بكل الوسائل من مضاعفة الامتيازات والحريات التى كان يستمدها من فرمانات توليته ، وكان عليه أيضاً أن يحمى الحقوق التى كانت تركيا لا تزال تملكها ضد توغل بريطانيا(٤) .

ورأت صحيفة « الوطن » المؤيدة للاحتلال أن وجود الغازى فى مصر يضر بنفوذ الدولة العلية وترد عليها « الفلاح » بأنه وكيل شرعى عن السلطان . ثم تثير « الوطن » شبهات حول مقر مختار باشا الذى صار مركزاً لكل من كان متذمراً من الوزارة (على عهد نوبار) أو الإنجليز ، « ويلزم لتأييد الحكومة وزيادة نفوذها منع مراكز تجمع التذمر » . فتتخذ « الفلاح » هذا دليلا على ارتياح المصريين « إلى إظهار عبوديتهم للسلطان »(٥) .

وكان مختار باشا يحاول دائماً التدخل فى شئون الحكم وتغيير الوزارات بما يناسب سياسة الباب العالى . وتحاول « الوطن » القضاء على هذا التأثير لدى الرأى العام « فإن الغازى لم يوعز بإقالة نوبار وتعيين رياض . وقد وجدنا

---

(١) Gromer : Mod. Eg. V. II p. 380.

(٢) Young G. : Op. Cit. p. 154.

(٣) Wood : Op. Cit. pp. 62 - 65.

(٤) عباس حلمى الثانى ، مذكرات جريدة المصرى ٧ مايو ١٩٥١

(٥) جريدة الوطن وجريدة الفلاح فى ٢٤ ، ٢٦ ديسمبر ١٨٨٧

أن الخديو أكد لمكاتب التيمس بأنه لم يكن لمختار يد فى فى عزل نوبار ولا فى تقلد رياض رئاسة الوزارة »(١) . وفى الوقت نفسه كانت صحيفة « الفلاح » لا تكف عن الحديث عن المندوب العثمانى وكفايته وأهميته(٢) .

وعندما رفض الخديوى عباس حلمى فى بداية حكمه عام ١٨٩٢ الاستماع إلى آراء مختار باشا بشأن تغيير مصطفى فهمى رئيس الوزراء وإحلال رئيس وزراء أقل ميلا لإنجلترا ، وقفت الصحف الداعية للاحتلال – كالمقطم والاتحاد المصرى – تؤيد رئيس الوزراء الموجود مؤكدة أنه لا صحة لما يقلق الخواطر العمومية من خبر تبدل الوزارة « ونحن نكذب ذلك قطعياً ونخبر العموم أن مصطفى حضر إلى النظارة ، وأن المسألة الخلافية بين الغازى ورئيس الوزراء قد انتهت »(٣) . وكان لذلك رد فعل لدى السلطان إذ أنه أنعم على عدد كبير من رجال الصحافة المعارضين لإنجلترا بالرتب والنياشين(٤) . ويعترف حسن حسنى صاحب « النيل » بأنه حدث ضغط على « النيل » فى مسألة الغازى مختار ، « فالتزمت أن أترك امتياز الجريدة والمطبعة ولا أتكلف ذلك الضغط فتلطفت بى الحكومة ولم تقبل منى ذلك الترك »(٥) . لهذا صدرت « النيل » ثلاثة أيام متتالية دون أن تكتب شيئاً بخصوص ما تداولته الجرائد فى هذه المسألة(٦) .

وتلوم جريدة المقطم مختار باشا(٧) « لعدم اعتنائه بالتوجه إلى محطة مصر لاستقبال ولى عهد إنجلترا » ، وأخذت تتحدث عن الزيارة وأثرها فى تقوية الروابط بين إنجلترا ومصر ورددت الشائعات عن قرب ضم مصر للإمبراطورية

---

(١) جريدة الوطن فى ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ يوليو ١٨٨٨

(٢) جريدة الفلاح من شهر يونيو إلى ١٠ سبتمبر ١٨٨٨

(٣) جريدتا المقطم والاتحاد المصرى فى ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ إبريل ١٨٩٢

(٤) Cromer : Abbas II pp. 4, 5., Zethand : Op. Cit. p. 194.

(٥) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٤٦ نقلا عن العدد ٤٥٥ من صحيفة النيل وهو غير موجود بدار الكتب المصرية .

(٦) جريدة النيل فى ١٧ إبريل ١٨٩٣ (العدد ٤٥٦)

(٧) جريدة المقطم فى ٣٠ أكتوبر ، ٣ ، ٤ ، ٦ نوفمبر ١٨٨٩

وتدافع « الفلاح » عن الغازى فلو حدث هذا لكان اعترافاً من الدولة العلية بامتياز دولة إنجلترا على سواها فى القطر المصرى(١) .

ثم تخلص الاحتلال من جريدة« الصادق » لاضطرار صاحبها إلى مغادرة البلاد لضعف صحة أولاده عام ١٨٨٩(٢) . كذلك فقد الجانب العثمانى جريدة « المحروسة » التى أغلقت ولم يفلح أصحابها فى إعادتها مرة أخرى منذ عام ١٨٨٧ حتى نهاية الفترة(٣) . وهكذا لم يبق من كبريات الصحف المؤيدة لتركيا سوى « الفلاح » و « القاهرة الحرة » وتؤيدها صحيفة « الأهرام » هذا بينما استمر الاحتلال يتمتع بتأييد « الوطن » و« المقطم » و« الاتحاد المصرى » و« النيل » .

انجلترا تستخدم الصحف للدعوة لفصل مصر عن الدولة العثمانية :

وأخذت صحيفة المقطم الاحتلالية تكرس جزءاً كبيراً من صفحاتها للهجوم ضد السلطنة العثمانية وتهاجمها جريدة « القاهرة الحرة » بأن « ذلك من إفراط البغض والعداوة فقد نسجت على أبصارها غشاوة »(٤) . وأخذت « الفلاح » تحاول — فى مقالات ضعيفة — أن تقضى على تأثير المقطم ، وأدمجت الأهرام فى بعض هجومها « فهى جرائد تخدم الأجنبى لغايات ومآرب تحت اسم الوطنية . وأنت يا نمر إن الواجب على كل وطنى أن لا يدانيك بمعاملة ويفر من جريدتك فرار الصحيح من المجذوم(٥) » . وتواصل هجومها ضد « المقطم » بأنه صحيفة تحاول أن تستغفل أهل الوطن متوهمة أن كلامها فى ترويج مصلحة رجال الإنجليز يتغلب على الأفهام ، وقد بلغ بها التمادى ما يؤخذ منه حبها ابتعاد مصر عن الانتماء إلى أمير المؤمنين وتحويل أهلها إلى الإنجليزية فى الجلدة واللغة والمذهب »(٦) .

---

(١) جريدة الفلاح فى ٧ ، ٩ نوفمبر ١٨٨٩

(٢) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٣٠

(٣) فيليب دى طرازى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٥٨

(٤) جريدة القاهرة الحرة ٢٧ يوليو ١٨٨٩

(٥) جريدة الفلاح فى ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ إبريل ١٨٩١

(٦) جريدة الفلاح فى ٢١ ، ٢٢ إبريل ١٨٩١

ووجد رجال الاحتلال فى « المؤيد » وسيلة أخرى غير مباشرة لخدمة أغراضهم ، ذلك لأن على يوسف كان يعارض فكرة تدخل الدول الأوروبية فى شئون الدولة العلية لإصلاح إدارتها الداخلية ، ويرى أن ذلك ذهاب بالدولة العلية ، والدولة إذا فقدت استقلالها فقدت نفسها(١) . ولم تلبث جريدة « المؤيد » أن أصبحت لسان الشعب المصرى وعظم شأنها ، وأصبح الباب العالى يخاف شرها وأصدر السلطان عبد الحميد أمراً بمنع دخول « المؤيد » إلى الممالك المحروسة(٢) . وفكر السلطان فى محاربتها مكرراً ما فعله الباب العالى على عهد سعيد ، فأرسل حسن حسنى من الآستانة إلى القاهرة ليتولى فيها إصدار جريدة « النيل » لالشىء إلا لمحاربة «المؤيد» وصاحبه فى ذلك الحين (وصدرت النيل فى ديسمبر ١٨٩١) ولكن «النيل» ما لبثت أن سقطت كما سقطت سابقتها(٣) . وإذا لم يكن على يوسف ممن يؤيدون الاحتلال إلا أن الإنجليز طمعوا ولا شك فى أن موقف السلطان منه سيكون عاملا على مناهضته النفوذ العثمانى فى مصر . وكان على يوسف يؤمن بالجامعة الاسلامية دينياً ولا يؤمن بها من الناحية السياسية(٤). وفى ذلك يقول عباس حلمى « إن سياسة على يوسف كانت تستند أحياناً على نفوذ الخليفة ولكنها لم تكن على الخصوص تركية إسلامية(٥) » . ومن ثم ستنشأ فكرة مصر للمصريين « التى يؤيدها الأنجليز فهى الوسيلة لفصل مصر عن تركيا»(٦) .

وهكذا تصبح « مصر للمصريين » . ولكن « المصريين لمن ؟ » . ليس هناك من جواب على ذلك سوى أنهم يقفون أمام الاحتلال دون تعضيد من

---

(١) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة ج ٤ (على يوسف) ص ٥٧

(٢) جريدة القاهرة الحرة : فى ١٠ إبريل ١٨٩٠

(٣) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة ج ٤ ص ٨٢ ، ٨٣

ويقول إلياس زاخوره إن الإنجليز هم الذين عضدوا حسن حسنى وساعدوه على إصدار صحيفة النيل لذا فإنه أوقفها لخدمة الإنجليز (مرآة العصر ج ٣ ص ٥٤١) .

(٤) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة ج ٤ ص ٦٠ ، ٦١

(٥) عباس حلمى : مذكرات — جريدة المصرى فى ١٣ مايو ١٩٥١

(٦) عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ذكره ص ٦١

الخلافة الإسلامية ، وهى برغم وهنها وضعفها فى هذه الفترة كان لا يزال لها شأنها فى العالم الإسلامى وقد تستطيع القيام بحركة بعث أونهضة تقضى على النفوذ الإنجليزى وبخاصة فى الأقطار الإسلامية التابعة لبريطانيا .

ونشأت نتيجة لذلك الدعوة إلى أن إنجلترا هى الصديق الوحيد للدولة العلية « فلم تقع بينهما حرب إلا مرة واحدة ، وأما غير دولة الإنجليز من الدول العظام فلم تجد لمحاربة الدولة العلية فرصة إلا افترضتها طمعاً فى مالها وبلادها ، ولم يقم بين جميع الدول الأوروبية دولة والت دولتنا العلية وصادقتها أيام فرجها وضيقها كالدولة الإنجليزية . ولم ينس أحد منا بعد أن إنجلترا هى الدولة الوحيدة التى تصدت للدولة الروسية فى حربها الأخيرة مع الدولة العلية وتوعدتها بالحرب فى ٢٤ ساعة إذا دخلت جيوشها الآستانة »(١) .

وساندت صحيفة « النيل » جريدة « المقطم » فى هذه الدعاية بعد أن « أصبحت الأفكار فى حق الإنجليز شديدة فى أكثر العالم الإسلامى . ولكن هذه التأثيرات الشديدة لم تكن لذات الوقوعات ، بل وقوعها من إنجلترا وهى الصديق الأصدق الذى يجب أن يكون هو المتفق الأمين بالنظر إلى المنافع المشتركة . وإذا حان الحين واقتضى لمقام الخلافة الإسلامية أن يمد يد المساعدة أو التباعد فإنه لايمكن أن يمد تلك اليد إلى إحدى الدول أسرع من مدها إلى إنجلترا . ويلزم إنجلترا أن تثق برفيق صديق قوى أمين فى الشرق حتى تقيم سداً حاجزاً أمام اندفاع هول الروس ، وليس هناك من صديق قوى إلا الدولة العثمانية . فلا يجب أن ينظر العثمانيون إلى الإنجليز فى مصر بصفة أعداء للدولة أو الجامعة المعظمة العثمانية إنما يلزم أن ينظر إليهم بصفة صديق وسع دائرة حقوقه سهواً وهو مستعد فى كل وقت لاسترضاء صديقه »(٢) .

بل لقد ضرب « المؤيد » على هذه النغمة فى بعض أعداده مطالباً إنجلترا فى هدوء بالدخول فى مفاوضات لحل المشكلة بعد أن فترت العلاقات بين

(١) جريدة المقطم فى ٢٦ يونيو ، ١ ، ١٨ يوليو ، ١٤ أغسطس ، ٧ ، ٨ سبتمبر ١٨٨٩ وما بعدها .

(٢) جريدة النيل فى ٧ ، ١٩ ، ٢٤ يناير ، ٤ ، ٨ فبراير ١٨٩٢

البلدين « حينما قال سالسبورى إنه لا محل الآن للنظر فى المسألة المصرية ، وما كنا نظن أن تشمئز نفوس رجال الدولة من ذلك ولو أن فيه هضما للحقوق وتخطئة فى الرأى ، وأن الدولة العلية فى مصر مرعية الجانب وحقوقها لم تمسها يد الاحتلال ، غير أنه ليس على الإنجليز من عار إذا لبوا طلبها فى المخابرة وتوصل الطرفان إلى حل مرض »(١) . وقد طالبت بعض الآراء بأن الدولة العلية لا يرتفع لها شأن مالم تنضم إلى فرنسا وروسيا «وهذه لهجة طالما عرفناها فى الجرائد الفرنساوية . وسرت هذه الروح إلى نصراء فرنسا فى مصر ورأينا الخلاف قائماً بين « الأهرام » و«المقطم » وانحصر الجدال فى أن فرنسا والروسيا هما الدولتان الصديقتان للدولة العلية أوهما العدوان الألدان وأن إنجلترا هى الصديقة. والذى يقابل بين الرأيين يجد أن التاريخ يرجح حجة الفريق الثانى لأن إنجلترا بلا شبهة قد نفعت الدولة العلية فى عدة مواقف كانت تراق فيها دماء العثمانيين من سيوف الروس »(٢) .

وفى الوقت الذى تتحدث فيه صحف الاحتلال عن صداقة إنجلترا لتركيا ، تحاول « الأهرام » أن تقرب ما بين فرنسا والدولة العلية و« أن احتلال إنجلترا لمصر أوضح دليل على عداء الدولة الإنجليزية »(٣) ، وأن « التحالف أصبح وشيكاً بين تركيا والروسيا فلما رآهم الإنجليز علاهم الاصفرار وولوا الأدبار »(٤) .

وقد خصص المقطم كثيراً من مقالاته فى تفنيد الآراء المطالبة بالتقريب بين فرنسا وروسيا من ناحية والباب العالى من ناحية أخرى. واستخدم أقوال السلاطين السابقين فى بيان أن « روسيا هى العدو الأكبر للدولة العلية وأن إنجلترا هى الحليفة الطبيعية للسلطان . أما فرنسا فإنها لا تقل عن روسيا أطماعاً فى الأملاك العثمانية ولا تلام « الأهرام » إذا نسيت النطق الشريف ، أما الدولة الإنجليزية فهى الصديقة القديمة المدافعة عن حقوق الدولة ، واستيلاؤها على قبرص

---

(١) جريدة المؤيد فى ٣ أبريل ، ٥ مايو ، ٢٦ أغسطس ١٨٩٠ ، ٢ سبتمبر ١٨٩١

(٢) جريدة المؤيد فى ٢ ، ١٥ أغسطس ١٨٩١

(٣) جريدة الأهرام فى ٤ ، ١١ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ مايو ١٨٩٠

(٤) جريدة الأهرام فى ١٦ مايو ١٨٩٠

وقتى ، واحتلالها مصر انفردت به مكرهة غير مريدة ولم تزل السيادة للباب العالى . أما التحالف بين فرنسا وروسيا فلن يجديهما نفعاً ولا مصلحة للدولة العلية بانضمامها إليهما وترك إنجلترا صديقتها القديمة »(١) . وأوضح « المقطم » أطماع فرنسا فى مصر منذ أيام نابليون ورغبته فى احتلال الشام بينما ساعدت إنجلترا تركيا فى إخراجه ، « ونحن فى سرد هذه الحوادث التاريخية لانتعرض لملامة أحد ولا لمدح أحد وليس لنا من غرض إلا إثبات القضية المتقدمة وهى أن الدولة الإنجليزية كانت ولا تزال أقوى عضد للدولة العلية من مائة سنة إلى الآن »(٢) .

وهكذا كانت الصحف المصرية سلاحاً فى يد رجال الاحتلال حاولوا استخدامه فى براعة ضد تركيا لتحطيم هيبتها أمام الرأى العام المصرى فتضمحل أهميتها بالنسبة للمصريين ويتحقق ما يقوله الخديو عباس حلمى من أن « إنجلترا لم تكن تتردد فى إرضاء السلطان يوماً لتعود فى غداته إلى قص أطراف امتيازات تركيا »(٣) .

وكان لما تكتبه الصحف تأثير شديد فى نفوس الأهالى وبخاصة لدى الطبقة الوسطى التى أخذت من الثقافة بقدر . يؤيد ذلك وصف الدكتور هيكل لمطالعته الصحف « لأتابع عن كثب التيارات السياسية التى انضم إليها كثيرون من إخوانى ثم وقع حادث (طابة)(٤) ، وتتبعت هذا الحادث بعناية وتتبعه غيرى بمثل هذه العناية ، وكانت أكبر عنايتى متجهة إلى ما تكتبه الصحف عن قوة الباب العالى الحربية ، وصدقت كما صدق من كان فى مثل سنى

---

(١) جريدة المقطم فى ٣ ، ٥ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٦ أغسطس ، ١٦ سبتمبر ١٨٩١

(٢) جريدة المقطم فى أول سبتمبر ١٨٩١

(٣) الخديو عباس حلمى ، مذكرات – صحيفة المصرى فى ٧ إبريل ١٩٥١

(٤) طابة أو طابا : قرية صغيرة على خليج العقبة على مقربة من ميناء العقبة . قالت تركيا إنها فى أرضها وقال الإنجليز إنها فى أرض مصر وأن مركزهم فى مصر يجعلهم يدافعون عن حقوقها ، وانتهت بانسحاب تركيا عام ١٩٠٦

مارددته عن قوة الدولة العثمانية وعن أنها لن تتراجع عن موقف حق . ولشد ما كانت دهشتى عندما رأيت هذه الظاهرة الصحفية الكبرى تنتهى بتراجع تركيا عن موقفها(١) » . وهكذا « بالغت الصحف المناصرة لتركيا فى الدفاع عنها وتكذيب ما ينسب من الظلم إلى مأموريها مبالغة أفقدتها ثقة القراء الذين أصبحوا ينظرون إلى كتابتها عن السلطنة العثمانية بعين الارتياب، ثم نقلتهم من الشك بصحة تلك الأقوال إلى القطع بأن ما تنشره عار عن الصدق مناف للحقيقة »(٢) .

الاتراك الاحرار يصدرون صحفا بمصر ضد السلطان !

وصادف وقوع الاحتلال الإنجليزى لمصر ، قيام السلطان عبد الحميد بمحاولات للوصول إلى غايته الكبرى وهى تحقيق الجامعة الإسلامية التى اتخذها أساساً لسياسته . وقد حمله ذلك على الارتياب الشديد فى رجال النهضة التركية مع إعلانهم إياه بالإخلاص والولاء الصادق ، فنفى السلطان جميع المنادين بالمبادئ الحرة واضطهدهم . وفى الوقت نفسه رأى أن يقاوم العصبية الجنسية التركية لأنه كان يخشى من وراء ذلك خسراناً لسلطانه المطلق، وكان يرى أن من شأن هذه العصبيات الحيلولة بينه وبين الوصول إلى هدفه(٣).

وكانت الدول الأوروبية إما طامعة فى أملاك الإمبراطورية العثمانية أو كانت ترجو استمرار الأوضاع كما هى : فبالنسبة للروسيا خفت حدة العداء التقليدى بين البلدين . أما ألمانيا فأصبحت الصديقة الوحيدة تقريباً لعبد الحميد. وكانت إمبراطورية النمسا والمجر ترجو ألا تتولى حكومة تركية قوية لأطماعها فى بعض الأملاك العثمانية . ولم يكن يهم فرنسا فى كثير استمرار الأوضاع الراهنة فى تركيا أو تغييرها طالما أنها تفرض حمايتها على الكاثوليك من رعايا

---

(١) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٢٦ (النهضة ١٩٥١).

(٢) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٧

(٣) Stoddard L. : New World of Islam pp. 139. 140.

الإمبراطورية . أما إيطاليا فقد رأت الأوضاع مناسبة لها ولأطماعها فى طرابلس الغرب(١) . وأما إنجلترا فكانت هى الدولة الوحيدة التى يهمها إقامة حكم قوى فى تركيا ، وتحولت إنجلترا عن دورها التقليدى فى حماية « الرجل المريض » وقام أساس هذا التحول على الاضطرابات التى نشأت فى داخل الإمبراطورية من جانب الأقليات . وكان السلطان يرجعها إلى أعمال إنجلترا ، فليس عجباً إذن أن تمد إنجلترا يد العون لحركة تركيا الفتاة أوحركة الأتراك الأحرار (٢) . وكان نجاح الحركة يعنى دون ريب القضاء على حركة الجامعة الإسلامية (وهو ما حدث فعلا بعد ثورة ١٩٠٨ وخلع عبد الحميد إذ توقفت الدعوة للجامعة الإسلامية وفترت همة الداعين إليها)(٣) .

وكانت حالة تركيا الداخلية فى أبشع ما يتصوره العقل — كما يقول قسطاكى — « فالأحرار يطرحون فى البسفور طعما للأسماك بالعشرات والمئات ، والصحافة الحرة معدومة ، وكلاب صيد السلطان من أصحاب صحف النفاق يمجدون أعمال ظل الله على الأرض لترويج صحفهم على البلهاء والمغفلين والجواسيس الذين كان عددهم يفوق حد الوصف ويتاجرون فى بيع وطنهم من كل جنس ومعتقد بيع السلع ، فقصد بعضهم « مصر الحرة » واتخذوها وطناً لهم ، ومنهم من اتخذوا الصحافة مهنة لهم ليكشفوا لمجموع الدول ظلامتهم ، وأصبحت مصر محط أرباب الأقلام وعشاق الحرية »(٤) .

وفرضت إنجلترا حمايتها على أعضاء حزب تركيا الفتاة الذين لجأوا إلى مصر ويقول كرومر إنه « أصبح فى عنقهم دين لإنجلترا لم يحاولوا سداده » ، ويضيف أن السلطان كان من الوجهة القانونية البحتة له الحق فى طلب هؤلاء الرعايا العثمانيين الذين خرجوا على طاعته وأن يسلموا إليه ، ولكن لاشك فى أنه لن ينال هؤلاء المجرمين السياسيين أى أذى فى مصر — على عكس ما كان سيحدث لهم فى القسطنطينية — طالما كان للحكومة الإنجليزية

---

(١) Ramsaur J. : The Young Turks p. 140 (New Jersey 1957)

(٢) Ramsaur : Ibid pp. 141-143.

(٣) Stoddard L. : Op. Cit. pp. 56, 57

(٤) قسطاكى إلياس الحلبى : المرجع السابق ذكره ص ٣١

النفوذ التام على القطر المصرى . وطلبت إنجلترا محاكمة هؤلاء الأشخاص على جرائمهم فى مصر أمام المحاكم المصرية ، ولكن لم تصل ردود تركيا على ذلك(١) .

وحاول عبد الحميد بكافة الوسائل استرضاء هؤلاء الثائرين ووعدهم الوعود الخلابة ومناهم بتحقيق الإصلاح المنشود ، ولكن كرومر أحاط هؤلاء الساخطين بعنايته فأخذوا ينشئون الصحف(٢) والسلطان يحرق الأرم على امتصاص دمائهم(٣) .

وكان من أثر رعاية كرومر لهؤلاء الأحرار الأتراك أن تجمعت فى مصر أطراف الحركات المناهضة لعبد الحميد وأخذ هؤلاء الأشخاص يفاوضون أحرار العثمانيين فى كل مكان : فى جنيف وباريس ولندن لتحقيق هدفهم . وقد أنشأوا فى القاهرة جريدة « إيلرى » أى « إلى الأمام » باللغات التركية والعربية والفرنسية وكان يقرؤها ألوف من العثمانيين والأجانب وأخذ الأحرار الأتراك يعملون فى مصر بهمة ونشاط وزاد عددهم وقويت شوكتهم(٤) .

وكانت الصحافة هى الوسيلة الوحيدة التى اتخذها الأحرار الأتراك فى صراعهم ضد السلطان واستمروا يقاومون الدولة العلية بهذا السلاح فترة يمهدون فيها عقول الأتراك لاستقبال عهد جديد مخالف كل المخالفة لما عهدوه من قبل على عهود السلاطين .

وكان من بين كتاب العهد الجديد محمد قدرى الذى كان يكتب فى المقطم باسم محمد قدرى العثمانى ، وحاول عبد الحميد إرجاعه إلى الآستانة أوإسكاته فأعياه ذلك(٥) . واحتضنت السلطات الإنجليزية ولى الدين يكن (وهو من

---

(١) Cromer : Abass II pp. 76, 77.

(٢) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث ج ٢ ص ١٤٢

(٣) قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ذكره ص ١٢٨

(٤) جلال نورى : عبد الحميد من ولاية العهد إلى المنفى ص ٢٣٩ — ٢٣٩ ، ٢٤١ (ترجمة إبراهيم سليم النجار مطبعة الياس زخورة بمصر ١٩١٤) .

(٥) ولى الدين يكن : المرجع السابق ذكره ج ١ ص ٦٤

أصل تركى وعاش فى مصر وخدم فى حكومة الآستانة فترة) ، كما احتضنت غيره فازدادوا حباً وأصبحوا لايذكرونها إلا بكل خير (١) .

ومن الصحف التى أنشأها عثمانيون فى مصر باللغة العربية والتركية للمطالبة بحرية الأمة العثمانية ، « المشير » لسليم سركيس ، « لسان العرب » لنجيب حداد ، « النبراس » ، « بصير الشرق » لرشيد بك وإسماعيل إبراهيم ، « الميزان » لمراد الطاغستانى ، « أمل » لحسن فهمى ، « اجتهاد » للدكتور عبد الله جودت ، « القانون الأساسى العربى » لولى الدين يكن ومحمد قدرى ، « الإنذار » ليوسف حمدى يكن (شقيق ولى الدين) « وكل هذه الجرائد طالبت حكومة الاستبداد بحرية الأمة وشدت فى ذم ظلم عبد الحميد ودعته إلى الإنصات ، وخاطبت العثمانيين فى الانتباه إلى ما هم صائرون إليه فطاردها الظالم مطاردة من لايعرف السأم ، وأكثر من اتخاذ الجواسيس وجعل المراقبة الشديدة على البريد وبالغ فى منع هذه الجرائد من الدخول فى البلاد العثمانية لكى لا يقرأها أفراد الأمة فينتبهوا إلى أعماله وكان من هؤلاء سليم سركيس ، وقد عانى من مطاردة الحكومة المستبدة مالا يصبر عليه سواه ، وبعث وراءه من يغتاله ، وطلبته من الحكومة المصرية ولكن عبثاً »(٢) .

كذلك عندماهرب مراد الطاغستانى — وهو أحد كتاب عهد عبد الحميد — إلى مصر « جاءت الرسائل تطالب فيها الحكومة العثمانية الحكومة المصرية بإعادته إلى الآستانة أوطرده من مصر أو عدم الإذن له بإصدار جريدة فيها ، فلم ينل عبد الحميد من لحاجه سوى الفشل والفضل فى ذلك للورد كرومر حبيب الأحرار ومصلح مصر ورجلها العظيم(٣) » . واستطاع مراد أن يصدر جريدة « الميزان » ضد السلطان وكان قد أصدرها من قبل

---

(١) عبد اللطيف حمزة : الصحافة والأدب ص ٩٧ ،
عمر الدسوقى : المرجع السابق ذكره ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) ولى الدين يكن : المرجع السابق ذكره ج ١ ص ٦٥ — ٦٧
لا يوجد من هذه الصحف سوى أعداد من جريدة المشير عام ١٨٩٥ وما بعده (دار الكتب — ٣٨٥ دوريات) ولسان العرب عام ١٨٩٤ (٤٢١ دوريات) والنبراس عام ١٨٩٥ (ضمن مجموعة ٤٧١٣ زكية) أما بقية الصحف الوارد ذكرها فى المتن فلا تحتفظ دار الكتب بأعداد منها .

(٣) ولى الدين يكن : المرجع السابق ج ١ ص ٧٥ — ٧٨

فى الآستانة . وأصبح مراد أحد زعماء تركيا الفتاة وأصبحت «الميزان» أهم صحيفة للحزب تصدر خارج تركيا ولها أثر فى الشعب(١) .

« وكانت صحف المجاهدين تنتهى إلى من يقرأها من أنصارهم فى غفلة من عيون الرقباء ، ولم يكن ذلك دائماً ، فكثيراً ما وقعت بأيدى قوم من الكاشحين تسابقوا بها إلى قصر الملك لنيل أمانيهم ، وقد فتح هذا الترغيب باب التنافس فى مصر بين من يحبون الرتب والألقاب ، فتزاحموا لابتياع ما ينشره الأحرار من الجرائد يجعلونها فى صناديق يرسلونها إلى القصر الحميدى . ورأى ذلك بعض السفل فتشبهوا بالأحرار فى إنشاء الصحف ، وعشاق الرتب يجزلون لهم العطاء ويكتبون إلى القصر السلطانى أنهم ساعون فى إسكات المفسدين أعداء أمير المؤمنين وأنهم استرضوا فلاناً وسيرتضون فلاناً »(٢) .

وقد حارب عبد الحميد الأحرار فى مصر بنفس سلاحهم ، « فإنه اشترى بعض الصحف الأوروبية والعثمانية وخصص لأصحابها رواتب لتدافع عنه وتحارب الأحرار ، ولتكذب على العثمانيين »(٣) .

وأصبحت مصر مسرحاً لتطور الأحداث فى تركيا نفسها وصارت ميداناً من الميادين الهامة التى يتقرر فيها مصير الإمبراطورية العثمانية والجامعة الإسلامية وذلك بفضل براعة كرومر واستخدامه الأحرار وصحافتهم لتحقيق أهداف إنجلترا فى الشرق .

وهكذا نجح الإنجليز ، إذ فسدت عقيدة هؤلاء الأدباء الوطنية والتوت أفكارهم فى طرق معوجة ونظروا إلى الأمور نظرة ساذجة وافتروا بالحرية الكاذبة التى منحها الإنجليز للصحافة فى مصر مع أنهم يريدون بينهم الفرقة ويمدون لهم فى حرية القول وهو أهون الأمور لديهم(٤) .

وكان من أثر ذلك أن « أصبح كرومر أباً شفيقاً للمصريين وظهيراً كبيراً

(١) Ramsaur : Op. Cit. pp. 27, 28.

(٢) ولى الدين يكن : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ٧٣

(٣) ولى الدين يكن : المرجع السابق جـ ١ ص ٨٦ ، ٨٧

(٤) عمر الدسوقى : المرجع السابق ذكره جـ ٢ ص ١٤٣

لأحرار العثمانيين(١) » . واعتقد البعض أن مراد بك استطاع اجتذاب مختار باشا الغازى إلى عمله وهو فى مصر ولكن يبدو أن الغازى كان يقوم بدور هام فى سبيل الحصول على أخبار الحزب وتوصيلها إلى السلطان(٢) . لذلك « عندما لحت المعية (فى أوائل عهد عباس حلمى) فى إبادة العثمانيين الأحرار رأت أن تم الفتح المبين بأخذ الطبعة العثمانية وعمدوا إلى دفاترها وإلى رسائلها فجمعوها ، وبيناهم فى ذلك إذا باللورد كرومر طلع عليهم فاستخلص تلك الدفاتر ، ولو فازت المعية بها لاستخرجت منها أسماء المجاهدين ، وبهذا تمكن كرومر من قلوب المجاهدين »(٣) .

ويورد كرومر أمثلة عديدة لحوادث وقعت للأحرار الأتراك وصحفهم فى مصر مثل ليون فهمى وعثمان باشا بدرخان وغيرهما . وكان لكرومر اليد الطولى فى حمايتهم والإبقاء على صحفهم(٤) . بل إن صاحب جريدة النيل حسن باشا حسنى لم يكن ينتقد السياسة البريطانية ذاتها ولكنه « استكبر حمايتها للأحرار ممن هبطوا مصر ليستمتعوا بحريتها ويحتشدوا بها على حرب الحكومة المستبدة . ومن هنا يتبين أن اختلاف « المقطم » مع « النيل » لم يكن إلا من الوجهة العثمانية الداخلية »(٥) . ولكن فيليب دى طرازى يؤكد أن ولى الدين يكن الذى يعيب على المقطم ما سبق ، كان أحد الكتاب الأحرار الذين كتبوا فى المقطم نفسه لمحاربة الاستبداد والاستعباد (٦) .

ومن ثم كان الدور الذى قامت به مصر فى صراع تركيا الفتاة دوراً عجيباً ، فإن حكام مصر كانوا من الوجهة الرسمية خاضعين لسلطان تركيا ، ولكن السلطات الحاكمة أفقدت هذه الرابطة جزءاً كبيراً من أهميتها منذ الاحتلال (٧) .

---

(١) ولى الدين يكن : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ١٠٥

(٢) Ramsaur : Op. Cit. pp. 28, 29

(٣) ولى الدين يكن : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ١١٠ ، ١١١ ،

Cromer : Abbas. II p.79·

(٤) Cromer : Ibid 77-82.

(٥) ولى الدين يكن : المرجع السابق ذكره جـ ١ ص ١١ ، ١٢

(٦) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ص ٣٥ ، ٣٦

(٧) Ramasur : Op. Cit. p. 27.

استخدام الصحفيين اللبنانيين بمصر لمناوأة السيادة العثمانية على الشام:

وكانت الأراضي السورية واللبنانية قد أصبحت منذ فتنة ١٨٦٠(١) موطناً للرسالات الأوروبية الدينية فأنشأت المدارس الكثيرة ونشط الأهالى ونسجوا على منوالها فأكثروا من دور العلم ، وما هى إلا فترة حتى غصت البلاد بالمتعلمين وهاجر منهم كثيرون إلى مصر فكانوا من دعائم الحياة الفكرية فى وادى النيل(٢) .

وكان من نتائج سياسة عبد الحميد فى اضطهاد الأحرار فى بلاط السلطنة أن أخذت إدارة المعارف فى الآستانة تنشئ القوانين الصارمة لتقييد حرية المطبوعات فى بلاد الشام(٣) . وغدت المهاجرة شرطاً لكل حر ومتعلم من الذين يحبون الحياة الحرة . واتخذ أكثرهم « مصر الحرة » وطناً لهم فاحترف بعضهم التدريس ، واتخذ آخرون الصحافة مهنة لهم . وأصبحت مصر محط أرباب الأقلام وعشاق الحرية وانتفعت بهم كما انتفعوا منها وكثر ظهور الجرائد والمجلات « لأن المتعلمين من الشعب المصرى كان قد تشبع بالمدنية الحديثة والعلوم الكونية التى تلقاها فى مدارس الفرير والأمريكان وزاد عليها بمطالعة الجرائد والمجلات . وصارت هذه النهضة الصحافية حصرماً فى أعين عبد الحميد . وأخذت الجرائد التى تمتعت بحرية النشر تحت ظل الراية البريطانية تكشف مساوئ عبد الحميد وظلمه لرعاياه وخنقه حرية القول والنشر »(٤) .

وقد أفاد الإنجليز من هجرة أهالى الشام — وبخاصة اللبنانيين — إلى مصر فوائد متعددة النواحى واستطاعوا فى براعة سياسية توجيه هذا السيل المتدفق من رجال الصحافة والكتابة لخدمة مآرب الاستعمار المختلفة :

(١) وهى الفتنة التى قتل فيها عدد كبير من أهالى البلاد على أيدى الأتراك .
(٢) بولس مسعد : مصر وسوريا ص ٣٢ (مصر ١٩١٢)
(٣) لويس شيخو : الآداب العربية فى القرن ١٩ جـ ٢ ص ٦٣ ، ٦٤
(٤) لويس شيخو : المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٧ ،
قسطاكى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف ص ١٣٣ ، ١٣٤ ،
بولس مسعد : مصر وسوريا ص ٣١

تستطيع إنجلترا استخدام بعض هؤلاء الصحفيين لمناوأة السيادة العثمانية فى لبنان ، وإحداث الانقسام فى بلاد الإمبراطورية . ثم تستطيع اجتذاب بعض الدعاة للإشادة بالإنجليز والدعاية لهم بين بلادهم الأصلية مما قد يكون له أثره فى تحويل بعض الأهالى فى لبنان وسائر بلاد الشام إلى الميل لإنجلترا وسياستها . وفى الوقت نفسه سيكون هناك متنفس للكتاب المصريين ، واللبنانيين فيتحدثون عن أحوال الشام وتركيا ويخف الاتجاه نحو الاحتلال الإنجليزى لمصر . وكذلك يفيد الإنجليز بما سيحدث من مناقشات واضطرابات صحفية فى اتخاذ ذلك تكأة لإطالة أمد الاحتلال فى مصر حتى تستقر الأمور.

وهكذا أصبحت مصر هى مركز الثقل فى الصحافة العربية منذ ١٨٨٢ « وقبل هذا العام كانت « كل » الصحف العربية تطبع فى بلاد الشام وترسل إلى مصر ، أما بعد ذلك العام فأصبحت هذه الصحف تطبع فى مصر وترسل إلى البلاد الشامية(١) » .

وكان من أثر ذلك أن انتقل الكثير من صحفيي الشام إلى مصر وعلى رأس هؤلاء جاء أصحاب المقتطف الذين لقوا من عظماء المصريين ترحيباً . ومما يؤكد مؤازرة الإنجليز لهؤلاء الصحفيين ما قاله أصحاب المقتطف عن مصادفة عزمهم على الرحيل إلى مصر مع منع الجرائد العربية المصرية من الدخول إلى بلاد الشام ولكن ذلك لم يضعف عزائمهم عن الارتحال إلى مصر(٢) . ويصف هارتمان أحد أصحاب المقتطف وهو شاهين مكاريوس بأنه كان ضيق الأفق ، « ولكنه كان ذا نشاط وحيوية جبارة ، ولم يكتف مكاريوس بأن يكون شريكاً لفارس نمر وصروف فى المقتطف ولكنه أراد أن يكلل نفسه بأكاليل الأدب فأصدر مجلة اللطائف وأطلق على نفسه صاحبها ومحررها الوحيد ، ولكن فى الواقع كان ابن عمه اسكندر شاهين هو كاتب الافتتاحيات فى اللطائف وقد حذف مكاريوس اسمه ، وأمكن لصحيفة المؤيد أن توقع بينهما ، واتخذت المسألة شكلا عنيفاً فا طرفان المتنازعان أبناء عمومة وزاد من ارتباطهما ببعضهما بعضاً أنهما لبنانيان يشد كل منهما أزر أخيه وبخاصة

(١) WOOD : Op. Cit. pp. 171, 172.

(٢) مجلة المقتطف : عدد مايو ١٨٨٥

عندما يواجهان خصما أجنبياً ، وفى الوقت نفسه كان الإنجليز يدفعون لكل منهما أجره » ، ويضيف هارتمان أن ذلك يعد أوضح مثال على الروح والدسائس التى سادت الدوائر المحلية(١) .

وأصدر اللبنانيون فى مصر صحفاً ساعدها رجال الاحتلال على الوقوف فى وجه المحاولات العثمانية للقضاء عليها . ومن أظهر هذه الصحف جريدة « صدى الشرق » السياسية التى صدرت فى ٩ ابريل ١٨٩١ لمحررها حبيب فارس اللبنانى وكان « غرضها كشف الستار عن مظالم بعض رؤساء مأمورى الحكومة فى لبنان . وراجت الجريدة رواجاً عظيماً بين الخاصة والعامة بما لم يعهد له مثيل قبل ذلك ، وهى من أوليات الصحف التى أقدمت على إعلان الحقيقة بلا محاباة ومهدت السبل لكسر قيود الظلم فى السلطنة العثمانية . بالرغم من مصادرتها من الحكومة أقبل الناس على مطالعة مقالاتها الرنانة التى كانت تضرب بعصا من حديد على أيدى المأمورين فى الجبل ، وكان بعض أعدادها مزيناً برسوم مشاهير أولئك الخونة تأديباً لهم وعبرة لسواهم ،وساعد على نشرها رهط من أعيان سوريا ولبنان . ولما عجزت حكومة لبنان عن استقدام محررها من وادى النيل عمدت إلى معاملة أبيه وأخيه معاملة الوحوش ، وأخذت تضطهد وكلاء الجريدة ومراسليها . ولكن ذلك لم يجد نفعاً ، فحولت الحكومة فى لبنان اهتمامها مرة أخرى إلى استقدام حبيب فارس فوافاه رسول يحمل تنبيهاً من أحد اللبنانيين بأن الأوامر صدرت إلى إدارة البوليس بالقبض عليه وتسليمه إلى جنود مخصوصين قادمين من جبل لبنان . فكتب حبيب فارس إلى كرومر رسالة يشكو فيها ظلامته وفى الصباح أقبل عليه فارس نمر واصطحبه إلى كرومر قائلا إنه كان لدى المعتمد البريطانى « الذى اغرورقت عيناه بالدموع عندما قرأ سطورك الوجيزة وأمرنى أن أدعوك لداره » . وطمأنه كرومر بأنه مصون من كل اعتداء وأنه حر يكتب ما يشاء بل « أبيح لك انتقاد الحكومة البريطانية لأن كل حكومة راقية لا تضغط على حرية الصحافة ، وقد قرأنا شيئاً كثيراً عن حكومة لبنان فلنا الأمل أنك تصلح حالها » . فضاعف حبيب همته فى تقبيح أعمال الخائنين من موظفى

(١) Hartmann : Arabic Press of Egypt pp. 38 - 40.

الجبل وعاشت جريدته إلى منتصف عام ١٨٩٢ حيث تبدلت الأحوال »(١) .

وقد اتفقت سياسة الاحتلال فى مصر مع سياسة الإنجليز فى أقطار الدول العثمانية عامة ، وتكشف صحيفة « الفلاح » عن بعض الأحداث التى كانت تجرى فى جبل حوران منطقة الدروزمن « نزاع ومشاكل ضد العساكر الشاهانية وقد انحسر القناع عن المحركين للدروز إذ وقع بأيدى مأمورى الحكومة كثير من الرسائل الواردة إلى هؤلاء العصاة من مصادر إنجليزية تحثهم فيها على استئناف القتال واستمرار العصيان وتعدهم بالمساعدة »(٢) .

وأخذت صحف الاحتلال تدعو لإنجلترا بين صفوف أهل الشام « فإن السوريين لم يروا من الدولة الإنجليزية شيئاً يسوءهم . بل هم فى القطر المصرى خاضعون لولى النعم الخديوى . وجمهور منهم مستقر فى خدمته . وهو أيده الله راض عن الإنجليز الذين فى بلاده ومسلم لهم كثيراً من المناصب السامية . وقد لقيت كثيراً من السوريين مستخدمى الحكومى المصرية فوجدتهم يشكرون من تصرفات رؤسائهم الإنجليز والأرجح أننى لا أرى لى معارضاً فى ما قلت من جميع السوريين الأمناء لدولتهم العلية ولحكومتهم المصرية »(٣).

وكانت صحيفة الأهرام تتحدث عن أحوال بيروت ودمشق وتوردها تحت بابها اليومى « حوادث محلية » ، واتبعت معظم الصحف الأخرى التى أصدرها لبنانيون وسوريون ذلك كالمحروسة والاتحاد المصرى والمقتطف واللطائف والمقطم والراوى والشفاء والفتاة وغيرها .

وكان الاحتلال يهدف إلى أن يجتث نفوذ تركيا من الأساس ويقتلع من النفوس الولاء لها ، ووجد لنفسه أنصاراً ومؤيدين من هؤلاء الذين نقموا عليها استبدادها وغلظتها وسوء تصرفها معهم فى ديارهم وتفريقها بين عناصر الأمة فرأوا فى الإنجليز من يحميهم ويعطف عليهم ويساعدهم على إصدار صحفهم(٤) .

---

(١) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٤١ — ٤٣

(٢) جريدة الفلاح فى أول نوفمبر ١٨٩٠

(٣) جريدة المقطم فى ٢٧ إبريل ١٨٨٩

(٤) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ١ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، جـ ٢ ص ٧٨

وقد وافقت هذه الفترة ظهور الدعوة للعمل على توحيد مصر وسوريا ، وقامت مجلة الراوى بتحليل موقف السوريين فى مصر« فالمصرى والسورى سواء أمام السدة العثمانية وتحت الراية العثمانية وكلاهما خاضعان لسلطان واحد عثمانى . وسوريا ومصر من أملاك الدولة الواحدة . أيحسب السورى فى مصر غير وطنى . وهل يحسب المصرى إذا استوطن سوريا أو سواها من البلاد المحروسة أجنبياً ؟ كلا فإن اسم وطنى يعم المصرى والسورى والحجازى(١) » . وكانت كتابات صحف اللبنانيين بوجه عام لا تخرج عن هذا المعنى . وكشف فارس نمر فى إيجاز عن هدف الإنجليز من وراء تلك الدعاية فيقول «إن السوريين الذين يزورون مصر ينظرون إليها بعين الحسد وأنهم لا يتمنون إلا أن تتحول سوريا إلى بلاد تشبه مصر » ، ويضيف وود إلى ذلك أن النتائج التى ترتبت على نجاح مالية مصر تحت السيادة الإنجليزية كانت دافعاً لحركة نشأت فى سوريا للاتحاد مع مصر ، على أساس أنه فى حالة تقسيم الدولة العثمانية فإن السوريين يتقدمون برغبتهم فى الاتحاد مع القطر المصرى(٢) . وهكذا تدور السياسة الإنجليزية فى خفاء لتتجمع خيوطها وتنسج شباكها حول بلاد الشام لتقتطعها من الإمبراطورية العثمانية فتسقط فى يد إنجلترا بينما الأهالى لا يدركون ما يدور حولهم من ألاعيب هذه السياسة الملتوية . وإن تاريخ فارس نمر وصروف ومكاريوس منذ وصولهم إلى مصر يؤيد هذه النظرية التى تقوم على أساس إظهار محاسن الحكم الإنجليزى والعمل على إصدار صحف كثيرة متنوعة (المقتطف للعلوم ، اللطائف للآداب ، المقطم للسياسة) ، والمناداة بما عليه مصر من حرية ، والتنديد بما ترزح تحته بلاد الشام من ضغط وعسف فى ظل السيادة العثمانية ، وتمنى وقوع سوريا فى حالة تشبه ما عليه مصر ، أى احتلال إنجليزى آخر ، وهكذا ينجح الإنجليز فى التمهيد لبسط نفوذهم فى هدوء على منطقة أخرى من مناطق الشرق العربى .

وصادف حدوث الثورة المهدية بالسودان هذه الفترة من فترات الشرق

---

(١) مجلة الراوى : فى أول إبريل ١٨٩٠

(٢) WOOD : Op. Cit. pp. 172, 206, 207.

التى زادت فيها أطماع إنجلترا . وقامت سياسة الإنجليز بإزاء السودان على الضغط على مصر لإخلاء الجنوب ، وقد يكون ذلك سبباً فى ازدياد هذه النغمة القائلة بوجوب اتجاه مصر نحو الشام « والعمل على ارتباطها بسوريا تحت حماية بريطانيا فهذا هو الوضع الطبيعى بدلا من الاتجاه صوب الجنوب(١) » وكان وجود المدارس والهيئات الأمريكية فى مصر يساعد على نشر اللغة الإنجليزية ، وفى الوقت نفسه تهتم بنفس العمل الجامعة الأمريكية فى بيروت والصحافة اللبنانية كما يرد من سوريا إلى مصر عدد ضخم من الأدباء ورجال العلم « وإن قيام الأمريكيين بهذا العمل من الأهمية بمكان لأنهم لم ينغمسوا فى المشاكل السياسية فى مصر وكان هذا أفضل من قيام بريطانيا بهذا الدور مباشرة . وهكذا فإن تحرير مصر من ربقة تركيا سيتبعه تحرير الشام كذلك وعودة بلاد الشرق إلى حظيرة المدنية الغربية والمسيحية »(٢) .

وكان لهذه الدعوة أثرها فى قيام بعض أدباء الشام وكتابها بالدعوة إلى اقتفاء أثر مصر « فالفرق عظيم فى العمران والتقدم بين البلاد السورية والفلسطينية وبين البلاد المصرية ، والسبب فى تأخر سوريا وفلسطين وتقدم القطر المصرى وهو الضلع الثانى للبلاد العثمانية ظاهر محسوس ، فهو من جراء وجود الأجانب فيها ، واستعمار الأراضى واستثمارها ، ووقوف الأهالى والأجانب كتفاً لكتف . فلم تمض سنوات حتى رأينا ذلك القطر فى هذه الحالة التى تحسدها عليها الأقطار الأوروبية والشرقية . ولو نظرنا إلى أحوال مصر لنهضنا نهضة واحدة ونادينا الأجانب إلينا لاستعمار بضعة آلاف من الدونمات المهملة واستثمارها(٣) » . وهكذا آتت الدعاية الإنجليزية فى البلاد الشامية أكلها(٤) .

---

(١) Dawson W. : Egypt and Syria p. 202 (Oxford 1887).

وهذا الكتاب وضع عام ١٨٨٤ ثم طبع مرة أخرى عام ١٨٨٧ (بدار الكتب المصرية) والكتاب كله يدور حول الربط بين مصر وسوريا ، وأن هذا هو الاتجاه الطبيعى أمام مصر ، أما اتجاهها صوب إفريقيا فهو اتجاه مؤقت لن يكتب له الدوام .

(٢) Dawson W. : Ibid pp. 199-201.

(٣) نسيم ملوك : سوريا ومصر ص ٨ ، ٩ ، ١١ – ١٥ ، ١٧

(٤) وكان سخط العرب على الحكم التركى سبباً فى قيام عدة ثورات فى الحجاز واليمن=

وأدركت السلطات العثمانية مدى تأثير هذه الصحف فى أهالى الشام فأمرت بمنعها من الدخول بدلا من أن « تصيخ تركيا لأقوال المنددين وتعمد إلى استجلاء حقيقة أفعال مأموريها . وبذلك نقلت الصحف من طور التظلم من بعض العمال إلى الطعن فيها عموماً . ويا ليت الدولة وقفت عند هذا الخطأ بل تجاوزته إلى أعظم منه إذ أوعزت إلى معتمدها أحمد مختار الغازى أن يسعى إلى إلغاء هذه الجرائد ، فاتفق مع معتمد فرنسا على ذلك ولكنه أخفق سعياً ، ولم يجد الدولة العثمانية سوى أنه نقل تلك الصحف إلى طور العداء لتركيا وجعل أكثرها ينقب عن سيئات الدولة تشفياً وانتقاداً . وكان من وراء السعى المذكور أن اللورد كرومر معتمد بريطانيا وقف سداً دون نجاح مختار وأيد مبادئ الجرائد المذكورة وأمال بهانحو إنجلترا ، فجعلت تطبق الأرض فى الثناء على عدل الإنجليز وتخدم سياستهم الاحتلالية خدمة صادقة لو بذلوا فى سبيلها الألوف المؤلفة من الدنانير ما حصلوا عليها ، فأتتهم غنيمة باردة لم تكلفهم أقل تعب أو نفقة » (١) . وكان على رأس هذه الصحف جريدة « المحروسة » التى تناولت منع الصحف من دخول البلاد الشامية فى عدة مقالات «وقد بلغنا أن ذلك كان لنشر إحدى الصحف كلاماً عن أحوال الأهالى فى بعض الألوية مما كدر بعض الخواطر وصدر الأمر بمنع الصحف من الدخول إلى الولاية السورية . ولا يعقل أن دولة تمنع جرائد أحد أقاليمها عن الدخول لإقليم آخر(٢) » . وأعربت فى رسالة لمكاتبها فى بيروت عما نال السوريين من الاكتئاب بمنع هذه الجرائد « بدون سبب موجب لأن تحجب عنا فوائدها ونحرم من مطالعة أخبارها الصادقة والوقوف على ماتبثه من الآراء الوطنية(٣) » . كما هاجمت مجلة الحقوق وجريدة الأعلام هذه السياسة ،

= ثم حدثت ثورة تركيا الفتاة ١٩٠٨ ومحاولات تتريك العناصر الأخرى فزاد سخط رجال النهضة العربية وحدثت ثورة ١٩١٦ بزعامة شريف مكة فقوضت الحكم التركى ، وكانت بريطانيا من وراء هذه الثورة تمدها بسخاء وسارع العرب بنصرة هذه الثورة التى حطمت الإمبراطورية العثمانية .

Stoddard L. : Op. Cit. pp. 143 - 146.

(١) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٧

(٢) جريدة المحروسة فى ٢٢ يناير ١٨٨٥

(٣) جريدة المحروسة فى ٥ ، ١٩ فبراير ، ٩ مايو ١٨٨٥

« وهكذا فالبلاد الشامية قد قضى عليها بأن تحرم من جهد بنيها ونفعهم لها بما يعرفونه من علم واختبار[1] » . وقد حاول بعض الصحفيين التحايل على ذلك المنع فيقول صاحب جريدة « الفار دالسكندرى » إنه أعيد إليه من سوريا عدة نسخ من جريدته فاستغرب ذلك لأنه لم يرسل منها شيئاً إلى تلك الجهات ، ثم وجد أن داخل جريدته كانت جريدة « الاتحاد المصرى » فإنها وضعت بداخل « الفار » ثم أرسلت إلى سوريا ، إلا أن رجال البريد العثمانيين لحظوا الأمر فأعادوا الجريدة إلى الإسكندرية[2] . « ومن هنا يتضح شدة اهتمام مأمورى سوريا بمنع دخول كل ما يطبع فى القطر المصرى إلى سوريا لكى لا يعلم السوريون شيئاً عن أحوال العالم »[3] .

الصحف الارمنية بمصر تناوىء الدولة العثمانية :

وتلمست إنجلترا سبلا أخرى لإضعاف وحدة الدولة العثمانية فلجأت إلى الأقليات الطائفية فى الإمبراطورية ، ودفعت الأقلية الأرمنية للثورة على العثمانيين لإضعاف السيطرة العثمانية فى البلاد العربية[4] . وكانت مذابح أرمينيا سبباً فى هرب الكثيرين من الأرمن خارج بلادهم ، وهم كغيرهم من الجنسيات الأخرى الداخلة فى نطاق الدولة العثمانية كانوا قد بدأوا العمل فى سبيل إقامة وطن قومى لهم ، لذلك أخذ الهاربون يحاولون تحقيق هذا الهدف[5] . واتخذ كثير منهم القاهرة مركزاً لنشاطهم ، وعمل هؤلاء على مقاومة الحكم التركى فى مصر والقضاء على النفوذ العثمانى وإقفال المدارس التركية ومحو اللغة التركية[6] .

ويقول سليم فارس صاحب جريدة « القاهرة » و « القاهرة الحرة »

---

(١) مجلة الحقوق فى ١٨ يونيو ١٨٨٦ ،
جريدة الأعلام فى ٤ نوفمبر ١٨٨٦ ، ٢٣ يناير ١٨٨٨

(٢) Le Phare d'Alexandrie 3 Mars, 1886.

(٣) جريدة القاهرة فى ٧ مارس ١٨٨٦

(٤) مصطفى خالدى : التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ص ١٨٣ (بيروت ١٩٥٣) ،
W. Langer : The Diplomacy of Imperialism V.I pp. 151-161 (N.Y. 1935)

(٥) Ramsaur J. : Op. Cit. pp. 9, 10.

(٦) Selim Faris : Decline of Brit. Prestige pp. 69-72.

إن « جميع المسلمين سواء فى مصر أو فى أى بقعة من بقاع الإمبراطورية العثمانية كانوا ينظرون نظرة عداء إلى الأرمن وفى الوقت نفسه كان الأرمن يحكمون مصر »(١) . وقد تمثلت قمة هذا الحكم فى تولى نوبار رئاسة الوزارة بعد شريف فى يناير عام ١٨٨٤ ثم ترشيح ابنه بالتبنى تيجران لتولى رئاسة الوزارة عدة مرات ، ولكن كانت الظروف تضطر كرومر إلى العدول عن ذلك(٢) . « وإذا رأيت نوبار الأرمنى يعمل على نكاية مصر وما يضير المصريين وقد تبوأ رئاسة النظار فيهم وليس بينه وبينهم أقل جامعة ، حتى أنه لو باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح ولا يخسر ملة ولا وطناً ولا جنساً ، وإن رأيته يعطل جريدة وطنية فمن كان على شاكلته فى غير اسم من الشرق ربما يصادر الجرائد الوطنية بعد أن يزج فى أعماق السجون أصحابها ، وهكذا لا تتبدل من الخائنين إلا الأسماء »(٣) .

وكان علكسان صرافيان صاحب جريدة « الزمان » من أهم شخصيات الأرمن التى عملت على مناوأة الحكم العثمانى ، « وقد راق له احتلال الإنجليز لمصر فصار يتغنى على صفحات جريدته الزمان بمزايا هذا الاحتلال ويتمناه لعاصمة بنى عثمان لراحة أبناء جنسه . فتدفقت عليه الأموال ، وقامت قيامة عبد الحميد لذلك وبذل كل سلطته للقبض على ذلك الرجل ، ولكن اللورد كرومر لم يسلم بذلك لأن مصر « المستقلة » والمحتلة لا تسلم مجرماً سياسياً كما تريد السلطنة . وحتى لا تتعكر الصداقة بين مصر وتركيا أوعز إلى صرافيان بترك القطر المصرى والذهاب إلى قبرص التى كانت ترفع الراية البريطانية فذهب إلى هناك وتابع نشر جريدته »(٤) .

---

(١) Selim Faris : Ibid pp. 6, 7, 11.

(٢) Cromer : Modern Eg. V. II pp. 219-225.

(٣) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ص ٢٤٩ ، ٢٥٠

(وقد أوردنا فى صفحتى ٨١ ، ٨٢ من البحث عدداً من أوامر التعطيل والإنذارات التى صدرت فى العقد الأول من الاحتلال وبخاصة فى عهد وزارة نوبار : ١٠ يناير ١٨٨٤ ٧ يونية ١٨٨٨

(٤) قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ذكره ص ١٢٧ ،

جريدة القاهرة الحرة : فى ١٢ فبراير ١٨٨٩ .

=

ولم يخل عدد من صحيفة الزمان من الحديث عن « أرمنستان »(١) علاقتها بالدولة العلية والاهتمام بأحوال الأرمن ، « فالزمان هو الموقظ لذوى الغفلات والرادع عن الغى أقوام الجهالات، وهو روح البيان وترجمان الحقائق »(٢) . وكانت الجريدة تعارض سياسة تركيا وتنقل عن الصحف الأجنبية التهم التى تكيلها للدولة العلية (٣) . ثم رأت السلطات الإنجليزية تعطيلها فى خلال مباحثات وولف – مختار الغازى(٤) . ورفع صرافيان التماساً للحكومة ثم التماساً آخر بالإنجليزية إلى مجلس العموم فى لندن راجياً أن تعاد له الرخصة بفتح جريدته مرة ثانية موضحاً أنه خدم الأمة الإنجليزية خدمة صادقة يعد لأجلها من المخلصين الأمناء للحكومة البريطانية (٥) .

الانجليز يساعدون على اصدار صحف يهودية بمصر :

كذلك كان بين الأرمن الذين أسهموا فى صحافة مصر اسكندر كركور مؤسس مجلة – الزراعة(٦) – ، وتولى تحريرها أيوب عون . وقد قامت بدور كبير فى الدعاية لليهود ، فعلى الرغم من كونها مجلة علمية زراعية إلا أنها كانت تحتوى دائماً على أنباء اليهود تحت عنوان ثابت « الإسرائيليون » فى مصر والبلاد الشامية وأمريكا(٧) . كذلك كانت المجلة تنشر فى كل عدد إعلاناً عن كتاب « الأنتى ساميت : Anti Samite » ، وهو دحض

= ويقول دى طرازى إن صرافيان أصدر فى قبرص جريدة سميت « ديك الشرق » ظهرت فى عام ١٨٨٩ بعد طرده من القاهرة . وكانت خطة الصحيفة الجديدة الدفاع عن الأرمن وحقوقهم المهضومة فى الممالك العثمانية ، ثم تستنجد بالدولة الإنجليزية لحماية مصالحهم من تعديات الأكراد ونجاتهم من مظالم عبد الحميد ، واستمرت سنتين .

تاريخ الصحافة العربية (جـ ٢ ص ٢٦٧)

(١) جريدة الزمان فى ٢٦ مايو ، ٥ ، ٦ يونيو ١٨٨٣ وما بعدها .

(٢) جريدة الزمان : فى ٢٤ يناير ١٨٨٤

(٣) جريدة الزمان فى ١٤ ، ١٦ أكتوبر ١٨٨٢

(٤) الوقائع المصرية فى ٢ أغسطس ١٨٨٦

(٥) جريدة الصادق فى ٥ نوفمبر ١٨٨٧

(٦) Hartmann : Op. Cit. pp. 44, 45.

(٧) مجلة الزراعة فى ١٣ سبتمبر ١٨٩١ والأعداد التالية .

لأقوال الشرقيين المتشدقين عليهم بما هم منه براء والرادين أعمالهم على النقص والخطأ ، ويطلب من إدارة مجلة الزراعة(١) » . وتدافع عن نشاط اليهود الزراعى « إذ كثيراً ما قال أعداؤهم إنهم لا يتعاطون الزراعة ولقد ركزنا فى الكتاب الذى نشرناه ماينفى هذا القول ويقال إن البارون روتشيلد سيشترى خمسة ملايين متر مربع فى شرق الأردن ، وقد علمنا من أخبار يافا أن الزراعة التى يتعاطونها فى نمو »(٢) .

وكان من صحف اليهود التى صدرت بمصر كذلك جريدة بعنوان « نهضة إسرائيل » ظهرت فى القاهرة « من غير رخصة رسمية وأخذت تنشر بعض مباحث دينية ، وقد رأت نظارة الداخلية إقفالها »(٣) .

وظهرت جريدة الحقيقة للحاخام فرج مزراحى تدعو لليهود وللوطن القومى اليهودى ، وقد رأينا (فى الفصل الخامس صفحة ١٤٠) كيف حاولت هذه الجريدة العمل على نشر روح الاستكانة والكسل وعدم الإسهام فى النشاط الاقتصادى . وتدعو افتتاحية العدد الأول منها إلى كثير من التساؤل إذ يعلن صاحبها عن نشر الصحيفة « ولا دافع من الأطماع يدفعنا فنحن أدرى بماينال الكتاب « العرب » فى عصرنا الحاضر من اليأس القاطع للآمال ، وما أقدمنا على إصدارها إلا إجابة لسؤال من لايسعنا إلا إجابته سعياً إلى بث الفائدة . ولقد رأينا العبرة فى غيرنا ، وما خطونا نحو جرف الخسار إلا متبصرين »(٤) .

وهكذا يصدر الحاخام صحيفة وهو يدرك ما يقدم عليه من خسارة ، ولكنه يصدع لأمر من « لا يسعه إلا إجابته » . وحدد الاشتراك السنوى بثمانين قرشاً وهى صحيفة أسبوعية فى بدء ظهورها ، ثم استمرت قيمة الاشتراك كما هى بعد أن أصبحت تصدر ثلاث مرات أسبوعياً ، ويقول

(١) مجلة الزراعة فى ٢٣ إبريل ١٨٩٢ وما بعده .

(٢) مجلة الزراعة فى ١٦ أغسطس ١٨٩١ .

(٣) جريدة الاتحاد المصرى فى ١١ سبتمبر ١٨٩٠ (ولم نستطع الحصول على أى عدد من أعداد هذه الجريدة) .

(٤) جريدة الحقيقة العدد الأول – أول مارس ١٨٨٩

مزراحى إن « فى ذلك علينا خسارة طائلة لا نبالى بها حباً بنوال غاية الحصول على شرف الأوطان »(١) . ثم أصبحت تصدر ست مرات أسبوعياً وبقى الاشتراك كما هو ، وكانت تصدر ثلاث مرات فى أيام الأحد والثلاثاء والخميس سياسية تجارية أدبية ، وثلاث مرات فى أيام الاثنين والأربعاء والجمعة جريدة تجارية(٢) . وتحلل الجريدة سر تطورها فى خلال عام واحد بأن « الناس عرفوا قدر الجرائد فى هذه الأيام فأقبلوا عليها إقبالا يشف عن مزيد من الاهتمام وعلى الخصوص فى عصر النور والحرية بعناية الخديو »(٣) .

ويتضح اتجاه الجريدة منذ عددها الأول إذ تبدأ فى نشر سلسلة مقالات بعنوان « السلسبيل فى أسرار آل إسرائيل » وبلغ عددها اثنتى عشرة مقالة(٤). ثم تتحدث عن الوطن اليهودى « إذ نهض أعيان اليهود فى القدس وأرباب اللغة العربية فأنشأوا جمعية غاياتها تعميم اللغة العبرية وتعليمها للبالغين من الرجال والنساء والأطفال حتى تصير لغة عامة دارجة بين آل إسرائيل . وكانت اللغة العبرية قد امتدت قديماً واتسعت ونبغ فيها فطاحل العلماء والشعراء حتى حسدهم شعراء العرب وغاروا منهم وأغاروا على بعضهم ، وسنعود إلى شرح ذلك . لهذا أرى فرضاً على كل من يهمه أمور أمته أن يسعف الجمعية ولا يوفر فى ذلك تعباً حتى تصير اللغة العبرية الشريفة لغة حية تتعزز بها شعوب الأرض عموماً وبنو إسرائيل خصوصاً »(٥) .

وحاولت الصحيفة العمل على اجتذاب بعض القراء المسلمين فتحدثت فى عدد من المقالات عن الحج بعنوان « مكة المكرمة » شرحت فيها فريضة الحج وأهميتها(٦) .

وكان صاحبها ينفق عليها كثيراً ، ولم تكن فى الأسكندرية معامل زنكغرافية

(١) جريدة الحقيقة فى ٤ يوليو ١٨٨٩

(٢) جريدة الحقيقة فى ١٠ أغسطس ١٨٩٠

(٣) جريدة الحقيقة فى ٢ مارس ١٨٩٠

(٤) جريدة الحقيقة من أول مارس ١٨٨٩ إلى ١٧ مايو ١٨٨٩

(٥) جريدة الحقيقة فى ١١ فبراير ١٨٩٠

(٦) جريدة الحقيقة فى عدد من المقالات منها فى ٤ ، ١٨ يوليو ، ١١ أغسطس ١٨٨٩

فاستحضر اسم الجريدة محفوراً على خشب ومسبوكاً بالنحاس من مطبعة الآباء اليسوعيين فى بيروت ، واشترى لها حروفاً جميلة من تلك المطبعة . وقد عنى صاحب جريدة الحقيقة بإتقان طباعتها والإكثار من موادها ، « وكانت مضماراً تتبارى فيه أقلام مشاهير الكتاب السوريين والمصريين . أما خطتها فوطنية معتدلة تبين لسكان وادى النيل وجوه الإصلاح ، ومن جهة أخرى كانت تعترف للإنجليز بحسناتهم فى مصر وتشير إلى دهائهم السياسى »(١) .

وهكذا نجح الاحتلال الإنجليزى فى مصر فى استخدام الصحافة لمساعدته على تثبيت أقدامه وإضعاف الإمبراطورية العثمانية واستغلال الأقليات الطائفية كالأرمن واليهود . وكان الأوروبيون يأملون أن ينفذوا من هذا السبيل بمشاريعهم الاستعمارية إلى العرب و المسلمين(٢) .

ولا ريب أن هذه العوامل كان لها أثرها فى تحطيم كيان الدولة العلية وإضعاف شأنها وتفتيت وحدتها وانقسامها فيما بعد أقساماً مما سهل على الاستعمار الأوروبى – والإنجليزى بصفة خاصة – أن يبتلعها قسماً وراء الآخر ، وفى الوقت نفسه فقدت مصر سنداً ضخماً هو الإمبراطورية العثمانية . حقاً كانت الإمبراطورية فى حالة شديدة من الضعف ولكن مجرد وجودها كان يوحى بشىء من القوة والقدرة على إتيان الأعمال الكثيرة ، وكان ضياعها فقداناً لهذا الشعور المستمد من مجرد وجودها .

---

(١) جريدة الحقيقة ٢٨ سبتمبر ١٨٩٠

(٢) مصطفى خالدى : المرجع السابق ذكره ص ١٨٣

الفصل السابع

الصراع بين انجلترا وفرنسا فى مصر

- فرنسا تتخذ موقف الصداقة من إنجلترا فى بداية الاحتلال
- تحول موقف الصحافة المصرية الموالية لفرنسا عن تأييد الاحتلال
- الصحف الموالية لإنجلترا تهاجم فرنسا
- التشهير بالصحف الموالية لفرنسا
- الصحف تدعو إلى إلغاء الامتيازات لمنع تدخل فرنسا فى شئون مصر

فرنسا تتخذ موقف الصداقة لانجلترا فى بداية الاحتلال

منذ وقوع الاحتلال تملك البريطانيين قلق مستمر على مركزهم ، فلم تكن عندهم فكرة واضحة عن كيفية حل مسألة مصر ، ولم يحاولوا إخفاء ذلك الشعور من أول الأمر فصرح بذلك جرانفيل وزير الخارجية فى المنشور الذى وجهه إلى الدول معرباً عن قرب سحب القوة الإنجليزية من مصر(١) .

وبالرغم من حيرة الحكومة الإنجليزية فى تقرير مصير مصر فى بداية الاحتلال ، فقد رفضت رفضاً تاماً تدخل الدول الكبرى مجتمعة أو منفردة فى حل المسألة أو مناقشتها(٢) .

وادعت إنجلترا أن مهمتها فى مصر تشمل حماية الأقليات والأجانب فى البلاد والمحافظة على أرواحهم حتى تنال الحكومة الإنجليزية رضا الدول الأوروبية الكبرى فلا تثير هذه الدول بشكل جدى خطير مشكلة بقاء جيش الاحتلال فى مصر(٣) . وهكذا وقفت الدول تنظر إلى سير الأمور فقط دون أدنى تدخل جدى . ويتساءل والاس « هل أصيبت فرنسا بشلل لخوفها من غزو ألمانى آخر ؟ أم أنها رأت تأجيل القيام بدور حتى تحين الفرصة(٤) ؟ » لقد امتنعت فرنسا عن الاشتراك مع إنجلترا فى إحتلال مصر — برغم أنها كانت تطمع فى ذلك التدخل — معتقدة أنها ستنال جزءاً من الغنيمة ، وأخذت جرائدها تثنى على أعمال إنجلترا إثر تغلبها على العرابيين وانتهاء الاضطرابات فى مصر(٥) . وأخذت الصحف المصرية تتحدث عن قرب عقد اتفاق بين

---

(١) Blue Books, Egypt, 1883, No. 2 p. 34.

(٢) محمد صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر ص ١٧٦

(٣) Cocheris : Op. Cit. pp. 122-134, J. Marlowe : Op. Cit. p. 129.

(٤) محمد صفوت : المرجع السابق ذكره ص ٢١٦

M. Wallace : Eg. & The Eg. quest. p. 375

(٥) سليم نقاش : مصر للمصريين ج ٦ ص ١٥٩

إنجلترا وفرنسا ووضع حد للتباعد بينهما وبذلك يتسنى للوزارة الفرنسية الوصول إلى اتفاق مع إنجلترا تخول فرنسا بمقتضاه مركزاً ممتازاً فى مصر(١) .

وتنتهز « الأهرام » فرصة سفر جلاد ستون (رئيس وزراء بريطانيا) إلى باريس فتؤكد أن بريطانيا تسعى لإيجاد طريق لحل المسألة المصرية تنطبق على ما يناسب مصالح فرنسا الشرعية فى وادى النيل ، « وأن قبول إنجلترا وفرنسا بأمر عائد علينا بالصالح لا يصادف فى بقية الدول معارضة ، أما عدم اتفاق الدولتين فلا ينيلنا ما نتمنى(٢) » . وتواصل « الأهرام » توضيح موقف إنجلترا فإن خطتها تميزت بالحكمة والمهارة فى الحملة المصرية وإقدامها على العمل بانفراد كما فعلت الروسيا فى البلقان عام ١٨٧٧(٣) . ثم يتحدث مدير الجريدة — بشارة تقلا — فى رسالة له من الآستانة عن أقاويل الجرائد بخصوص الجلاء « وإنى أرى إلحاح الجرائد فى مصر بطلب انجلاء العساكر فى غير محله . وكان الأولى بأربابها أن يقتدوا بسياسة الجرائد الأوروبية : فالاحتلال لا بد لمدته من نهاية مقررة ، وهذا ليس بخاف على ذوى الدراية ، والتأنى بهم أولى وأجدر »(٤) .

ويفند مدير الأهرام فى تعليقه اليومى « إشاعات أرباب الغايات الزاعمين أن فى عزم إنجلترا وضع مصر تحت حمايتها ، فلا حاجة إلى إعادة القول فيما علمناه وتحققناه من إخلاص هاته الدولة وابتعادها عن تحقيق آمال الحزب المحافظ كما أن ثقتنا بالحزب الليبرال وطيدة »(٥). بل وصل الأمر بالأهرام إلى حد نقل مقالات الصحف الإنجليزية عن ضرورة استمرار الاحتلال دون تعليق من الجريدة : « فإن مصر لا يمكنها القيام بنفسها فانجلاؤنا عنها يعد قساوة . وإن أيدينا على المحراث الآن فلا يمكننا الالتفات إلى الوراء وإلا انحل الويلات على رءوس الفلاحين وتعود الكوارث إلى البلاد ، فإذ قد

(١) جريدة الأهرام فى ٨ مارس ١٨٨٣ ، جريدة البرهان فى ١٢ فبراير ١٨٨٣

(٢) جريدة الأهرام فى ٩ ، ١٢ مارس سنة ١٨٨٣ .

(٣) جريدة الأهرام فى ٥ إبريل سنة ١٨٨٣ .

(٤) المصدر السابق : فى ٧ نوفمبر سنة ١٨٨٣

(٥) المصدر السابق : فى ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، ١٠ ، ١٣ فبراير سنة ١٨٨٤ .

اتخذنا مسئولية البلاد على عاتقنا بإرادتنا وجب علينا أن نقوم بهاحق القيام(١) ». وتنصح « الأهرام » المصريين بإحكام التصرف وعدم الإصغاء إلى أولئك الذين يتوسمون الشر من إنجلترا التى لا تجهل صعوبات أدوار المسألة المصرية ، وأن لا يثق المصريون بما تنشره تلك الجرائد الرائمة أن تبخسهم حقوقهم السياسية(٢). أما « عن سياسة الحكومة الإنجليزية فلا يؤخذ من أفعال رئيسها جلادستون إلا ما يحقق الآمال ، فقد صدقت الحكومة على رفع سيادتها عن الترنسفال التى سفكت بها دماء رجالها وأنفقت فيها مالها ، فإذا كانت هذه معاملة الوزير الإنجليزى فكيف يخشى من إقدامه على ما يناقضها فى قطرنا »(٣) .

وكانت مشاكل مصر المالية قد ازدادت نتيجة للخسائر الناجمة عن الثورة العرابية وخراب الأسكندرية وحرائقها والتعويضات التى دفعت للوطنيين والأجانب ونفقات جيش الاحتلال والمرتبات الضخمة التى تدفع للموظفين الإنجليز . كل ذلك جعل الإنجليز أمام ميزانية لا يتمتعون إلا بأقل من نصفها فأرادوا أن تطلق يدهم فى شئون مصر المالية كما أطلقت بفضل الاحتلال فى شئونها السياسية والداخلية ، فقررت إنجلترا أن تعود إلى الدول لتعديل قانون التصفية والترخيص بعقد قرض لمصر لسد العجز فى ميزانيتها ، وبعث وزير خارجية إنجلترا فى ١٩ ابريل سنة ١٨٨٤ إلى فرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا وتركيا يطلب إليها عقد مؤتمر فى لندن للتفاوض فى شئون مصر المالية(٤) .

وتنتهز « الأهرام » الفرصة فتتحدث عن أن « المسألة المصرية إنما هى مسألة أوروبية عامة لايسوغ حل إشكالها إلا باتفاق أوروبى عام »(٥) . ويسافر مديرها إلى أوروبا فى مايو لموافاة الجريدة بأنباء المؤتمر المزمع

(١) المصدر السابق : فى ٥ ، ٧ يناير ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٥ فبراير سنة ١٨٨٤ .
(٢) المصدر السابق : فى ١٨ ، ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ .
(٣) المصدر السابق : فى أول مارس سنة ١٨٨٤ .
(٤) Cocheris : Op. Cit. p. 178.
(٥) جريدة الأهرام : فى ٧ يونيو سنة ١٨٨٤ .

عقده ، « وأول المبادئ التى يبحثها إقامة مراقبة أوروبية على المالية المصرية »(١) . فكأن « الأهرام » تعبر عما كانت فرنسا تحس به من خيبة أمل بعد أن عمل الاحتلال على إنهاء المراقبة الثنائية وتعيين مستشار مالى إنجليزى محل المراقبين الفرنسى والإنجليزى . ويجد بشارة المناسبة أمامه للحديث عن محاولة « إنجلترا تحميل الدول اللاتى لهن فى وادى النيل مصالح مهمة ، ولما كانت الجمهورية الفرنسية أرجح الدول مصلحة فى القطر المصرى وهن واكلات الأمر إليها فاختارتها إنجلترا دون سواها وافتتحت معها المخابرات بشأن اقتراحاتها وأخذت فرنسا تناضل عن حقوقها وتدافع عن شئون بقية الدول . هذا ولفرنسا امتياز تخولها إياه طبيعة الأعمال المصرية لأرجحية مصلحتها فى مصر »(٢) .

واستمرت «الأهرام» تبث الأمل فى عقد الاتفاق بين البلدين وتعارض الشائعات التى تتردد عن توقف المخابرات بينهما ، بل لقد أثبتت أن الاتفاق تم ، « وقد كنا على يقين من قبول إنجلترا بمطالب فرنسا »(٣) .

ولكن «الأهرام» كانت قد جاوزت حد الآمال إذ أن المؤتمر المنعقد فى لندن لم يصل إلى أية نتيجة ، وكانت فرنسا قد انتهزت الفرصة وأعربت عن رغبتها فى المفاوضة فى مسائل أخرى إلى جانب المسألة المالية ، وكانت ترمى بذلك إلى تحديد أمد الاحتلال . ولكن إنجلترا لم تكترث لذلك وفشل المؤتمر(٤) . « وأصبحت مصر ألعوبة تقذف بها إنجلترا إلى فرنسا وهذه إلى الدول والدول إلى المستقبل »(٥) . وكان تقلا قد تقابل مع جول فرى رئيس الوزارة الفرنسية الذى أوضح له « أن فرنسا لم تنظر فى المسألة إلى مصلحة نفسها بل إلى مصالح الدول عموماً ، وقلت له إن آمال مصر وطيدة

(١) المصدر السابق فى ١٠ يونيو سنة ١٨٨٤ .

(٢) المصدر السابق فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٤ .

(٣) المصدر السابق : فى ٨ ، ٩ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢١ يونيو ، ٥ يوليو ١٨٨٤ .

(٤) Cocheris : Op. Cit pp. 182-187.

(٥) جريدة الأهرام فى ٤ ، ٦ أغسطس ١٨٨٤ .

بعدالة فرنسا خصوصاً ، والمصريون يثقون أن يحفظ بلادهم من مطامع إنجلترا تصان مصلحة فرنسا »(١) .

تحول موقف الصحافة المصرية الموالية لفرنسا عن تأييد الاحتلال

يعد انفضاض مؤتمر لندن عام ١٨٨٤ دون الوصول إلى أية نتيجة بداية للتحول فى موقف فرنسا إزاء الاحتلال الإنجليزى لمصر ويرسل بشارة تقلا سالة عن مقابلته للمستشارين الماليين وبعض السفراء وأنهم أعربوا له عن « أن سلوك إنجلترا سيعود عليها بوخامة العاقبة . وإذا تفحصنا ما رامت أن تدخله فرنسا من التحويرات على لائحة إنجلترا وجدناه موافقاً لمصر وللدول ولإنجلترا »(٢) .

وبذلك يعد عام ١٨٨٤ بداية تطور هام فى سياسة فرنسا وتسجل جريدة الأهرام هذا التطور فتتخذ موقف المعارضة من الاحتلال تتلمس ما فيه من مواضع للنقد فتكشف الستار عنها كموقف رجال الاحتلال الذين ناصروا وكيل وزارة الداخلية الإنجليزى (كليفورد لويد) ضد الوزير المصرى محمد ثابت باشا ، وأعلنت « الأهرام » أن رجال الاحتلال هم الذين خلقوا هذه الأزمة(٣) .

لذا لم يكن غريباً أن يصدر مجلس النظار قراراً بتعطيل « الأهرام » شهراً مستنداً فى قراره إلى ما صدر بعدد « الأهرام » فى ١١ أغسطس ١٨٨٤ مما يخل بالنظام العمومى(٤) . ومن تحليل هذا العدد نجد ثلاث مقالات : إحداها توضح سياسة « الأهرام » منذ نشأتها ودفاعها عن مصر والدولة العثمانية ومعارضتها للسياسة الإنجليزية . والمقالة الثانية رسالة من تقلا أرسلها من لندن يهاجم فيها تصرفات بارنج بإزاء مسألة كليفورد لويد والتنديد بسياسة بارنج فى مصر بوجه عام . أما المقالة الثالثة فكانت اعتراضاً على نشر قانون البوليس فى الوقائع المصرية قبل عرضه على مجلس شورى القوانين .

---

(١) المصدر السابق فى ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٤ .
(٢) المصدر السابق فى ١٥ أغسطس سنة ١٨٨٤ .
(٣) المصدر السابق فى ١٠ مارس ، ٤ إبريل ١٨٨٤ .
(٤) الوقائع المصرية فى ٢١ أغسطس ١٨٨٤ .

وقد أثار إغلاق «الأهرام» أحداثاً جساماً فى الرأى العام الذى شهد معركة رائعة بين نوبار باشا والإنجليز من ورائه ، وجريدة الأهرام والقنصلية الفرنسية من خلفها ، وتروى الأهرام قصة إغلاقها قائلة إنه «بعد إصدار هذا القرار يلوح أنه تراءى لدولتلو نوبار باشا أحد أمرين : إما أنه ظن بكون صاحب الأهرام لا يقبل الأمر لأنه ظالم من جهة وعلى غير مجراه القانونى من جهة أخرى ، وإما أنه ظن بكون الذنب من خوارق العادة فرام أن يقابله بأمر خارق للعادة . وبناء على ذلك استدعى إليه مفتش بوليس مصر وسلمه أمر مجلس النظار بتعطيل «الأهرام» شهراً وألقى إليه أمراً شفاهياً بوجوب إقفال المطبعة بالقوة الجبرية لمدة شهر » . وقد حاول سليم تقلا الاحتجاج على دخول البوليس المطبعة وإغلاقها لأنه يحتمى بجنسية أجنبية ولكن البوليس أرغمه على مغادرة المطبعة(١) .

ويبعث قنصل فرنسا بكتاب إلى المحافظة يحتج على ما حدث ويوضح أن عمل الحكومة كله غير قانونى من جميع الوجوه وفيه من الظلم مالا يحتمله ، وهو اعتداء على كرامة القنصلية الفرنسية لا يقبل معه اعتذاراً كتابياً أو شفوياً قبل أن تفتح المطبعة بحضور ممثل القنصلية ثم يهدد المحافظ بأنه سيكتب للقنصل العام فى القاهرة ليطلب الاعتذار الرسمى على إهانة السيادة القنصلية التى صدرت عن السلطات المحلية وأرسل القنصل خطاباً مماثلاً لوزير الداخلية . ويبعث محافظ الأسكندرية ببرقية إلى وزير الداخلية موضحاً مطالب صاحب «الأهرام» وطلبه فتح المطبعة فى غضون نصف ساعة ، بيد أن الوزير أمر المحافظ بتنفيذ التعليمات على ضوء ما أرسل إليه من رئيس الوزراء ، ويبدو أن القنصلية الفرنسية عجزت عن أن تحول دون تعطيل «الأهرام» فأوعزت إلى صاحبه بإقامة الدعوى على الحكومة أمام المحكمة المختلطة فى ٢٧ أغسطس ١٨٨٤ غير أن هذا الموضوع لم يقض فيه(٢).

ومنذ ذلك الحين أصبحت لهجة الحكومة الفرنسية والصحافة الفرنسية

(١) جريدة الأهرام فى ٢٢ سبتمبر ١٨٨٤ .

(٢) إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ١٤١ ، ١٤٢ (نقلا عن محفوظات الداخلية ملف ١١-٢-٩٤٦ج ١)

متهكمة لاذعة ثائرة ساخطة عند حديثها عن شئون مصر(١) ، واتبعت فرنسا سياسة عدائية ضد الاحتلال الإنجليزى استمرت طوال العشرين عاماً التالية (حتى توقيع الاتفاق الودى عام ١٩٠٤)(٢) . واتجهت السياسة الفرنسية إلى محاولة الأخذ بيد الحركة الاستقلالية فى مصر(٣) . وكانت الصحف أداة صالحة لإثارة الشعور الوطنى وبث روح الحرية فى النفوس ونشر الدعاية ومحاولة كسب عطف الدول التى نالت حريتها واستقلالها(٤) ، والواقع أن فرنسا كانت تؤيد ثورة المصريين وسخطهم ومن الموقدين لناره عن عمد(٥) .

وكان من الطبيعى إذن أن تساعد فرنسا بعض الصحفيين المصريين على إصدار صحف لهم فى باريس ، وكان على رأس هؤلاء يعقوب ابن صنوع الذى أصدر عدة صحف بباريس تميزت بطابعها الساخر ، وتعقبتها سلطات الاحتلال والحكومة المصرية لتمنع وصولها إلى القراء(٦) . كذلك صدرت فى باريس فى ١٣ مارس ١٨٨٤ صحيفة «العروة الوثقى» لمديرها جمال الدين الأفغانى ومحررها محمد عبده . وكانت مقالاتها فى الدفاع عن مصر تدور حول إثارة الرأى العام الإسلامى ضد إنجلترا ، وحث الدولة العثمانية على إخراج الإنجليز بالسياسة أو القوة ، ومحاولة إقناع فرنسا بمساعدة مصر(٧) . واستطاعت السلطات فى مصر القضاء على هذه الصحيفة بعد عدة اتصالات بالحكومة الفرنسية لمنع إرسالها عن طريق

---

(١) محمد صفوت : المرجع السابق ذكره ص ٧٥ ، ٧٦

(٢) Cromer : Modern Eg. V.I.p. 340, Newman : Op. Cit. p. 120, Zetland : Op. Cit p. 137.

عبد اللطيف حمزة : على يوسف (أدب المقالة جـ ٤) ص ٣٠ ،

(٣) صبحى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية ص ١٧٨ .

(٤) يوسف دسوقى : فى الصحافة ص ١٧ .

(٥) قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ذكره ص ١٢٨ ،

Stoddard L : Op. Cit. p. 150.

(٦) إبراهيم عبده : أبو نظارة ص ٧٨ ، ٧٩

(٧) جريدة العروة الوثقى من مارس إلى أكتوبر ١٨٨٤ .

البريد ، فامتنع ورودها إلى مصر واختفت منذ ٢٦ أكتوبر عام ١٨٨٤(١) .

ولما كان احتلال فرنسا لتونس قد حدث قبل احتلال إنجلترا لمصر بعام واحد فقد كان من الطبيعى أن تنشأ مقارنة بين الاحتلالين : فالصحف الموالية لفرنسا تؤيد احتلال تونس بينما الصحف الموالية لإنجلترا تؤيد الاحتلال الإنجليزى .

واستخدمت الصحف التى تميل إلى فرنسا وسيلة لمناهضة الاحتلال الإنجليزى تعتمد على محاولة إظهار الاستعمار الفرنسى فى تونس والجزائر بمظهر النعمة التى أرسلتها العناية الإلهية لهذين القطرين . فتقول الأهرام « لا تمر بضع سنين حتى تصبح تونس من أثرى البلاد الإفريقية بعد سن القوانين وإنشاء المجالس والمدارس الفرنسية »(٢) . وأشادت « الأهرام » بفضل فرنسا فى تونس « ويقر المتأمل بجميلها على تلك البلاد فى البرهة اليسيرة التى حلت بها »(٣) . بل لقد تحدثت « الأهرام » عن عدم شرعية السيادة التركية على تونس « وأن الدول لم تعترف بهذه السيادة ، وأن بسمارك يعضد فرنسا فى سياستها »(٤) .

الصحف الموالية لانجلترا تهاجم فرنسا

وكانت فرصة انتهزتها الصحف الموالية للاحتلال ووجدت فيها ثغرة للعمل على تحطيم سمعة فرنسا ومحاولة رفع سمعة إنجلترا بين العالم الإسلامى والعربى « فلكل أمه علامة تعرف بها ومن بين أمم أوروبا أمة معروفة بهوجها وهذرها ، فالفرنسيون ينقمون على الإنجليز احتلالهم القطر المصرى

(١) إبراهيم عبده : تطور الصحافة ص ٢٥٤

(٢) جريدة الأهرام فى ١٢ يناير ، ١١ ، ١٤ ، ١٩ مايو ، ٢٨ سبتمبر ، ٢١ نوفمبر ، ١٣ ديسمبر ١٨٨٣ ، ١٢ يناير ، ١٥ إبريل ١٨٨٤

(٣) المصدر السابق فى ٢٣ إبريل ، ١٤ ، ٢٢ ، ٢٤ مايو ، ٩ ، ١٠ ، ١١ يونيو ، ٢١ أكتوبر ١٨٨٤ ، جريدة الصادق فى ٢٠ سبتمبر ١٨٨٦ ، ١٤ فبراير ١٨٨٧ ، جريدة الفلاح فى ٤ نوفمبر ١٨٨٦ ، ٧ سبتمبر ١٨٨٧ ، ٤ فبراير ١٨٨٨ .

(٤) جريدة الأهرام فى ٩ أغسطس ، ٢٩ نوفمبر ، ٩ ديسمبر ١٨٨٤ ، ١٣ ، ١٨ يناير ١٨٨٥ ، ٢ ، ١٣ فبراير ١٨٨٦ وغيرها .

وينسون أنهم هم الذين أهاجوا الإنجليز على التداخل فى أمور المصريين . وكبر عليهم أن يروا الإنجليز الآن فى مصر وهم محرومون منها ، ولم يكبر عليهم أنهم استولوا على تونس غصباً واختلاساً للسلطان ، نعم كبر عليهم دخول الإنجليز بلادنا ولكن أى شيء صنعوا وأى عهد نقضوا ، فخديوينا خديوينا ومحاكمنا ووزراؤنا بيدهم الحل والربط ، وأما فى تونس فالحال تبدلت ، وإذا أبى الفرنسيون إلا خروج الإنجليز من مصر فليبتدئوا هم بالخروج من تونس »(١) .

ووجد الإنجليز فى محمد بيرم الخامس التونسى أصلح الأشخاص للرد على فرنسا والصحف المؤيدة لها ، فهو هارب من الاستعمار الفرنسى لبلاده « تونس » وهو صاحب جريدة تحاسن الإنجليز هى «الأعلام» ، وهو ناقم على فرنسا من صميم قلبه(٢) . وقد طفحت « الأعلام » بالمقالات المناوئة لفرنسا منذ صدورها فى يناير سنة ١٨٨٥ ، وتولت عن الإنجليز مهمة تفنيد أقوال الصحف التى أيدت الاستعمار الفرنسى فى الجزائر وتونس . وكانت طريقة بيرم فى المزج بين الدين والسياسة وسيلة بارعة فى التلاعب بأفئدة القراء الذين يستهويهم هذا الصنف من الكتابة التى تصل إلى أعماقهم ويقول إن « هذا الأمر وهو مجاراة الصحف للديانة والشريعة جار فى سائر الممالك المتمدنة ، ولم نر صحيفة تنحو منحى الملاءمة بين الشريعة والسياسة مع كون هاته المملكة جديرة بمثل ذلك حيث كانت من أعظم ممالك الإسلام »(٣) . ويرى بيرم أن الاستعمار لا محيص عنه إذا كانت هناك دول قوية وأخرى ضعيفة « فلايسع الضعيفة إلا السكون والاستسلام للقضاء ، وأغلب شطوط إفريقيا الشمالية قد جرى عليها الحكم من الأزل أن تكون خاضعة لغيرها ، وعقلاء الأمة الخبيرون بأغوار السياسة لا يكرهون احتلال الإنجليز لما يرونه من المنافع لبنى جنسهم على أيدى الإنجليز »(٤) .

---

(١) جريدة الزمان : فى ١٣ مايو ، ١٥ يونيو ، ٢٨ يوليو ١٨٨٣

(٢) جورجى زيدان : مشاهير الشرق جـ ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧

(٣) جريدة الأعلام : فى ١١ يناير ١٨٨٥

(٤) المصدر السابق : فى ١٩ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣١ يناير ، ٢٥ فبراير ١٨٨٥

وكان محمد بيرم يخصص الصفحة الأولى من « الأعلام » للمقالات ضد فرنسا واستعمارها لتونس وتأييد إنجلترا واستعمارها مصر والبلاد الإسلامية ، وكانت هذه المقالات تزيد عن صفحة بأكملها فى العدد بل أحياناً تأخذ صفحتين كاملتين من الجريدة(١) . ويحس بيرم نفسه بأن حديثه عن تونس والجزائر يستغرق جزءاً كبيراً من الصحيفة « وربما يقال بالنسبة لأهل هذا القطر مالنا لم نكن نطلع على مثل الأخبار الواقعة فى كل من القطرين المشار إليهما ، فلما رأينا أن كشف القناع عن أخبار أمة مسلمة هى بالنسبة لأهل هذا القطر كالجسد الواحد وأن أهم واجبات الإسلام الرابطة لأهالى أقاصى الأرض المسلمين ببعضهم ، رأينا أنه بتعرف أحوال بعضهم تحصل فوائد جمة »(٢) . وتنشر « الأعلام » ادعاء وزير خارجية فرنسا فى معارضته اتفاقية وولف بين الباب العالى وإنجلترا ، وأن ذلك « إنما هو مراعاة لحقوق دولة فرنسا (الإسلامية) ، فإن فرنسا لما كانت مستولية على ستة ملايين من المسلمين لزمها مراعاة حقوقهم ، ولا شك أن بقاء الإنجليز فى مصر مما يسىء تلك الأمة الإسلامية . لذلك سعت فرنسا فى إخراج الإنجليز من مصر لإرضاء رعاياها من المسلمين » ، ويرد بيرم على ذلك الادعاء بسؤال وزير الخارجية الفرنسية « هل المسلمون الذين يشير إليهم راضون ببقائهم تحت سلطة فرنسا ، أم أنهم يقيسون أنفسهم بمقياس إخوانهم المصريين ؟ فإذا كان كذلك فلماذا لا تسرع فرنسا لإرضائهم أولاً بإرجاع استقلالهم إليهم ، وإلا ينفتح الباب لإنجلترا التى هى قيصرة ٥٠ مليوناً من المسلمين ، فإرضاء لهم وإجلابا لخاطرهم تسعى فى إخراج فرنسا من تونس والجزائر والسنغال وغيرها »(٣) .

ويجد «المقطم» هذا الموضوع مناسبة للإشادة بالاحتلال الإنجليزى لمصر وتشويه سمعة فرنسا بين المصريين الذين « كانوا يتمنون لو أتيح لهم

---

(١) المصدر السابق : فى أول ، ٣١ مارس ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ يونيو ١٨٨٥

(٢) المصدر السابق : فى ٢ يوليو ١٨٨٥

(٣) المصدر السابق : فى ١١ أغسطس ١٨٨٧ — الواضح أن كلمة « الإسلامية » يقصد بها وصف « حقوق » وليست وصفاً لفرنسا .

نصيب أهل تونس والجزائر حيث الأهلون يرتعون فى بحبوحة ونعيم ، ويديرون أمورهم بأنفسهم لا يزاحمهم الأجنبى المحتل لبلادهم على عيشهم أو مناصبهم ومراتبهم ، إلى غير ذلك من أضغاث الأحلام وترهات الأوهام التى كانوا لا يطالعون سواها فى صحائف الأخبار . أما الآن وقد سمعوا ما قرره مجلس التجارة الفرنسوى عن سوء الأحوال فى تونس والتضييق على أهلها وسومهم الذل والخسف ومسابقة المحتلين لهم على مناصب بلادهم وأطايبها ولذاتها وخيراتها فقد علموا أنهم كانوا فى ضلال مبين . وأن مجلس التجارة الذى قضى الأيام باحثا عن حقيقة الأحوال لم يقرر إلا الواقع لا سيما وأن رجاله كلهم من الفرنسويين المشهورين بنصرة قومهم ومحبة وطنهم » (١) . ويحاول المقطم بيان سوء أحوال الجزائر على عهد الفرنسيين وتدهور التجارة الوطنية وسوء حالة العلم والمدارس بينما « نسمع بإنشاء السكك الحديدية فى مصر وتعميم المنافع العمومية بها . فليتدبر العاقل هذا الكلام ويقابله بما كان يطالعه من أضغاث الأحلام » (٢)، أى بما تنشره صحيفة «الأهرام» إذ كان يطلق عليها المقطم « صحيفة أضغاث الأحلام»: وتقول جريدة المقطم إنه بينما يضج الأهالى بالشكوى من القضاء فى الجزائر ويرفع القضاة هناك شكوى إلى وزير العدل « ليرفع عن المسلمين هذا الضرر .. وأن يرد الشيء إلى أصله وهم قضاة المسلمين ، نجد أنه لما تكلم السير بارنج عن المحاكم الشرعية فى القطر المصرى أكد أنه لا يحسن بل لا يمكن أن يتعرض أوروبى أو مسيحى على الإطلاق لهذه المسألة . وليقابل المنصفون بين سياسة الحكومة الإنجليزية والحكومة الفرنسوية ومقاصد الاثنتين »(٣) . وفى مقالات مسلسلة «لعثمانى فاضل» بعنوان : احتلال فرنسا لتونس وإنجلترا لمصر وأعمال المحتلين فى البلادين ، يتحدث المقطم عن «سوء الإدارة والتصرفات الفرنسوية فى تونس ، والأهالى يعانون فى القضاء وسائر الشئون ، وقد تعهدت فرنسا بالجلاء عن تونس

(١) جريدة المقطم فى ١٩ مايو ، ٢٠ يونيو ، ٢٦ سبتمبر ١٨٩٠

(٢) المصدر السابق فى ١٥ يناير ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ يوليو سنة ١٨٩١

(٣) المصدر السابق فى ٣١ أغسطس ١٨٩١

كما تعهدت إنجلترا بالجلاء عن مصر ، وقد أخلفت فرنسا وعدها وأما إنجلترا فلا تزال مقيمة عليه » (١) .

ويقول المقطم إن « قنصل فرنسا الجنرال شكا لرئيس النظارة المصرية من تحامل المقطم على فرنسا مع أننا لم نورد سوى التاريخ . أليس الفرنسيون هم الذين احتلوا مصر ثم تونس والجزائر . ونحن نورد ذلك إثباتاً لرأينا وهو أن الدولة العلية لا تركن بعد ذلك إلى مخالفة فرنسا » (٢) .

وتنتهز الصحف سوء الحالة المالية فى مصر ومحاولات الاحتلال لتحسينها فتحمل على فرنسا بدعوى أنها تقف أمام هذه المحاولات « وكان اللازم على فرنسا الراغبة فى سعادة المصريين أن تسعى فى ذلك وتساعد عليه ، وليست هذه أول مرة تعارض فيها فرنسا أعمال إنجلترا فى مصر » (٣)

ورأى كرومر أن يعمل على تحويل الدين الممتاز وتحويل دين الدائرة . السنية ودين الدواوين وبدأت المفاوضات منذ ١٨٨٩ وسارت متعثرة لتباطؤ فرنسا على التصديق « وأمست الدوائر المالية عندنا فى قلق من هذا التباطؤ . والمتفق عليه أن دولة روسيا لم تتأخر إلا مجاراة لفرنسا ، وهذا الإبطاء ضرر ذميم »(٤) . ويعتمد « المقطم » على مناقشات مجلس النواب الفرنسى فى بيان التقدم الذى أصاب مصر تحت مراقبة الإنجليز ولكن «الاحتلال أضر بتجارة فرنسا وما أحرى جرائدنا العربية التى جعلت مدح فرنسا ديناً ومذهباً أن تقتدى بالفرنسيين أنفسهم فى الإخلاص ، ولكنها أبت إلا مخالفة الحق الواضح وإقناع الناس بما لا يطابق الواقع » . (٥) ثم تعقد الصحيفة المقارنة بين مصلحة فرنسا ومصلحة مصر « وأنهما على النقيضين فإن كانت فرنسا تراعى مصلحة مصر أقل المراعاة وجب أن تترك

---

(١) المصدر السابق فى ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ نوفمبر ، ٢١ ديسمبر ١٨٩١

(٢) المصدر السابق فى ٢٣ مايو ١٨٩٠

(٣) جريدة الأعلام فى ٣١ يناير ١٨٨٥

(٤) جريدة المقطم فى ٢ ، ٧ ، ٩ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٢ ، مايو ، ٤ ، ٦ ، ١٠ ، ١١ يونيو ١٨٨٩ .

(٥) المصدر السابق فى ١٣ يونيو ١٨٨٩

مسألة تحويل الدين جانباً ولا تحرمها الربح وإذا صح أن فرنسا لا تصدق على تحويل الدين إلا بشرط جلاء الإنجليز فالنتيجة خسارة لمصر على الحالين » (١) . وهكذا تحاول الجريدة إظهار مدى الخسارة التى تلحق بالبلاد من عدم تصديق فرنسا . وفى الوقت نفسه تظهر الاحتلال بمظهر القوة الدافعة لتقدم مصر . وتنتهز مناسبة موافقة «الأهرام» (٢) على الفائدة التى ستعود على مصر إذا وافقت فرنسا على التحويل فيعلق المقطم على ذلك قائلاً إنه « لايغرب أن هذا اقتناع محرر من أعظم المتطرفين فى الانتصار لفرنسا المغالين فى مدحها . فإن كان هو يسلم من حيث لا يشعر بأن فرنسا أثبتت بمنعها التحويل أنها لا تخلص لمصر النية ولا تحسن نحوها المقصد فمن ذا الذى ينكر ذلك بعده ، وترى أنصار فرنسا بعد ما يقرون الحقيقة من حيث لا يدرون يعودون فيوهمون البسطاء بأن فرنسا ما فعلت ذلك إلا حبا بمصر ورغبة فى خيرها » (٣) . وتحاول صحيفة الوطن المؤيدة للاحتلال مهاجمة فرنسا لأنها « هى التى أنشأت الدين المصرى فإن سبب ديون مصر هو إنشاء ترعة السويس والسكك الحديدية ، وكان الأولى لها أن لا تعلق مسألة تحويل الدين على مسألة الانجلاء فإنها لا تقدر أن تلزم إنجلترا بالانجلاء ، ولا يصح حرمان مصر من فوائد هذا التحويل » (٤) . ويأتى «المقطم» المصريين من ناحية شديدة الحساسية جداً «إذ أن الشكوى الأولى هى ثقل الضرائب ، وهذا ما أجمع عليه الكل بينما عارضته فرنسا منذ مؤتمر لندن عام ١٨٨٤ ، ولولاها لوافقت الدول على تقليل ديون مصر وتخفيض خراج أراضيها » (٥) . ثم يتابع مقالاته بأن الدولة العلية والدولة الإنجليزية أيدتا الحكومة المصرية وطلبتا تخفيض الأثقال عن الفلاح والرفق بالوطنى ، أما فرنسا فانبرت لمعارضة مصر ، وحرمتها اقتصاد نصف مليون جنيه كل

---

(١) المصدر السابق فى ١٩ ، ٢٨ يونيو ١٨٨٩

(٢) جريدة الأهرام فى ٢٨ يونيو ١٨٨٩

(٣) جريدة المقطم فى ٢٩ يونيو ، ٦ ، ٨ ، ٩ يوليو ، ١٢ ، ٢٠ أغسطس ١٨٨٩

(٤) جريدة الوطن فى ٢٧ يوليو ١٨٨٩ ، ٢٦ فبراير ، ٢٧ سبتمبر ١٨٩٠ ، ١٨ مارس ١٨٩١ .

(٥) جريدة المقطم فى ١٦ سبتمبر ١٨٨٩

سنة ونصرت أرباب الديون من الأجانب ، ووقفت موقف الخصم المقاوم لتخفيف الضرائب وتقليل الفوائد (١) . وتحاول «الأهرام» أن تجد منفذاً تعتمد عليه فى دفاعها عن موقف فرنسا وتستشهد لذلك بأقوال «الوطن» فى الدفاع عن الفقير والفلاح « وأننا نتمنى لو حذت سائر الجرائد حذوها(٢) » ويرد المقطم بأنه إتماماً لإشارة «الأهرام» ننقل عن جريدة الوطن فقرة أوردتها فى آخر أعدادها أثناء كلامها عن الفلاح فتقول « حاول الإنجليز فى عهد غلادستون تخفيف أحمال الفلاح ولم يفوزوا بسبب تعنت فرنسا »(٣). وتنتهى مقالات المقطم إلى إظهار مدى «التحسن الذى أصاب مصر وماليتها منذ ١٨٨٢ أى منذ إخماد الثورة العرابية واحتلال الجنود الإنجليزية . وقد كثرت الأموال التى أنفقت على الأعمال النافعة . وأن فرنسا رفضت بإرادتها واختيارها أن تتدخل فى رد الهدوء والنظام إلى مصر فاستأثرت إنجلترا بذلك وعزمت أن لاتعود عن عملها هذا حتى تتمه إلى نهايته بالحزم والتأنى » . (٤)

وتتناول صحيفة المؤيد الموضوع فتؤدى بطريقة غير مباشرة خدمة للاحتلال إذ تعارض فى عدد من المقالات فرنسا وموقفها من الاحتلال ، «وبينما نرى فرنسا تطلب وفاء إنجلترا بوعد الجلاء لا نراها تساعد عملاً فى تقدم البلاد مادياً وأدبياً ، لأنها لم تساعد مصر فى تحويل الدين الممتاز ليكون لها حجة العضد فى سبيل الإصلاح » . (٥) ومع أن فرنسا وافقت فى شهر مايو ١٨٩٠ على تحويل الدين وصدرت فى يونيو المراسيم الخديوية بالتصديق ، (٦) فإن المقطم يحاول الإساءة لفرنسا فيقول إنه « لم يخف على أحد من عقلاء المصريين أن معارضة فرنسا للتحويل ثم موافقتها لم تكونا

(١) المصدر السابق فى ١٧ ، ١٨ ، ٢٣ سبتمبر ١٨٨٩ ، ٤ يناير ١٨٩٠

(٢) جريدة الأهرام فى ١٧ يناير ١٨٩٠ ، جريدة الوطن فى ١٦ يناير ١٨٩٠؛

(٣) جريدة المقطم فى ١٨ يناير ١٨٩٠

(٤) المصدر السابق فى ١٠ فبراير ١٨٩٠

(٥) جريدة المؤيد فى ٢٨ إبريل ١٨٩٠

(٦) Cocheris : Op· Cit pp. 240, 241.

إلا بالنظر إلى مصلحتها الخصوصية ، وأنها ما تساهلت مع مصر فى توسيع نطاق التمويل إلا رغبة فى إحراز ما تستطيع من منفعة لقومها»(١). وينتهى من الحديث عن تحسن المالية وثقة الأمم الأوروبية فى حالة مصر إلى وجوب استمرار الاحتلال وألا تترك أمورها لنفسها إذ أن «مصالحها حاصلة وخيرها مقرر لأهلها ، وإنما الاحتلال يسوء فرنسا لأنه يقطع آمالها من مصر وينفى نفوذها منه » . (٢)

وفى الوقت نفسه دأبت الصحف الموالية للاحتلال على محاولة نشر أنباء تحط من قدر فرنسا « إذ اشتهر عموم الفرنسيين بعدم الاكتراث بالدين ولا ننكر ما نتج عن الثورة الفرنسية من الإصلاح ، ولكن لا ينكر أحد ما نتج عنها من البوار والدمار . ونجد الإنجليز أدخلوا الإصلاحات فى بلادهم قبل الفرنسيين بأكثر من مائة سنة ولكنهم لم يقترفوا شيئاً من المنكرات التى اقترفها الفرنسيون .. ولم يقوموا على بعضهم بعضا بالقتل»(٣). بل إن المصاعب التى تواجه مصر والضنك والضيق مما قضى بالاقتصاد وأضر بالمالية ليس بشىء بالنسبة إلى عسر مالية فرنسا « ومن نظر إلى مصيبة غيره هانت عليه المصائب » (٤) . وتنصح صحيفة الوطن المصريين بعدم الاهتمام بما يصدر من تصريحات فرنسية «لأن الإنجليز دائبون على العمل ولا يبالون بالجعجعة الفرنسية بل هم مستمرون فى هدم النفوذ الفرنساوى ، ولا حيلة للفرنسيين سوى الأقوال أما الإنجليز فيجيبونهم بالأعمال » (٥) .

ولم يعدم المقطم وسيلة إلا طرقها للإساءة إلى فرنسا وكثيراً ما تحدثت الصحيفة عن حوادث المشاجرات والضرب بين نواب فرنسا ، وتقول إنها « تشبه عندنا مهارجة العجماوات ومواثبة صغار المخلوقات» (٦) .

(١) جريدة المقطم فى ٣٠ مايو ١٨٩٠
(٢) المصدر السابق فى ١٦ ، ١٩ يونيو ١٨٩٠
(٣) جريدة الوطن فى ١٨ مايو ١٨٨٩
(٤) المصدر السابق فى ٩ يناير ١٨٨٩
(٥) المصدر السابق فى ٢٧ مايو ١٨٩١
(٦) جريدة المقطم فى ٤ يوليو ١٨٨٩

وتتهكم الصحيفة ببرلمان فرنسا إذ «يسمع الإنسان بمجالس شورى الدول فيتوهم أنها فى منتهى الرصانة والرزانة ولكن لا يلبث أن يطلع على حوادث لها تؤكد أن الإنسان حليف الضعف والقصور . ونحن أهل الشرق نعترف بتأخرنا وقصورنا ، لكننا مع اعترافنا للفرنسيين بالسبق نشكر الله أن أعياننا ونوابنا يترفعون عن المقارعة والمضاربة والمشاتمة فى وسط المجالس المعقودة للنظر فى خير البلاد » . (١)

وإذ تتحدث « الأهرام » عن قوة فرنسا فتعترف بأنها الثانية فى البحر بعد إنجلترا(٢) ، فيجد «المقطم» تلك فرصة للحديث عن قوة إنجلترا وضعف الدول الأخرى وأنه على رأس الدول التى لا تملك قوة هائلة دولة فرنسا(٣). بل تتحدث « اللطائف » زميلة المقطم ، عن زيادة معدل الوفيات فى فرنسا ونقص عدد المواليد فيها وأنه « إذا دامت الأحوال كما هى عليه الآن تقلص ظل الفرنسويين وانقطع دابرهم فى أجل لا يزيد على خمسة قرون »(٤) .

ونجد صحيفة الوطن فى الهجوم على الصحف المعارضة للاحتلال فرصة لإظهار مساوئ فرنسا وتقدم الإنجليز فتقول إن « الملوك كانوا يشترون الجرائد وبالأحرى أربابها أما الآن فبطلت هذه العادة فى إنجلترا بل انقطع دابرها . أما فى فرنسا فإذا حرر أحدهم مقالة وقعت عند ولاة الأمر موضع القبول دفعوا للمحرر ، لذا كانت جرائدهم قصيرة العمر . وهذا بخلاف الإنجليز فإنهم منزهون عن مثل هذه الدنايا مادام الحق فى تلك البلاد هو أروج بضاعة والجرائد أحسن صناعة » (٥) .

التشهير بالصحف الموالية لفرنسا

وتحاول الصحف المؤيدة للاحتلال أن تسىء إلى الصحافة المناوئة له

(١) المصدر السابق فى ١٥ أغسطس ١٨٨٩ ، ٦ فبراير ١٨٩٠ ، ٢٢ يناير ١٨٩٢
(٢) جريدة الأهرام فى ٢٦ ، ٢٩ يونيو ١٨٨٩
(٣) جريدة المقطم فى أول يوليو ١٨٨٩
(٤) مجلة اللطائف فى ١٥ إبريل ١٨٩٠
(٥) جريدة الوطن فى ٥ فبراير ١٨٩٠

والتى تؤيد سياسة فرنسا . ولم يكن عدد واحد من أعداد « النيل » (١) أو « المقطم » يخلو من ذلك الهجوم الذى قد يكون بصورة عامة تشمل هذه الصحف جميعاً وقد يخصص إحداها وكانت فى أغلب الأحيان «الأهرام» التى « زها أصحابها لسكوتنا عن اختلاقاتها ، فجعلوا يطعنون على المقطم وإن كل من عرف الأصول وأخلاق مدير «الأهرام» يحمل أقواله على الكذب والأمل أن القراء لا ينخدعون بأكاذيب «الأهرام» لخجله من تأخره وانحطاطه وحسده الجرائد على تقدمها لاسيما وقد نبذته الحكومة ظهريا وعدته شيئاً فرياً »(٢) . ويحاول « المقطم » القضاء على انتشار « الأهرام » بين الأهالى وهو فى الوقت نفسه يكشف عن الأساليب التى اتبعتها السلطات للوقوف فى وجه « الأهرام » والصحف المناوئة : « فإن الدائرة السنية لما تحققت انحطاط شأن «الأهرام» وترك العقلاء لها وتحلقهم بمطالعة غيرها وامتناع المصالح الشهيرة عن تخصيصها بالإعلانات كمصلحة السكة الحديد وديوان الحربية حذت حذوها فقطعت عنها المدد المالى وأبت تمييزها بشىء مما كانت تخصها بها دون غيرها من الجرائد ، ذلك لأن هذه الجريدة الفريدة (غوث المرهق والمظلوم ونصير الفقير ولسان حال الرأى العام) ، وهى تندد على الحكومة المصرية عموماً ورجال المالية خصوصاً لأنهم خانوا الوطن فقطعوا عنها نحو ألف جنيه سنوياً لينفعوا بها الفقير ويخففوا الضرائب ، ولو عدلوا لزادوا لها الألف ألفين فكان الوطن ينجح ويفلح . أطال الله بقاء مديرها حتى ينشر الأكاذيب فى جريدة الكذب الفرنسية » (٣) .

ويعترف « المقطم » بأن إنشاءه وانتشاره كان تعادلا فى ميزان المباحث السياسية « فقد كانت « الأهرام » راجحة فى كفة الأخبار قبل وجود «المقطم» ومستأثرة بالرأى ، ولو بقى « الأهرام » صادق الطوية حسن المبدأ سالكاً

(١) جريدة النيل فى ٢٤ ، ٣١ ديسمبر ١٨٩١ ، ١٢ ، ١٤ ، ٢٥ فبراير ، ٢٤ يوليو ١٩٢٨ .

(٢) جريدة المقطم فى ٨ يناير ١٨٩٠

(٣) المصدر السابق فى ١٤ يناير ١٨٩٠

خطة حميدة كنا مقيمين على حبه(١) ». وينادى المقطم بالقضاء على صحف المعارضة بوجه عام فمن قال بالمخالفة بين الصحف بمعنى أن ينشر فى كل صحيفة ما يلائم طريقتها وينافر خطة الأخرى أو أن يخطئ فى الواحدة مذهب الثانية فقد رضى لجرائد وطنه بالعجز عن بلوغ كمالات التحرير وسعى فى التفرقة والقطيعة »(٢) . بل إنه يحبذ الامتناع عن معاملة شركة هافاس الفرنسية للأنباء الخارجية باعتبارها شركة أجنبية تتناول كل عام ١٨٠٠ جنيه من الحكومة ، ويقول إن « الأمل أن المستشار المالى الذى اشتهر بحب الاقتصاد والتدبير والحرص على مال مصر أن ينظر إلى احتياج الكتاتيب وشدة افتقارها إلى المال ، فيمنع الإعانة المذكورة للشركة وحسب الحكومة تلغرافات روتر ، وهذا اقتصاد حقيق والغاية منه نفع الأهالى بمال هم أحوج إليه وأحق به »(٣).

الصحف تدعو الى الغاء الامتيازات لمنع تدخل فرنسا فى شئون مصر

ووجه كرومر اهتمامه للسعى إلى تخفيف أثر الامتيازات الأجنبية فى مصر حتى يحين الوقت المناسب لإلغائها باعتبار أنها من أكبر القيود الدولية التى تقف أمام محاولات الإنجليز لبسط سيطرتهم التامة على البلاد ، هذا إلى جانب استخدام الدول الأجنبية للمحاكم المختلطة وسيلة لعرقلة أعمال إنجلترا فى مصر ، وكذلك لاحتماء أصحاب الصحف فى مصر بالدول الأجنبية هرباً من عسف السلطات الحاكمة وبذلك يحصلون على حماية تخول لهم حق إصدار الصحف بعد تمتعهم بالامتيازات(٤) . لهذا كان كرومر يرى ضرورة إلغاء الامتيازات الأجنبية وإيجاد نظام آخر يحل محلها يشترك فيه الأجانب فى حكم البلاد إلى حد يجعل لصوتهم أثراً مسموعاً ، « إذ أن الأجانب المقيمين فى مصر لا يمكن اعتبارهم أجانب بالمعنى الذى ينصرف إلى الفرنسى المقيم بإنجلترا أو الإنجليزى المقيم بفرنسا ، وتقتضى السياسة الصحيحة والعدل أن يعد هؤلاء الأجانب

(١) المصدر السابق فى ١٣ سبتمبر ١٨٩٠

(٢) المصدر السابق فى ١٩ مارس ١٨٩١

(٣) المصدر السابق فى ١٧ ، ٢٤ يونيو ١٨٩١

(٤) Cromer :Abbas II. Introduction XIX, XX, Bourne: Eg. under B.C. p. 38.

مصريين»(١) . وفى الوقت نفسه كان كرومر يعتقد أنه من الممكن حل جميع المشاكل دون إثارة الدول بل ودون إثارة أية حركة عدائية تجر إلى حرب عالمية بسبب سياسة الاحتلال فى مصر(٢) . لذلك انصرف الإنجليز إلى مجاملة الدول الأوربية حتى لا توجس خيفة من احتلالهم البلاد ، وقد جعلوا نصب أعينهم أن يحلوا محل الأجانب جميعاً وبذا يجدون ذريعة للبقاء بمصر لا بالقوة الغشومة ولكن برضا الأجانب والمصريين جميعاً ، فإذا وصلوا إلى حق حماية الأجانب بمصر وحلوا فى الامتيازات محل الدول جميعاً سيطروا على مصر سيطرة كاملة ولو لم يكن بالبلاد جندى واحد إذا ما رأوا من صالحهم انتهاء الاحتلال العسكرى (٣) .

ويوضح « المقطم» دور إنجلترا فى الامتيازات إذ « يظن العامة أن الأوروبيين لم يكن لهم امتيازات ولم تعقد لهم عهود فى السلطنة العثمانية عموماً إلا فى السنوات الأخيرة ولا فى الديار المصرية إلا فى أيام الخديو السابق (إسماعيل) أو بعد دخول الإنجليز ، والحال أن هذه هى الأيام التى تجاهد فيها السلطنة العثمانية والحكومة المصرية بمعاونة الدولة البريطانية أن تثل عرش تلك الامتيازات من بلادها (٤)» .

وإلى جانب «المقطم» كرست جريدة «الاتحاد المصرى» المؤيدة للاحتلال عدداً من مقالاتها فى الدعوة لما يهدف الإنجليز إلى إتمامه « لتقرير المساواة بين الوطنيين والأجانب وهى أمنية المصريين وهى فى الواقع نقطة العدل وأهم مطالب الإنسانية . فقد رأينا الأقوام المتفرقين فى الأرض تسرى عليهم أحكام البلاد التى يأتونها ، وسيوضع مسعى الحكومة الإنجليزية لدى البلاد موضع الإجراء . وسيستمر هذا السعى إلى أن يتم إلغاء جميع الامتيازات . هذا هو واقع الأمر فإذا لم يكن للإنجليز عمل يحمد فى هذه الديار فكفانا

(١) Blue Books : Reports of Consul General. Egypt No. 1 (1904) pp. 8, 9, 127, 128.

(٢) Cromer : Modern Eg. V. II p. 341.

(٣) محمد عبد البارى : الامتيازات الأجنبية ص ٤١ ، ٤٢

(٤) جريدة المقطم فى ٢ أكتوبر ١٨٨٩

شكراً لهم سعيهم المتواصل فى محو آثار الامتيازات القديمة حتى يصبح الوطنيون مساويين للأجنبى (١) » .

واستطاع كرومر تعيين «سكوت» فى ١٤ فبراير ١٨٩١ كأول مستشار إنجليزى لنظارة الحقانية ، وكان « سكوت» قد قدم مشروعاً يهدف إلى إخضاع المحاكم الأهلية للإشراف الأوربى والعمل على إحلال إنجليز محل المصريين فى هذه المحاكم ، وحاول رياض الاعتراض ولكن الحكومة الإنجليزية أصرت على التعديلات (٢) . وبدأ المقطم يتحدث عن رياض وأنه ترك الزراعة التى يجنى من ورائها الخير إلى الوزارة « وصرت اليوم إذا جالسته ترى آثار الهم بادية على وجهه (٣) » . وأخذ يردد أنباء استقالته وأنه يكسب من زراعته أضعاف ما يكسب من الوزارة (٤) .

أما فرنسا فقد وقفت موقف المعارضة منذ تعيين سكوت ومحاولاته لتعديل نظام المحاكم الاهلية ، «والذى نظنه أن الاعتراض سحابة صيف ، وأن فرنسا لا تحرك ساكنا طبقاً لما قاله وزير خارجيتها من أنه لاحيلة لفرنسا فى إنجلترا بمصر بل يلزمها التربص حتى تتم إنجلترا عملها» (٥) .

وكان من الواضح أن ترقية المحاكم الأهلية تحت إشراف إنجلترا وتعيين قضاة إنجليز فيها يعنى القضاء تدريجياً على المحاكم المختلطة والامتيازات ، لذلك « وجه سكوت جل اهتمامه إلى تنظيم المحاكم الأهلية لترتع الرعية فى فى بحبوحة وأمان لأن الحقوق التى لها محفوظة ، ولا تتلاعب بها الأميال»(٦).

وفى هذا الميدان استطاع الإنجليز الحصول على تأييد صحيفتين من صحف المقاومة هما « الفلاح » و«المؤيد » ، ذلك أنهما رأتا فى القضاء على

---

(١) جريدة الاتحاد المصرى فى ٤ ديسمبر ١٨٩٠

(٢) Zetland : Op . Cit. p. 200,

Cocheris : Op. Cit pp. 242, 243.

(٣) جريدة المقطم فى ١٨ ، ٢٤ يناير ٩١٨١

(٤) المصدر السابق فى ١٦ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٧ فبراير ١٨٩١

(٥) المصدر السابق فى ١٨ فبراير ١٨٩١ ، جريدة الوطن فى ٢٨ فبراير ١٨٩١

(٦) جريدة الاتحاد المصرى فى ٢٥ يونيو ١٨٩١

الامتيازات نصراً للوطنية ضد التدخل الأجنبي ومن ثم أخذتا تنددان بموقف فرنسا بعد أن « جاءت الأخبار أنها ثارت لتعيين سكوت ، ومن الغريب أننا نرى جرائد مصر الفرنساوية مشحونةبالثرثرة والمهاترة ، ونرى «الأهرام» يحوم حولها فى بثمبادئ الفساد واختلاقمايقول » (١) ، و«أنفرنسا ليس لها أن تتدخل فى هذه المسألة أوغيرها»(٢) ، « وقد أرسلت تحتج لدىحكومتنا وفى الآستانة ، ولكن دون جدوى » (٣) .

ويعترض المؤيد على الجرائد الفرنساوية « التى يخال السذج أنها تناضل عن حقوق مصر والمصريين فقد رمت إلى غير مرمى . وتنديدها بمناسبة تعيين سكوت لا يفيدنا بالشيء ، وما كانت مسألة تعيينه بخافية على أحد. فنزعة هذه الجرائد لا تفيد مصر بشيء بل بالعكس ربما أضرت بمصلحتها كثيراً»(٤) . وتؤيد صحيفة المؤيد مشروع سكوت بشأن محاكم الاستئناف الأهلية « فنحن لانرتاب فى أن هذا المشروع حائز على تمام الرضا من الرأى العام ، ونطلب منه اطراد هذه الخطة فى المحاكم الابتدائية فهى أولى بهذا الإصلاح » (٥) .

ورغم انحياز جريدة « الفلاح » إلى الدولة العثمانية ضد الاحتلال فإن الصحيفة تهاجم فرنسا وجريدة الأهرام « إذ يعلم الكل أن صاحبه عثمانى الدعوى جزويتى التربية فرنساوى التبعة والغاية والمبدأ ، فلو حللنا مواده لوجدناها جبلت على ميل أن دولة فرنسا ليس فقط تستولى على بعض مملكة دولتنا العلية أوكلها بل أن تمتلك الدنيا»(٦) . كذلك تندد صحيفة الفلاح بسياسة فرنسا والجرائد الفرنسية والمتفرنسة بوجه عام «فقدسئمت النفوس مما تحملنا إياه من المنن لدولة فرنسا ، وهم يريدون أن الكل يذعن لها ،

(١) جريدة الفلاح فى ٢٤ فبراير ١٨٩١
(٢) المصدر السابق فى مارس ١٨٩١
(٣) المصدر السابق فى ١٧ مارس ١٨٩١
(٤) جريدة المؤيد فى ٢٨ فبراير ١٨٩١
(٥) المصدر السابق فى ٣ يونيو ١٨٩١
(٦) جريدة الفلاح فى ٣ سبتمبر ١٨٨٩

وكيف يقول أصحاب « الأهرام » برلاء فرنسا وإخلاصها لنا ولانجهل مطامعها فى سوريا واغتيالها تونس التى هى من ممالك دولتنا »(١) .

وتهاجم جريدة الاتحاد المصرى –المؤيدة للاحتلال– الجرائد التى « تبرق وترعد كلما أتت الحكومة عملا تشتم منه رائحة العدالة والانصاف ، ونحن قد بلينا فى أرواحنا وحريتنا . ونحن نبين للأجانب أن مس بعض الامتيازات أو تعديلها لا ينقص من حرمتهم ، فالأيام التى خلت كانت توجب إعطاءهم بعض الامتيازات ولكن تبدلت الأيام الآن واصطلحت أحوال المحاكم وسطعت أنوار العدالة . فليفقه الأجانب إلى هذا الأمر ويكفوا عن الاعتراض »(٢).

وتطالب الصحيفة الإنجليز قبل أن يجلوا عن البلاد « باللسان الوطنى أن يسعوا فى إلغاء الامتيازات إلغاء تاماً ، لكى نرى المسيو المجرم يحاكم فى محاكمنا »(٣). وتأييداً لما تنادى به الصحيفة فإنها تورد أوصافاً لما يجرى فى المحاكم بعد سياحة مدير الجريدة ومشاهدته ما يجرى فيها من النظام والإتقان ، وأسعده ما رأى من « الخطة القويمة فى تأدية الأشغال على موجب ماتتطلبه الذمة . ويتضح من تقرير سكوت أن المحاكم الأهلية ارتقت سريعاً ، ويرى كل معتدل تميل به الأهواء أن استتباع الطرق الحاضرة من شأنه أن يقرب الزمان الذى يوحد فيه القضاء فى البلاد (٤) » .

. . .

وهكذا عمدت الصحف الاحتلالية إلى كافة الوسائل بقصد إظهار مدى تدهور أحوال فرنسا العامة وأطماعها فى مصر وبلاد السلطنة وأن حرص الدولة الفرنسية على مقاومة الاحتلال ماهو إلا ستار يخفى وراءه هذه الأطماع التى تريد تحقيقها على حساب شعوب الشرق . ولاريب فى أن بعض المصريين تستهويه أقوال الصحف المناوئة لفرنسا فينحرف عن هذه الدولة وبذلك يصل الاحتلال إلى تحقيق هدف هام فإنه « إذا فقدت مصر عون فرنسا المعنوى وجدت نفسها فى عزلة تامة وعجز مطلق بين أيدى الإنجليز »(٥) .

---

(١) المصدر السابق فى ١٣ سبتمبر ١٨٩٠
(٢) جريدة الاتحاد المصرى فى ٢٨ مارس ، ٢١ يونيو ١٨٩١
(٣) المصدر السابق فى ٣ يناير ١٨٩٢
(٤) المصدر السابق فى ٤ ، ٧ أكتوبر ١٨٩١ ، ٢٦ ، ٢٩ مايو ١٨٩٢
(٥) عباس حلمى الثانى – مذكرات – جريدة المصرى فى ١٩ يونيو ١٩٥١

البَابُ الرّابع

الصحافة وسياسة الاحتلال الداخلية

الفصل الثامن

قضية الاصلاح فى مصر

- حقيقة الإصلاحات فى مصر
- الصحف تربط بين تقدم مصر وفضل الإنجليز
- الدعوة إلى مصر الزراعية
- الإكثار من إصدار الصحف الزراعية :
الزراعة . كنز الزراعة . البستان . الفرائد

ادعت بريطانيا أن مهمتها الأولى فى مصر إنما هى إنقاذ البلاد من الفوضى التى ضربت فيها أطنابها ، وإعادة حياة الاطمئنان والاستقرار ، والعمل على إصلاح حالة الفلاح المنتج الحقيقى ، والعمل على إدخال المدنية والنظم الغربية . أى أنه كانت لديها مهمة تجاه الحضارة والإنسانية (١) . ورأت بريطانيا أنها لكى تطيل أمد احتلالها وسيطرتها التامة المباشرة على مصرفإنه من الضرورى لها أن تقوى مركزها فى البلاد ، لا بالجند والسلاح ، ولكن بإيجاد ثقة بينها وبين المصريين (٢) . ولم يكن أمراً سهلا على رجال الاحتلال أن يحوزوا هذه الثقة ، « ذلك أن الشباب المصرى الذى كان قد تشرب الثورة العرابية أدرك مقدار الإهانة التى لحقت به من جراء الاحتلال (٣) ».

ويقول كرومر إن الإنجليز كانوا متأكدين من عدم تدخل أوربا فى شئون مصر أوعلى الأقل لن تعارض فى الإجراءات التى يقوم بها الاحتلال فى البلاد . « ولكن كان على الإنجليز مهمة كبرى هى محاولة ربط مصر بهم ، وصبغها بصبغتهم أو بالصبغة التى ترضى فيما بعد أن تكون البلاد جزءاً لا يتجزأ من الدولة البريطانية ، كل هذا دون إثارة إحدى الدول ،ودون عنف ، ودون اتخاذ إجراءات قاسية ، ولكن بهدوء وصبر وطول أناة »(٤).

واتبع الإنجليز الوسيلة التى كان ينادى بها محمد عبده بشأن محاولة تغيير المجتمع «فلو أن شخصاً أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو فى سن الرجولة ، هل يمكنه أن يبدلها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه ؟ كلا ، ذلك لن يكون فى آن واحد ، وبعبارة واحدة ، ولكن بعبارات مختلفة فى التقريب ،

(١) محمد صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر ص ٢١٥

(٢) Anonymous : Eg. Difficulty p. 19

(٣) Plauchut : Op. Cit. pp. 109, 110

(٤) Cromer : Mod. Eg. V.I. p. 332, V.II p. 125.

فإن لم يتخذ الوسائل امتنع عليه مقصوده ، وبالنسبة للأمة ، فمن الخطأ بل من الجهالة أن تكلف الأمة بالسير على ما لاتعرف له حقيقة ، إنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة فى عقول أفرادها ثم يطلب بعض تحسينات فيها لاتبعد منها بالمرة . فإذا اعتادوها طلب منهم ماهو أرقى بالتدريج حتى لايمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم من حيث لايشعرون » (١) .

ويقرر محمد عبده أن « العادة عند الأوروبيين قانون ، وأن العادة تتأصل بمرة فما بالك بالسنوات الكثيرة » (٢) . وما من شك فى أننا قد تأثرنا منذ الاحتلال فى حياتنا الخاصة وطرق معيشتنا ونظرتنا إلى الحياة ، وتغيرت قيم الأشياء أمام أعيننا وعكفنا على تقليد أوروبا فى كل شىء وجعلناها مثلا أعلى فى كل ما يتعلق بحياتنا المادية والمعنوية ، « ولم تكن فى الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذى يستمتع به الأوروبيون » (٣) .

وأدرك النديم فى مجلة الأستاذ ومن قبله على يوسف خطورة طغيان سيل الغرب على الشرق وكيف أوشكت الحضارة الأوروبية أن تجرف الحضارة الشرقية وكيف عم التفرنج البلاد حتى كاد يمحو التقاليد المصرية والعادات المصرية ويضعف الإيمان بالخلق الإسلامى نفسه إلى الأبد (٤) .

وكان كثير من الصحف يتمثل بالغرب وعاداته فى جميع نواحى الحياة حتى الخاصة منها فتقول صحيفة الاتحاد المصرى مثلا « ما من شىء يفضى إلى الملل نظير الحديث المكرر حتى ولو كان قائله من فطاحلة الرجال ، ولو اقتدى هؤلاء بالإفرنج واقتصروا على إظهار أفكارهم باختصار لأراحوا الناس » (٥) .

وهكذا فإن الاحتلال لن يأتى بشعب جديد إلى مصر ولكنه يعمل فى صبر

(١) الوقائع المصرية : مقال «خطأ العقلاء» للشيخ محمد عبده فى ١٤ إبريل ١٨٨١
(٢) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ذكره ج ١ ص ١٦٨
(٣) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر ج ١ ص ٣٠-٣٢
(٤) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ج ٣ ص ص ٥ ، ٦
(٥) جريدة الاتحاد المصرى — ٥ مايو ١٨٨٩

على تغيير الأسس التى تقوم عليها مقومات الشعب (١) . وفى الوقت نفسه وضع كرومر نصب عينيه أن يكون دخول المدنية الأوروبية دون زعزعة كيان المجتمع ثورياً (٢) .

وكان كرومر يهدف إلى تحقيق مبادئ وضعها لنفسه تقوم على « تخليص الشعب المصرى من الإفلاس وإيصاله إلى حالة من الرخاء المادى .. والقضاء على استخدام الأساليب الشرقية الموشاة بمدنية أوربية زائفة وأن تستبدل بها مدنية غربية حقيقية تقوم على أساس من مبادئ الأخلاق المسيحية »(٣) .

الصحف تربط بين تقدم مصر وفضل الانجليز :

كانت صحيفة الوطن المؤيدة للاحتلال أول من مهد السبيل لهذه السياسة الاحتلالية بعد دخول الإنجليز مصر مباشرة وبدأت توضح فائدتها للمصريين ولخيرهم ورفاهيتهم مستشهدة بأقوال كبار رجال إنجلترا . فتقول إننا « رأينا الجرائد الإنجليزية مدافعة عن حقوق المصريين فشكرنا سعيها وظهر لنا فضلها وفضل الدولة الإنجليزية ، فتقول هذه الجرائد إنه كلما طالت إقامتنا فى مصر حوفظ على المصالح وزادت قوة البلاد . وقد توجهنا إلى مصر مراعاة للقانون والنظام وليس للافتتاح والتغلب » (٤) .

وتكتب مرة أخرى نقلا عن صحف إنجلترا التى تربط بين المسألة المصرية وهدوء الأحوال فى أوربا ، « والواجب أن نستمر على تبوىء مصر إلى إن تنتظم الحكومة التى تريد توطيدها » (٥) .

وفى الوقت نفسه كان كرومر يهدف إلى محاولة إرضاء المصريين بإنجاز بعض الأعمال المادية ذات الفائدة العامة (٦) . وكان يرى كما يقول أن

---

(١) Duc d'Harcourt : L'Egypte et les Egyptiens - p. 268.

(٢) Zetland : Op. Cit. p. 313.

(٣) Zetland : Ibid p. 89.

(٤) جريدة الوطن فى ١٤ أكتوبر ١٨٨٢

(٥) المصدر السابق فى ١٦ أكتوبر ١٨٨٢

(٦) Dicey : Story of the Khedivate pp. 454, 435.

« الطبقة الدنيا من الأهالى هم الوطنيون الذين عانوا كثيراً نتيجة لعصور الظلم . وكان على الإنجليزى المتحضر أن يمد لهم يد الصداقة ليرفع من مستواهم مادياً ومعنوياً وينتشلهم من تلك الحالة الأسيفة التى وجدهم عليها » (١).

والحق أن الإنجليز عندما أخذوا على عاتقهم إدارة مصر لم يروا الموقف حرجاً كما صوره كرومر فيما بعد ليعظم من شأن أعماله . فلقد نظر دوفرين وأعوانه إلى الموقف نظرة تفاؤل واستبشار رغبة منهم دون شك فى أن يؤكدوا لأوروبا النجاح الذى ستؤدى إليه مجهودات إنجلترا فى إعادة النظام وتحسين الحال ، فهونوا من نكبة المصريين وثقل الضرائب واجتهدوا فى أن يظهروا للملأ أن من السهل إصلاح أكثر المفاسد باتخاذ الوسائل الإدارية الضرورية.

وأثبت الإنجليز أنفسهم أن جمهرة المزارعين المصريين قد تحسنت أحوالهم بعد أحداث الثورة العرابية . وبرغم ما بهذه الأقوال من تفاؤل فإنها توضح كيف كان الإنجليز فى بداية عهد الاحتلال بعيدين عن تلك النظرة السوداء التى اقتضت سياستهم فيما بعد أن ينظروا بها إلى حال مصر وقت مجيئهم إليها . لقد اعتقدوا أن الفلاح بقليل من الإصلاح يصبح قادراً على تأدية الضرائب ، ولكنهم كانوا مخطئين كل الخطأ فى ذلك الاعتقاد . ويرجع خطؤهم إلى ما حدث فى الفترة بين وزارة شريف ومجىء بارنج أى إلى مأساة التدخل البريطانى التى عادت بنكبة على مالية البلاد . ذلك أن خسائر البلاد المالية فى مقاومة الاحتلال كانت كافية لأن تخل بميزانية البلاد وأضيف إلى هذا عبء آخر هو نفقات احتلال الإنجليز للبلاد ثم عبء التعويضات التى بلغت حوالى أربعة ملايين جنيه (٢) .

وأثرت هذه الأعباء الجديدة تأثيراً سيئاً على الخزانة المصرية وظهر العجز فى ميزانية عام ١٨٨٣ بمبلغ ٦٠٠,٠٠٠ جنيه (٣) ، وقدر بارنج العجز

(١) Cromer : Op. Cit. V. II. p. 130.

(٢) Rothstein : Op. Cit. : pp. 244-247.

(٣) Rothstein : Ibid. : p. 247.

فى نهاية عام ١٨٨٤ بمبلغ ٧٫١٠٠٫٠٠٠ جنيه (١) . وكان معنى ذلك ظهور ارتباكات مالية جديدة وقد يكون معناه إفلاساً جديداً .

وإن الرأى الشائع أن انتشال مصر من هذه الوهدة إنما كان بسحر ساحر ليس غير ، وأن الجمهور يتوهم أن عمل كرومر فى تذليل الصعاب والتخلص من الإفلاس إنما يعود إلى عبقرية كرومر المالية والإدارية . (٢) فالواقع أن كرومر يصف هذا النجاح بقوله « إن النجاح المالى يرجع فى غير ريب إلى ما للبلاد من قدرة عجيبة على النهوض ، ثم إلى جد الأهلين ومباشرتهم العمل ، وإنه وإن يكن للحكومة فضل فهو أنها على عكس من سلفها من الحكام قد أعطت الطبيعة فرصة للعمل ، ولم تساعدها إلا مساعدة محدودة » (٣) .

ولقد رأت اللجان المالية التى شكلت للنظر فى أمور مصر — وكان بارنج عضواً فيها — أن تدعو إلى خفض الضرائب وأثبتت التقارير التى قدمت إملاق الفلاحين وبؤسهم وهبوط أسعار المحاصيل ، ولكن لم يرد فى التقارير أية إشارة إلى أقوى دواعى هذا الارتباك المالى أى تدخل الإنجليز وحملهم المصريين على دفع ثمن إخضاعهم . وما لبث كرومر أن صرح بناء على تقارير وصلت من الهند بأن « متوسط الضرائب المصرية المفروضة على الأراضى الخراجية يفوق كثيراً متوسط الضرائب المفروضة على أراضى الهند النادرة الخصوبة » . (٤) وهذا على رغم تأكيداته السابقة التى اعترف فيها بعدم ارتفاع الضرائب فى مصر . لذلك فإن هذا الإرجاف المدبر لم يفد كرومر والإنجليز كثيراً ، فإن فرنسا كان يسرها أن تضع إنجلترا فى مركز حرج(٥)، لذلك رفضت أن توافق على أى قرض جديد لمصر وعلى أى نقص لفائدة الدين ، وأشارت إلى أنه منذ أشهر قلائل كان الموظفون البريطانيون فى مصر يكتبون تقاريرهم بلهجة تختلف عن لهجتهم الحاضرة كل الاختلاف . وفى

---

(١) Blue Books : Eg. No. 23 (1884) p. 53.

(٢) Blue Books : Eg. No. 1 (1907) p. 58.

(٣) Blue Books : Eg· N2. 1 (1907) p. 68

(٤) Blue Books : Eg. No. 31 (1884) p. 21.

(٥) راجع الفصل السابق الخاص بالصراع بين انجلترا وفرنسا فى مصر .

١٨ مارس ١٨٨٥ وقعت الدول على اتفاق يعطى الحكومة المصرية المعونة الضرورية . (١) ومع ذلك فإن كرومر يعترف فى تقريره عن عام ١٨٨٥ بأن ضرائب الأراضى « جمعت تحت ضغط عظيم » (٢) .

ولم يلبث كرومر أن وضع نظام بدل الخدمة العسكرية كمصدر مالى ، وصدر الأمر العالى سنة ١٨٨٦ بأن كل شخص قابل للتجنيد يعفى من الجندية متى دفع للحكومة مبلغاً يتراوح بين ٤٠ جنيها قبل الاقتراع و١٠٠ جنيه بعده . ويحبذ كرومر هذا الأمر العالى وأنه « لن يقابل بالاستحسان فى جميع أنحاء البلاد فحسب بل سيكون سبباً فى إضافة مبلغ ضخم إلى دخل القطر » (٣). وكان صافى الدخل من بدل الخدمة عن عام ١٨٨٦ مبلغ ١٥٩,٠٠٠ جنيه(٤) .

وتولت صحيفة المقطم الدفاع عن سياسة كرومر المالية ، ولم يخل عدد واحد من أعداد هذه الجريدة من الحديث عن تقدم مصر فى ظل الاحتلال . وتنوعت أساليب الصحيفة فى التدليل على ما تقول :

أولاً : فهى تورد تقارير كرومر السنوية بالنص فى صفحاتها الأولى إلى جانب طبعها فى مطبعتها باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية وتوزيعها على القراء وبيعها لغيرهم بقروش زهيدة ، ذلك « لأن بارنج ثقة من أعظم الثقات وأدراهم بحقيقة المالية المصرية ، الذى اسمه يغنى عن الوصف إذا ذكرت مصر ، والحاصل أن المالية المصرية باتت فى الحال مكفولة وكذلك فى الاستقبال ، وأن أحوال البر صائرة من حسن إلى أحسن بما يتم من الإصلاح وحسن الإدارة» (٥) .

ثانياً : وتقرظ جريدة المقطم هذه التقارير وتورد أقوال الجرائد التى

---

(١) Cocheris: Op. Cit. pp. 193, 194.

(٢) Blue Books: Eg. No. 4 (1886). p. 179.

(٣) Blue Books: Eg., No. 2 (1887) p. 26.

(٤) Blue Books: Eg., No. 8 (1887) p. 108.

(٥) جريدة المقطم فى ٦ مايو سنة ١٨٩٠

تسهب فى الكلام عن التقارير وتعدد حسنات الاحتلال فى البلاد وتذم التعجيل فى الجلاء (١) .

ثالثاً : وتنشر الصحيفة تقارير المستشار المالى إدجار فنسنت الذى يحاول إثبات تقدم مصر المطرد (٢) . كذلك تورد تقارير كبار الإنجليز الذين يتحدثون عن فضل إنجلترا على مصر فى المالية والسكة الحديد والمجالس المحلية والأمن والسجون والجيش والبوليس والرى والصحة ، وتعلق على ذلك بأننا « إذا قابلنا ما كانت عليه مصر سنة ١٨٨٢ وما صارت إليه سنة ١٨٨٩ حصحص الحق وبان واتضحت فوائد احتلالنا . ثم أن الإصلاحات التى كنا السبب فى إجرائها لم نكن نجريها بالعنف والاستبداد بل بالهدوء والتدريج وبلا طنطنة ولا مباهاة محتملين نار الانتقاد مجتنبين كل ما من شأنه إظهار السلطة » (٣) .

رابعاً : وجرت عادة « المقطم » على نشر مقالات مسلسلة فى بيان أحوال مصر ، من ذلك مقالات بعنوان : « هل فى مصر تقدم ، اجتماع النقيضين » (٤) . ودعت الصحيفة القراء إلى نشر آرائهم فى هذا الصدد ، وفاضت الرسائل التى نشرت بالأقوال المحبذة لأعمال الإنجليز « فكل منا يعلم أن رجال الاحتلال دخلوا مصر إخماداً لثورة وحفظا لحقوق الدول فيها . وتقدمت بلادنا تقدماً يذكر فيشكر »(٥) . وتتصدر الصفحة الأولى رسالة ثانية تتحدث عن نعم الاحتلال على البلاد « فقد تقدمت مصر وتتقدم وهى الآن فى تقدم لا ينكره إلا طامع بنا أو ذو غاية ، وهى رانعة فى ظل خديويها ، وآمنة بهمة أعوانه الإنجليز من كل طارق مفاجىء » (٦) .

كذلك نشر « المقطم » مقالات « طريق النجاح والإصلاح » . (٧) واعتمدت

---

(١) المصدر السابق فى ٢٨ مايو ١٨٩١
(٢) المصدر السابق فى ٢٦ فبراير ١٨٨٩
(٣) المصدر السابق فى ٨ ، ١٠ ، ١١ يونيو سنة ١٨٨٩
(٤) المصدر السابق فى ١٤ مايو سنة ١٨٨٩
(٥) المصدر السابق فى ٢٤ مايو سنة ١٨٨٩
(٦) المصدر السابق فى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٩
(٧) المصدر السابق من ٧ ديسمبر سنة ١٨٩١

الصحيفة فى هذه السلسلة على المكاتبات الرسمية بين وزارة الخارجية البريطانية وممثلها فى مصر بخصوص تنظيم الجيش والبوليس وأن يستبدل بنظام المراقبة الثنائية نظام أحسن منه . ثم يعلق « المقطم » مدللا على أن « الأدلة السابقة تثبت أن الدولة المحتلة صممت على إجراء مالاتزال تجريه إلى اليوم فى أول شهر بل فى أول أسبوع من أسابيع الاحتلال . وأنها لم تضر المصريين بالأقوال ولا دلهتهم بحب ولا أضنتهم بمطال . كذلك يتضح أن الدولة المحتلة جاهرت بلسان دوفرين فى أوائل الاحتلال أنها لا تتم أعمالها فى زمان يسير(١) » . وأردفت الصحيفة ذلك بمقال ببيان فضل نوبار فى السير بمصر فى طريق التقدم (٢) .

وفى ثنايا هذه المقالات تعقد المقارنة بين نواحى الإصلاح قبل الاحتلال وبعده فتقول « كانت الأمور فى اضطراب وتسقط الوزارة بعد الوزارة ، وضاعت آثار الإصلاح قبلما رسخت فى أذهان الأمة وقبلما جنت البلاد منها فائدة » . (٣) أما « بعد الاحتلال فالإصلاحات تتم فى كل ناحية ، من ذلك إصلاح المالية المصرية وإلغاء السخرة ، وإصلاح الرى والقضاء» . (٤)

أما مالية مصر فإن « السير إفلن بارنج استطاع تعويض ما أصاب البلاد من خسارة مالية لنقص فيضان النيل ، وزادت الإيرادات ، وذلك دليل من أقوى الأدلة على تيقظ الحكومة وحكمة من بيدهم أمور ماليتها » . (٥) ويفرد المقطم الصفحة الأولى فى« بيان بالديون التى زادت أيام إسماعيل وكانت الرعية تئن وتنوء تحت أثقال الضرائب ، وكان الدين يثقل على كاهل البلاد ، وقد ذهبت القناطير المقنطرة من الذهب أدراج الرياح ، حتى قدر التوفيق لهذا القطر فتحسنت ماليته رغم أنف الثائرين الأعداء» (٦) . وفى اليوم التالى

---

(١) المصدر السابق فى ٨ ديسمبر سنة ١٨٩١

(٢) المصدر السابق فى ٩ ديسمبر ١٨٩١

(٣) المصدر السابق ١٠ ديسمبر ١٨٩١

(٤) المصدر السابق فى ١١ ديسمبر سنة ١٨٩١

(٥) المصدر السابق فى ١٨ يونيو سنة ١٨٨٩

(٦) المصدر انسابق فى ٨ أكتوبر سنة ١٨٨٩

يعدد المقطم « الفوائد الجمة التى أدخلت على مالية البلاد وأننا لنحج بذلك الذين يعارضوننا ، ولطالما كنا نطالع أقوال المفسدين بين الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة مخالفاً للواقع ، حتى قيض لنا إنشاء «المقطم» ، فادعوا أنه إنما وجد للدفاع عن الإنجليز وزعموا بهذا أنهم يتخلصون من قبضة الحق »(١) .

وإذ تتحدث «الأهرام» عن اضطراب مالية مصر وتدهور الميزانية وإصابتها بالعجز ، (٢) يرد «المقطم» مفنداً ذلك « فإنه لايوجد فى المالية أى عجز ، وكيف درته الجرائد ، أهبط عليها وحى فى هذه الأيام » (٣) . والميزانية ليست — فى نظر «المقطم» — مثقلة أو متثاقلة فى سيرها ، «فهناك أدلة ناطقة بفضل الوزارة ، وكيف نسكت عن شكرها » (٤) .

ويجد المقطم فى زيارة ولى عهد إنجلترا لمصر مناسبة لتكرار الحديث عن تحسن أحوال القطر وانتظام أعماله وإدارته بعد احتلال الإنجليز له (٥) ، بل إن خطب رجال إنجلترا كانت لدى الصحيفة مورداً للحديث المتكرر عن تقدم مصر فى ظل الاحتلال الإنجليزى (٦) « فإن المحررات والخطب منذ بدء الاحتلال تثبت أن الدولة الإنجليزية اختطت خطة الإصلاح المراد اتباعها فى هذه الديار من أول يوم أخمدت فيه الثورة العرابية » . (٧) ثم ينشر المقطم خطب سالسبورى الذى يعارض تحديد موعد للجلاء « فإن إنجلترا ضحت الضحايا قبلما استلمنا زمام الحكومة فسفكت أعز دمائها وأنفقت أموالها بغير حساب لكى تنشل مصر من الوهدة التى سقطت فيها ، والآن وقد أوشكنا أن نصل إلى النتيجة العظيمة من مساعينا الكثيرة فلا نسمح أن ذلك كله يضمحل ويزول كأنه مما طوته يد الأيام » . (٨).

---

(١) المصدر السابق فى ٩ أكتوبر سنة ١٨٨٩
(٢) جريدة الأهرام فى ٧ ، ٨ ، ١٠ أكتوبر سنة ١٨٨٩
(٣) جريدة المقطم فى ١٢ أكتوبر سنة ١٨٨٩
(٤) المصدر السابق فى ٢٠ نوفمبر ١٨٨٩
(٥) المصدر السابق فى ١٦ نوفمبر ١٨٨٩
(٦) المصدر السابق فى ١٩ نوفمبر ١٨٨٩
(٧) المصدر السابق فى ١٧ نوفمبر ١٨٨٩
(٨) المصدر السابق فى ١٨ نوفمبر ١٨٩١

وهكذا تربط الصحيفة بين ضرورة استدامة الاحتلال وبين تنفيذ الإصلاحات اللازمة للبلاد . وكان كرومر يرى محاولة مد أمد الاحتلال للقضاء على اختلاف وجهات النظر بين المصريين والإنجليز فى النواحى المادية والعنوية « وعلينا أن نوضح للمصريين ما يجب عمله فيقومون به خير قيام ، فهم مغرمون بالتقليد ، وقد تصبح حضارتهم نوعاً من الطلاء أو التمويه ولكن سيكون لذلك أثر ضخم فى المجتمع المصرى ، وطالما بقى الإشراف الإنجليزى فى البلاد فإن المصريين سيحاولون تقليد كل ما يقوم به الإنجليز ، وهكذا لن تكون هناك حاجة كبرى إلى استخدام عدد ضخم من الإنجليز فى المناصب الصغيرة » (١) . وبذلك يتولى الإشراف على أحوال مصر على وجه العموم العناصر الفتية التى نالت نصيباً من التربية الغربية دون أن يكون لها حظ كبير من الثقافة الشرقية الصحيحة ، ويدفع بها التيار الغربى إلى أجهزة الحكم دون العناصر التى كان يحق للمجتمع بتكوينه الزراعى الدينى أن يرسلها إليها لو لم يكن هذا التيار الغربى بمقتضياته الاجتماعية ونفوذه السياسى ، والجو الغربى الذى ينفذ على هذا النحو إلى حياتنا العامة والخاصة جميعاً يدفع بظواهرها إلى النضوج العاجل ولكنه يضعف فى نفس الوقت من حيويتها ويميل بها عن مجراها الطبيعى ، وتصاب بالسطحية والاضطراب والسقوط فى التقليد(٢).

ويرسم «المقطم» طريقة تقليد المصريين للإنجليز على أساس ألا تترك إنجلترا زمام مصر وإلا « فكل ما فعلته فيها يذهب هباء ولو كان عظيماً فى نتائجه المادية فإن مصر لم تتعلم بعد أن تدير أمورها بنفسها ، بل إن الإنجليز يديرون ماليتها والإنجليز أصلحوا قناطرها ، ثم إن حكومتها لا تزال جسما بلا روح ، وذلك حال كون الواجب على إنجلترا أن تسوس بلاد مصر برجال من المصريين لا برجال من الإنجليز وهذا هو العمل الباقى عليها

---

(١) Cromer : Op. Cit. V. II pp. 145-153.

(٢) صبحى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

عمله بعد أن استتب الأمن والنظام وتوطدت المالية » . (١)

الدعوة الى مصر الزراعية :

من أهم الوسائل التى عنى بها رجال الاحتلال لرفع دخل الحكومة الاهتمام بالإنتاج الزراعى عن طريق توسيع مساحة الأراضى القابلة للزراعة وتحصيل الضرائب على الأراضى المستصلحة وبذلك تبرهن إنجلترا على أنها الدولة الوحيدة القادرة على تنمية موارد مصر فترتكز الثقة فى القطر المصرى على أسس وطيدة وتستطيع مصر الوفاء بالتزاماتها الدولية منعاً لتدخل الدول ويتوطد مركز إنجلترا فى البلاد وفى هذا الصدد يقول ملنر « إذا كان لابد من إدخال إصلاح دائم فى مصر فأول الأمور هو أن نجعلها قادرة على الدفع » (٢) .

وأخذت الصحف الموالية للاحتلال تفيض بأنباء العناية بشئون الزراعة والرى وتخفيض الضرائب بعد الكوارث والحوادث السياسية التى طرأت على مصر ثم ما أصابه الفلاحون من التقدم « الذى أثبته بارنج رسمياً فى مراسلاته مع حكومته » . (٣)

ولاتكاد «الأهرام» تشير إلى ما يحدث من انخفاض النيل مما ينجم عنه تعطيل الزراعة وتوقف حركة تجارة الأقطان « مما اضطر الزارع إلى التأخر فى دفع أقساط الأموال الأميرية وإلى بيع مواشيه ليقتات » (٤) ، حتى تخرج الوقائع ببيان رسمى يستغرق ست صفحات « ذلك أن رئيس النظار (رياض) هاله أمر هذه الحملة ، وأجرى التحقيق وتقرر أن الحالة هناك غير ما كتبه مكاتب الأهرام بالمرة فالمزارع خضرة ، والناس مقبلون على

---

(١) جريدة المقطم فى ١٦ أغسطس ، ٦ ، ٨ ، ٩ سبتمبر ١٨٩٠ ، ٢١ أكتوبر ١٨٩١ ، ٣ نوفمبر ١٨٩١

(٢) Milner : Op. Cit. p. 107.

(٣) جريدة الوطن فى ١٤ يوليو ١٨٨٨

(٤) جريدة الأهرام فى ١٦ نوفمبر ١٨٨٨

الرى » ، وتختم الصحيفة الرسمية مقالها بدعوة « الرأى العمومى أن يحكم بعد ذلك بالحق حيثما يراه » (١) .

ويفرد المقطم الصفحات الأولى فى الحديث عن : «الفلاح المصرى — ما كان عليه وما صار إليه » . وتتناول الصحيفة مدى التقدم الذى أصابه الفلاح بعد انتهاء الفتنة العرابية ، « وإن كنت فى ريب من ذلك فقارن ما هو فيه من العز والرخاء بما كان فيه من الضنك وسوء الحال » (٢) . وإذا كان صاحب الأهرام يكتب عن فداحة ديون الفلاح وأنها تبلغ مالا يقل عن ١٢ مليون جنيه (٣) ، فإن المقطم يقول « إن الدين على الفلاح أصبح ٣ ملايين جنيه فقط » . ثم يتحدث المقطم مرة أخرى فى سلسلة من المقالات عن التحسن الذى طرأ على الفلاحين (٤) . ويفرد إحدى الصفحات الأولى بعد ذلك لمقال ذى عنوان جذاب هو « بشر الفلاح بخير عظيم »، عن تأليف لجنة برئاسة المستشار المالى الإنجليزى للنظر فى أحسن طريقة لتعديل الضرائب . (٥) وهكذا ينشر «المقطم» سر اللجنة قبل أن تتخذ قراراً بل قبل أن تعقد أولى جلساتها .

ويدعو المقطم إلى الربط بين وجود الإنجليز ومحاولات الإصلاح فى مصر فيقول « إن الترع قد زادت منذ ١٨٨٢ زيادة كبرى . فإذا سألت أهالى الغربية والمنوفية والشرقية والدقهلية عن أى مسألة لا يجيبونك إلا وفى جوابهم شىء من مآثر ويلكوكس وفوستر وجارستين الذين وسعوا نطاق الرى ووفروا خيرات البلاد . وهؤلاء أعيان الفلاحين يعترفون بأن الهناء والصفاء الذى شملهم وشمل وطنهم كان للاحتلال فيه اليد الطولى » (٦). ثم يربط « المقطم » بين الاهتمام بالزراعة وزيادة الإيرادات على المصروفات،

(١) جريدة الوقائع المصرية فى ٢٤ نوفمبر ١٨٨٨
(٢) المقطم فى ٣٠ سبتمبر ١٨٨٩
(٣) جريدة الأهرام فى ١٦ أكتوبر ١٨٨٩
(٤) جريدة المقطم فى ٤ ، ٥ نوفمبر ١٨٨٩
(٥) جريدة المقطم فى ١١ سبتمبر ١٨٩٠
(٦) المصدر السابق فى ٢٦ أكتوبر ١٨٩١

لذلك تنازلت الحكومة عن بعض الضرائب ، «وفى أى عصر غير هذا العصر سمعت مصر بإلغاء الضرائب بل وفى أى عصر غيره ذاقت الرعية طعم الحرية » (١) . وتواصل الصحيفة المقالات عن تحسن حال الفلاح وأن البلاد صائرة من حسن إلى أحسن « وهذا هو حكم الجمهور » (٢) .

الاكثار من اصدار الصحف الزراعية :

يتبين من تقرير كرومر عام ١٩٠٦ أنه كان يهتم اهتماماً بالغاً بطبقة صغار ملاك الأراضى وذلك لرغبته فى الاحتفاظ بنوع من التوازن الاجتماعى بين الطبقات ، أى أنه عنى بهذه الطبقة لتكون عنصراً يوازن به طبقة كبار ملاك الأراضى الزراعية ، ذلك أن كرومر كان يخشى أن يؤدى ارتفاع قيمة إيجارات الأراضى الزراعية إلى حدوث نزاع بين الملاك والمستأجرين كلما ازداد عدد السكان وقلت مساحة الأراضى التى يمكن استصلاحها كما حدث فى الهند وغيرها . ورأى كرومر أن أفضل وسيلة لتأجيل حدوث هذا الصراع أو تخفيف حدته ، إذا لم يكن هناك محيص عن وقوعه ، هو البعد عن كل ما من شأنه القضاء على طبقة صغار الملاك (٣) . لهذا شجع كرومر على نمو هذه الطبقة تلافياً لحدوث ثورات اجتماعية خطيرة ، وحرص كرومر على المحافظة على هذه الطبقة بشتى الوسائل كتحسين الرى وتخفيف الضرائب وإنشاء الجمعيات الزراعية وجمعية فلاحة البساتين لنشر الوعى الزراعى بينهم . وفى هذا الصدد نلاحظ صدور عدد من المجلات فى العقد الأول من الاحتلال انصرف اهتمامها إلى النواحى الزراعية ، ومنها : مجلة الزراعة ، وكنز الزراعة ، والبستان ، والفرائد .

وصدرت مجلة الزراعة فى ١٦ صفحة من القطع الصغير لتكون « واسطة

---

(١) المصدر السابق فى ٤ يناير ١٨٩٢

(٢) المصدر السابق فى ٥ يناير ١٨٩٢

(٣) Cromer : Mod. Eg. V. II. p. 451.,
Blue Books : Eg., No. 1. (1907) pp. 51, 52.

لإبلاغ ملاحظات أهل الخبرة إلى المزارعين والفلاحين » (١) . وتتحدث فى افتتاحية عددها الأول عن مصر الزراعية وتوقف حياتها وتقدمها وراحة أهليها على الزراعة . وهكذا يصدر أيوب عون اللبنانى صحيفة تبحث فى الزراعة المصرية وشعار المجلة الذى استمر يظهر تحت اسمها هو « ترقية شأن الزراعة فى القطر المصرى وتنوير أفكار أصحاب الأطيان والفلاحين لمعرفة الطرق التى يمكنهم بها زيادة قدر محاصيلهم وبيعها بأغلى الأسعار » .

وتدور أبحاث المجلة ومقالاتها حول ضرورة اقتصار نشاط الأهالى فى مصر على الزراعة فحسب « وعناية المصرى بالأرض مبنية على الحاجة إليها حيث أن نظره لم ينفتح على التجارة والصناعة ، ولا عرف كيف يجنى فوائدها ، بل يعتقد أن أرضه إذا خصها بيمينه ووقف عليها همته تقوم بحاجته وتعطيه خبزه ، وهو معروف بالقناعة وعدم سعة مجال الطمع » (٢). وفى الوقت الذى تتحدث فيه عن رضا المصريين وقناعتهم وعدم إقدامهم على العمل الجاد فى سبيل كسب عيشهم ورفع مستواهم نجدها تتحدث عن إقدام الإنجليز ونشاطهم وتنوع موارد رزقهم فتقول « إذا نظرنا إلى جزيرة إنجلترا وتأملنا فى موقعها وجوها وعلائق جوارها نحكم — من أول وهلة — أنها ليست بلداً زراعياً ، بل لو وقف أهلوها كل اهتمامهم على الزراعة وأعرضوا عن التجارة والاستعمار ، لما كان لهم ولبلدهم عشر هذه العظمة التى هم فيها ، وما نراه من ثورة الأهلين لا يمكن أن يأتيهم من الموارد الزراعية . وقد عرف حكماء الأمة الإنجليزية خواص بلدهم حق المعرفة وخضعوا لها وكل الحكمة فى هذا الخضوع » (٣) . وهكذا كان على المصريين — وفقاً لرأى مجلة الزراعة — أن يخضعوا للعمل الزراعى وألا يبحثوا عن مورد آخر مهما ضاقت بهم سبل الرزق .

ولكى تستطيع هذه المجلة الزراعية توسيع دائرة توزيعها وانتشارها وتأثيرها كانت تهدى للمزارعين الفقراء الذين لا مقدرة لهم على تأدية

(١) مجلة الزراعة العدد الأول فى ٢٣ إبريل ١٨٩١

(٢) المصدر السابق فى ٤ يونيو ١٨٩١

(٣) المصدر السابق فى ٢٣ إبريل ١٨٩١

الاشتراك ، وفى الوقت نفسه « خصصت جزءاً من إدارتها لخدمة الفلاحين وبخاصة المشتركين منهم فيها الذين تمنعهم أشغالهم عن قضاء مصالحهم أمام دوائر الحكومة وسائر الإدارات الكبرى مجاناً دون مقابل » . ويؤكد دى طرازى أن المجلة لاقت من الإقبال فوق ما كان يؤمله العارفون بأحوال البلاد فى ذاك الوقت ، لاسيما أن الحكومة عضدتها واشتركت فى نسخ خاصة منها . أما مالية المجلة فقد اعتمدت على ما قدمه الأمير حسين كامل ابن إسماعيل « فهو الذى نشط أيوب عون على إنشاء المجلة ، وفى الوقت نفسه أمده المستر والاس الإنجليزى مدير المدرسة الزراعية فى الجيزة » (١) .

ولم تلبث المجلة أن أصبحت المتحدث بلسان « مستر والاس » ولم يخل عدد من الإشارة إليه والإشادة بذكره « والأعمال التى يأتيها ناظر المدرسة الزراعية الخبير » (٢) . وعندما تعرضت البلاد لموجة من الجراد أخذ والاس يوالى الاهتمام بشأن إبادة الجراد متنقلاً من مديرية إلى مديرية مبيناً أفضل الطرق مشجعاً لهم (٣) . وتكرر المجلة ثناءها على والاس لما يبذله من همة فى رفع شأن الزراعة . وما لبث هذا المدير أن استقدم أخاه « فقدم إلى القطر الزراعى الخبير المشهور ويليام أستاذ الزراعة فى كلية ادنبرة ، وقد جاء لمعاينة أحوال الزراعة المصرية ودرسها عن قرب » (٤) . ثم تتناول سيرة حياته بكثير من الإفاضة وتقرظ خبرته معبرة عن أملها فى أن يكون للتقرير الذى سيرفعه إلى المسئولين شأن مهم فى تقدم الزراعة المصرية . (٥)

وكم يبلغ بأيوب عون الأسى إذا استقال أحد الإنجليز من خدمة الحكومة المصرية « ولا نعجب إذا رأينا المزارع المصرى كاسف البال حيث نعلم أن الكولونيل روس كان أول المساعدين على انتظام حالة الرى الذى هو حياة المزارع ، وكان أول المجاهدين فى هداية رفاقه من وطنيين وإنجليز

---

(١) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٨١ ، ٨٢

(٢) مجلة الزراعة فى ٢١ مايو ١٨٩١

(٣) المصدر السابق فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩١

(٤) المصدر السابق فى ٢٠ أغسطس ١٨٩١

(٥) المصدر السابق فى ٦ سبتمبر ١٨٩١

على تعميم فوائده وجعل الحق فيه للعدل لا للقوة كما كان فى العهد الماضى ».(١)

وهكذا ربطت المجلة بين وجود الإنجليز واستمرار الإصلاح العام فى مصر وبخاصة فى النواحى الزراعية . وكان كرومر يرى أن «الشعب المصرى يزداد تعلقاً بمفتش الرى الإنجليزى يوماً بعديوم ». (٢) وبذلك أوجد الإنجليز فئة قد يلتف حولها بعض الأهالى يوماً ما بينما أخذت الدعاية الإنجليزية تحاول الوصول إلى أفراد الشعب من المزارعين لتشدهم إلى التيار المؤيد لوجود الاحتلال .

ويتحدث رزنر عن أن المدرسة الزراعية — التى دعت إليها مجلة الزراعة — لم تأت بالغرض المقصود بالمرة « ذلك لأنهم جعلوا ناظرها رجلاً إنجليزياً لا يتكلم إلا اللغة الإنجليزية ، وقد فشل فى مأموريته تماماً . وبعد أن ذكرت الجرائد افتتاح المدرسة وطنطنت بها أخذ العجب مأخذه لما علم أن العدد القليل من التلامذة الذى دخل المدرسة ما لبث أن أخذ فى النقصان حتى لم يبق فرد واحد . وأعمال الإنجليز فى هذا الشأن دليل يؤيد أنه لا يهمهم إصلاح شأن المصرى ، بل هى إجراءات يتخذونها ستاراً يخفون تحته مقاصدهم » . (٣)

ولم يقتصر الأمر على ما دعت إليه مجلة الزراعة بل كان إلى جانبها دعوة المقطم إلى اتخاذ الزراعة « أول المعايش فهى أكثرها عمالاً وأربحها مالاً ، ومهما اتسعت صناعة البلاد وانتشرت تجارتها ، ولو بلغت مبلغ البلاد الإنجليزية التى يضرب المثل باتساع معاملها وانتشار سفنها التجارية فى كل أقطار المسكونة — تبقى الزراعة أوسع معايشها ، وقد أوردنا الأدلة الكثيرة على ذلك فى المقتطف والمقطم ، فالقطر المصرى زراعى بحت لم تخصه الطبيعة بكثير من معدات الصناعة ولا وضعته محاطا بالبحار ومحطا لرحال التجار » . (٤)

---

(١) المصدر السابق فى ٢٧ سبتمبر ١٨٩١

(٢) Zetland : Op. Cit. p. 177

(٣) هنس رزنر : المرجع السابق ذكره ص ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١١

(٤) جريدة المقطم فى ٢ يونيو ١٨٩٠

وبالإضافة إلى مجلة الزراعة صدرت مجلة كنز الزراعة فى إبريل ١٨٩١ ، واقتصرت على النواحى الزراعية البحتة ، وكان مديرها كريستيان بوجاد الإنجليزى ورئيس تحريرها حبيب فارس اللبنانى (١) . ثم صدرت مجلة البستان فى إبريل ١٨٩٢ وكانت مباحثها لا تخرج عن الزراعة فى مصر وتأكيد اتجاه البلاد الزراعى (٢) . وفى العام نفسه صدرت مجلة الفرائد الأدبية الزراعية لصاحبيها جرجس زكى وفوزى حنا ويحررها وهبى بك .

وبذلك ازدادت الدعوة إلى صرف أذهان المصريين عن نواحى النشاط الأخرى غير الزراعية ، وتركز النشاط الاقتصادى فى يد العناصر الأجنبية التى استأثرت بالثروة المنقولة وقنع أهل البلاد بالثروة الزراعية « فكان المجتمع الأجنبى مجتمعاً مدنياً رخى الحال خفيف الحركة رائق الأشكال ، وكان المجتمع الوطنى مجتمعاً زراعياً محدود الربح بطىء الحركة متواضعاً . وقد ظل المجتمع المصرى محتفظاً بطابعه الزراعى حتّى قبيل الحرب العالمية الثانية » (٣) .

(١) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٨٠

(٢) Hartmann : Arabic Press of Eg. p. 63.,

عبد الله الأنصارى : جامع التصانيف المصرية ص ٦٨ ، دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٨٤ .

ولا يوجد من هذه الصحف أعداد فى دار الكتب أو ملحقها بالقلعة .

(٣) صبحى وحيدة : المرجع السابق ذكره ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦

الفصل التاسع

أساليب الحكم الانجليزى فى مصر

- الصحافة وقضية الكفاءة المصرية
- الصحف وسياسة نجلزة الإدارة المصرية
- القضاء على الجيش المصرى
- الصحافة وإهمال شأن الحياة النيابية فى مصر

الصحافة وقضية الكفاءة المصرية :

رسم الخديوى عباس حلمى الثانى صورة لما أصبحت عليه أحوال مصر بعد عقد واحد من الاحتلال فيقول إنه اعتقد أنه إنما دعى لقيادة مقدرات بلد محتل عسكرياً ، « وما كنت لأتصور أن الجيش فى ذلك الاحتلال لا يلعب غير دور ثانوى وأنه يستخدم ببساطة لتغطية مشروعات الموظفين الإنجليز المكلفين بطبع البلاد بالطابع الإنجليزى وإخضاعها لخطط حكومتهم »(١).

كان هذا هو محور سياسة الاحتلال التى حاول كرومر جاهداً تنفيذها بكافة السبل ، وقد أطلق عليها سياسة « الإصلاح الإنجليزى لمصر » وكان الموظف الإنجليزى الذى يشارك فى هذا المجال يعتبر « مصلحاً » فى نظر كرومر ، وقد ترددت هذه العبارات مرات عديدة فى كل ما كتبه المعتمد البريطانى عن أحوال مصر منذ الاحتلال الإنجليزى بينما أطلق كرومر على نفسه لقب « بناء مصر الحديثة » (٢) .

واعتمدت سياسة كرومر هذه على أساس إيمانه القوى بالحضارة الأوروبية وأنها هى عماد كل تقدم يصيب العالم بأسره . (٣) ومن ثم كانت المساعدات الأوروبية لازمة لتنفيذ سياسة الحكومة فى مصر ، « ولكن المصريين كانوا يفضلون نوعاً معيناً من الحكومات — بما فيه من نقائص — إذا كانوا هم يتولون المناصب أكثر من تفضيلهم حكومة خالية من النقائص إذا كان على رأسها أجانب (٤) » . ولم تكن المشكلة قائمة على ذلك فحسب بل كانت الجنسيات الكثيرة المختلفة فى البلاد تشكل عقبة ضخمة أمام السياسة الإنجليزية ، ذلك أن الإنجليز وجدوا فى البلاد « المصريين الوطنيين ،

---

(١) عباس حلمى الثانى : مذكرات — جريدة المصرى فى ١٨ إبريل ١٩٥١

(٢) Travers S. : The Riddle of Egypt p. 194.

(٣) Cromer : Op. Cit. V. II p. 564, M. of Zetland Op. Cit. pp. 355, 356, Lloyd : Egypt Since Cromer p. 53.

(٤) Cromer : Op. Cit. V. II pp. 294, 295.

ثم العناصر العثمانية الأخرى كالسوريين والأرمن ، ثم البدو ثم الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم . وكان على الاحتلال أن يمد يد الصداقة إلى هذه العناصر المختلفة . ولكنه وجد ستاراً كثيفاً بينه وبين المصريين ، تكونت خيوطه من الاختلاف الديني وتباين العادات وغيرها ، ووجد الاحتلال أن وراء كل جالية أوروبية ، مهما صغرت ، دولة كبيرة أو صغيرة ترعى مصالح أبنائها في مصر . ثم كان هناك الباشوات الذين لا يتوقع الإنجليز منهم تعضيداً فهم قد اعتادوا على التمتع بكثير من الامتيازات . وهكذا وجد الاحتلال أنه يتعامل مع جنسيات متعددة وطنية وغير وطنية ، وكانت هذه أقوى الصعاب التي تواجه الاحتلال » . (١)

كانت المشكلة الكبرى إذن في نظر كرومر هي اختلاف الأهالي من حيث جنسياتهم ، ثم الشعور العدائي الذي ظهر بدرجات متفاوتة تجاه التدخل الإنجليزي في البلاد . ورأى كرومر أنه لا يمكن تطبيق سياسة إنجلترا إلا بتعيين عدد من الموظفين الإنجليز في المصالح الحكومية المختلفة رمزاً لإشراف إنجلترا على الإدارة المصرية وحتى يضمن الإنجليز تنفيذ مقترحاتهم التي يقدمونها . وقد لجأ المعتمد البريطاني إلى استخدام المواطنين حتى لا يقضي تماماً على سلطة الخديو « لأن وجود ظل من السلطة ولو وهمي بين يديه مفيد لإنجلترا وستار أمام الدول الأوروبية الكبرى يخفي كثيراً من نوايا إنجلترا وأفعالها كما هو دليل على أنها لم تضم مصر فعلياً إليها » (٢) . والمصريون الذين رأى كرومر الاستعانة بهم كان الشرط الأساسي اللازم توفره لديهم هو « تشبعهم بالحضارة الأوروبية وأن يكونوا قد حصلوا على التعليم اللازم لتطبيق النظريات الغربية في النظم الحكومية » (٣) . ويحاول ملنر توضيح ذلك بأن « هدف الاحتلال لم يكن نجلزة أصحاب السلطة المصريين من ناحية المبادئ السياسية ، لكن كان الهدف نجلزتهم من الناحية المعنوية حتى يؤدوا مهامهم بنفس الروح التي يؤديها بها الفرد الإنجليزي »(٤) .

(١) Cormer : Ibid V. II pp. 130-132.

(٢) محمد صفوت : المرجع السابق ذكره ص ٢٣٧

(٣) Cromer : Op. Cit. V. II p. 294.

(٤) Milner : Eng. in Egypt p. 290.

ويمكننا تلخيص هذه الاتجاهات فى أن سياسة الإنجليز قامت على شقين ، أولهما : الاعتماد على الإنجليز فى إدخال مظاهر الحضارة الأوروبية إلى مصر مصطبغة بالصبغة الإنجليزية .

وثانيهما : تكوين فئة من المصريين أشربت الروح الإنجليزية وتشبعت بالجو الغربى ويمكن للاحتلال استخدام أفراد هذه الفئة لتنفيذ أغراضه فى مصر .

وكان ذلك – فى الوقت نفسه – تحقيقاً لما رسمه دوفرين من اكتفاء إنجلترا بنصيب من السيادة مع إفهام المصريين أن الإنجليز لايسعون إلى حكمهم بوساطة حكومة استبدادية ، « وبذلك يبدو لهم جلياً أن الحكومة الإنجليزية من مصلحتها أكثر من غيرها من دول أوروبا أن تراهم متمتعين بالثروة والطمأنينة . ولا يمكن حكم مصر من لندن ولو شرعنا فى ذلك لنظر إلينا الأهالى بعين الكراهية والمقت ولأصبحت القاهرة موطناً للدسائس والمؤامرات الأجنبية ضد إنجلترا مما يضطرنا بعد حين أن نتخلى عن السير فى مشروعاتنا بطريقة لا تلائم شرفنا » . (١)

ووجد الإنجليز أفراداً على استعداد للإسهام فى تحقيق هذه السياسة ، وكان من بينهم نوبار الذى آمن بضرورة جعل مصر قطعة من أوروبا (٢) ، وفى الوقت ذاته كان يتعاون مع رجال الاحتلال من ناحية والوزراء الوطنيين من ناحية أخرى (ومعهم رؤساء المصالح من الإنجليز) ، كل ذلك يؤدى إلى سير الأمور فى توافق وانسجام (٣) . هذا إلى جانب هؤلاء الكتاب والصحفيين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدعوة لإنجلترا ورجالها وسياستها ومحاولة تحقيق ما تهدف إليه فى مصر ، وبذلك « تتبدل الأنظمة الاجتماعية بالمؤثرات الأدبية والمعنوية والأفكار والمجردات تبدلاً لا يختلف ولا يقل عن تبدلها بالمؤثرات المادية الملموسة » (٤) .

---

(١) Blue Books: Egypt No. 6 (1883) p. 43.

(٢) Cromer : Op. Cit. V. II. pp. 335, 336.

(٣) Dicey E. : Our Protectorate in Egypt pp. 383, 384.

(٤) Stoddard L. : Op. Cit. p. 260.

الصحافة ونجلزة الادارة المصرية :

وضع دوفرين أساس سياسة إنجلترا فى مصر وكان يستهدف فى ذلك تأكيد السيطرة الإنجليزية على مصر ، ورأى أن أهم الوسائل لتحقيق ذلك صبغ الإدارة المصرية بالصبغة الإنجليزية وقد نص على «عدم تصوره شيئاً أكثر قضاء على رخاء البلاد وحسن إدارتها من التخلص من أى عدد مهما كبر من الأجانب الملتحقين بخدمة الحكومة انقياداً للصيحات الطائشة التى ترتفع فى وجوههم ، وسوف تصبح مساعدة الأجانب فى شتى المصالح الإدارية المصرية ضرورية تماماً لفترة من الزمن . ومما يبعث على الخوف أن نرى البؤس والتعاسة تحيقان بالشعب إذا تركت إدارة شئون المالية والأشغال وغيرها دون تعليم على يد عدد من الموظفين الأوروبيين ذوى العقول الراجحة» (١) . ويؤيد كرومر ما رآه دوفرين من قبل ويقول إنه « لم توجد سوى طريقة واحدة تصلح بوساطتها الإدارة المصرية ، ألا وهى وضع الحكومة المصرية بدرجة كبيرة أو صغيرة تحت الإرشاد البريطانى » (٢) .

حقاً استمر الخديو والوزراء يمثلون بعد الاحتلال السلطة الشرعية فى البلاد ، ولكن السلطة الحقيقية تركزت فى يد مندوب إنجلترا (المعتمد البريطانى) ومساعديه من المستشارين الذين ألحقوا بالوزارات . وكان أول هؤلاء المساعدين أوكلن كولفن الذى عين مستشاراً لنظارة المالية فى ٤ فبراير سنة ١٨٨٣ بناء على تقرير قدمه شريف باشا رئيس النظارة فى ٣ فبراير يتضمن تسويغ إلغاء الرقابة الثنائية وبيان مساوئها ويطلب تعيين مستشار أجنبى له دراية بالشئون المالية وأن يكون موظفاً مصرياً يوكل إلى الخديو أمر اختياره وتعيينه وتحديد اختصاصه . (٣) وبرغم أن التقرير قصر وظائف المستشار على البحث والنظر فى الأمور المالية دون أن يتدخل فى الأمور الإدارية فإنه ما لبث أن أصبح هو نفسه يوجه الوزراء فى المسائل

---

(١) Blue Books: Eg. No. 6 (1883) p. 67.

(٢) Cromer : Op. Cit. V. II pp. 34/, 341.

(٣) الأوامر العالية الصادرة فى ١٨٨٣ ص ٣٧

التى لاترتبط بالمالية . (١) وأصبح المستشار المالى حجر الزاوية للنفوذ الإنجليزى فى الإدارة المصرية ، بل أصبح فى نظر بعض الكتاب الإنجليز « رئيس الوزراء الفعلى فى عهد الحماية الكرومرية المقنعة » .(٢)

وأخذت أعداد الموظفين الإنجليز تتزايد بعد ذلك وعين بنسون ماكسويل نائباً عاماً فى ٢٤ مارس ١٨٨٣ ، والسير كولن سكوت مونكريف مفتشاً عاماً للرى فى ١٥ مايو ١٨٨٣ ثم فى ٢٢ يناير ١٨٨٤ أصبح وكيلاً لنظارة الأشغال مع احتفاظه بمنصبه السابق . وعين كليفورد لويد وكيلاً للداخلية فى ١٥ يناير ١٨٨٤ وجون سكوت مستشاراً لنظارة الحقانية فى ١٥ مارس ١٨٩١ . (٣)

واتبع الإنجليز سياسة الاستعانة بالمفتشين فى الأقاليم (المديريات) وبخاصة فيما يتعلق بنظارتى الأشغال والداخلية ، وقد تولى هذه المناصب إنجليز أصبحوا هم حكام المديريات وأفقدوا المديرين أهم سلطاتهم(٤). وكانوا فى الوقت نفسه يخضعون مباشرة للمفتش العام الإنجليزى ويتبعهم مباشرة رجال البوليس المصريون ، وكان ذلك مثار نزاع حاد بين الحكومة (على عهد نوبار) وبين كليفورد لويد مما دفع نوبار إلى أن يطلب من جرانفيل تعيين أحد الإنجليز كرئيس للنظار فى مصر . (٥) وهكذا أصبح الإنجليز « يشرفون على شئون مصر المحلية من أعلى الهرم لا من أسفله » . (٦)

وقد وجدت سياسة نجلزة الإدارة والوظائف فى مصر ترحيباً من بعض الصحف منذ أن وضعت هذه السياسة موضع التنفيذ . وتقول صحيفة البرهان مدافعة عن سياسة الإنجليز هذه بأن « إنجلترا أنفقت نقوداً عظيمة وأراقت دماء كثير من رجالها ، وليس مقابل ذلك – كما يقول الجاهلون –

---

(١) Milner : Op. Cit. pp. 105, 106, R. Stores : Oientations(1938) p. 66, Cromer: Op. Cit. V. II pp. 286, 287.

(٢) Milner : Op. Cit. pp. 105,106.R. Stores: Orientations (1938) p.66.

(٣) الأوامر العالية الصادرة فى ١٨٨٣ ، ١٨٨٤ ، ١٨٩١

(٤) Young : Egypt pp. 164, 168, 169

(٥) Cromer : Op. Cit. V. I p. 486.

(٦) Aucland Colvin : The making of M. Egypt (1906) p. 234.

هو توظيف رجالها فى الإدارات والمصالح حتى تكون البلاد كأنها بلادهم . كلا ، فإن توظيف رجالها كغيرهم من رجال بقية الدول ليس إلا لعدم كفاءة أبناء البلاد للقيام بكل الأعمال » . (١)

وهكذا تحولت القضية إلى مناقشة مدى الكفاءة المصرية وعدم قدرة المصريين على القيام بالأعمال والمهام ، وأصبح الدفاع عن تعيين الإنجليز فى المناصب المختلفة مادة تتبارى فيها الصحف على اختلاف نزعاتها . فالأهرام فى بداية الاحتلال يتحدث عن تعيين أوكلين كولفن مستشاراً للمالية «وبما أن هذه الوظيفة مصرية الوضع فسيكون للطربوش دون البرنيطة نصيب من صاحبها ومن كاتب سره الخصوصى (٢) » . أى أن استخدام الطربوش سيحيل المستشار الإنجليزى رجلاً مصرياً دفعة واحدة فينسى جنسيته وثقافته وأهداف دولته التى عينته فى هذا المنصب .

أما الأموال التى تدفعها مصر رواتب للموظفين الإنجليز فهم يستحقونها لمقدرتهم وما يقومون به من جليل الأعمال (٣) . وقد نوقش وضع كرومر فى مصر أمام مجلس العموم ، ويورد المقطم المناقشة بكافة تفاصيلها فى صفحته الأولى وذلك لأن اقتراحاً قدم بإنقاص مرتبه ألف جنيه ، « ولكن المجلس رفض الاقتراح بالأغلبية العظمى ولم يستكثر عليه خمسة آلاف جنيه فى السنة فهو من موظفى السياسة العالى المرتبة ولا يفوقه أحد » (٤) . بل إن مجرد ظهور شائعة عن نقل كرومر كانت كافية لتخصيص الجزء الأكبر من الصفحة الأولى للتحدث عنه وتكذيب الشائعة والدعاية للمعتمد البريطانى . (٥)

وكان استخدام أى شخص إنجليزى محل تقدير من جانب المقطم خاصة « فتعيين مستر كبابة قاضيا فى المحاكم المختلطة يصادف ترحيباً ، ومعارضة

(١) جريدة البرهان فى ٨ مارس ١٨٨٣
(٢) جريدة الأهرام فى ٢٢ يناير ١٨٨٣
(٣) جريدة النيل فى ١١ فبراير ١٨٩٢ ، جريدة المقطم فى ٢٥ سبتمبر ١٨٩٠
(٤) جريدة المقطم فى ٢٤ إبريل ١٨٩٠
(٥) المصدر السابق فى ١٤ مايو ١٨٩٠

فرنسا لتعيينه بعدما وافقت الحكومة المصرية يعد من قبيل قلة الاحترام لحكومة مصر ومصالح المصريين(١) » . كذلك يحاول المقطم الربط مرات عديدة بين أعمال الإنجليز ومحاولات إصلاح أحوال البلاد فيتحدث عن سياحة بالمر المستشار المالى فى الوجه القبلى وكان قد « عقد النية على اختبار أحوال عامة الناس ، وسألناه عن الفقر فى الصعيد ، ووعد بالاهتمام بالأهالى لتخفيف وطأة الفقر عنهم ، ومن يتأمل ذلك لايلبث أن يوافق عليه فلا يمضى إلا بضع سنين حتى تعم المساعدة فقراء القطر » (٢) . ويلقى تعيين ملنر وكيلا للمالية كل ترحيب « فقد جاء التعيين فى محله ، فهو من الذوات تلاميذ كلية أكسفورد الشهيرة والكتاب البلغاء(٣) » . وفى سلسلة من المقالات يتحدث عنه بعد أن اجتذب الأفئدة إليه برقة طباعه وكرم أخلاقه وبراعته « وقد تحدث مع الصحفيين عن تقدم الديار المصرية وانتظام حكومتها بعد أن احتلتها الجيوش الإنجليزية . ورأينا أن نلخص ذلك فى المقطم إتماما للحقائق » ، وتستغرق أقوال ملنر ثلاث صفحات أولى فى ثلاثة أعداد متتالية من الصحيفة(٤) .

وقد تميز العقد الأول من الاحتلال (ولسنوات عديدة بعد ذلك) بازدياد عدد الجرائم زيادة مطردة . وقد قرر بارنج فى تقرير عام ١٨٨٤ أن عدد الجرائم يتزايد زيادة مطردة وأعرب عن حيرته لذلك (٥) ، برغم إنشائه محاكم خاصة لمحاربة الأشقياء استمرت ما بين ١٨٨٥ ، ١٨٩٠ واعترف فى نهاية هذه الفترة بأن الحالة لا تزال بعيدة عن الهدوء (٦) .

وكان الإنجليز قد أقدموا على منع مديرى المديريات من ممارسة سلطاتهم القديمة فى الضرب على أيدى الخارجين على القانون ووضعوا هذه السلطات فى أيدى مفتشين من الإنجليز يشرفون على الأمن « وأجمع الرأى العام على أن

---

(١) المصدر السابق فى ٢٦ فبراير ١٨٩١

(٢) المصدر السابق فى ١٤ مارس ١٨٩١

(٣) المصدر السابق فى أول سبتمبر ١٨٩٠

(٤) المصدر السابق فى ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ يونيو ١٨٩١

(٥) Blue Books: Eg. No. 1 (1885) pp. 37, 38.

(٦) Cromer : Op. Cit. V. II p. 289

سبب تكاثر اللصوص وإقدامهم على السرقة جهاراً إنما هو رفع السلطة من أيدى المديرين بعد تنظيم الشرطة الجديدة » (١) . ولم يخل عدد واحد من أعداد الصحف المؤيدة للاحتلال — وبخاصة المقطم(٢)—من أخبار الحوادث والجرائم « واهتم رئيس النظار (رياض) بذلك تحاشيا من ضوضاء جماعة الإنجليز وأصحاب صحف أخبارهم فلم يتمكن من إرجاع الأمور إلى مجراها (٣) » . وتحدث المقطم عن عجز المصريين عن ردع المعتدين واللصوص (٤) ، وأخذ ينشر المقالات التى تتضمن الشكوى والإشفاق مماهو حاصل من ذهاب الأمن ، وبذلك مهد السبيل إلى اعتناق الأهالى أوبعضهم مبدأ الاستعانة بالأجانب (الإنجليز) فى سبيل توطيد الأمن العام بالبلاد . وأنتجت هذه الخطة تعيين كتشنر مفتشاً عاماً للبوليس ويقول المقطم إن « هذا أهم ما يتحدث به الناس فى هذه الأيام ، فهو الذى سيجدد نظام البوليس ويغير ترتيبه ويدبر أموره على خير وجه(٥) » . ثم يصف براعته فى عمودين فى نفس العدد « ولايكون تعيينه مفتشاً عاماً للبوليس إلى حين بل لابد أن هذا الحين يستغرق السنين ، والبلاد تنتظر منه إنجاز الأعمال والمهام الكثيرة . ونحن نقابل تعيينه بالترحيب وهذه مقدمة للفرج القريب» . ويستقيل رياض ليحل محله فى رئاسة الوزارة مصطفى فهمى ، ويقول المقطم « علمنا من ثقة أن الخديو والرئيس الجديد يصادقان مبدئيا على الأمور التى يراها سعادة كتشنر لحفظ الأمن العام » (٦) .

هكذا أصبح أمر الإصلاح رهناً بوجود الإنجليز كما ترى الصحف الضالعة مع الاحتلال ، فلا تقدم فى ناحية من النواحى إلا إذا كانت بيد « مصلح » إنجليزى يعمل على إسعاد المصريين ، فإلغاء « العونة » لم يتم إلا بعد أن قدم

(١) سليم نقاش : مصر للمصريين ج ٦ ص ٢٢٧
(٢) جريدة المقطم من سبتمبر ١٨٩٠ إلى مارس ١٨٩١
(٣) ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر ج ٤ ص ٤٧١—٤٧٣
(٤) جريدة المقطم فى ٢ يناير ، ٥ ، ٨ ، ١٠ فبراير ١٨٩١
(٥) المصدر السابق فى ١٠ إبريل ١٨٩١
(٦) المصدر السابق فى ٢٠ مايو ١٨٩١

مونكريف مذكرة إلى رئاسة النظار والجمعية العمومية وصدر أمر الخديو بالموافقة على ما جاء بالمذكرة فعلا(١) . وتنظيم المحاكم الأهلية كان الفضل فيه للمستر سكوت « فأصبحت المحاكم أمينة من تسلط الأفراد عليها ،وشعر الفقراء أن حقوقهم وحريتهم محفوظة » (٢) ، وأصبح سكوت مستشار الحقانية موضع تقريظ الصحف « ولو أطلنا سير البحث عن نتيجة العدل الذى عم البلاد نتيجة أعماله لوجدنا الفلاحين فى غاية التشكر، وفضل هذه المشروعات عموماً لا ينكر ، والأمة المصرية أصبحت فى تمتع فعلى بعدل مادى حقيقى أكثر مما كانت تعرف به من قبل » (٣) .

وتلمست الصحف مختلف الوسائل فى سبيل جذب المصريين إلى الاهتمام بكل مايقوم الإنجليزبعمله فى مصر : فتمرينات جيش الاحتلال مدعاة لخبر يستغرق عموداً من الصفحة الأولى فى المقطم كلما جرت هذه التمرينات(٤) . وفرقة الموسيقى الإنجليزية « التى تصدح بأنغامها الشجية على جارى العادة كل عام » ، وسيلة أخرى لجذب الأهالى حولها فى حديقة الأزبكية (٥) .

ولايترك فارس نمر فرصة يشيد فيها بالإنجليز إلا انتهزها للتدليل على «أن وجودالاحتلال فىمصر كانوسوفيستمر أكبر نعمة تصيب البلاد»(٦). وفى سلسلة من المقالات يكتب عن مشاهداته فى لندن وعظمتها (٧) ، وتحدث عن المنافع التى نالتها البلاد من الإنجليز المنتظمين فى خدمة الجناب العالى وإكرام الأهالى لحالهم ، ويدافع عن هؤلاء الموظفين ضد أقوال الصحف الفرنسية « وهل رأوا السردار يعامل الجيش المصرى بالقوة ، أو بلغهم أن مونكريف ينهر مهندسى الرى » (٨) .

---

(١) الوقائع المصرية فى ٢٥ ديسمبر ١٨٨٩

(٢) جريدة النيل فى ٣٠ مايو ١٨٩٢

(٣) المصدر السابق فى ١٨ ، ١٩ يونيو ١٨٩٢

(٤) جريدة المقطم فى ١١ مارس ١٨٩٠

(٥) المصدر السابق فى ١٧ مايو ١٨٩٠

(٦) Wood : Op. Cit. p. 170.

(٧) المقطم فى ٢٩ أكتوبر ١٨٩١

(٨) المصدر السابق فى ٢٤ أكتوبر ، ٢ نوفمبر ١٨٩١

ويؤكد فارس نمر أن « الجانب الأعظم من المصريين إذا لم نقل كلهم راض بنتائج الأعمال التى تمت فى مصر منذ الاحتلال الإنجليزى من نواحى الرى ، والمالية والضرائب ، وكان المصريون قليلى الثقة بالإنجليز ولكن أفكارهم تغيرت الآن كل التغير » (١) .

وفى الوقت نفسه اتخذت الصحف من قضية قصور كفاءة المصريين عن إدارة شئونهم بأنفسهم مادة للعديد من المقالات لذلك « أصبح زمام جملة من مصالح الحكومة بيد موظفين أورباويين ، وبما أنه لايوجد عدد كاف من الوطنيين المدربين المحنكين على الإدارات ، كان الموظفون الأوروبيون عماداً ، ولم تكن الإصلاحات التى ظهرت نعماتها فى مصر ناشئة عن غيرتهم وشهامتهم وقوة ابتكارهم فقط ، ولكن أيضاً لو خولت قوة لهم زيادة عما لهم وصرح لهم بتنفيذ آرائهم لحصلت فوائد للمصريين أكثر » . وتستطرد صحيفة « الوطن » تؤيد قولها بالإشارة إلى نظارة العدل « إذ لما كان تداخل الأوربيين فيها أقل من غيره ، كان التقدم الذى حصل فيها هو أقل من غيره »(٢) .

وكان ذلك تكأة لما اتخذه المقطم من سياسة الدعوة إلى إطالة أمد الاحتلال فقد «تعهد الإنجليز بعدم ترك مصر حتى تصير قادرة على حفظ حكومتها».(٣) وينشر خطاب سالسبورى رئيس وزراء إنجلترا فى مجلس العموم عن ارتباط بلاده بمصر بعهود لا تأتى على إنجلترا بنفع مادى على الإطلاق ولكنها لمنفعة مصر . وكان تعليق المقطم « أن الخطاب قوبل فى مجلس العموم بتصفيق واستحسان عند كل وقفة » (٤) .

ويخصص المقطم الصفحتين الأولى والثانية فى نقل مقال لتشمبرلن ويقول عنه إنه معدود عن أكابر الإنجليز وقد أوضح « أننا (الإنجليز) لا نقدر أن نغير أحوالها كلها ونصلح كل ما يفتقر إلى الإصلاح فيها فى سنة أو بضع سنين فإنها بلاد طالما سادها الظلم وتولاها الاستبداد ،

(١) المصدر السابق فى ٢٦ أكتوبر ، ٢ نوفمبر ١٨٩١
(٢) جريدة الوطن فى ٧ إبريل ١٨٨٨ ، ٦ ، ١٠ سبتمبر ١٨٨٩
(٣) جريدة المقطم فى ٣٠ يوليو ١٨٨٩
(٤) المصدر السابق فى ١٠ أغسطس ١٨٨٩

وعجزت عن حكم نفسها ومن المحال أن يتهيأ لها الاستقلال فى الحال أو أن تحكم نفسها بنفسها ، فإذا تركناها عادت إلى زمان الاستبداد والاستعباد ، وأنا واثق أن أمتنا لا تغفل عن واجباتها » (١) . ويؤكد المقطم مرة أخرى عجز المصريين عن تولى مهامهم « إلا بعد مرور أيام طويلة وتوالى الأعقاب ، لذلك فإن إعداد الأمة لا يتم فى زمان قصير بل لابد له من زمان كاف وهذا ليس من أقوال الإنجليز بل هو مبنى على أقوال علماء مشهورين من المصريين والإيطاليين والفرنسيين(٢) » . وامتداد أجل الاحتلال هدف يحاول المقطم استغلاله لخلق الثقة بين الإنجليز والمصريين « وهذه الثقة لن تحصل إذا لم ير الإنجليز من الأهالى إلا جفاء ونفوراً ، فيحكموا على المصرى بأنه ليس أهلا لتولى أموره بنفسه وأنه لا يوافق مصلحة إنجلترا أن تترك لهم البلاد حتى يمضى هذا الجيل ويقوم بعده جيل آخر ربى على الثقة بالإنجليز واعتبار أعمالهم ليحفظ لهم عهد الولاء ويقيم على وداد منهم متى غادروا البلاد ، والعاقل يرى إزالة ما يكدر صفاء الاتفاق حتى يعرف المصرى أخلاق البريطانى ويدرك هذا مزايا المصرى » (٣) . ويعلق المقطم بعد أيام على مقاله بأنه « حل لدى العقلاء محل القبول لمطابقته مصلحة البلاد وأحكام العقول » (٤).

ويرسم فارس نمر — وهو فى لندن — للإنجليز سياسة لتربية النشء فى مصر ويحث الإنجليز على درس أخلاق المصريين وعوائدهم والتدقيق فى معرفتها « وأن يعاملوهم ويقدروهم حق قدرهم فيكسبون حبهم لهم . وأنا واثق أنه متى رقى النابغون من شبان المصريين إلى المناصب العليا وسلموا زمام المهام فى بلادهم ورأوا موظفى الإنجليز يعاملونهم بحسب ما هم أهله وما تستحقه كفاءتهم ينبت الميل إلى الإنجليز فى أفئدة المصريين متنقلا من فريق إلى فريق حتى يعم جمهور المصريين » . ويؤكد فارس نمر فى مقاله « أن بعض الإنجليز أصبحوا محبوبين وإذا عرف الإنجليز والمصريون بعضهم بعضاً حتى

(١) المصدر السابق فى ٣ إبريل ١٨٩٠

(٢) المصدر السابق فى ١٠ نوفمبر ١٨٩١

(٣) المصدر السابق فى ١٧ إبريل ١٨٩٠

(٤) المصدر السابق فى ٢١ إبريل ١٨٩٠

المعرفة وفهم كل فريق حقيقة الفريق الآخر يكتسب الإنجليز حب المصريين كما اكتسبوا ثقتهم »(١) .

ورأت جريدة « الفلاح » المؤيدة للسلطان دأب جريدة المقطم على اتباع هذه السياسة فوصفتها بأنها « تتوغل كل يوم فى الضلال ، تستغل أهل الوطن متوهمة أن كلامها فى ترويج مصلحة رجال الإنجليز يتغلب على الأفهام ، وقد بلغ بها التمادى إلى ما يؤخذ منه حبها ابتعاد مصر عن الانتماء إلى أمير المؤمنين وتحويل أهلها إلى الإنجليزية فى الجلدة واللغة والمذهب (٢) » . وكرس أصحاب المقطم جهودهم فى إصدار المؤلفات التى تحاول المزج بين الإنجليز والمصريين مثل كتاب « سر النجاح » وهو مؤلف صدر عن دار المقطم والمقتطف «روحانيته إنجليزية وجسمانيته مصرية يحوى من المبادئ الصادقة ما يشهد بجليل الفطرتين فكان أروع روح فى أجمل جسد» (٣) كذلك أصدر اسكندر شاهين « تحفة العصر أو الإنجليز فى مصر » ، وهى رواية أدبية غرامية ضمنها ما تم من الإصلاح والأحوال فى هيئة الحكومة منذ احتلال الإنجليز . وأشار إلى أسباب المسألة العرابية وعواقبها . (٤) واستمرت الإعلانات عنها شهراً فى المقطم .

واتبعت معظم الصحف خطة نشر تقارير الرسميين الإنجليز فى مصر عن أحوال البلاد تحت الاحتلال ، وكانت « الوطن » أول صحيفة مصرية اختطت هذه السياسة فتنشر تقارير كرومر بالتفصيل فى صفحتها الأولى فى أعداد متتالية مظهرة « مادلت الحوادث على ما نتج للحكومة المصرية من الفوائد والمنافع بسبب اتباعها نصيحة حكومة إنجلترا فتقدمت البلاد تقدماً باهراً فى النجاح والفلاح . وفى المدة السابقة لم يحدث هيجان واضطراب بسبب

(١) المصدر السابق فى ٢ نوفمبر ١٨٩١

(٢) جريدة الفلاح فى ٢١ إبريل ١٨٩١

(٣) مجلة الحقوق فى ١٥ يناير ١٨٨٧

(٤) جريدة المقطم فى ١٨ مايو ، ٢٩ يونيو ١٨٩١ ، مجلة الرشاد فى ٥ ديسمبر ١٨٩٢

(واسكندر شاهين واضع هذه الرواية هو ابن أخ شاهين مكاريوس أحد أصحاب المقطم ، واشترك اسكندر مع عمه فى إصدار اللطائف وكان هو الذى يحررها) .

احتلالنا البلاد بل قد فزنا بأن جعلنا معظم الأهالى متعلقين بنا ومتشكرين لنا » (١) . كذلك أخذت جريدة النيل بهذه السياسة ودأبت على نشر ترجمة حرفية لتقارير كرومر فى صفحتها الأولى (٢) .

ولم يكتف المقطم بأن يفرد أعداداً متتالية لنشر تقارير المعتمد البريطانى السنوية فحسب بل اتبع نظاماً آخر وهو إعادة طبع كل تقرير سنوى على شكل كتاب يرسل للمشتركين فى الجريدة ويباع لغير المشتركين بثمن زهيد ، مع الإعلان عنه فى صدر الصفحة الأولى من المقطم عند إتمام طبعه وتوزيعه(٣). ونافست جريدة النيل صحيفة المقطم فى ذلك المضمار وأخذت تطبع التقرير مترجماً « بعد أن كان يطبع فى الجريدة على التوالى وجعلنا قيمته ثلاثة قروش »(٤).

ويحبذ كرومر ما يقوم به المقطم سنوياً ويقول « جرت عادة إحدى الجرائد العربية الرئيسية وأعنى بها المقطم أن تطبع ترجمة تقاريرى السنوية منذ زمان . وفى السنة الماضية طبعت ترجمة تقريرى إلى الفرنسوية أول مرة بعناية الحكومة المصرية . وقد علمت بعد السؤال أنه طبع من تقرير السنة الماضية ١٠١٦٠ نسخة منها ٤٨٠٠ عربية ، ٤٤٤٢ إنجليزية ، ٩٢٨ فرنسوية . ثم أن ١٨٥٧ نسخة إنجليزية ، ٢١٨ فرنسوية وزعت مجاناً على أعضاء مجلس النواب والموظفين والصحف والباقى وقدره ٨٠٩٥ نسخة منه ما بيع ، ومنه ماوزعه أصحاب المقطم على المشتركين فى جريدتهم فهذه الأرقام تدل على أن الجمهور يهتم بهذه التقارير اهتماماً يحبذ دوام نشرها » (٥) .

ولم يقتصر الاهتمام على المعتمد البريطانى فقط بل كانت أنباء كبار الإنجليز موضع عناية الصحف فتبرزها فى صفحاتها متتبعة تنقلاتهم وأسفارهم وتقاريرهم .وتبدى الصحف أسفها إذا ما استقال أحد الموظفين الإنجليز

(١) جريدةالوطن من ٨ يونيوالى ١٩ يونيو ١٨٨٩ تقريرالاعوام من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٨ ومن ٣ يونيو إلى ١٥ يونيو١٨٩١ تقرير عام ١٨٩٠

(٢) جريدة النيل من ٢٧مارس إلى ٤ مايو ١٨٩٢

(٣) جريدة المقطم من ٣يونيو إلى ١٩ يونيو ١٨٩١ ، ٣١ يوليو ١٨٩١

(٤) جريدة النيل فى ٨ مايو ١٨٩٢

(٥) Blue Books: Egypt No. 1 (1906) p. 2

« فالسير مونكريف وكيل الأشغال والكولونيل روس من أفاضل الإنجليز الذين أفادوا مصر ، هذا مع اشتهارهما بكرم الأصل والحسب فاستعفاؤهما خسارة على البلاد (١) » . ثم تعرب الصحف عن سرورها البالغ إذ عدل مونكريف عن الاستقالة . (٢) « واقترن ذلك بالرضاء العالى ، وسر بهذا الأمر كل من عرف قيمة أعماله فى نجاح الرى ، والحق أن استبقاء مثل هذا السير الذى درس أعمال البلاد علماً وطبقها عملا واستفاد بالتجربة ، يهم المصلحة جدا » (٣) . وأخذت الصحف تنشر تقرير مونكريف عن الأعمال الهامة التى قامت بها نظارة الأشغال فى عهده ، واستغرق الحديث ثلاثة أيام (٤) . ثم صمم على الاستقالة مرة أخرى وقد « تأثر الأهالى جداً من استقالة رجل خدم الحكومة السنية خدمة صادقة »(٥) .

وحاول بعض المؤرخين تبرير سياسة الاحتلال هذه بأنها لم تتبع طريقاً معيناً محدداً فى بادئ الأمر « ولكن تطور الاحداث أدى إلى محاولة استتباب الأمر للإنجليز تدريجياً ، فالرقابة المالية أدت إلى الرقابة على المصالح والإدارات العامة ، وهذه أدت بدورها إلى التدخل المحدود »(٦) . وكانت هذه الدعوة تكأة استند عليها الإنجليز فيما اتخذوه من سياسة تهدف إلى نجلزة الإدارة المصرية ولم تكن تعنى سوى « ضم مصر إلى دائرة الإمبراطورية البريطانية المطاطة »(٧) ، مما دعا عباس حلمى الثانى إلى تقرير عجزه عن معرفة أغوار هذه السياسة « فكان يلزمنى كى أتبين مدى الجرأة التى زعزعت بها حكومة اللورد كرومر مقومات الحياة المصرية ، أن أغرق فى تيه الإدارة المصرية ، ولم يكن ذلك بالأمر السهل الميسور ، ولا يسعنى أن أصور بدقة سياسة

(١) جريدة الوطن فى ٣١ أكتوبر ١٨٩١

(٢) جريدة الوطن فى ٣٠ ديسمبر ١٨٩١ ، جريدة المقطم ، جريدة الفلاح فى ٣١ ديسمبر ١٨٩١ .

(٣) جريدة النيل فى ٣١ ديسمبر ١٨٩١

(٤) المصدر السابق فى ٩ ، ١٠ ، ١١ إبريل ١٨٩٢

(٥) المصدر السابق فى ٢١ أغسطس ١٨٩٢

(٦) Britains Work in Eg. by An Englishman in the Egyptian Service pp. 17-21.

(٧) Travers S. : Britain & Eg. Rise of Eg. Nationalism pp. 21, 22.

النجلزة العميقة الأسس »(١) . وقد «استطاعت بريطانيا أن تغير –إلى حدما– روح الوطنية المصرية بعد الاحتلال . فبعد أن كانت الوطنية تمثل فى فترة الثورة العرابية روح وآمال ومطالب وأمانى الفلاحين ، أصبحت بعد الاحتلال تمثل آمال الطبقة المثقفة » (٢) . ومن ثم نجد الاهتمام بنجلزة الإدارة ومحاولة استمالة المصريين من ذوى المناصب صغيرها وكبيرها لنزع روح الاستقلال من البلاد وحصر الإدارة بين أيديها (٣) . ورسم كرومر للموظفين المدنيين الإنجليز خطة « الاسترشاد وعلى الدوام بالدوافع العامة التى تصدر عن الدبلوماسية البريطانية فى الشئون المصرية ، لذلك يجب أن يتصفوا بصفات الدبلوماسيين المدربين على شئون الحكم »(٤) . وهكذا كان المقصود من وراء ذلك كله كما تقول صحيفة الوطن « تجريد المصالح والنظامات المصرية من الطرق والنظامات الفرنسية وجعلها من النظامات الإنجليزية (٥) » . ونجحت الإدارة الإنجليزية فى «تحقيق هدفها فى مصر بعد عشر سنوات فقط من معركة التل الكبير ، نجاحا لايقل عما استطاع الإنجليز احرازه فى الهند» (٦) .

وكان كشف هذه السياسة على صفحات الجرائد المناوئة للاحتلال يتصف بالعجز وعدم المتابعة ولم تستطع الصحف تناول إجراءات الإنجليز بشىء من النقد الحر الواضح بل جاءت المعارضة مستترة متخفية تخشى بطش المعتمد الإنجليزى. فتصف جريدة الصادق « قصور إنجلترا عن استمالة الشعب المصرى إليها إنما هو ناشئ عن عدم كفاءة عمالها ورعايتها لخواطر الموظفين الأجانب »(٧) . كذلك نددت الأهرام فى بداية الاحتلال فى مقالات

---

(١) عباس حلمى الثانى : مذكرات – جريدة المصرى فى ١٩ يونيو ١٩٥١

(٢) Newman : Op. Cit. p. 164.

(٣) هنس رزنر : المرجع السابق ذكره ص ١٢١ ، مذكرات عباس حلمى : جريدة المصرى فى ١٠ مايو ١٩٥١

(٤) Cromer : Modern Eg. V. II pp. 280-284, 300

(٥) جريدة الوطن فى ٢٨ نوفمبر ١٨٩١

(٦) Cromer : Op. Cit. V. II p. 258.

(٧) جريدة الصادق فى ٩ مارس ١٨٨٣

قليلة بالفوضى الإدارية (١) ، وتنتهز جريدة الفلاح مناسبة تخصيص نظارة المعارف جوائز توزعها على من يفوز من المصريين بمعرفة اللغة الإنجليزية ، وتنادى الجريدة برعاية شئون اللغة العربية (٢) .

وهكذا انفسح المجال أمام الصحف الضالعة مع الاحتلال فى نشر آراء الإنجليز وأهدافهم والعمل على تعميقها فى أذهان الأهالى حتى يكون لها أثرها فى حياتهم ، بينما الصحف الأخرى تقف جامدة أوكالجامدة فلا يكون لها هدف واضح يلتف حوله رأى عام ينتبه إلى ما يرسم له من خطط . وكانت المجلات إلى جانب الصحف تنشر العلم فى الشعب (٣) ، وفى الوقت نفسه « فالإنجليز قوم صبورون بعيدو النظر ، كتومون يعرفون كيف يداهنون ، ويحاورون فريستهم التى لا تلبث بعد حين دون أن يشعر الشعب إلا وانجلترا منه فى مكان مكين فعلموها لغتهم وآدابهم ، وطبقوا فيها قوانينهم وتقاليدهم (٤) » . وكانت سياسة كرومر القائمة على « إدماج المسلمين والمسيحيين والأوروبيين والإفريقيين والآسيويين فى تنظيم حكومى واحد ، يستغرق تحقيقها عدة أجيال » (٥) .

فإذا نجحت دعاية الصحف فى إطالة أمد الاحتلال والاقتباس عن إنجلترا والرضا بالموظفين الإنجليز ، كان فى ذلك نجاح لإنجلترا فى تربية جيل جديد متشبع لها (٦) . وكان ميلنر يرى أن إعادة النظام فى مصر يعنى « إصلاح التنظيم الإدارى أولا من أصله إلى فرعه . بل وأكثر من ذلك ماذا يفيد الإصلاح إذا كان سيترك فى أيدى فئة من ذوى العقلية القديمة » لذلك يوضح ميلنر أن عمل الإنجليز يشمل أشياء أكثر من المبادئ الجديدة والنظم

---

(١) جريدة الأهرام فى ١٦ أكتوبر ١٨٨٤

(٢) جريدة الفلاح فى ٣ يوليو ١٨٩٠

(٣) عباس حلمى الثانى : مذكرات — جريدة المصرى فى ٣١ مايو ١٩٥١

(٤) مظهر سعيد : نحن والإنجليز ص ٧ ، ٨

(٥) Murray H. : Egypt under the Egyptians p. 11.

(٦) Malortif : The Outlook in Egypt. p. 266.

الحديدة ، إنه يشمل العقلية الحديدة ، وتعليم جهاز من رجال الإدارة للقيام بأعباء الحكم (١) .

القضاء على الجيش المصرى :

كان حل الجيش المصرى أول التغييرات الجوهرية التى أقدم الإنجليز عليها بعد احتلالهم البلاد فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ فصدر مرسوم فى ١٩ سبتمبر بإلغاء الجيش « قصد به صرف العساكر التى جاهرت بالعصيان والاكتفاء بمحاكمة الضباط وكبار قادة الجيش (٢) » . وكان الإنجليز يرون أن وجود الجيش المصرى هو السبب الأساسى فى قيام الثورة العرابية . أما عن الجيش الجديد فقد وضع تحت إمرة سير فالنتين بيكر . وعرض بيكر على الخديو اقتراحاً بإبعاد الضباط المصريين الذين اشتركوا فى الثورة العرابية وتجنيدمسلمى البوسنة وألبانيا وبلغاريا على أن يكون الضباط من الإنجليز (٣) ، منعاً لتكرار ما حدث فى مصر قبل الاحتلال (٤) .

واتضحت نية الإنجليز منذ بداية الاحتلال فتنشر صحيفة الوطن الخطة الواجب السير عليها فى صفحتها الأولى بعد أسبوعين فقط من دخول الإنجليز البلاد ، فتقول إن « الواجب قبل كل شىء إعادة سلطة الخديو وتأييدها ، ويلزم لهذه الغاية تبديد شمل الجيش ، ويقوم مقامه قوة بوليس كافية لتأييد النظام الداخلى بين هذه الأمة التى هى أسرع انقياداً وامتثالاًمن أى أمة كانت فى الدنيا . وهذا هو أول ما يجب فعله ، وإذا اقتضى الحال إلى وجود عساكر لوقاية حدود مصر الشاسعة فيلزم إرسال العساكر إلى الحدود لا إبقاؤهم فى القاهرة والوجه البحرى متكاسلين . ولايصح تقويتهم فإن القوة تحول الضجر إلى ثورة » . وفى العدد نفسه تنشر حديثاً لبيكر باشا الذى عهد إليه تنظيم الجيش الجديد ، نقلا عنالتيمس، يندد فيه بحركة عرابى غير

---

(١) Milner : England in Eg. p. 23

(٢) سليم نقاش : مصر للمصريين جـ ٦ ص ١٤ ،
Le Moniteur Eg : Sept. 20, 1882.

(٣) Cocheris : Sit. Int. pp. 153, 154.

(٤) M. Wallace : Eg. & the Egyptian Quest. pp. 389, 390.

الوطنية « وأن الأولى تشكيل آلايات من الأرناؤوط تحت رئاسة ضباط إنجليز ليكونوا حرس الخديو ، وأن يؤلف جندرمة من الأتراك يؤتى بهم من قبرص تحت رئاسة ضباط أورباويين »(١) .

واقترح دوفرين إنقاص الجيش المصرى إلى حوالى ستة آلاف ضابط وجندى تحت رئاسة قائد وضباط من الإنجليز (٢) . وانتهى الأمر بالجيش المصرى إلى أن أصبحت مقدراته جميعاً فى أيدى الإنجليز ونزل إلى مستوى بعيد من الضعف وعدم الكفاية .

هذا ولم تعد فى مصر بعد الاحتلال سوى مدرسة حربية واحدة بعد أن كان عدد المدارس قبل الاحتلال أربعاً « وصار يؤخذ للمدرسة الحربية فى عهد الاحتلال من ساقطى الشهادة الابتدائية واقتصر التعليم فى المدرسة على معلومات ضئيلة يقوم بتدريسها معلمون معظمهم من الإنجليز . وبعد أن كانت المواد التى تدرس سابقاً ٢٤ مادة انخفض عدد المواد إلى ثمانى مواد فقط ليس بينها شىء من المواد الحربية وبذلك هبط مستوى الضباط فى العلم والكفاية على عهد الاحتلال » .(٣)

وأغفلت الصحف منذ بداية الاحتلال أمر الجيش ثم بدأت الأهرام فى عام ١٨٨٤ عدداً من المقالات منتهزة هزيمة القوات الإنجليزية فى السودان وطالبت بتقوية الجيش المصرى (٤) . وتندد بما تنادى به صحيفة التيمس اللندنية من وجوب حل الجيش المصرى نهائياً طالما أن جيش الإنجليز مقيم فى البلاد ، وترى الأهرام أن وراء هذه الحملة المدبرة قصداً خفياً هو ابتلاع البلاد « وأن هذه المحاولة لاتنطلى على المصريين .فإن انحلال الجيش ضربة لاتستطيع مصر احتمالها ولا تدرأها إصلاحات إنجلترا » (٥) .

وحاولت الأهرام توضيح أهمية الجيش وضرورته لإجراء الإصلاحات

---

(١) جريدة الوطن فى ٢ أكتوبر ١٨٨٢

(٢) Blue Books : Eg· No. 6 (1883) pp. 44-46.

(٣) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان ص ١١–١٦

(٤) جريدة الأهرام فى ٧ ، ١١ فبراير ١٨٨٤

(٥) المصدر السابق فى ٢٢ مارس ١٨٨٤

فى البلاد هذا إلى جانب قلة نفقات الجيش ، « وإن حل الجيش تصديق على الحماية . والشعب الذى لايتألف عسكره منه لا تقوم له قائمة ، ومن يصدق على هذا يحسب خائناً لوطنه » (١) .

وهكذا وقفت «الأهرام» وحيدة فى هذا الميدان ضد الاحتلال ومايهدف إليه ولم تسند الصحيفة زميلات لها فى مصر .

ثم قرر الإنجليز وضع نظام البدل النقدى فى عام ١٨٨٦ وكان يخدم الاحتلال من نواح عدة ، فقد خرج بالجندية عن معناها النظامى فى أنها فرض واجب على كل مواطن للدفاع عن بلاده إلى اعتبارها عبئاً يقع على كاهل الفقراء دون سواهم ، وبذلك حرمت البلاد من روح الجندية ، وحرمت الجيش من الفئة التى تستطيع دفع البدل وهى فى الغالب الفئة المثقفة التى تنهض بمستوى الجيش والمفروض أنها أكثر من سواها تقديراً للواجب الوطنى والكرامة القومية (٢) . وإلى جانب ذلك أصبح هناك مورد جديد للإيراد (٣) يسد عجز الميزانية ويمنح الاحتلال فرصة للتباهى بتقديم خدمات للبلاد . ويجد « المقطم » بعد عدة سنوات ، فى ذلك فرصة لبيان عدل الحكومة فيقول إن « الاعتراض بأن ذلك يوجد تمييزاً بين الأهالى فإن هذا التمييز نافع للفقير ، فتأخذ الحكومة من الغنى لتنفق على الفقير . أما المساواة بين الغنى والفقير فى أمر التجنيد فلا تكون إلا بتجنيد الجميع وذلك لا يسلم من الاعتراض ولا يبطل شكوى الأهالى » (٤) .

ويعترف « المقطم » بعدم العناية بالجيش ولكنه يستند فى ذلك إلى العجز المالى « فإذا صاح الصائحون (وممم ينفق على جيش الاحتلال ؟) فقد فاتهم أن الجناب العالى الذى لايرد له قول لو رأى أن المال الذى يدفع لجيش الاحتلال يزيد جيشه إلى الغاية المطلوبة لكان أول من جاهر بذلك قولا وأعظم

---

(١) المصدر السابق فى ١ ، ١٦ ، ٢٣ إبريل ، ١٦ مايو ١٨٨٤

(٢) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١٤

(٣) Blue Books : Eg. No. 2 (1887) p. 26.

(٤) جريدة المقطم فى ٢١ يناير ١٨٩١

من أتمه فعلا » (١) . وفى سلسلة من المقالات تدافع مرة أخرى عن موقف الحكومة إزاء قلة عدد الجيش لضيق ذات يدها(٢) .

وكان ذلك عاملا من عوامل انتشار الفساد المعنوى ، فإلغاء الجيش القومى والروح الحربية فى ذاتها ، ومفاخر الجيوش فى ميادين الحروب ، وتضحيات الجند والضباط ، فى سبيل عظمة الوطن واستقلاله ، كل ذلك هو خير غذاء للروح الوطنية ، وقد حرمت منه مصر سنين متوالية ، مما كان له أثره البالغ فى نفسية الشعب (٣) .

الصحافة واهمال شأن الحياة النيابية فى مصر :

من أهم التغييرات التى قررتها الحكومة البريطانية عقب الاحتلال إلغاء مجلس النواب المصرى وإنشاء نظام جديد يحل محله طبقاً لما قدمه دوفرين فى تقريره . وكان دوفرين يرى أن مصر ليست أهلا لنظام نيابى وحكم ديمقراطى ، وأن النظم النيابية لم تأت إلا عن طريق التطور التدريجى ، وأن وجود مجلس نواب على غرار المجالس النيابية الحديثة لن يكون إلا غوغاء جاهلة جامحة لا تستطيع مناقشة المسائل العامة وفهم الأمور المالية ولأن فيه تعطيلا لأعمال الحكومة .ولهذا اقترح دوفرين (٤) :

أولاً : تكوين مجالس إقليمية (هى مجالس المديريات) وتؤلف من ٤ إلى ٨ أعضاء تبعاً لحجم المديرية يرأسها المدير ومهمتها النظر فى الشئون المحلية الخاصة بالمديريات وينتخب أعضاؤها بالاقتراع العام .

ثانياً : المجلس الاستشارى وأطلق عليه مجلس شورى القوانين Legislative Council من ٣٠ عضواً تعين الحكومة ١٤ عضواً منهم بما فيهم الرئيس وأحد الوكيلين (وهم أعضاء دائمون) وتنتخب مجالس المديريات بقية الأعضاء من بين أعضائها على أن يمثل فيها عضوان أحدهما عن القاهرة

(١) المصدر السابق فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩١

(٢) المصدر السابق فى ٢٧ نوفمبر ١٨٩١

(٣) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١٧٥

(٤) Blue Books: Egypt No. 6 (1883) p. 48.

والآخر عن الأسكندرية ودمياط ورشيد والسويس وبورسعيد والإسماعيلية .

ثالثاً : الجمعية العمومية General Assembly وتؤلف من ٨٢عضواً من بينهم أعضاء مجلس شورى القوانين الثلاثون والوزراء الستة ومن ٤٦عضواً ينتخبهم الشعب على درجتين ولا يقل عمر الواحد منهم عن ٣٠ عاماً ، وأن يعرف القراءة والكتابة ، وأن يدفع ضرائب عن عقار أو أرض لا تقل عن ٢٠ جنيهاً سنوياً .

وصدر القانون النظامى فى أول مايو ١٨٨٣ بإنشاء مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية (١) . ولم يبارح دوفرين البلاد إلا بعد أن تأكد أن النظام الذى أرسى قواعده قد صار نافذاً .

ومما تجدر ملاحظته أن صحيفة التيمس التى تصدر فى لندن نشرت مقالا عقب الاحتلال الإنجليزى نقلته عنها صحيفة الوطن المصرية أوضحت فيه أن « المجلس الاستشارى الذى يكون وسيطا بين الأهالى والوزراء لافائدة لوجوده الآن » (٢) . فكانت اقتراحات دوفرين مصداقاً لما نادت به الصحيفة الإنجليزية من قبل ونقلته عنها الصحيفة المصرية ، وذلك يتعارض مع ما ذهب إليه كرومر من أن « فكرة وضع نظام دستورى لمصر كانت انقياداً إلى حد كبير للرأى العام الإنجليزى » (٣) .

وإن نظرة إلى مواد القانون النظامى توضح لنا مدى انعدام سلطة الأمة حكماً وفعلا إذ لم يكن لمجلس شورى القوانين اختصاص إلا إبداء الرأى فى مشروعات القوانين التى ترسلها الحكومة إليه . ولم تكن الحكومة ملزمة باتباع آراء المجلس (مادة ١٨) . وكذلك ليس للمجلس إلا أن يبدى آراءه ورغباته فى كل من أقسام ميزانية الحكومة دون أن تلتزم الحكومة السير بمقتضاها (مادة ٢٢) وليس للمجلس الحق فى مناقشة أو إبداء أى رغبة فى

(١) مجموعة الأوامر العالية الصادرة فى ١٨٨٣ ص ٧٣ — ٨٣

(٢) جريدة الوطن فى ٤ نوفمبر ١٨٨٢

(٣) Cromer : Op. Cit. V. II pp. 341, 342

وبركو الآستانة والدين العمومى ، وبالجملة ، فيما التزمت به الحكومة بقانون التصفية أو بمعاهدات دولية (مادة ٢٣) .

أما الجمعية العمومية فلم تعط سوى حق إقرار الضرائب واستشارتها فى أى قروض عامة وإنشاء الترع والسكك الحديدية وتصنيف الأراضى لتقدير الضرائب التى تفرض عليها . وللجمعية كذلك أن تبدى رأيها فى كافة المسائل والمشروعات التى تعرضها عليها الحكومة . ولكن هنا أيضاً ، كما هو الحال فى مجلس شورى القوانين ، لم تكن الحكومة ملزمة على الإطلاق بإتباع ما تراه الجمعية بصدد هذه المسائل . هذا ولم يكن لكل من مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية سلطة وضع القوانين . وبرغم كل هذه العيوب التى تنتقص من حقوق هذه المجالس فإن شريف (رئيس النظار) رأى فى هذه الخطوة بداية لإيجاد حكم دستورى حقيقى وتنشر «الأهرام» على لسانه أنه « بمقتضى الأفكار الدستورية شعرت الحكومة بالاحتياج لإرضاء الأمانى الحرة التى يتمناها شعب كثر ما تحمل من فقد كل ضمانة ضد الاستبداد ، وقد سعى الخديو فى أن يسهل مسير رعاياه نحو حرية حكيمة ، ونشر اليوم نظاماً دستورياً فكان نقطة ابتداءلعصر نجاح حقيقى»(١) .

والواقع أن غرض الإنجليز من إنشاء هذه المجالس يتضح فى خطاب دوفرين إلى كرومر إذ يقول فيه إن الهيئتين ستصبحان « أداة يتمكن بواسطتها العنصر الأوروبى (يقصد الاحتلال) فى الحكومة من التعرف على ما يدور فى خلد الأهالى وحاجاتهم الأقل وضوحا » (٢) . ويقصد دوفرين بالأهالى طبقة ملاك الأراضى الذين سوف يمثلهم كل من مجلسى شورى القوانين والجمعية العمومية إذ أن معظم المنتخبين للهيئتين هم فى الواقع من أهالى المديريات ، أما سكان المدن فكان تمثيلهم ضئيلاً جداً ، ففى مجلس شورى القوانين عضوان عن المدن فقط ، وفى الجمعية العمومية عشرة أعضاء . ولذلك كان الامتياز الوحيد الذى أعطى للجمعية حق الموافقة

---

(١) جريدة الأهرام فى ٤ مايو ١٨٨٣

(٢) Cromer : Op. Cit. V. II pp. 274, 275.

على ما تفرضه الحكومة من ضرائب (مادة ٣٤) ، وبذلك كسب الاحتلال فئة أصحاب الأراضى . هذا ويصف كرومر مجلس شورى القوانين فى العقد الأول من الاحتلال بقوله إن « المجلس لم يلتفت إليه أحد لأن البلاد كانت على شفا الإفلاس وأحوال السودان كان لها المقام الأول فى السياسة المصرية فاستغرقت انتباه الحكومة والجمهور كله تقريباً » (١) .

ويقول رشيد رضا إن « مجلس الشورى أصبح فى نظر الأمة ونظر أعضائه الوكلاء عنها غير مضطلع بما أوجد لأجله حتى أن جلساته كانت قلما تلتئم على أصول نظامه بحضور جميع أعضائه أو معظمهم » (٢) .

ووقفت غالبية الصحف من المجلس موقف المتفرج ، وبرغم اتخاذ «الأهرام» موقفاً معاديا للاحتلال وخاصة منذ عام ١٨٨٤ فإن الصحيفة لم تمنح شئون المجلس ما كان يلزم لها من اهتمام ، والفترة الوحيدة التى طالبت فيها الأعضاء بالقيام بواجبهم هى فترة عقد مؤتمر لندن عام ١٨٨٤ لبحث المالية المصرية ، فقد طالب « الأهرام » الشعب « أن يهب للمطالبة ولوم مجلس الشورى أن أهمل الواجب ، وإيفاد مواطن كبير يدافع عن وجهة نظر مصر » . ويعيد إلى الذاكرة يوم اكتتب الأعضاء « لتقديم الهدايا لقواد جيش الاحتلال (٣) مكافأة لهم على فتح البلاد . وقد أخذتنا الدهشة بهم فإننا ننتظر منهم تحقيق الآمال إذ بهم قد انفصلوا عن بعضهم وسافر كل منهم إلى بلدته غير مبالين المسئولية » (٤) .

وبرغم هذا الحماس الذى بدا من الأهرام فى عام ١٨٨٤ فقد خلت

---

(١) تقرير عن الإدارة والمالية والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩٠٥ ص ٢٠

(٢) رشيد رضا : تاريخ محمد عبده ج ١ ص ٧٢١

(٣) يقصد الأهرام بذلك ما اتفق عليه سلطان باشا ووفد من أعيان الوجهين القبلى والبحرى من تقديم أنواع من الأسلحة الفاخرة للأميرال سيمور والجنرال ولسلى والجنرال لو قواد الحملة الإنجليزية التى احتلت البلاد .

سليم نقاش : مصر للمصريين ج ٦ ص ١١

(٤) جريدة الأهرام فى ١٢ مايو ١٨٨٤

الأعوام التالية أو كادت من المقالات بل من ذكر المجالس النيابية بصفة عامة . (١)

أما الفئة الثانية من الصحف المصرية وهى التى كانت تميل نحو تركيا فقد أغفلت ذكر هذه المجالس إغفالاً تاماً فترة طويلة . (٢) ثم جاءت إشارات عابرة عما يقوم به مجلس الشورى فتتحدث « القاهرة الحرة » فى خمسة أسطر فقط عن « أهم ما يتداول فيه مجلس شورى القوانين فى جلسة غد لائحة الخفراء ثم تقديره مدة الخدمة العسكرية » (٣) . ولكن الصحيفة لا تورد فى الأيام التالية ما تم بحثه أو حتى كلمة عن انعقاد المجلس . ثم تقابل افتتاح الجمعية العمومية فى ديسمبر ١٨٨٩ بأربعة عشر سطراً عن حضور الخديو والوزراء والكبراء ولم تأت بكلمة واحدة عما يفعله المجلس . (٤) ثم ثلاثة أسطر فحسب عن « كل ما دارت عليه المداولة فى مجلس شورى القوانين مسألة الأعضاء المطعون فى انتخابهم ومسألة الأطيان التوالف » . (٥) ثم لا نجد سوى سطرين اثنين فى الجريدة عن دورة إبريل ١٨٩٠ إذ « يجتمع مجلس الشورى للنظر فى بعض المشروعات المهمة التى أحيلت عليه للتروى فيها » (٦) .

وتهمل صحيفة المقطم — التى تمثل المؤيدين للاحتلال — المجالس النيابية منذ إنشاء الصحيفة وكانت الإشارة الأولى بعد حوالى عام من صدورها فى صفحتها الثالثة إلى جانب التلغرافات الخارجية واستغرق الخبر سبعة أسطر عن اجتماع المجلس « للبحث فى لائحة تقييد المواليد والوفيات » (٧) . وبرغم ذلك لاتجد جريدة المقطم حرجاً من التهكم بمجالس النواب السابقة إذ « لم يبق أثر فى مصر للحكومة النيابية التى أنشأها الخديوى السابق ،

(١) المصدر السابق خلال عامى ١٨٨٥ ، ١٨٨٦
(٢) جريدة القاهرة الحرة خلال أعوام ١٨٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٨٩
(٣) المصدر السابق فى ٩ يونيو ١٨٨٩
(٤) المصدر السابق فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٩
(٥) المصدر السابق فى ٤ فبراير ١٨٩٠
(٦) المصدر السابق فى ١٥ إبريل ١٩١٠
(٧) جريدة المقطم فى ٢١ أكتوبر ١٨٨٩

فكان أعضاؤها يصدقون على ما يعرض عليهم وهم لا يعلمون علام يصدقون ، والآن صار المصريون يقدرون حقوقهم حق قدرها . ولم تعد المباحثات التى تجرى الآن فى مجلس شورى القوانين مجرد حبر على ورق . وقد زالت عنهم الذلة والجبانة وتمكنت فيهم العزة والقوة التى تحصل عن إعطاء الحرية فى الفكر والرأى » (١) .

ثم يناقض المقطم نفسه بعد شهرين من مقاله هذا فيأتى بملخص خطاب لسالسبورى فى مجلس اللوردات عن عدم صلاحية النظام النيابى للهند لكثير من الاعتراضات ، « ويتبين للقارئ من مطالعتها أنها لا تنحصر فى أهل الهند بل تحتمل الإطلاق على ما سواها من بلدان المشرق . ونحن لا ننكر أنه لا يوجد بيننا إلا أفراد قلائل لا يصلحون لأن يكونوا من النواب — ولو أنكر سوانا ذلك — وكم من الرعية من عارف بحقيقة الوطنية والواجبات العمومية . ولا عجب إذا قل عدد المميزين منا بهذه الميزة فإنها أوصاف لم يخص الله بها إلا أفراداً قليلين » . (٢)

وفى الوقت الذى يتحدث فيه المقطم عن قصور المصريين فى النواحى النيابية وأعمال الشورى وتصريحه بعدم وجود أشخاص يصلحون لذلك بين الخاصة والعامة ، نجد المقطم ينشر فى صفحاته الأولى تاريخ « المال ورجال السياسة الإنجليز » ، ومنهم غلادستون الذى لا يذكر مجلس نواب الإنجليز وحزب الأحرار منهم إلا وحضرت صورة غلادستون فى الذهن . ولا توصف بلاغة خطباته إلا ذكر غلادستون فى المقدمة . وقد انتخب الأب والابن فى مجلس النواب وعلا قدرهما . ومازال يجاهد حتى طار صيته فى المشارق والمغارب » (٣) . ثم يتحدث فى الصفحة الأولى

---

(١) المصدر السابق فى ٨ يناير ١٨٩٠ — وقد تجاهل المقطم الدور الهام الذى قام به مجلس النواب فى عهد توفيق وإصراره على مناقشة ميزانية البلاد بل وإسقاطه وزارة شريف نتيجة لتمسكه بهذا الحق .

(٢) المصدر السابق فى ١٥ ، ١٧ مارس ١٨٩٠

(٣) المصدر السابق فى ٢٠ سبتمبر ١٨٩٠

كذلك عن تشمبرلن ودربى وتشرشل وجوشن وهركورت وغيرهم من خطباء الإنجليز ومنهم « الفصيح ، والسريع ، والمتدفق العبارات والذى لا يلفظ فى الدقيقة إلا ١٥٠ كلمة والغالب أنه يلفظ فيها ١٢٠ كلمة فقط » . (١)

وكانت اجتماعات البرلمان الإنجليزى تتصدر الصفحة الأولى من المقطم الذى يورد فيها مايدور سواء كانت متعلقة بمصر أوغير ذلك ، بكل تفاصيلها ومواقف الاستحسان والتصفيق ويتخذ فى ذلك عنواناً ثابتاً هو «البرلمان» وكأنه يتحدث عن برلمان مصر ذاتها ، وكذلك نص خطب الملكة فى مجلسى الأعيان «اللوردات والنواب ، وقد سبق البرق فأعلمنا بخلاصة جانب منها ، وقد رأينا أن نعرب الخطبة برمتها الآن تكميلاً للفائدة » (٢) . وتخصص لها الصحيفة الصفحة الأولى كعادتها . وفى الوقت نفسه تتحدث اللطائف فى عدد من الصفحات عن تاريخ البرلمان الإنجليزى «الذى سار فى أوعر الطرق وقاسى كل أنواع الاضطرابات . ولكنه كان يزيد رسوخاً وثبوتاً » . (٣)

وهكذا حاولت هذه الطائفة من الصحف قتل المجالس النيابية فى مصر وفى الوقت نفسه تحاول إبراز أهمية هذه المجالس فى إنجلترا وتورد أخبارها ويوحى حديثها بمدى الاهتمام بها .

أما صحيفة المؤيد الممثلة لوجهة النظر المصرية «الوطنية» ، فإنها تهمل شأن المجالس التشريعية ، ثم تنتهز مناسبة ذكر كرومر فى تقريره عن عام ١٨٩٠ للمجلس ويختم التقرير بأنه يأمل أن هذا المجلس ينفع البلاد فى المستقبل فتقول الجريدة « إننا إذا وزنا هذا الكلام بشقيه وبحثنا عن توجه نظر جنابه منذ عامين إلى أعمال هذا المجلس وذكر الانتقادات عليه رجحت كفة الأمل بأعماله . فلقد كان قبل سنتين غير أهل لأن يذكر عنه سطر فى تقارير

---

(١) المصدر السابق فى ٤ مارس ١٨٩١
(٢) المصدر السابق فى ٧ سبتمبر ١٨٨٩ ، ٢٠ فبراير ١٨٩٠
(٣) مجلة اللطائف فى ١٥ أغسطس ١٨٨٩

المراقبين الرسمية السنوية إلا لفلتة أو زلة أو هفوة ، أما الآن فصار يذكر له بعض الحسنات » . (١) ويلاحظ أن المؤيد بدأ يورد أنباء مجلس شورى القوانين منذ ذلك الحين بعد أن كان لا يذكر شيئاً عنه من قبل (٢) . ولكن لم يتعد المؤيد فيما يكتبه حدود الخبر فحسب ، ولم يفصح — فى فترة بحثنا — عن وجهة نظره تجاه المجلس .

وهكذا تضافرت عوامل كثيرة — منها الصحافة — على إهمال شأن مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، فلم يكن لهما أثر فى الحياة العامة ولم يسمع لهما صوت فى تطور الأحداث .

---

(١) جريدة المؤيد فى ٧ يونيو ١٨٩١

(٢) المصدر السابق فى ١١ ، ١٣ يونيو ١٨٩١

الفصل العاشر

الحياة الفكرية والاجتماعية بمصر

فى العقد الأول من الاحتلال

- سياسة الاحتلال التعليمية
- الصحف تدعو إلى نشر التعليم الإنجليزى واللغة الإنجليزية
- الصحف الأدبية وتأثيرها فى المجتمع
- دور الصحف فى الترجمة عن الإنجليزية
- المعركة بين الفصحى والعامية
- بين مجلة الأزهر ومجلة الأستاذ
- صحيفة الفتاة تدعو إلى الاقتباس عن الحياة الإنجليزية
- الصحافة والاهتمام بالنواحى المادية
- صحف تدعو إلى الماسونية
- الصحافة ومظاهر الانحلال فى المجتمع المصرى

سياسة الاحتلال التعليمية :

وجد الإنجليز فى مصر عند وقوع الاحتلال نهضة تعليمية ورغبة مشتركة من جانب الشعب والحكومة فى سبيل النهوض بالتعليم بمختلف مراحله ، وكانت المجانية تشمل جميع هذه المراحل : الابتدائية ، والثانوية ، والعالية . وكانت اللغة العربية هى أساس التعليم بأكمله ما عدا مدرسة الحقوق حيث كانت المواد تدرس باللغة الفرنسية ، وكانت الحكومة ترسل فوجاً من الطلبة كل عام إلى أوروبا للتخصص فى بعض العلوم ، ولم يكد يخلو مركز من مدرسة ابتدائية ، وكانت المدارس الثانوية فى عواصم المديريات إلى جانب ست مدارس عالية وأربع مدارس حربية . (١)

وقد وعد دوفرين عند وضعه نظام مصر فى بدء الاحتلال بالعناية بالتعليم وأكد حرص الحكام الجدد على ذلك « حتى لا تكون صيحة مصر للمصريين صيحة جوفاء » .(٢) ولكن ما تم — باعتراف كرومر — فى العقد الأول من الاحتلال كان على عكس ما ذهب إليه دوفرين (٣) ، ذلك أن سياسة الإنجليز بإزاء التعليم قامت على أساس إهمال التعليم العالى وانصرفت همتهم إلى نشر التعليم الأولى ، ومن أجل ذلك شجعوا بكل ما ملكت أيديهم على نشر الكتاتيب . (٤) وكان أول هم لإنجلترا فى مصر إقفال المدارس وكانت النتيجة سلب الأمة معارفها وحرمانها من التربية والتحلى بالعلوم والآداب لتصل بذلك إلى إضعاف قواها وجعلها غير قادرة على

---

(١) Rothstein : Op. Cit. pp. 317, 318., Bluc Books: Egypt No. 6 (1883). p. 66.

(٢) تقرير دوفرين فى ٦ فبراير ١٨٨٣

(٣) Elgood : Egypt p. 103.

(٤) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة ج ٤ ص ٣٣ ، Cromer : Mod. Eg. V. II p. 297, De Guerville : New Egypt p. 170

المقاومة (١) . وتبعاً لذلك انخفضت المبالغ المخصصة للتعليم فى ميزانية الدولة من حوالى ١٠٠ ألف جنيه سنة ١٨٨٣ إلى ٧١ ألف جنيه فى عام ١٨٨٨ ووصلت إلى ٩٠ ألفاً فى عام ١٨٩٢(٢) . وألغت الحكومة التعليم المجانى ، ويبرر كرومر هذه السياسة بأنها قامت للتشجيع على التعليم « ذلك لأن من يريد أن يتعلم عليه أن يثبت ذلك بدفع نفقات تعليمه (٣) » . ويدافع المقطم عن هذه السياسة بأنها تمت بعد بحث طويل وأن يعقوب أرتين وكيل المعارف يرى أن يقل عدد الطلبة الذين يعلمون مجاناً ما أمكن ، وأن تلغى المدارس التجهيزية التى فى غير العاصمة (٤) . ويتبين من ميزانية مصر خلال الخمس والعشرين سنة الأولى من سنى الاحتلال أن مجموع الإيرادات التى حصلتها الحكومة المصرية بلغ ٢٥٨ مليون جنيه أنفق منها على التعليم ٢,٨٠١,٠٠٠ جنيه فقط أى نحو ١٪ من مجموع الإيرادات . بل إنه فى عام ١٨٧٣ بلغ عدد تلاميذ المدارس الابتدائية ٩٠,٠٠٠ تلميذ أى ١٧٪ من سكان القطر الذين بلغوا ٥,٢٥٠,٠٠٠ نسمة . وبعد ربع قرن من الاحتلال الإنجليزى انخفضت نسبة التلاميذ إلى ١٦ فى الألف من تعداد السكان الذى بلغ أكثر من ١١ مليون نسمة فى العقد الأول من القرن العشرين . (٥)

وبرغم تلك الأرقام الرسمية جرت عادة المقطم على أن يورد سنوياً سجلاً لمدى التقدم الذى أصاب البلاد على أيدى الإنجليز فى معرض دفاعه عن سياسة الاحتلال ، ويتحدث عن ازدياد عدد الكتاتيب ويطلق عليها عبارة (المدارس عند الفلاحين) « فمن بعد أن كانت ٤٢٣٢ سنة ١٨٧٥ أصبح عددها ٦٦٣٩ سنة ١٨٨٧ أى أن عددها زاد . هذا عدا مدارس الأوقاف وتعليم الأفراد للأفراد » . (٦) ولم يذكر التعليم الثانوى او العالى بكلمة واحدة .

---

(١) هنس رزنر ، المرجع السابق ذكره ص ١١٠

(٢) مضابط مجلس شورى القوانين : جلسة ٢٤ ديسمبر ١٩١٤ ص ٥٠ ، ٥١

(٣) Cromer : Op. Cit. V. II p. 532.

S. Travers : The Riddle of Eg. pp. 135-137.

(٤) جريدة المقطم فى ٨ يونيو ١٨٩١

(٥) Rothstein : Op. Cit. p. 317.

(٦) جريدة المقطم فى ٣٠ سبتمبر ١٨٨٩

وترتب على هذه السياسة نتائج بعيدة المدى : منها عدم وجود الرغبة فى التعليم ذاته ، هذه الرغبة التى لا تنشأ إلا فى ظل فئة متعلمة تنشر الوعى التعليمى ، ثم انعدام الرغبة فى الإصلاح نتيجة للجهل السائد ، هذا إلى جانب أن المتعلمين كانوا مجرد أفراد نالوا حظاً من التعليم النظرى لا يصلحون إلا للأعمال الروتينية، (١) وأصبحوا ينظرون إلى التجارة والصناعة بعين الاستخفاف والاحتقار لزعمهم أن «من يتسلم مراكز الحكومة قد امتطى صهوة المجد » (٢) .

وقد أدرك كرومر أن التعليم العالى القائم على الأساليب الحديثة كان من نتائجه ظهور قادة من المتعلمين يسير الشعب وراءهم فى كفاحه فأراد أن يمنع حدوث مثل ذلك فى مصر ، ويتضح ذلك من قوله « لقد اعتبرنا أن توفير مستوى موحد للتعليم هو الضمان الوحيد ضد قيام الديماجوجيين الذين قد يعملون على إثارة الشعب ضد الحكام الأجانب » (٣) . وكان لهذا أثره إذ اصطبغت حياة الموظفين بصبغة مادية رخيصة ألا وهى السعى وراء الوظيفة لا يبغون بها بدلاً ، «وشعب هذه حال المثقفين فيه لا ينظر إلى الأدب إلا بمنظار المادة لابد وأن ينصرف الأدباء فيه إلى تملق الرؤساء وأصحاب الحول والطول ، وقلما ركن أحدهم إلى نفسه يسمع نداءها الحر فيسجله ويخرج به على الناس براء من المديح والمداهنة والنفاق الاجتماعى . وهكذا فإن الثورة الفكرية التى أحدثها الأفغانى وحمل مشعلها تلاميذه من بعده أطفأها الإنجليز بطريقتهم فى الثقافة والتربية » (٤) . وكان من نتيجة هذه السياسة فى الأدب أن نقص عدد القراء فى عهد الاحتلال نقصا زريا « ولولا أن الصحف والمجلات قد آوت الأدباء وأفسحت لهم ميدان الكتابة ، لما وجد هؤلاء سبيلاً للإنتاج الأدبى أو شبه

---

(١) J. Marlowe : Anglo - Eg. Rel. pp. 189, 190'

(٢) نسيم ملوك : سوريا ومصر ص ٢٤ ، ٢٥

(٣) Cromer : Op. Cit. V. II p. 534.

(٤) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ١٨ — ٢٠

الأدبى ، ولكن الصحف السيارة ليست ميداناً للتجويد الأدبى لأن جمهرة قرائها من غير الأدباء ولأنها تعنى بالأخبار والحوادث قبل أن تعنى بالمقالة الإنشائية أو يجب أن تكون كذلك ، فيجب على الكاتب أن يراعى مستوى الجمهور الذى يكتب له ، لهذا نزل الكاتب إلى المستوى الذى يتطلبه الجمهور فى أسلوبه وموضوعه وطريقة عرضه »(١) .

ولم تظهر فى كثير من الصحف سوى مقالات متفرقة تدعو إلى العناية بشئون التعليم فنجد فى جريدة الصادق أحاديث عن « مدارسنا التى كانت منتزه الأفاضل ومسرى عليل النسيم فى حدائق الفنون ، حتى صار ينوه باسمها ويقسم بحياتها ، إلى أن مدت إليها يد المحاق وكاهل البلاء فغابت شمسها وأفل بدرها . ومن حوادث الدهر وإحن الزمن أنه يوجد بقطرنا مدارس قديمة مرصد عليها ريع أوقافها فضمتها إليها إدارة الاوقاف وأبطلت عموم وسمها الخيرى ، ونلتمس إحياء ما اندرس من المدارس »(٢) . وتتحدث « القاهرة » عن تدهور التعليم فى مصر « فنجدها خالية من المدارس والمكاتب حالة كونها دار العلوم الإسلامية . وقد رأينا عدة سرايات خالية أو تسكنها ضباط الإنجليز ، فالأولى والحالة هذه أن تجعل هذه السرايات العظيمة الخالية من السكنى مدارس » (٣) .

وتعد صحيفة الآداب الصحيفة الوحيدة التى أولت شئون التعليم ماينبغى من عناية إذ كانت تخصص أعداداً بأكملها للحديث عن التعليم كمقال « أمس واليوم والغد » تناولت فيه التقدم والتمدن وتطور العلوم وتقدمها وطالبت بالاهتمام بأمر التعليم والمدارس « إذ نحن أحوج إلى اللب من القشور سيما وأنا فى زمن توجهت فيه أنظار من بيدهم زمام الأمر إلى ما فيه الصالح وبه ارتقاء الأمة . فلا يليق الإغفاء عن الواجب ونحن فى افتقار إليه » (٤) . وقد برز اتجاه الآداب نحو ميدان التربية والتعليم على أتمه فى عامها الثالث :

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٥

(٢) جريدة الصادق فى ١٣ نوفمبر ١٨٨٦

(٣) جريدة القاهرة فى ٣ مارس ١٨٨٦

(٤) جريدة الآداب فى أول مارس ١٨٨٨

فى سلسلة مقالات عن « التقدم الحديث » لمحمد تيمور أوضح أهمية التعليم للبلاد وعزا تأخر الوطن العربى إلى عدم العناية بالشئون التعليمية .(١)

واهتمت المجلة بقضية المناهج الدراسية ونظم التعليم فى المدارس التى أهملت اللغة العربية (٢) . وتتهكم بالتعليم الفنى فتنعى على الحكومة موقفها من مدرسة الصنايع والفنون كأنها « وضعتها نافلة بين عدد من المدارس لنفاخر باسمها . وإذا قيل ما هى ؟ قلنا إنها مدرسة تنفق عليها حكومتنا كذا كل عام توصلاً إلى غاية جليلة نبارى بها الغربيين » . وتطالب الآداب بالعناية بهذا التعليم لأهميته .(٣)

كذلك تتحدث عن الهدف الوطنى فى تعميم التعليم حيث يحقق وحدة الشعور والتفكير والعناية بالتعليم الدينى فى المدارس الأميرية وإدخال بعض العلوم الحديثة فى الأزهر فيتلاشى الانقسام الثقافى فى الأمة(٤) . وفى الوقت نفسه اهتمت بأسلوب التعليم وعلاقة المعلم بتلميذه وواجبات المعلمين وشئون التلاميذ النفسية والحسمية ، وقوة الأبوين والمعلمين فى تربية النشء وصلة التربية بالعادات والقوانين (٥) . ومزجت الصحيفة بين التربية الأدبية والتربية العقلية فى زرع الفضيلة فى قلب الشعب وأوضحت لغز المعارف كلها مالم ينتفع بها الناس وتتهيأ لهم ملكة علمية تساعدهم على التطور ، والسبيل الوحيد لذلك هو العاطفة التى ترقى الأمة .(٦)

وتنادى الآداب بضرورة التوسع فى التعليم فى عدد من المقالات المسلسلة على شكل تحقيق صحفى موضحة أنه « إذا فقدت هذه البلاد صوت العامة الذى يشرح مطالب الأمة وينادى بحقوقها فما سكت لسان حالها عن البرهان على حاجة تعميم التعليم » . وتعترض على المنادين بكفاية التعليم الموجود

(١) المصدر السابق فى ٥ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٦ أكتوبر ١٨٨٩
(٢) المصدر السابق فى ٣٠ مارس ١٨٨٩
(٣) المصدر السابق فى ٢٠ إبريل ١٨٨٩
(٤) المصدر السابق فى ٢١ سبتمبر ، ٥ أكتوبر ، ٩ نوفمبر ١٨٨٩
(٥) المصدر السابق فى ١٧ ، ٢٤ ، ٣١ أغسطس ١٨٨٩
(٦) المصدر السابق فى ١٣ يوليو ، ١٧ أغسطس ، ٢١ سبتمبر ١٨٨٩

القائلين « وحسب البلاد من العلم والعلماء مثل هذا العدد القليل ، وهذا غاية ما يجدون ، وهم عن الحق بعيدون فإن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا ارتقى نفساً وتقدم علماً وعملاً ولا مرية فى أن الأمة السائدة هى التى تبلغ درجة أرقى فى العلوم والمعارف . والأمة المسودة هى التى لا تستطيع بجهلها أن تحفظ نفسها فى الوجود(١) » .

ثم يصدر على يوسف عام ١٨٨٩ جريدة «المؤيد» صحيفة سياسية ولكنها تواصل المناداة بنشر التعليم « إذ أن الحاجة ظاهرة إلى تعميم التعليم ، ومهما اجتهدت الحكومة فى إنشاء المدارس وتوسيعها وتسهيل سبل الدخول فيها فلا تكون قد صنعت غير الواجب عليها » وطالبت أعضاء الجمعية العمومية « أن يطلبوا من الحكومة إلزام نظارة المعارف العمل على توسيع دائرة التعليم (٢) » .

وإذ تنشر «الأهرام» شائعة عن إلغاء نظارة المعارف (٣) ، فيجدها المؤيد فرصة للدفاع عن التعليم وضرورة النهوض به والإبقاء على النظارة ويهاجم «الأهرام» لأنه «يسعى فى مصر فسادا ويختلق ما يشوش الفكر ، يقول وهو لا يخجل من الكذب أن نظارة المعارف ستلغى وتجزأ على النظارات الأخرى ، ويذيع الأباطيل والترهات لأن منفعة ذويه لا تقوم بتقدم المعارف فى مصر »(٤) ، ويحث الإنجليز على العناية بأمور التعليم « وليس بممكن أن تتوجه عزيمتهم إلى مس نظام المعارف الحالى فهم يجاهرون بأنهم يسيرون فى البلاد المصرية على خطة الإصلاح كى يتسنى لهم أن ينهضوا بها إلى ذروة التقدم »(٥) . وكأن على يوسف يحاول إحراج

---

(١) المصدر السابق فى ٢١ ، ٢٨ سبتمبر ، ٥ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٦ أكتوبر ، ٢ ، ٩ نوفمبر ١٨٨٩

(٢) جريدة المؤيد فى ٩ ديسمبر ١٨٩١

(٣) جريدة الأهرام فى ١٦ إبريل ١٨٩١

(٤) جريدة المؤيد فى ١٩ إبريل ١٨٩١

(٥) المصدر السابق فى ٢١ إبريل ١٨٩١ ونقلت جريدة الاتحاد المصرى هذه المقالات بتاريخ ٢٣ إبريل ١٨٩١

رجال الاحتلال فلا يقدمون على هذا الإجراء الذى أشاعه «الأهرام» فيقضون على التعليم قضاء نهائياً فى مصر .

ويعترف مجلس شورى القوانين بإهمال التعليم ويقرر أن « نشر التعليم قد تقهقر تقهقراً كلياً عما كان عليه قبل ذلك ، وأن القابضين على زمام نظارة المعارف قد سعوا بكل اجتهاد إلى طرق تقليل التعليم وسد أبوابه بكل حيلة فى وجوه الأمة » (١) . هذا وقد مسخت الحكومة برامج التعليم وحرصت على استبعاد التاريخ القومى الصحيح من المناهج لكى تنشأ الأجيال جاهلة تاريخ بلادها محرومة من غذاء النفوس فى الوطنية ، لا تفرق بين الاحتلال والاستقلال ولا تدرك ما فى الاحتلال من إهدار لكرامة الشعب وحقوقه (٢) . « وإذا نجح عدو الوطن فى إقناع الشعب بأن الأفضل ألا يكون المتعلمون إلا آلات حكومية ، وأن زيادة عدد المتعلمين يضر بالبلاد ضرراً بليغاً بحيث يخرجهم عن مصيرهم الطبيعى ويجعل منهم أداة إجرام وبغى ، ولو أنه تمكن من أن يقنع الشعب بأن التفوق العلمى مناقض للديمقراطية وخطر عليها ، لتقطعت الصلة بيننا وبين الوطن ، ولاحمرت وجوهنا خجلاً عند ذكر آبائنا عوضاً عن أن نفاخر بهم وبالانتساب إليهم ، ولكفى ذلك لجعل الشعب أهلاً لأن يغزوه شعب آخر بدافع هذه المشاعر المنحطة التى تطفئ العزم وتبيد الإرادة وتسحق القوة » (٣) .

الصحف والدعوة الى نشر التعليم الانجليزى واللغة الانجليزية :

لاشك فى أن فرض ثقافة بعينها على أجيال ناشئة يصوغهم على مثال أصحاب هذه الثقافة ويجعلهم معرضين للفناء فيهم والانقياد لهم (٤) . وهذا ما حاول كرومر العمل على تحقيقه فعلاً بين المصريين : ذلك أن أهم المشكلات التى واجهت التعليم فى رأى كرومر هى « أن الجيل الجديد من المصريين يجب أن يجد من الإغراء أو من الإرغام ما يجعله يمتص الروح

(١) مضابط مجلس شورى القوانين عام ١٨٩٤ — جلسة ٢٤ ديسمبر ١٨٩٤ ص ٥٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ذكره ص ١٨١

(٣) أحمد وفيق : اللغة والدين والعادات من مقومات الاستقلال ص ٣٩

(٤) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر جـ ٢ ص ٢٦٨

الحقيقية للحضارة الأوروبية » (١) . واتخذ من ذلك تكأة وأسرف فى إحضار المدرسين من أوروبا للمدارس المصرية « لرفع مستوى التعليم » . (٢) وتسرف جريدة الوطن فى مدح هذه السياسة وتعدها مكرمة من كرومر أن يلتفت إلى المعارف ، « وكانت جميع المدارس الابتدائية فى أيدى مصريين ، ومنذ سنة تعين دنلوب الإنجليزى رئيس المفتشين فى المعارف وتعين ثلاثة أساتذة إنجليز فى المدارس المصرية ، ويميل نبلاء المصريين إلى تعليم أولادهم اللغة الإنجليزية وفضلوها على اللغة الفرنساوية » . وتؤكد الصحيفة أن ذلك الإجراء لا صلة له بالنواحى السياسية بل إنه يهدف إلى تخريج شبان يتعلمون كيف يكونون مصريين ! (٣)

وفى الوقت ذاته يحبذ المقطم هذه السياسة ويؤيد فكرة إرسال بعض المصريين ليتعلموا فى إنجلترا ، « فإن المدارس الإنجليزية من أكثر مدارس أوروبا إتقاناً وأشدها اهتماما بتهذيب الطلبة » (٤) .

وليس من شك فى أن أكبر الآفات التى أصابت التعليم فى مصر المحتلة إسناد وظائف التدريس إلى الإنجليز دون المصريين وهكذا عمدت فئة قليلة من الإنجليز تحتل البلاد احتلالاً أطلق عليه وصف «مؤقتاً» ، عمدت هذه الفئة إلى أن تفرض على أمة تعدادها عدة ملايين لغتها وطريقة تفكيرها الأجنبية . وأول من شرع فى هذه السياسة دنلوب الذى شغل منصب مفتش المدارس ، وقد بدأ فى تنفيذ الخطة الإنجليزية سنة ١٨٩٠ بأن ابتدأ فى عقد امتحانات مسابقة فى اللغة الإنجليزية يعطى الناجح فيها جائزة (٥) ، «والمأمول بناء على ذلك أنه إذا زاد عدد المدرسين فى المدارس الابتدائية والمدارس الأرقى منها ستصبح أمام الجيل المصرى الناشئ فرص تمكنهم من إتقان اللغة الإنجليزية » (٦) . وقد آتت هذه السياسة ثمارها فى عقد واحد إذ زاد

(١) Cromer : Op. Cit. V. II p. 538.

(٢) Cromer : Ibid V. II pp. 535, 536.

(٣) جريدة الوطن فى ١٩ يوليو ١٨٩٠

(٤) جريدة المقطم فى ١٩ نوفمبر ١٨٨٩

(٥) Rothstein : Op. Cit. pp. 320, 522.

(٦) Blue Books: Egypt No. 2 (1890) p. 163.

عدد تلاميذ المدارس الذين يدرسون اللغة الإنجليزية من ١٠٦٣ تلميذا عام ١٨٨٩ إلى ٣٨٥٩ عام ١٨٩٨ أى من ٢٦٪ إلى ٦٧٪ من المجموع الكلى للتلاميذ ، بينما انخفض عدد التلاميذ الذين يدرسون الفرنسية من ٢٩٩٤ تلميذ إلى ١٨٨١ ، أى من ٧٤٪ إلى ٣٣٪ من المجموع الكلى»(١) .

لذلك نرى صحيفة المقطم تندد باللغة الفرنسية مستشهدة بأن أهالى القطر المصرى وغيره من الأقطار الشرقية من أقاصى الهند واليابان راغبون فى تعلم اللغة الإنجليزية لأنها لغة أوسع الأمم تجارة وأرقاهم علماً وتمدناً وأكثرهم عدداً . ويقول المقطم إن «الصحف المتفرنسة تندد بنظارة المعارف لأنها زادت عدد معلمى اللغة الإنجليزية ، ولو نظرت هذه الجرائد فى حقيقة هذه الزيادة وبينت أسبابها وأثبتت أنها تفوق المطلوب لوجب لها الشكر ». ويعترف المقطم بزيادة المدرسين الإنجليز زيادة هائلة ولكنه يبرر ذلك بأن طالبى اللغة الإنجليزية زادوا عدداً (٢) .

وتدعو الصحيفة الشعب المصرى إلى إتقان الانجليزية بعد أن تقرر أن تكون من جملة اللغات الرسمية التى يترافع بها فى المحاكم المختلطة ، « هذا وإن اللغة الإنجليزية تنتشر الآن انتشاراً سريعاً فى هذا القطر حتى لقد عنى أكثر أبناء الأعيان بتعلمها وصارت مما لا يستغنى عنه عند فريق كبير من المصريين ، وإذا دامت الحال على هذا المنوال فلا تمضى بضع سنين حتى تعم ، لذلك فالحكيم من استعد للانتفاع بها قبل أن يسبقه غيره إلى منافعها » .(٣)

ثم يدعو المقطم القراء فى صفحته الأولى إلى العمل على الاتصال بالإنجليز و « كل المكاتبين ذوى المكانة فى مصر والشرق كله أن يبعثوا بكل ما يريدون أن يعلم فى المسكونة إلى محرر جريدة بإنجلترا تسمى (المشرق والمغرب) . وينشر المقطم صيغة الدعوة باللغة الإنجليزية فى الصفحة الأولى كذلك ، وفى الأعداد نفسها تتحدث الجريدة فى الصفحة الثالثة عن صحيفة

(١) Blue Books: Eg. No. 3 (1889) p. 43.

(٢) جريدة المقطم فى ١٥ يوليو ١٨٩٠

(٣) المصدر السابق فى ٢١ نوفمبر ١٨٩٠

(المشرق والمغرب) التى صدرت فى بلاد الإنجليز » وقد كتب إلينا أصحابها أن الغرض منها وقاية مصالح الشرقيين ، وإذا فازت هذه الجريدة بنجاح المقصد خدمت المشرق أعظم خدمة وطوقت جيده بأسمى منة » (١) . وقد استمر نشر ذلك شهراً كاملا ، وكانت طريقة مبتكرة فى ميدان الصحافة المصرية العربية للدعوة إلى إتقان اللغة الإنجليزية وإرسال المقالات بها إلى إنجلترا لتنشر فى صحيفة إنجليزية ، وكأن أصحاب المقطم أدركوا مقدار ما يعتمل فى النفس البشرية من حب للظهور وذيوع الصيت ، فضربوا على ذلك الوتر مستهدفين العمل على نشر اللغة الإنجليزية دون أن يبدو عليهم مظهر التكالب على ذلك .

ولم يكد عدد من أعداد « المقطم » فى سنواته الأولى يخلو من حديث أو إعلان خبرى عن القواميس باللغة الإنجليزية ، « وقد تم طبع القاموس العربى الإنجليزى فى مطبعتنا ، وجاء وافياً باحتياجات طلبة اللغة الإنجليزية التى يتسع نطاقها يوماً فيوماً واحتياجات جمهور المترجمين (٢) » ، على أن يطلب من مطبعة المقتطف والمقطم ، وتردد ذلك الحديث على صفحات اللطائف (٣) . ويقول « المقطم » إن « اللغة الإنجليزية كما لا يخفى ، من أوسع لغات البشر وأكثرها انتشاراً لأنها لغة شعبين عظيمين راقيين أعلى مراقى المجد فى هذا العصر وهما الشعب الإنجليزى والأمريكى . وقدر بعض الباحثين أنها ستصير لغة الفريق الأكبر من بنى البشر إن لم تصر لغتهم كلهم » . ثم يستحث « المقطم » المصريين على ضرورة تعلمها (٤) .

ويؤيد « المقطم » إجراءات كرومر بإزاء مدرسة الحقوق إذ كان كرومر يرى « تعيين وكيل من الإنجليز ليعلم القانون الرومانى للتلاميذ الذين يعرفون الإنجليزية ولا يعرفون الفرنسية » (٥) . وتدافع الجريدة عن تعيين بعض

---

(١) المصدر السابق من أول ديسمبر إلى ٣١ ديسمبر ١٨٩٠

(٢) المصدر السابق طوال عامى ١٨٨٩ ، ١٨٩٠

(٣) مجلة اللطائف فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٨

(٤) جريدة المقطم فى ١٨ فبراير ١٨٩١

(٥) المصدر السابق فى ٥ يونيو ١٨٩١

الإنجليز للتدريس فى المدرسة الطبية ويعارض المقطم ما ذهب إليه « الأهرام » من أن هذا التغيير أضعف الهمم (١) ، فيقول إنه « كبر على الجريدة أن عهدت الحكومة إلى اثنين أو ثلاثة من الإنجليز ، ولو كانوا من الفرنسيين لهان الأمر ، ومن بينهم رجل اشتهرت خدمته للحكومة هو الدكتور ملتن ، والجرائد الفرنسوية تهب إلى اختلاق أسباب الشقاق بين الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة » (٢) .

هذا بينما تحض جريدة الاتحاد المصرى الأهالى على تعلم اللغة الإنجليزية بعد أن أدخلت إلى المحاكم وغيرها ، « وقد قضت علاقتنا بالإنجليز وهم بجانبنا أن نحسن التكلم بلسانهم فضلا عن درس عاداتهم وأخلاقهم ، فأقبل كثيرون من شبان القطر على تعلمها حتى نبغ منهم عدد كثير ولم يعد يلذ لهم التكلم بغيرها » ثم تعقد الصحيفة مقارنة بين عدد المتكلمين بالإنجليزية إذ يبلغ ١٠٦ ملايين بينما المتكلمون بالفرنسوية لا يتجاوز عددهم ٦٠ مليوناً(٣) .

وقد اتجهت « مجلة الأزهر » على عهد صاحبيها إبراهيم حسن وحسن رفقى إلى تحبيذ تعلم اللغات الأجنبية مؤيدة اتجاه الحكومة إلى التوسع فى ذلك إذ « كانت بروجرامات الدراسة فى عام ١٨٨٧ غرضاً لسهام النقد ، أما البروجرامات الجديدة فإنها أفضل . فكان تعلم اللغة الأجنبية يبدأ فى السنة الثانية الابتدائية ويخصص لها ست ساعات وبهذا يمكن الحصول على نتيجة سارة فى آخر المرحلة ، ومع ذلك فقد أصابت اللجنة المشكلة للنظر فى البروجرامات إذ رأت عدم كفاية هذا الزمن المخصص لتعلم اللغات الأجنبية ، وتدريب الطفل على التكلم بها وتدريبه ، ولابد أن يسمع أناساً كثيرين يخاطبونه بها . وقد رؤى توصلا لهذا الغرض تدريس الأشياء والجغرافيا باللغة الأجنبية لأنهما يقربان تلك الغاية ، وعلى ذلك يكون التلميذ بعد انتهاء دراسته الابتدائية قادراً على التكلم باللغة الأجنبية فيستعين بها على صناعته أو وظيفته » . (٤)

(١) جريدة الأهرام فى ٢٧ ، ٢٨ فبراير ١٨٩٠

(٢) جريدة المقطم فى ٤ مارس ١٨٩٠.

(٣) جريدة الاتحاد المصرى فى ٤ ديسمبر ١٨٩٠

(٤) مجلة الأزهر فى أول مارس ١٨٩٢

ووجدت مجلة المقتطف ذات الاتجاه العلمى أن المناسبة سانحة للإدلاء برأيها العلمى فى تطوير الكتابة العربية ، وبدأت الدعوة إلى محاولة اقتباس الحروف اللاتينية فى الكتابة العربية وتكتب بعنوان « تصوير اللفظ العربى بحروف فرنجية » ، مقترحة ترك الحروف العربية وتضع جدولا مبيناً فيه ما يقابل الحروف العربية من حروف إفرنجية مع الحركات العربية من ضمة وفتحة وكسرة . ثم تشرح مزايا هذا الأسلوب بأن الحروف الإفرنجية كثيرة الأشكال بين كبير وصغير ، فإذا أريد كتابة الكلمات العربية بكل نوع أمكن ذلك بسهولة : وهذه الطريقة تجعل كتابة العربية سهلة. ثم تكشف المجلة النقاب عن سبب تلك الدعوة وصدورها فى هذا العهد « فقد استنبطت الطريقة منذ بضع سنين وكنا نترقب الفرص لإشهارها لأنها أسهل مراساً من كل طريقة أخرى » (١) .

وهكذا أصبحت الصحف – إلى جانب المدارس – مصدراً من مصادر التعليم الأوربى وكان ذلك نقضاً لما هو معهود فى البلاد منذ القدم من التهذيب والتعليم « فإن المستبد لا يجد أمامه من سبيل لاقتلاع فكرة الوطن واستئصال جذوع الاستقلال من نفوس أية أمة إلا بأن يمحو علومها وآدابها وفنونها وتاريخها وذكرياتها ومؤرخيها حتى لا يبقى بعد ذلك من عناصر الوطن إلا الأرض ، غير أن خطر الأرض وحدها لا يكون عظيماً . وأن مهمة القضاء على الوطن بإبادة جميع العناصر مهمة شاقة ولكن يكفى لمحق الوطنية إبادة عامل واحد من تلك العوامل كعامل اللغة مثلا » (٢) .

وبذلك فإن هذه الحركة تخدم هدف كرومر فى زعزعة العقيدة الدينية إلى جانب اقتلاع مقومات الوطن والوطنية ، يؤكد ذلك ما حدث بعد ثلاثين عاماً فقط ، من الاحتلال ، إذ أن « الناشئة لم تكن تأخذ بحظ عملى فى التوجيه السياسى ، بل كانت عاكفة عكوفاً تاماً على الدرس ولم يكن يدور بخلد أحد فى المدارس تلاميذ وأساتذة أن يدعو إلى إضراب لغرض سياسى ، ومن

(١) مجلة المقتطف عدد يناير ١٨٨٩
(٢) أحمد وفيق : المرجع السابق ذكره ص ٣٨

ذا يدعو وكثرة الأساتذة كانت من الإنجليز ، وكانت العلوم كلها خلا اللغة العربية طبعاً تدرس بالإنجليزية . ولم يكن طبيعياً والحالة هذه أن يدعو أستاذ إلى إضراب ، أو أن تتكون من التلاميذ هيئات علنية أو سرية تدعو إلى نشاط سياسي يكون الإضراب مظهره » (١) .

هكذا بلغ التغلغل الإنجليزى فى شئون مصر ، وأضحت الحضارة الأوروبية نموذجاً للمصريين يأخذون عنه ، هذا إلى جانب نزوح عدد من الأجانب فى عهد الاحتلال إلى مصر مما دمغ الثقافة العربية بالطابع الأوروبى إلى حد كبير ، وقد تطلع العاملون فى شئون التربية والصحافة وغيرهما إلى الاقتباس من مظاهر الحياة الأوروبية متأثرين بأن أوروبا كانت تمثل الطرف الأقوى بينما الشرق يمثل بإزائها الشخص الضعيف ، فكل ما يراه الشرقيون من الأوروبيين حسن يجب اتباعه دون وعى أو روية .

كان لا مفر إذن من تأثر الشرق العربى بالأدب الأجنبى وأصبح ذلك هو السمة الغالبة فى أخريات القرن التاسع عشر وخاصة بعد التجاء كثير من الأدباء السوريين واللبنانيين إلى مصر ناقلين من الأدب الغربى والثقافة الأوروبية ألواناً شتى إلى اللغة العربية (٢) .

ومن الملاحظ أن أغلب اللبنانيين والسوريين الذين استعان بهم الإنجليز فى الصحافة العربية بمصر كانوا من أبناء المدارس والإرساليات الأمريكية ببيروت التى نشطت وأينعت جهودها وأثمرت وخاصة منذ الفتح المصرى الذى تنسم فيه السوريون نسيم العدل والحرية وروح التسامح الذى أفاد منه التبشير الأمريكى (٣) ، هذا إلى جانب اعتماد اليسوعيين على بيروت كمركز لنشاطهم الكاثوليكى (٤) .

---

(١) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ ص ١٨ ، ١٩ وكان المؤلف يؤرخ لفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى .

(٢) عبد اللطيف حمزة : الصحافة والأدب فى مصر ص ٢٤ ، ٢٥ ، عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ١ ص ٣١١ ، ٣١٢

(٣) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية جـ ١ ص ٢١١ ، ٢١٢

(٤) مصطفى خالدى : المرجع السابق ذكره ص ٢٠٨

ويعد فارس نمر وصروف وشاهين مكاريوس وأفراد أسرة شميل من أوضح الأمثلة على مدى التأثر بالأدب الإنجليزى والحضارة الإنجليزية « فقد نشأ المقتطف فى كنف الجامعة الأمريكية فلقى فيها عناية الأم وحمية الأتراب »(١) .

ويقارن هارتمان بين أثر المصريين وأثر السوريين فى هذا الميدان فيقول « إننا نجد خصائص المدرسة القديمة بوضوح فى الصحف التى يحررها الوطنيون المسلمون وعلى رأسهم على يوسف الذى احتفظ بطابعه النقى فى معالجته لكثير من الموضوعات المعاصرة »(٢) .

الصحف الأدبية وتأثيرها فى المجتمع :

والصحف بصفة عامة تلح على القارئ فى أن يقرأ وتحاول أن تجذبه بشتى الوسائل والمغريات(٣) . وللصحافة الأدبية أكبر الأثر فى بناء الأمة وتشييد صرحها وخلق الرأى العام والتوجيه فى ميادين المجتمع المختلفة كما أنها توضح الطريقة التى تتكون بها العقلية الحديثة للأمة .

وكان من هذه الصحف مجلة اللطائف (صدرت عام ١٨٨٦ واستمرت إلى ما بعد نهاية فترة البحث) وحوت كثيراً من الملح والنوادر والفكاهات ، غير أنها كانت بسيطة العبارة ولا سيما فى أعوامها الأولى كأكثر المجلات فى ذلك العهد (٤) . وقد أضحت هذه المجلة أحب المجلات المصرية إلى المصريين وأروجها عند القراء فى بلاد الشرق العربى (٥) . ومما يجدر ذكره أن صاحبها شاهين مكاريوس لم يتعلم على أستاذ طول حياته ، بل حصل أصول الصرف والنحو والعروض بينما كان يشتغل فى صف الحروف فى المطبعة (٦) .

---

(١) المجلة السورية لبولس قرالى ج ٥ السنة الأولى ١٥ مايو ١٩٢٦

(٢) Hartmann : The Arabic Press of Egypt pp. 14-17.

(٣) عمر الدسوقى : المرجع السابق ذكره ج ٢ ص ١٦٩

(٤) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٧٦

(٥) إبراهيم عبده : أعلام الصحافة ص ١١٠ ، ١١

(٦) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٧٦

ثم تصدر مجلة الراوى الأدبية الطابع (من عام ۱۸۸۸ إلى ۱۸۹۰) — لصاحبها خليل زينيه اللبنانى ، وأغلب مقالاتها صدى نفوس ضعيفة مهزومة فتتحدث عن « التعساء » و « الأمانة » ... وغيرهما من الموضوعات التى تشف عن القلق والهوان والعذاب (۱) . هذا إلى جانب سطحية كتابها ، وكانت هذه من أبرز خصائص الكتاب الذين ظهروا فى ظل الاستعمار يملؤهم الغرور ويقعد بهم العجز لا يدرون لهم غاية ولا يعرفون سبيلا .

ويصدر أحمد سلامة مجلة الرشاد عام ۱۸۹۲ « مجلة أدبية محتوية على ما تسهل معرفته من الألفاظ المألوفة للأذهان على حد القول : خاطبوا الناس على قدر عقولهم » (۲) . ويتفاخر صاحبها فى فاتحة العدد الأول ببعده عن الكتابة ولكنه أصدرها عندما رأى « جرائد الأدب على اختلاف مذاهبها وتنوع مشاربها وتفاوت مصادرها محجبة بالإطناب ومبرقعة بالإسهاب وممنعة بدلال الإعجاز عن أن تتناولها أذهان الشبان ، مع أنهم أحوج الناس لتربية أفكارهم وتقويم ألسنتهم فى صغرهم ، ودعانى ذلك لأن أحرر جريدة أدبية وإن لم أكن من عالم التحرير حرصاً على الفائدة (۳) » .

تمثل هذه المجلات التى اتخذت لنفسها صفة الأدب فاض سوق الكتابة الأدبية الصحفية فى مصر مع ما تحمله الصحف والمجلات الأدبية من مسئوليات الخلق فى المجتمع وإظهار القيم الجديدة التى تلبى حاجات الشعب وتمثل أشواقه للمستقبل، وترك هذا كله لمجموعة من الصحفيين لاتستطيع أن تدرك إحساسات الشعب الأصيلة فتشحذها وتنميها وتضيف إليها كل مامن شأنه أن يدفع بالبلاد إلى طريق الرقى فى مختلف النواحى ، بل كانت الكتابات بعيدة كل البعد عن مثل ذلك مما كان له أثر فى توجيه ميول بعض القراء بالأساليب المقنعة إلى الإنتاج الرخيص والثقافة السطحية التى يسهل التأثير عليها بمختلف الآراء والأهواء .

---

(۱) مجلة الراوى من أول مارس ۱۸۸۸

(۲) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ۳ ص ۹۰

(۳) مجلة الرشاد : افتتاحية العدد الأول فى ۸ أكتوبر ۱۸۹۲

دور الصحف فى الترجمة عن الانجليزية :

وقامت الصحافة العربية بمصر بدور كبير فى حركة الترجمة عن اللغات الأوروبية وبخاصة الفرنسية والإنجليزية ، وكانت الصحف هى المجال الأول لهذه الترجمة التى اتجهت إلى إرضاء عامة القراء الذين أخذوا ينهلون من منابع الثقافة الغربية وبذلك ظهرت فئة من القراء تشيعت للأدب المترجم .

وارتبطت ترجمة القصص عن الإنجليزية بالصحافة المصرية بعد الاحتلال ووجود الصحفيين والأدباء من السوريين واللبنانيين بمصر ، « ذلك أنه حدثت قبيل هذه الفترة نهضة أدبية مركزها سوريا ولبنان كانت متشبعة بالثقافة الإنجليزية ولكن إدارة المعارف بالآستانة أخذت تنشئ القوانين الصارمة لتقييد حرية المطبوعات ، فبدأت وفود اللبنانيين والسوريين ترد إلى مصر وخاصة نصارى الشام الذين هاجروا إلى مصر ليتمتعوا فيها بحضارتها تحت نظارة بريطانيا . وهذا الفريق من المهاجرين إلى مصر هو الذى تولى أساساً حركة الترجمة عن الأدب الإنجليزى فى أوائل عهد الاحتلال » (١) . ونشر هذا الأدب على شكل قصص وروايات مسلسلة أو كملاحق أرفقت ببعض المجلات أو نشرت بمفردها صادرة عن مطابع هذه المجلات .

وظهرت فى المقطم بعض هذه الروايات المسلسلة ولاشك أن انتخابها لم يكن عبثاً ، فمنها رواية « الشهامة والعفاف » (٢) مثلا كانت تعريباً « لرواية إنجليزية من أشهر روايات الكاتب الطائر الصيت ولتر سكوت وهى تصف أحوال إنجلترا وسكانها الأصليين ، وتشرح حروب تلك الأيام وما امتاز به فرسانها من الشهامة وعفة النفس ، وقد جمعناها من أعداد المقطم وطبعناها وحدها ، فجاءت كتاباً حسن الوضع » (٣) . ويضيف المقطم أن الكتاب يباع مخفضاً لمن يشترك فى الجريدة .

ودأبت صحيفة « الاتحاد المصرى » على الدعاية لمكتبها الخاص بالترجمة

---

(١) لويس شيخو : الآداب العربية فى القرن ١٩ جـ ٢ ص ١٩ — ٢٠

(٢) جريدة المقطم فى الفترة من يناير إلى إبريل ١٨٩٠

(٣) المصدر السابق فى ٦ يونيو ١٨٩٠

واستعدادها لطبع اللوائح والإعلانات باللغات الأجنبية نظراً لأن « العلاقات التجارية ممتزجة مابين الأوروبيين والوطنيين ، وكانت ظروف الحال (تدعى) لترجمة لغات الأجانب إلى اللغة العربية وبالعكس » .(١)

ولم يكن بد من حدوث نتائج متعددة ، إذ أن أسلوب الإنشاء تطرقت إليه تراكيب أعجمية اقتبسها الكتاب من اللغات التى ينقلون عنها أو يطالعونها وهم لا يشعرون « وقد اشترط البعض فى استعمال الأساليب الإفرنجية أن تكون مما يلائم الذوق العربى السليم. وكان هذا الشرط عسراً لاختلاف الأذواق وتباين المشارب والثقافات . وقد تأثرت اللغة العربية بالاصطلاحات الإفرنجية حتى لقد نسى الكتاب أن فى لغتهم اصطلاحات فنية كثيرة وردت فى مؤلفاتهم القديمة »(٢) .

وحاول النديم تنبيه المصريين إلى ما يتهدد اللغة العربية من مخاطر ومن ذلك مقال « اللغة والإنشاء » الذى استغرق خمس عشرة صفحة من الأستاذ ويرجع تقهقر اللغة إلى أمرين :

« كثرة استراق الكلمات الأجنبية واستعمالها فى المخاطبات الكتابية والخطابية ، ونقل اصطلاحات العلوم إلى اللغات الأجنبية ، ثم نقل التدريس من اللغة العربية إلى أية لغة أجنبية ، والنظر متى رأى الجرائد والكتب ممتلئة بالكلمات الأجنبية أوصلها إلى الذهن أيضاً فيحوله إلى ما طرأ عليه » (٣) .

وليس من شك فى أن ذلك كان ذا أثر فى عقول الأدباء المنشئين ووجدانهم . والثقافة الأجنبية بما تحوى من خبرات وتجارب وطرق فى التفكير والتعبير ، ومناهج فى الحياة أحدثت نوعاً من الزلزال العقلى والوجدانى نتيجة لالتقائها بالحضارة المصرية الشرقية ، وصاحب ذلك تخلخل ثقافى فى البلاد ، وأخذت عقلية الشعب تتشكل متأثرة بما يتدفق عليها من ثقافة أوروبية بشكل مطرد . وأثبتت الصحف ذلك فتقول الاتحاد المصرى « إننا رأينا بضاعة الروايات

(١) جريدة الاتحاد المصرى طوال سنة ١٨٩٠ وما بعدها .

(٢) جاك تاجر : حركة الترجمة فى مصر ص ١٥٣ – ١٥٥

(٣) مجلة الأستاذ فى ١١ أكتوبر ١٨٩٢

والقصص قد راجت فى هذا العصر ، وأقبل طلاب الأدب على اجتناء ثمارها . وقد وقفنا على روايات جميلة الموضوع غرامية الحديث والحوادث أدبية النتيجة والغاية ، فحملنا حب الخدمة الأدبية على استخراجها إلى اللغة العربية » . (١)

هذا إلى جانب ما حفلت به صحف الأخبار من أنباء العالم الخارجى سياسية واجتماعية واقتصادية ومعاهدات ومؤتمرات ، وبخاصة ما كان يدور حول الحياة الإنجليزية وحزب « الليبرال » والحزب المحافظ وأقوال جلادستون وغيره من أقطاب إنجلترا ، ثم ترجمة ما يدور فى البرلمان الإنجليزى وظهوره فى الصفحات الأولى من المقطم بصفة خاصة بما فى هذه المناقشات من صور لحياة الشعب الإنجليزى ومشاكله وأوجه نشاطه .

المعركة الصحفية بين الفصحى والعامية :

وكانت قضية اللغة العربية إحدى المشكلات الفكرية البارزة التى أخذت الأقلام تتناولها بين محبذ للفصحى وداع للعامية ، وأصبحت المجلات والصحف مسرحاً لهذه القضية التى خلقها طوفان الثقافة الأوروبية الوافدة بأفكارها وقيمها وأسمائها . وتصدى بعض الصحفيين لمحاولة إيجاد الأسلوب المباشر البسيط واندفعوا بالعربية فى تيار مقدمين فيه المعنى على اللفظ ، ولكنهم استهانوا فى اندفاعهم هذا بالقواعد اللغوية وبدأت القوالب العامية تغزو اللغة حتى أضحت لغة الصحافة — إلى حد ما — آية فى الركاكة . ونعت صحيفة « البرهان » اللغة العربية التى كانت لسان الأدباء ، « فلما تغير الزمان لعبت بك الأقلام وتطاولت إليك أيدى الجاهلين ، أصبحت آلة يضربون بك على أرض الغايات غير مبالين أصابوا أم أخطأوا » . ودعت الصحيفة الجاهلين أن يدعوا اللغة العربية لأربابها « الذين لا يبخسونها حقوقها ولا تجعلوها باستعمالاتكم عرضة للتنفير منها ، وإن كنتم تجاراً فاتخذوا لكم متجراً فى غيرها » (٢) . واتهمت « البرهان » الصحف بأجمعها تقريباً « بإهمالها للغة العربية بعد أن

---

(١) جريدة الاتحاد المصرى فى ١٢ يونيو ١٨٩٠

(٢) جريدة البرهان فى أول مارس ١٨٨٣

ظن بعض أصحاب الجرائد أن جريدته هى المقصودة ، ولكنه مقصد عام ليس موجهاً إلى شخص مخصوص » (١) . ثم أسفرت عن هجومها ضد جريدة (٢) « الزمان » التى وجدتها فرصة للتباهى بعدم الإلمام باللغة العربية وهى لغة الصحيفة نفسها ، فكتبت بقلم « أحد الأدباء » تدافع عن علكسان صاحب الزمان « أما من جهة كونه لا يدرى شيئاً فى اللغة العربية فله اليد البيضاء فى اللغة التركية وبعض اللغات الأجنبية خصوصاً لغته الأصلية » (٣) . وكان علكسان أرمنياً ، فكأن معرفته باللغة التركية والأرمنية تغتفر له عدم معرفته باللغة التى يصدر بها صحيفته . وإذا كانت الصحافة مدرسة عامة فقد شن الإنجليز حملة شعواء على اللغة العربية الفصحى وحاولوا أن يقنعوا المصريين بأن من أسباب تأخرهم فى ميدان الحياة وتخلفهم عن الأوروبيين فى الابتكار الأدبى والعلمى تمسكهم بلغة القرآن والأساليب العربية القديمة ، وأن الأولى لهم أن ينهضوا باللغة العامية حتى يسايروا ركب الحضارة فهى لغة حية دائمة التجدد يفهمها جمهور الشعب ، ولا نهضة للأمة إلا إذا نهض سواد الشعب وفهم ما يكتبه العلماء والأدباء ولن يفهم هذا إلا إذا كانت الكتابة باللغة العامية (٤) . وهذا ما يقرره دوفرين فى تقريره مبيناً أن « الأمل ضعيف فى نجاح تهذيب جمهرة الشعب المصرى طالما أن أطفالهم لا يتعلمون اللغة العامية بدلا من تعليمهم اللغة الفصحى (لغة القرآن) كما يحدث الآن » (٥) .

ويؤكد البعض أن اهتمام الإنجليز بذلك إنما يعود إلى محاولة تحقيق أهدافهم السياسية وأطماعهم الاستعمارية « فيرى أكثر الهاجمين على استعمار الشرق أن تقطيع أوصال العرب والمسلمين لا يمكن أن يتم مادامت هناك لغة واحدة يتكلمها العرب ويعبر فيها العرب والمسلمون عن آرائهم ، ومادام هناك « حرف عربى » يربط حاضر المسلمين إلى تراثهم الماضى . فإذا حمل

---

(١) المصدر السابق فى ٥ مارس ١٨٨٣

(٢) المصدر السابق فى ١٠ يوليو ١٨٨٣

(٣) جريدة الزمان فى ١٤ يوليو ١٨٨٣

(٤) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٤٠ ، ٤١

(٥) Blue Books : Egypt No. 6. (1883) p. 66.

المبشرون والمستعمرون العرب على الكتابة بالعامية أصبح لكل قطر عربى لغة خاصة به أو لغات متعددة . حينئذ يصبح العرب وحدات لغوية فكرية غير متعارفة . ثم تتنافر هذه الوحدات مع الزمن فيسهل إخضاعها بجهد أيسر من الجهد الذى تحتاج إليه هذه الغاية إذا كانت اللغة واحدة » (١) . ولم يكن لاستعمال اللغات المحلية (اللهجات) بدلا من اللغة العربية الفصحى فى الكتابة سوى نتيجة واحدة ، هى اقتصار الصحف العربية على المناطق المحلية التى تظهر فيها فتنقطع الوشائج المعنوية التى تربط المناطق ببعضها البعض أما استعمال اللغة الفصحى فإنه يقضى على الحدود الفاصلة بين الجزائر ودمشق وبغداد والقاهرة وغيرها (٢) .

وناصرت مجلة «الآداب » اللغة الفصحى على خط مستقيم دون أدنى مواربة ودافعت عنها . ففى مقال « حاجة اللغة فى الشرق» دعا على يوسف إلى إصلاح اللغة لأن الأمة التى تهمل لغتها لا أمل فى مستقبلها ، « واللغة العربية وخصوصاً فى مصر قد رزئت بالدخيل حتى صارت كشكول لغات وليس الأمر (قاصراً) على خطاب العامة بل الخلل صار إلى عبارات المنشئين وفى أساليب المحررين » ، وطالب بإنشاء جمعية لمداواة ما اعتل ، وليس الغرض منها أن تجرف الأسلوب الأول ، بل أن تحمل الهمة فى تطبيق المعانى الطارئة على ألفاظ عربية . وعاب على الجرائد العلمية احتقارها للغة ، « أما الجرائد السياسية اليومية فالبعض منها لم يكتف بمثل ذلك بل نسخ ومسخ ومحا وأثبت واخترع وأبدع ، واتخذ لنفسه أسلوباً أعجوباً ، والبعض أخذ الحذر فأصاب وأخطأ ولم يعتدل إلا النادر كالواحد من العشرة .. ولا خلاص لرجال العمل من مسئولية التاريخ الحاضر والمستقبل إلا إذا أخذوا بهذا النداء وعضدوا هذا المشروع(٣) » . ولم تقف الآداب عند حد المناداة بتأليف مجمع لغوى يرعى شأن اللغة ويحرمها من الدخيل ويشتق أو يضع الألفاظ العربية التى تقابل المعانى الطارئة ، بل امتدت إلى جذور المشكلة

---

(١) مصطفى خالدى : التبشير والاستعمار ص ٢٢٠ ، ٢٢١

(٢) C. Huart : La Litterature Arabe pp. 436, 437.

(٣) الآداب فى ٢٦ يناير ١٨٨٩

وأساسها ، إلى العناية باللغة العربية فى المدارس حتى تخرج أجيالا من الشبان مؤمنين بعروبتهم ، متصلين بماضيهم ، داعين مقوماتهم ، حريصين على كيانهم أن يذوب ويفنى فى كيان الآخرين . ومن أهم ما يدخل فى نطاق عنايتها باللغة والثقافة العربية أنها بدأت تبحث عن كنوزها الدفينة فتحققها وتطبعها فى مطبعتها الخاصة ثم تنشرها على الناس . وأول كتاب لها فى هذا الميدان كتاب « رسائل إخوان الصفا » وأعلنت عن توفيقها فى « الشروع فى طبعه بعد أن أجهدنا النفس فى تحصيله لعزة وجوده » (١) .

ونددت الآداب بجمعية المعارف المصرية لأن أعمالها كانت باللغة الفرنسية وأنها أنشئت لا لتربية الأورباويين بل الغرض الوحيد من إيجادها هو اتساع طرق العلم بين المصريين (٢) . وفى مقالات «التمدن دهرى» تؤكد الجريدة بطلان تفسير دورية الحضارة وأنها لا تصل فى مجتمع إلى لقمة حتى تنحدر رويداً وقالت إن الحضارة يجوز أن تستمر أبداً وأنه لايزيلها إلاعوامل كانتشار الجهل وضعف الحكومة (٣) .

وانضمت الآداب فى عهد محمد مسعود إلى المدافعين عن اللغة الفصحى مستندة إلى أن القرآن أصل الدين وأن مبادئ الشريعة وأحكامها دونت على لغته وأن كل الثقافة العربية فى مختلف فروع العلم محفوظة فى هذه اللغة ، وأن أهل كل بلد يسهل عليهم فهم لغة القرآن « فاللغة إذن مرتبطة بالدين ارتباطاً وثيقاً ، ولايسوغ القول بأن التمسك باللغة العربية هو تضييع للقوى العقلية ونقص فى مراتب التقدم ، وأن العدول عنها إلى اللغة الدارجة هو السبب فى إيجاد قوة العمل والاختراع »(٤) . ثم أردفت هذا المقال بآخر ترد فيه على المتسائلين عن ضعف اللغة العربية فى هذا العصر وما يزعم الجاهلون بها من الضعف والتلاشى والإهمال ، وأوضحت ماللأمم الأجنبية التى ساقتها

---

(١) المصدر السابق فى ١٩ يناير ١٨٨٩

(٢) المصدر السابق فى ١٢ يناير ١٨٨٩

(٣) المصدر السابق فى ٣ فبراير ١٨٨٩

(٤) المصدر السابق فى ٣٠ جمادى الثانية ١٣١٠ (١٨ يناير ١٨٩٣) .

الحوادث إلى احتلال بعض البلاد الإسلامية من مصلحة حقيقية فى إبطال اللسان العربى المبين(١) .

ورأى أحمد نجيب أن يصدر مجلة « المنظوم » فى عام ١٨٩٢ لخشيته على اللغة العربية من الهواء على « أيدى المتهافتين على الشعر »(٢) . وكانت المجلة سلاحاً من أسلحة الدفاع عن اللغة ضد الموجة التى أخذت تحاول دفعها إلى طريق الضعف والانحلال .

بين مجلة الأزهر ومجلة الأستاذ :

وتمثل مجلة « الأزهر » حلقة هامة من حلقات الصراع بين العامية والفصحى وقد أنشأها إبراهيم مصطفى وحسن رفقى (٣) عام ١٨٨٧ باسم « الصحة » للاهتمام بالأخبار الطبية والأنباء والمقالات الأدبية والعلمية . ثم أطلقا عليها اسم « الأزهر » ، ولم يلبث صاحباها أن أعلنا أنهما اتفقا مع المستر ويلكوكس على تخصيص جريدة الأزهر للعلوم الرياضية وجعلها موضع أبحاث المهندسين . وأعلن ويلكوكس فى نفس العدد عن خطته وأنه سيسلك « طريقاً مفيداً واختط فيها خطة نافعة فآتى بشرح مايتعلق بالهندسة بألفاظ متعارفة سهلة » (٤) .

ويثير انتقال امتياز صحيفة « الأزهر » بالذات تساؤلا لا فى ميدان الصحافة فحسب ولكن فى نواح أخرى متعددة ، فإن تولى وليم ويلكوكس الإنجليزى تحرير صحيفة تسمى « الأزهر » مدعاة لكثير من الدهشة إذ أن اسم الصحيفة يعطى القارئ لأول وهلة فكرة خاصة عنها فهى لابد أن تتحدث عن الأزهر أو عن الإسلام أو عن اللغة العربية ، وكان الميدان الأخير هو الهدف الذى انصرفت إليه جهود الصحيفة على عهد ويلكوكس ،

---

(١) المصدر السابق فى ١٥ رجب ١٣١٠ (٢ فبراير ١٨٩٣) .

(٢) مجلة المنظوم فى ١٥ نوفمبر ١٨٩٢

(٣) إبراهيم مصطفى كان فى هذه الفترة ناظراً لدار العلوم ، وحسن رفقى كان طبيباً .

(٤) مجلة الأزهر عدد ديسمبر ١٨٩٢

يلاحظ أننا سنتناول الحديث عن بعض أعداد الأزهر خلال عام ١٨٩٣ استكمالا للموضوع الخاص باللغة الفصحى والعامية . .

واستخدم لمعاونته الشيخ أحمد الأزهرى المتخرج فى دار العلوم والموظف فى إدارة الخزانات التى كان ويلكوكس مديراً عاماً لها .

وانصرفت المجلة إلى اللغة العربية وظهرت كحلقة من حلقات نشر الدعوة لاستخدام العامية وإحلالها محل الفصحى فى التعليم والأدب . وبدأ ويلكوكس بمقال بعنوان « لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن » ، ويخاطب القراء مؤكداً أن قوة الاختراع لاتزال موجودة لديهم ، « ولكن بسبب عدم وجود لسان علمى مشهور فيما بينكم لم تتحصلوا على شىء وأضعتم أعمالكم سدى ، والسبب فى ذلك أن الكتب العلمية الدنيوية يؤلفها أربابها بكلام مثل الجبال ، وفى آخر الأمر لا يلد هذا الكلام الصعب إلا فاراً صغيراً . وما نشأ ذلك إلا من كون اللسان العلمى غير مشهور فيما بين العامة فبمجرد وضع الأفكار فى الكتب تموت ولم تعد تحيا فكأنهم يكفنونها فى الورق ويدفنونها فى جلود الكتب . واللغة العربية الأصلية كانت قوية جداً مشحونة بالألفاظ القوية الشهيرة كما أنها كانت مشتملة على ألفاظ كثيرة ضعيفة ، وعلى ممر الزمن غلبت القوية الضعيفة وكونت لغة قوية حية . ولكنكم أيها المصريون أصبحتم تقولون إنهالغة دارجة لاينبغى اتباعها وجنحتم فى مؤلفاتكم إلى اللغة الضعيفة الخفية التى ماتت منذ زمن بسبب مزاحمة القوية لها . وأقول لكم إذا جنحتم إلى هذه اللغة الدارجة القوية الشهيرة فيما بينكم وتركتم هذه اللغة الضعيفة تنجحون كثيراً بسبب أن اللغة التى تتكلمون بها هى قلب اللغة والتى تكتبون بها كالملابس لها » (١) .

وتصدى عبد الله النديم (٢) فى مجلة الأستاذ للدفاع عن اللغة ضد هذا الهجوم الذى شنه « ويلكوكس الإنجليزى المشهور بطول الباع فى الهندسة والصبر على شاق الأعمال ، وقد نشرنا من قبل أن فى ضعف كل أمة فقدان لغتها مهما كانت تامة الألفاظ واسعة المعانى والمبانى . واللغة العربية نزل بها

---

(١) مجلة الأزهر فى أول يناير ١٨٩٣

(٢) تناول النديم فى التنكيت والتبكيت موضوع اللغة العربية ومنها مقال « إضاعة اللغة تسليم للذات » فى ١٣ يونيو ١٨٨١ وكانت المقالة سبباً لمناظرة طويلة بين كتاب مصر (سلافة النديم جـ ١ ص ٩٤) .

القرآن الشريف الذى هو الآية الكبرى والحجة العظمى لنا معاشر المسلمين فهو الداعى لحياة اللغة العربية الصحيحة وهو المقصود لكل محارب للغة ساع فى إماتتها . ورأينا جريدة الأزهر تدعونا إلى ما تسوء به عاقبتنا وتسود به وجوهنا ونصير به أعجوبة بين الأمم ، ولكن نثنى عليها فإنها دقت جرس التنبيه ، ونبهت الغافل وأطلعت المصريين على سر من أسرار أوربا بعد أن كان لايعرفه إلا المشتغلون بالبحث فى مقاصد أوربا فى الشرق . على أننا نعلم علم اليقين أنه لوظهر ألف داع بل مئات ألوف من دعاة أوروبا لاستعمال لغة تميت لغة القرآن ما وجدوا آذاناً سامعة . ولماذا لم يكتب الإنجليز كتبهم العلمية وجرائدهم باللغة الدارجة عندهم تعميماً للفائدة التى تريد أن تعممها فى مصر ، وهل ترى أن المصريين إذا قرأوا القرآن باللغة العامية عند استعمالها ونسيان غيرها ، أيرضى عنهم المسلمون أم يعدونهم منهم وهم يعتقدون أن تغيير حرف منه أو تقديمه على ما قبله كفر مخرج للفاعل من الدين » . (١)

وحاول ويلكوكس أن يبرر موقفه فيقول « إن بعض الناس قال إن هذا الرأى متعرض للدين . وإنى قبل إقدامى تكلمت مع كثير من المسلمين العالمين فأجابنى كل واحد منهم بأن هذا البحث المتعلق بالعلوم الدنيوية لا دخل له فى العلوم الدينية ولا يمس الدين بسوء ، والذين معى رأوا أنه لو استعملت اللغة الدارجة تقدم المصريون وصار الناس يفهمون ما يسطر بالجرائد لافرق بين علمية وأدبية وسياسية . وبعض الناس قال إنى أردت تفريق البلاد المصرية عما جاورها من البلاد الإسلامية فينعدم الاتحاد وتنحل الرابطة ، والجواب أن الاتحاد بين الجهات الشرقية ليس حاصلا . على أن الاتحاد والجامعة بسبب اللغة أمر يسمع فقط وليس له وجود ، كذلك إن كل لغة كانت حية كاللاتينية والعربية نشأ عنها لغات شتى ، فعن الغة العربية نشأت لغة المصريين وأهل الشام والجزائر ، والأمة الإنجليزية لما بدلت باللغة اللاتينية اللغة الإنجليزية الشائعة الآن كان لديهم يوم مشهود وتقدموا ، ولكنهم حينما كانوا يتكلمون بالإنجليزية ويكتبون باللاتينية كانوا فى غاية التأخر كالمصريين الآن . وأعظم

---

(١) مجلة الأستاذ فى ٣ يناير ١٨٩٣

عمل يمدح عليه المصرى الذى يعلم اللغة بالعربية الأصلية إذا كتب معارفه ومعلوماته باللغة الدارجة ، وإذا استخدمت اللغة الدارجة فى البلاد وكانت الجرائد محررة بها تروج تجارتها وتجلب الثروة العظيمة (١) » . واستغرق المقال تسع صفحات من المجلة وكانت تصدر فى ست عشرة صفحة . ثم كتب مقالا بالعامية تأييداً لاتجاهه : « وقبل الشروع فى تعلم العلوم دى يلزم معرفة اللغة الماشية ويلزم تعلم اللغات بالسماع فإن آدم اللى هو الإنسان الأول ماكانش عنده كتاب ، وكما أن العين هى السبب الوحيد اللى يساعد على معرفة الطبيعة ، كذلك الودن هى السبب الوحيد اللى يساعد على معرفة اللغات (٢) » ولكنه يسجل فى نفس العدد أن القراء وبخاصة « المهندسين أبوا إلا أن يترجموا عن أفكارهم فى المجلة بلغة غير مشهورة وأخذوا يرسلون بها الرسائل العديدة بغية رصدها فما كان يسعنى إلا قبولها مؤملاً أنهم يخلعون نعل الخوف ويلبسون رداء الحرية والإقدام فيعبرون عن معلوماتهم باللغة الحية ، وحيث أنهم استمروا على الطريقة الأولى ولم يهتدوا إلى الطريقة المفيدة العامة فلا حاجة للاستمرار فى إصدار الجريدة إذ أن الفائدة قاصرة على القليلين . وقد آن أن تركد ريح الأزهر وتغرب شمسه ويحجب عن الظهور بعد هذا العدد » . واختفت المجلة بعد ذلك العدد .

ولم تكن مجلة « الأستاذ » معرضاً للبحوث العلمية الخالصة ، ولم تعن بالأدب لذاته بل كانت عنايتها به وباللغة بباعث وطنى صرف ، ثم أنها لا تفرق بين اللغة ومعلمها وبين الأدب وصاحبه ، بل كانت ترى أن صفة المعلم وهوان شأنه يصيبان اللغة فى الصميم ، وأن الأدب رائد فكرى يجب أن ترعاه الدولة وتصون له مكانته (٣) ، وقد حاول النديم أن يحرر مجلته كلها بالفصحى فأتته رسائل الاحتجاج الكثيرة (٤) ، تذكر له خطأه لأن المرأة

---

(١) مجلة الأزهر فى أول مارس ١٨٩٣

(٢) المصدر السابق فى أول ديسمبر ١٨٩٣

(٣) مجلة الأستاذ فى ٨ نوفمبر ١٨٩٢ ، ١٤ فبراير ١٨٩٣ ، عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة ج ٢ ص ١٧٦ – ١٧٩

(٤) مجلة الأستاذ فى أول نوفمبر ١٨٩٢

تسمع مقالاته فى بيتها والعامى يسمعها وهو فى مصنعه ومتجره والفلاح فى حقله وكلهم يستفيد من نقده ، فنزل على رأيهم وأعادها كما كانت عربية فصيحة فى بعضها عامية فى بعضها الآخر (١) . وكانت المقالات العامية أشبه بدروس عملية تناولت موضوعات شتى مما كان يهم الشعب ، وكان يردفها — فى أغلب الأحيان — بالدعوة للغة الفصحى ، فكأنه يريد ممن يقرأون العامية أن يدركوا ما هم عليه من نقص فيتجهوا إلى الفصحى ويتركوا العامية تدريجياً . وقد أدرك النديم أن ضياع اللغة الأصلية سيحول اللغة المستعملة (العامية) إلى لغة طافية لا أصول لها ولا قواعد تستند عليها فيسهل اقتلاعها وإحلال لغة أخرى محلها ، وكان الإنجليز فى الوقت نفسه يحاولون نشر لغتهم بين فئات الشعب المصرى ، فتصبح النتيجة ضياع اللغة العربية الفصحى وانتشار العامية التى يسهل التخلص منها وإحلال الإنجليزية محلها لغة للمصريين .

وقد علق مصطفى كامل بعد بضع سنوات من ذلك على من يقترح على الناطقين بالضاد هجرة اللغة العربية الفصحى واستعمال العامية« كمن يقول لنا معاشر المسلمين اتركوا دينكم ولا تحلفوا بنبيكم ، أوكمن يقول للمصريين إن مصر ليست وطناً لكم بل وطن للعالم أجمع . ومن السذاجة أن نعجب إذا سمعنا آناً بعد آن « كاتباً » من الإنجليز أو « مهندساً » منهم ينصحنا بتبديل لغتنا ، فإنما الغربيون مهاجمون ونحن المدافعون »(٢) .

صحيفة الفتاة تدعو الى اقتباس مظاهر الحياة الانجليزية :

ومن الملامح الهامة فى المجتمع المصرى فى العقد الأول من الاحتلال بروز موضوع المرأة المصرية خاصة والمرأة العربية بوجه عام على مسرح الحياة الاجتماعية العامة ، وكان وجود المرأة الأوروبية فى مصر تتمتع بالحرية وتمارس كثيراً من الحقوق التى حرمت منها المرأة العربية سبباً فى إثارة الموضوع .

وكانت المجلات الأدبية بصفة خاصة الميدان الطبيعى للنشاط النسائى ،

---

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح ص ٢٤٠

(٢) جريدة اللواء فى ٢ فبراير ١٩٠٢

وتصدرت مجلة الراوى الصحف الداعية للعناية بالمرأة ، ولكن البداية تعد طفرة من جانب هذه الصحيفة ، إذ بدأ كاتبها سلسلة من المقالات عن الحب لدى المرأة وتحدث عنها « إذا كانت خالية من العمل فارغة الفؤاد من حب زوج يكون كبحاً لجماح شهواتها فلا تأمن من غائلة هواجسها » . ويطالب بمنح الفتاة الحرية فى اختيار الزوج لأن « من روائد الحب المفسد أن تكون الفتاة قد أجبرت على الاقتران بمن لاتصبو إليه نفسها » (١) .

ويبدو على الكاتب التأثر بالآراء الغربية ، فإن مناداته بذلك فى المجتمع المصرى العربى فى مثل هذه الآونة — التى كان الحجاب سائداً فيها — تعد نغماً نشازاً بالنسبة لمجموع الشعب ، وطفرة ضخمة من الصعب القيام بها . فالفتاة المحجبة ، غير المتعلمة التى لا تعرف من الدنيا سوى بيتها والقليل من أفراد أسرتها ، هذه الفتاة توجه لها الدعوة لاختيار من تريد قريناً لها . ثم يردف الكاتب ذلك بمقال آخر عن حرية المرأة وضرورة حصولها على هذه الحرية بكافة الوسائل وقيامها بنصيب من الأعمال العامة (٢) . ثم تأتى الدعوة لتثقيفها وتعليمها بعد ذلك (٣) ولكن على أن يتعلم « الجنس اللطيف وتروض أخلاقه بآداب العصر لتكون المرأة مشاركة للرجل فى أعماله وأشغاله وأتعابه »(٤).

وقد اتفقت آراء كرومر فى تحرير المرأة مع ما تنادى به هذه الصحيفة فكان يرى « أن الوضع العام للمرأة فى مصر يقف عقبة فى سبيل الوصول إلى أى تقدم فى الفكر والعقل وهو مايجب أن يصاحب الحضارة الأوروبية إذا أردنا أن نجنى فوائدها فى مصر ». وكان العلاج الوحيد فى نظر كرومر هو العمل على تعليم المرأة ، فإن هذا التعليم سيعمل على تغيير العادات والأفكار فى البلاد . وإن الجيل الناشئ فى مصر سيتطلب فى المرأة شيئاً آخر يغاير نظام الحريم ، فهو يرجو أن يجد زوجته على قدر من المعرفة . وليس هناك من شك

---

(١) مجلة الراوى فى أول مايو ١٨٨٨

وظهرت أول مقالة بإمضاء سيدة « ليلى » فى هذه المجلة بعنوان « الأمانة » فى أول مارس ١٨٨٨

(٢) المصدر السابق فى أول يونيو ١٨٨٨

(٣) المصدر السابق فى أول يوليو ١٨٨٨

(٤) المصدر السابق فى أول سبتمبر ١٨٨٨

فى استطاعة المرأة التأثير فى الرجل ، وهى إذا اتخذت مظاهر الحضارة الأوروبية سيكون تأثيرها قوياً على الرجل، فعاطفتها تفوق عاطفة الرجل وهى أشد منه انفعالا » (١) .

ويمزج كرومر بين تعليم المرأة وهز معتقداتها « فهى بحكم ضعف عقيدتها الدينية عن الرجل ستكون أقدر على تخليص نفسها من الأفكار والعلاقات التى أحاطت بها منذ مولدها » ، وفى الوقت نفسه يطالب بأن يستمر تعليم الفتاة المصرية مدة طويلة « وإذا لم يستطع رجل الإصلاح الأوروبى أن يثبت جدارته لا فى تعليم الفتاة فحسب بل وكذلك فى رفع مستواها ، إذا لم يحدث ذلك فإنه لن ينجح فى بث الثقافة والتعليم الأوروبيين بين الرجال »(٢) .

ويؤكد كرومر أن حدوث التغيير فى أخلاق المصريين وصفاتهم القومية لن يتم بسرعة وسهولة ولكنه حادث فعلا ، «ومن الشواهد على ذلك تعليم الفتاة ، فإن الرأى العام المصرى تغير تغيراً شاملا فى هذا المجال . وإن نهضة تعليم الفتاة سيكون لها تأثيرها فى الجيل المقبل من المصريات وفى أخلاقهن ومكانتهن ، وهيهات أن يتشرب المقلدون المصريون روح التمدن الأوروبى إذا لم يحدث تغيير تدريجى فى مقام المرأة المصرية » . (٣)

وهكذا وضع كرومر سياسة تعليمية سار عليها الاحتلال وعمل على نشر التعليم بين الفتيات المصريات . وظن أن تعليم البنت وتلقينها الثقافة الإنجليزية يهيئ الفرصة لوجود جيل من الأبناء يحب الإنجليز ويعطف عليهم (٤) . ولاشك أن المرأة الشرقية وبخاصة من تعرف لغة أجنبية تتأثر تأثراً بالغاً بالمدنية الغربية وتحاول أن تطبق ما تتعلمه وما تراه على أحوالها ، وكان لذلك دون ريب أبلغ الأثر على المجتمع(٥) .

(١) Cromer : Mod. Eg. V. II pp. 539, 540,
Reports of General Consul, Blue Books, Egypt No. 1 (1906) p. 82.

(٢) Cromer: OP. Cit. pp. 540, - 542, Zetland : Op. Cit. pp. 353, 356.

(٣) Reports of General Consul, Blue Books, Eg. No. 1 (1905) pp. 76, 77.

(٤) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ١٢ ، ١٦

(٥) Stoddard L. : Op. Cit. pp. 258, 259,
Duc d'Harcourt : Op. Cit pp. 89, 119, Gaulis : Le Nationalisme Eg. p. 108.

ويربط بعض المؤرخين بين تعليم المرأة وفقدان عقيدتها ، « فالمرأة مدار الحياة الاجتماعية ، والوصول بالتبشير إليها وصول إلى الأسرة كلها ، ويصفق المبشرون لأن المرأة المسلمة قد تخطت عتبة دارها ، لقد نزعت عنها حجابها ، فإن فعلها هذا يتيح لهم أن يتغلغلوا عن طريق المرأة فى الأسرة المسلمة بتعاليمهم . مع مراعاة مدى الأثر الذى تحدثه الأم فى أطفالها (١) » . وبدأت الإعلانات تظهر فى الصحف بأسماء سيدات يعربن عن استعدادهن لتدريس اللغات ، والجغرافيا ، والآداب الاجتماعية (٢) .

وكانت الصحافة محصورة بين الرجال من كتاب اللغة العربية ولم تعرف جريدة أو مجلة ظهرت لسيدة فى مصر حتى أصدرت هند نوفل مجلة « الفتاة » عام ١٨٩٢ (٣) . ويقول هارتمان إن اتهام المرأة فى مصر بأنها بعدت عن الميدان العام أمر مبالغ فيه « ويجب ألا ننتظر منها أن تدخل ميدان الصحافة إذ أن الظروف التى كانت تحيط بها لم تكن تبعث على صقل مواهبها .ولكن السورية المسيحية (يقصد اللبنانية) فى مصر كانت على خلاف ذلك ،إذ كانت تتمتع بجرأة غير عادية ، فلا عجب إذا وجدناها تقتحم الميدان الصحفى. والصحف النسائية إذا حررت بيد المرأة اتخذت لها طابعاً صحفياً مميزاً وتصبح أقرب إلى الدوام لفترة طويلة ، ونجد كل من عمل فى هذا المجال من السيدات المسيحيات السوريات » (٤) .

وترحب الصحف وبخاصة المقطم والنيل — المؤيدتان للاحتلال — بمجلة الفتاة مبشرة عالم المطبوعات بطالع الجريدة الوضاء (٥) .

ويبدو اتجاه المجلة منذ العدد الأول عندما تفرد عدة صفحات بعد الافتتاحية مباشرة للإشادة « بجلالة فكتوريا ملكة إنجلترا المعظمة . وهى ملكة

---

(١) مصطفى خالدى : المرجع السابق ذكره ص ٨٥ ، ٨٦ ، ١٩٧ — ١٩٩

(٢) جريدة القاهرة الحرة فى ٢٠ يوليو ١٨٨٧

(٣) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره جـ ٣ ص ٩٥ ، ٩٦

(٤) Hartmann : Op. Cit. pp. 46-48.

(٥) جريدة النيل فى ٢١ نوفمبر ١٨٩٢ ، جريدة المقطم فى ٢١ نوفمبر ١٨٩٢

المملكة المتحدة فى بريطانيا العظمى وأيرلندا، ومن مهاجريها وملحقاتها فى أوروبا وآسيا وإفريقيا والأوقيانوس . وحامية الدين والإيمان وإمبراطورية الهند » (١) وتابعت الحديث عن هذه الملكة العظيمة فى عدد تال (٢) .

واتخذت المجلة من مظاهر الحياة الإنجليزية مصدراً للاقتباس والاستشهاد والمحاكاة « فالحياء من أجل الصفات المعتبرة فى النساء ، وحسبنا شاهداً ما نراه من التقليدات الإنجليزية ، فإن الرجل منهم لايقدر أن يأتى بأى عمل يؤول بتكدير حاسات النساء ، ولا أن يتلفظ بأقل كلمة ذات معان كثيرة احتراماً وإجلالا لهن ، وهكذا من مواجب المرأة الإنجليزية مع ما هى عليه من السلطة الإدارية والسيادة الأدبية أن لاتخرج من بيتها بدون رأى زوجها ».(٣)

وبرغم ما تنادى به المجلة فى عددها الأول من بعدها عن السياسة واتجاهها الأدبى إلا أنها ما لبثت بعد عدة أعداد فقط أن تناست كل ذلك فنادت بحقوق النساء السياسية وتحدثت عن مكان النساء الاجتماعى والسياسى من القانون الحديث « وإنهن فى المجتمع السياسى نلن نصيباً من الحقوق العامة وخصوصاً حق الانتخاب ، وكانت النساء عامة تحت أمر الرجل ، إلى أن قام الفيلسوف الإنجليزى ستيوارت ميل وكتب فى استعباد النساء . أما اليوم فقد انقلبت الآية وأصبحت المرأة الإنجليزية متصرفة بنفسها ، حرة فى شغلها ، وفى المبالغ التى تستثمرها وما تملكه . وعليه يكون الانقلاب تماماً فى أسر النساء من حيث القانون الخاص الذى كان لتغييره أعظم تأثير على القانون العام اجتماعاً وسياسة ، إذ أن المرأة الإنجليزية عندما أصبحت أمينة على مالها وملكها وحقوقها طلبت التعليم ، وإذ تعلمت طلبت الحقوق السياسية لأنها اعتبرت نفسها أحق بالانتخاب من رجال كثيرين هى أسمى منهم »(٤) .

ثم تمزج السياسة بالأدب متسائلة عما إذا كانت النهضة الأدبية تتجه لأن تجعل للمرأة يداً فى سياسة البلاد وتجيب على ذلك بالإيجاب « فللمرأة فى السياسة

---

(١) مجلة الفتاة فى ٢٠ نوفمبر ١٨٩٢
(٢) المصدر السابق فى أول يناير ١٨٩٣
(٣) المصدر السابق فى أول مارس ١٨٩٣
(٤) المصدر السابق فى أول مارس ١٨٩٣

مناقب لا تقصر عما لها فى سواها . ولوفتحنا التاريخ وجمعنا أسماء الملوك والملكات لوجدنا أن النساء هن اللواتى برهن فى أغلب الأحيان على تمام الأهلية للحكم » (١) .

وليست أهمية هند مقصورة على مجرد إصدارها مجلة « الفتاة » ولكن كان لها الفضل فى « تحطيم الجليد الذى كان يحيط بالمرأة فى مصر ، وأفسحت للمرأة مكاناً فى ميدان الصحافة فصدرت على مثال الفتاة مجلات « مرآة الحسناء » و« أنيس الجليس » و« الفردوس » (٢) .

الصحافة والاهتمام بالنواحى المادية :

تدلنا كتابات كرومر على إدراكه التام لموقف الإسلام فى الشرق « فالمصريون يتمسكون تمسكاً تاماً بالإسلام الذى هو أحد الكلمات المرادفة للوطنية فى الشرق ، والإنجليز لايهدفون إلى نشر المسيحية ، ولكنهم يريدون نشر حضارة تقوم على أساس مسيحى(٣) » . ومن ثم عمد رجال الاحتلال إلى العمل على زيادة عدد المصريين الآخذين بنصيب من الحضارة الأوربية ، « وجعلوا لبعضهم مقاماً كبيراً فى الدور السياسى الذى تمر به مصر منذ الاحتلال . وإذا استمر المضى فى هذا الطريق أصبح المصرى الآخذ بحضارة أوروبا أقل مصرية وأكثر ميلا لأوروبا إذ يصبح المصريون بهذا الفيضان المتدفق من الحضارة الأوروبية أقل إسلاماً ، وهم فى الوقت نفسه لم يحصلوا بعد على العمود الفقرى فى الحضارة الأوربية » . أوكما يصفهم فى عبارة قصيرة « بأنهم مسلمون وليست فيهم خواص إسلامية ، وأوروبيون وليست فيهم خواص أوروبية »(٤) .

وفى الوقت نفسه يرى كرومر أنه فى إدخال المدنية الأوروبية فى مصر « يجب ألا يغيب عن ذهننا أنه لايمكن إدخال أى تجديد فى الإسلام . وبعبارة

---

(١) المصدر السابق فى أول مايو ١٨٩٣

(٢) Hartmann : Op. Cit. pp. 48, 49.

(٣) Cromer : Modern Eg. V. II, pp. 132, 133.

(٤) Cromer : Ibid V. II p. 228, 231.

أخرى إن الإسلام المجدد ليس إسلاماً ، إنه شيء آخر لايمكننا وصفه . لذلك فعلينا ألا نتوقع مساعدة كبرى من المسلمين المتمسكين بدينهم ، فهم يزدادون تمسكاً بالدين كلما ازدادت المدنية الأوروبية فى مصر . أما السوريون والأرمن فليسوا سوى أجانب ، والأقباط — إلى جانب أنهم مسيحيون — فهم فى عام ١٨٨٢ لايمتازون عن المسلمين من ناحية التعليم . لذلك فإن المصرى المتحضر بالحضارة الأوروبية أصبح هو العامل الأساسى فى إدارة البلاد إلى جانب الأوروبيين . والواقع أن القسم الأكبر من المصريين مسلم ، وينظر إلينا (الإنجليز) باعتبارنا لا نعرف شيئاً خارج المادة (روحيا) ولكن توجد بينه وبين عالم الأزهر فى الوقت نفسه هوة لا تقل اتساعا عن الهوة التى تفصل بين العالم الأزهرى وبين الأوروبى . وهكذا فإن الشباب المسلم الدائر فى تيار الحضارة الأوروبية يفقد إسلامه أوعلى الأقل يفقد القدر الأكبر من دينه ويحرم نفسه من أهم مبادئ عقيدته ، وفى الوقت نفسه نادراً ما يتجه هذا الشخص إلى المسيحية » (١) .

ويعترف كرومر بفضل الحضارة الأوروبية على الشرق من الناحية المادية ، «أما من الناحية المعنوية ، فإن التأثير على الأخلاق غير واضح ، فالحضارة الأوروبية تقضى على دين دون أن تستبدل به غيره . فالمصرى الذى قد نطلق عليه « صاحب التفكير الحر » يجد نفسه فى خضم هائل دون مرشد أوهاد . إنه لا يجد من تاريخه الماضى ولامن ظروفه الحاضرة سنداً أخلاقياً يعتمد عليه ، إنه يرى دينه راغباً عن التجديد ، أما الدين الذى يقبل الإصلاح والتجديد فهو دين آخر ، لذلك فإنه يتجه إلى ترك الدين جانباً . وهكذا فإنه بحرمان نفسه من عقيدته لن يجد رادعاً أخلاقياً . وفى الوقت نفسه يحاول تقليد الأوروبى ، ولايترك هذا المصرى عقيدته خلف ظهره فحسب بل إنه يترفع عنها ويزدريها ، وهكذا يندفع ، مغمض العينين ، بين أحضان الحضارة الأوروبية غير مدرك لحقيقة هامة ، هى أن ما يراه ليس سوى المظهر الخارجى لتلك الحضارة ، بينما تستقر المعنويات المسيحية تحت هذا المظهر وتتحكم فى تحركاته ويصعب على مقلد الحضارة الأوروبية أن يحصل

(١) Cromer : Ibid. V. II pp. 228-230.

عليها . ويؤكد هذا الشخص أنه ألقى جانباً كافة أنواع الحقد القائمة على الدين ويخاطب الأوروبيين بأنه قد أصبح لديه سكك حديدية ومدارس وصحف.. مما تفاخرون به من مظاهر الحضارة ، فلماذا أعد أنا أقل منكم ؟ »(١) .

ولكن هل يحيا المصريون هكذا دون عقيدة معينة ؟ ويوضح كرومر أنه « بمرور الوقت سيخلق المسلمون ديناً لا يقوم على الإسلام الأول ، إنه سيقوم على مبادئ جديدة . وهكذا فإن المصرى المتحضر بالحضارة الأوروبية هو الحجر الأول وليس الأخير فى المجتمع الإسلامى المتطور » . وفى الوقت نفسه ينصح كرومر رجال السياسة الأوروبيين بالابتعاد عن كل ما من شأنه أن يعد تحقيراً للعقيدة الإسلامية « ولندع هؤلاء الذين يقودون دفة الدولة على حذر يدكون ، فى مكر ، الصرح الروحى للمجتمع الإسلامى . فإن ازدراء العقيدة الدينية للشعب بأسره أمر على جانب كبير من الخطورة سياسياً ، واجتماعياً » (٢) .

هكذا رسم المعتمد البريطانى الطريق للوقوف فى وجه الإسلام كعقيدة إلى حد أن « أقبل فريق من المسلمين المتأثرين بالحضارة الغربية على كل غربى وتركوا ماضيهم وتاريخهم ، وأصبحوا لا يكترثون لشئون دينهم الذى ولدوا فيه ولا يهابون التصريح بالإلحاد . وقد اعتزم الأحرار المسلمون اتخاذ القواعد التى جرى عليها الغرب فى تقدمه ورقيه واتخاذها أساساً لما أنشأوه من إصلاحات » .(٣)

وتعد مجلة « المقتطف » أهم المجلات التى أخذت تدعو إلى التحلل من الدين « فبرغم ما فيها من المنافع صوب كتبتها غير مرة سهامهم للتعاليم الدينية »(٤) . ويؤرخ قسطاكى لهذه المجلة بأن « كلمة مقتطف قد ترجع بداهة لذهن القراء اقتطاف ما فيه نفع الناس من العلوم . ولكن أصحاب هذه

(١) Cromer : Op. Cit. V. II. pp. 231, 232.

(٢) Cromer : Ibid. V. II pp. 233, 234.

(٣) Stoddard L. : Op. Cit. pp. 32, 33, 88.

(٤) لويس شيخو : الآداب العربية فى القرن ١٩ ج ٢ ص ٦

المجلة جعلوا جل اقتطاف المقتطف على كل بدعة ظهرت على وجه الأرض بشكل أن لا تعرف أصل مبتدع البدعة ، كالشك فى كل شيء دون أن يقولوا هذه بدعة ، وكذلك التهكم على الأديان دون أن يذكروا فولتير وروسو وماركس وأناتول فرانس ، بل بالنغمة التى اعتادوا عليها وهى : هذا يقبله العقل وهذا يرفضه ، تضليلاً للبسطاء وسليمى النية ، ويطنبون فى عظمة العظماء وجبابرة العقول وهم من ذكرنا أسماءهم حتى لا تظن أنهم يأخذون عنهم الإلحاد بل يضعونهم فى صف الفلاسفة حتى تتبع تعاليمهم دون واسطة . وكذا فضل الأغنياء وذم تعاسة الفقراء ، حتى تشك فى عدل الخالق وحيث لا مساواة فلا خالق . مثل هذا وأمثاله وجد كثيراً فى مجلتهم » (١) .

وقد ظهرت فى هذه الأثناء نظرية دارون وأصبح المقتطف أكبر دعاة هذا المذهب « أو مذهب النشوء والارتقاء» ودعاه أصحابه (المقتطف) بمذهب « تنازع البقاء » الذى يقول « بأن العيش فى هذه الدنيا لا يصلح إلا للقوى ، وأن الضعيف لا بد أن يضمحل . وهو مذهب حيوانى صرف ، وحيث أن الإنجليز أقوى الأمم وقد احتلوا مصر الضعيفة فعليهم أن يتمتعوا بخيراتها ، وعلى الشعب المصرى الضعيف أن يشكر لهم صنيعهم ويباشر زرع أراضيه بكل اطمئنان لأن طريق المستعمرات من قناة السويس أصبح مضموناً من الطامعين بمصر والهند أضحت بمأمن من عقاب الجو » (٢) . وتولت مجلة المقتطف الدفاع عن المذهب « وإذا قيل لأنصار دارون إن مذهبه غير قابل للتصديق ، قالوا علام لا يصدق » (٣) . وأخذت المجلة تخصص مقالاتها الافتتاحية لشارلس دارون ومذهبه « الذى انحاز إليه كافة العلماء ».(٤) ثم تفرد ثمانى صفحات لشرح المذهب ثانية« وقد بذلنا الجهود فى الوضوح والاختصار مع مراعاة حالة السواد الأعظم من المطالعين ليحيط القارئ

---

(١) قسطاكى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف المصرية ص ١٢٥

(٢) قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ص ١٢٦

(٣) مجلة المقتطف فبراير ، مارس ، مايو ١٨٨٢

(٤) المصدر السابق يونيو ١٨٨٢

علماً بخلاصة أشهر مذاهب هذه الأيام » (١) . وفى العدد التالى ست صفحات ، « ومهما ظهر فى المذهب من القصور فلا شك أنه يتضمن حقائق راهنة ، وأنه أفاد أهل العلم (٢) » . ولم يخل عدد واحد تقريباً من الكلام والدفاع عن المذهب (٣) .. ثم بدأت سلسلة من المقالات عن عمر الأرض ومواليدها وتعاقب الحيوان والنبات ثم الإنسان على الأرض . (٤) وفاضت المجلة بسيل من المقالات عن « إطالة الحياة » ، « يد الإنسان والحيوان » ، « أصل الحياة » ، « مذهب دارون عن الأقدمين » ، و « الإنسان قبل أن يولد » ، « الحلقة المفقودة » و « الوراثة وأسبابها » ، « الدارونية » ، «حقائق فى علم الحياة» ، « فى ارتقاء الإنسان » ، « الحلقات المفقودة » ، « لغة القرود » ، « لغة الكلاب والطيور » ، « ذنب الإنسان » وغيرها . (٥)

وتوضح مجلة المقتطف الهدف من وراء إصدارها فتقول «إن كل من يتدبر أحوال المجلات العلمية يحكم بأن أتعابها تزيد على أرباحها ، والذين ينشئونها فى الشرق يخطئون أكبر خطأ إذا اتخذوها وسيلة لاكتساب المال والمقصد الأول من المقتطف ترغيب القراء فى العلوم والمعارف وتربية ذوقهم عليها » (٦). ثم تربط بين وجودها وانتشارها وبين ما تهدف إليه « فنحن إنما نقصد تقرير الحقائق ، لذلك نعود المرة بعد المرة إلى موضوع المناظرة ، ومن المسائل التى نعود إليها المذهب الدارونى . وقد وقع البحث حديثاً بين علماء اللاهوت وذهب أغلبهم إلى أن مذهب الارتقاء لا يخالف منطوق التوراة ، وأن الكاثوليكى يمكن أن يقبله » (٧) . وفى الوقت نفسه تقرظ كتاب شبلى

---

(١) المصدر السابق يوليو ١٨٨٢

(٢) المصدر السابق أغسطس ١٨٨٢

(٣) المصدر السابق نوفمبر ، ديسمبر ١٨٨٢

(٤) المصدر السابق من يوليو إلى نوفمبر ١٨٨٣

(٥) المصدر السابق يونيو ، ديسمبر ١٨٨٥ ، إبريل ١٨٨٦ يونيو ١٨٨٧ ، نوفمبر ١٨٨٩ ، أكتوبر ونوفمبر ١٨٩٠ ، مارس ويونيو ونوفمبر ١٨٩١ وفبراير وسبتمبر ١٨٩٢

(٦) المصدر السابق سبتمبر ١٨٨٥

(٧) المصدر السابق إبريل ١٨٨٦

شميل «الحقيقة» عن شرح بخنر على مذهب دارون وأنه قد صنفه إثباتاً لمذهب دارون فى النشوء والارتقاء» .(١)

وكان من نتائج موقف أصحاب المقتطف أن أرسلت الجمعية البريطانية الفلسفية (مجمع فيكتوريا) رسالة تقرظ فيها المجلة بعد «أن علم مجمعنا من المصادر الصادقة بأعمالكم المفيدة والفوائد العديدة الصادرة عن المقتطف فى نشر العلوم والمعارف وبث روح البحث والمطالعة فى مصر خصوصاً والشرق عموماً ، لذلك ندعوكم إلى عضوية مجمعنا إذ غايتنا الاتحاد مع من يسعى هذا المسعى الحميد فى أقطار العالم» .(٢)

وقد فطن جمال الدين الأفغانى إلى ما قد يجره انتشار هذا المذهب على الشرق الإسلامى فوضع كتاباً بالفارسية عنوانه «الرد على الدهريين»(٣) ، وترجمه إلى العربية الشيخ محمد عبده ... «وقد يثير ذلك عجباً إذ يتعرض الأفغانى لمثل هذا البحث وهو يتطلب تخصصاً فى العلوم الطبيعية . ولكن مذهب دارون قد أثار موجة من الإلحاد قوية وطغى فى عصره مذهب المادية القائل بأن العالم له أساس واحد هو المادة ولا شىء وراءها ، وكل شىء فى الحياة مظهر من مظاهرها حتى الفكر والعاطفة . وبناء على ذلك فلا نفس ولا روح ولا دين ولا إله . وبانتقال الآراء الغربية إلى الشرق انتقل مذهب النشوء والارتقاء ومذهب الماديين وترجم شبلى شميل شرح بخنر على مذهب دارون وأثار حوله حركة كبيرة» . (٤) وهكذا تتحقق آمال كرومر الذى آمن «بأن التقدم المادى الذى سينتج بعد الاحتلال سيكون سبباً فى خلق رأى عام يتفاعل مع الاحتلال ويتعاون معه فى شئون الحكم ، ويمنع الأهالى من الاتجاه نحو معاداة الإنجليز» . (٥)

ويقرر كرومر فى الوقت نفسه بأن «الأجيال القادمة من الفلاحين

---

(١) المصدر السابق أغسطس ١٨٨٥

(٢) المصدر السابق نوفمبر ١٨٨٨

(٣) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين ص ٤٤٥ — ٤٤٨

(٤) أحمد أمين : زعماء الاصلاح ص ٧٥ ، ٧٦

(٥) J. Marlowe : Ang. Eg. Relations p. 191.

المصريين سينظرون بعين التقدير إلى أن ما ينالهم من خير هو نتيجة للسياسة البريطانية فتتدفق عليهم الخيرات المادية التى تأتى فى أثر الحضارة الأوروبية ، وتفتح أمامهم الطريق للتقدم المعنوى ورفع المستوى الفكرى » ، ويؤكد كرومر أن هذا الاعتقاد سوف يدوم « وليس هناك أدنى شك فى أن هذه السياسة سوف تتحقق » .(١)

وأخذ المصريون يستبدلون بالقديم الذى كانوا عليه الجديد الذى وصل بلدهم على أيدى الأوروبيين . « وكانت الصحف الأجنبية الكثيرة العدد فى مصر تفرغ قصارى جهدها فى تشويق الشعب المصرى إلى أخذ علومها ومعارفها ، حتى أصبحت مصر عروس الشرق وبزت عاصمة بنى عثمان بعلومها ومعارفها » .(٢)

ويهتبل المقطم الفرصة لبيان فضل إنجلترا على مصر « إذ لا يخفى أن أكثر صادرات القطر المصرى ترسل إلى إنجلترا . والتجار لا يبعثون بحاصلاتهم إلى إنجلترا إلا لأن سوقها فيها أحسن من غيرها . ولو حدث حادث يمنع إرسال الحاصلات المصرية إلى بلاد الإنجليز لخسرت الديار المصرية خسارة لا تقدر . أفلا يليق بهذا القطر أن يحافظ على سوق لا غبن فيها ولا مشقة ، مهما بذل من الجهد فى ذلك » .(٣)

وهذا الاتجاه المادى أصبح من عوامل الاختلال فى المجتمع المصرى الذى « عانى من المحن والمصائب وما جلبته الثقافة الأوروبية الحديثة من إشاعة الإلحاد ومن فساد الأخلاق » (٤) . ذلك أن الشرق اعتاد على أن يحدث فيه كل تغيير طفرة سواء فى ذلك النواحى السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدينية أو غير ذلك فاختلطت الجواهر بالأعراض الزائلة واختلفت البواطن والظواهر . وفى فترة صغيرة أخذ التباين العقلى والأخلاقى

---

(١) Cromer : Op. Cit. V. II pp. 189, 197.

(٢) قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ذكره ص ١٣٥

(٣) جريدة المقطم فى أول سبتمبر ١٨٩١

(٤) عبد اللطيف حمزة : مجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٥٤ ص ١٠٩

يتسع بين أفراد الجيل الواحد . وحدث سوء الفهم بين الآباء والأبناء وتنكر الأبناء لآبائهم واشتد التنافر بين القديم والجديد .(١)

وتفسير ذلك أن « الحضارة الإسلامية فى جملتها حضارة دينية المصدر والنشأة والحضارة الأوروبية الحديثة قائمة على أسس عقلية وعلمية بحتة . ومنذ التقت الحضارتان معاً على أرض مصر كان من نتيجة التقائهما أن حدث تخلخل عام فى الحياة المصرية أعقبه صراع هائل فى نفوس المصريين وقلوبهم أيضاً . ففكر المصريون أن يملأوا هذا الفراغ الذى أحدثته هذه الحالة فى عقولهم وأفئدتهم فمنهم من عمد إلى الإلحاد ورأى فيه الخلاص . ومنهم من عمد إلى الإصلاح الدينى . ومنهم من فكر فى الانضمام إلى المعسكر الأوروبى جملة وحاول أن يحتذى الحياة الأوروبية نفسها بدقة . فجاءت محاكاته لهذه الحياة مجردة من المنطق ولا نظر فيها مطلقاً إلى ماضى الأمة المصرية . ولا غرابة فى ذلك فالبيئة المقلدة أشد من البيئة الأصيلة تطرفاً فى التقليد . فإذا كانت مصر مقلدة لأوروبا حديثة العهد بعلمها وحضارتها فمعنى ذلك أنها أشد تطرفاً فى الأخذ بمظاهر الحضارة الحديثة حتى لاتتهم بالتخلف عن أوروبا فى مضمار هذه الحضارة . ومن هنا نشأت المشكلة التى واجهت المصلحين فى مصر : المصلحون السياسيون ينادون بالحركة الوطنية . والمصلحون الاجتماعيون يطالبون بالإصلاح الدينى وبالحرية الفكرية . على أن فكرة الإصلاح الدينى أو الاجتماعى فى ذاتها صادفت هوى فى نفس كرومر لأنها الفكرة التى تشغل بال الرأى العام المصرى عن المطالبة بالاستقلال أو الجلاء ، أو لأنها الفكرة التى لو نجحت فى مهمتها أصبحت دليلاً فى ذاتها على نجاح الاحتلال البريطانى فى مهمته ، وهذه المهمة فى ظاهرها هى الأخذ بيد المصريين إلى الحضارة والسير بهم إلى حيث يلحقون بالأمم الأخرى » .(٢)

---

(١) Stoddard L. : Op. Cit. pp. 78, 79.

(٢) عبد اللطيف حمزة : الصحافة والأدب فى مصر ص ١٢٣ ، ١٢٤

صحف تدعو الى الماسونية :

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن أصحاب المقتطف « عند ما راجت بضاعتهم الزائفة تصدى أحدهم « شاهين مكاريوس » فأصدر مجلة صغيرة الحجم أسماها اللطائف ، فكانت حاملة راية الإلحاد الذى مهدته لها شقيقتها المقتطف . فكانت اللطائف أول مجلة جاهرت بالتعاليم السرية الماسونية فى القطر المصرى وبهذا تم لهم ما أرادوا زرعه من الإلحاد فى أرض مصر » . (١) فالماسونية من مهمتها « أن تدخل فى روع الناس أنهم متساوون ، وأن الميزات القومية والمعتقدات كلها اصطناعية لا قيمة لها ، وقد أرادت أن تصبح ديناً ولكنها أضافت إليه نظاماً عملياً لا يمت إلى العاطفة بصلة » . (٢)

وحاول جورجى زيدان إلقاء تبعة الخلاف بين الماسونية والدين على عدم فهم القائمين بشئونهما « فإن الطبيعة البشرية ميالة بكليتها إلى الفساد . وقد يكون بين نصراء المبادئ الدينية من قد جهلوا أو تجاهلوا السبيل الذى يجب أن يسلكوه . فإذا تذكرنا هذه الحالات فى البشرية تتجلى لنا الأسباب التى من أجلها قامت الاختلافات والمقاومات بين نصراء الدين ونصراء الماسونية . على أننا لو تتبعنا سير كل من تلك الفئتين على حدة لرأينا لكل منهما أزمنة تتأيد فيها مبادؤها وتنتشر تعاليمها ويكون فيها روح العمران ، وأزمنة تنحط إلى الحضيض وتكون أول مفسد لجسد هذا العمران . وإذا اتضح ذلك لا نعجب لما قام ويقوم بين رجال الدين والماسونيين من الأخذ والرد بين تفنيد وإنكار وإثبات . فقد اتهم بعض رجال الدين الماسونية بالكفر وأنها إنما تسعى لهد أركان الدين وتشتيت الفضيلة . أما نحن فمع إجلالنا لهذه الجمعية عن هذه التهمة ، ومع يقيننا أنها براء منها لا يسعنا الإنكار أن بين أعضائها أفرادا قليلين ربما تصح عليهم تلك التهمة » .(٣)

هكذا جاء دفاع زيدان عن الماسونية تأكيداً لما تتهم به من خروج عن

---

(١) قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ذكره ص ١٢٥ ، ١٢٦

(٢) ر. فورستيه : هذه هى الماسونية (ترجمة بهيج شعبان) ص ٩ ، ١٢

(٣) جورجى زيدان : تاريخ الماسونية ص ٢٥١ – ٢٥٣

الدين والفضائل لذلك « لم يتورع الماسون عن أن يقفوا فى وجه القوانين والقواعد الدينية والأخلاقية والاجتماعية التى تعارفت عليها المجتمعات الإنسانية وليس أدل على ذلك من أن المحافل الإنجليزية التى تعتبر النواة الأولى للمحافل الماسونية عامة كانت لا تقيم وزناً للاعتبارات الدينية أو الوطنية بل كانت تعدها أوهاماً يجب على الانسان أن يتحرر منها » .(١)

وتفسير ذلك أن «الماسونية زعمت أنها تصلح بين اتجاهين مختلفين بتمثيلها العقل والتقليد معاً — أى الحاضر والماضى — فتقول بوجود العناية الإلهية وتشارك فى الحركة الفكرية التى تلقى جانباً المعتقدات المحترمة التى استند إليها تفكير العالم المتمدن طوال قرون . وهذه الصفة المزدوجة تمثل تماماً العصر الذى ولدت فيه — وهو عصر مضطرب — حركت فيه الأفكار والآمال والأحلام الطبقة المثقفة » .(٢) وتتخذ اللطائف من وجود أصحاب الأديان المختلفة فى الماسونية « برهاناً على أنها جمعية أدبية شريفة المقاصد لا تتعرض لدين ولا لسياسة فهى تضم من المسلمين والمسيحيين واليهود الجم الغفير من صفوة أبناء المشرق » .(٣)

وتصدت جريدة «البشير» الجزويتية — الصادرة فى بيروت — للماسونية ولم تغفل عن مهاجمتها وكشف أسرارها دواماً . وانبرت الصحف المصرية المدافعة عن الماسونية ترد على « نفاق الطغمة اليسوعية ، ليعرف الناس ما هى اليسوعية وماهى الماسونية ، ويهتك ستر الجزويت وكرم أخلاق الماسون» .(٤) ثم يرد المقتطف على كتاب ألفه يوسف سركيس عن « شرف الرهبانية اليسوعية وبيان كنه الشيعة الماسونية » وتهاجم المجلة الجزويت وفشلهم فى كل عمل أقدموا عليه وأنهم كانوا السبب فى هلاك بعض ملوك إنجلترا وإبادة شعب أسبانيا .(٥)

---

(١) ر. فورستيه : المرجع السابق ذكره ص ٦١ ، ٦٢

(٢) المرجع السابق ص ١٧ ، ١٨

(٣) مجلة اللطائف ١٥ مايو ١٨٨٨

(٤) مجلة المقتطف عدد سبتمبر ١٨٨٤

(٥) المصدر السابق عدد أكتوبر ١٨٨٤

وكانت مقالات اللطائف تتميز بالحدة حتى فى عناوينها ومنها «الماسون الأحرار والجزويت المنافقون» . وهى سلسلة من المقالات استغرقت أربعة أعداد من المجلة (١) . وتحاول فيها اللطائف إثارة الحكومة الخديوية والسلطنة ضد الجزويت «فلا نسمع بأمة أرادت حفظ السلام ونشر لواء التقوى بين أفرادها إلا ونعلم أنها قامت على الجزويت بعد أن عرفت حقيقة أمرهم وطردتهم من بلادها» وفى الوقت نفسه «نرى الحكومة الخديوية تعتبر رجال الطريقة الماسونية كامل الاعتبار وتكرم سيادتها . وها دولة إنجلترا وهى أعظم دول الأرض شأناً وجاهاً وتقدماً وحباً بالألفة والسلام والدين والتقوى نرى ولى عهدها رئيس الماسون وأكابر العائلة المالكة ورجال حكومتها والقائمين بأعبائها ، ماسون مشهورون» .(٢)

ورأت جريدة البيان المصرية أن البشير قد تعدى على الماسونية بأقواله فتهاجمه قائلة إننا «إذا اعتبرنا الكون مقتصراً على اليسوعيين والدجالين فلا ريب أن الماسونية ستدمره تدميراً . وأما إذا اعتبرنا الكون على حقيقته فهو ما شادته الماسونية ، وحسبنا دليلاً على ذلك حال البلاد التى قويت فيها مبادئ الماسونية» . وتدافع البيان عن الدكتور فانديك بعد أن هاجمته صحيفة البشير لأنه كشف مفاسد اليسوعية وما عندها من طرق الخبث والحيل .(٣)

وما لبثت البيان أن خصصت بدورها سلسلة من المقالات ضد البشير الجزويتى بدأت بمقال فى الصفحة الأولى يعتذر عن تأخر صدور أحد الأعداد «لمرض طرأ على محرر الصحيفة . وإنى قد تحركت إلى تحرير هذا العدد على ما بى من الاعتلال من أجل ما ورد فى البشير من الطعن على البيان . فقد وجدت بعض الشفاء فى الرد على مغالطة تلك الصحيفة» . وأفرد المحرر ثلاث صفحات من الجريدة فى الهجوم ضد الجزويت والدفاع عن الماسونية .(٤)

(١) مجلة اللطائف ١٥ فبراير ، ١٥ مارس ، ١٥ مايو ١٨٨٨ ، ١٥ ديسمبر ١٨٩٠
(٢) مجلة اللطائف ١٥ فبراير ، ١٥ مارس مايو ١٨٨٨ ، ١٥ ديسمبر ١٨٩٠
(٣) جريدة البيان فى ٢٤ يوليو ، ١٤ أغسطس ١٨٨٤
(٤) المصدر السابق فى ٢٢ ، ٢٩ أغسطس ، ٥ سبتمبر ١٨٨٤

كذلك ظهرت النزعة الماسونية لدى جريدة الفلاح التى كانت تتابع أنباء الماسون واجتماعاتهم ومحافلهم وتهاجم الجزويت وتعليمهم ومدارسهم.(١)

وصدرت صحيفة النصوح الأسبوعية عام ١٨٩٢ فى ست عشرة صفحة من القطع الصغير وفى صدر عددها الأول أن مقاصد الجريدة « تدوين المباحث العلمية والمناظرات الأدبية » لصاحبها ومحررها محمد توفيق وهو من الأشراف . وتصدر الكلام عن الماسونية معظم صفحات الجريدة منذ العدد الأول الذى أفرده المحرر عن الماسونية على أن يقسم الموضوع بعد ذلك إلى ثلاثة أقسام : « تبحث فى الأول عن العشيرة الماسونية . وهل هى تخبئ ضرراً فى سرداب أسرارها أو تحشد كلمة وتجلو منفعة . والثانى فى غرضها وروحها . والثالث كيف سارت وآل أمرها إلى استخدام الملوك وأفكارهم فى مصلحة أقل إنسان . أى نحكم على الرجل العاقل ومحب الوطن أن يدخل فى أعضاء هذه العشيرة ويستمر فيها » . ويتحمس «الشريف» محمد توفيق للدفاع عن العشيرة « ودفع كل ريب فى أمرها ولا نشك فى أنها مهمة جداً ونافعة جداً — ونجد من المنافع لكل عاقل أن يجزم بوجوب منفعة هذه العشيرة للآداب والمعقولات بل والدين نفسه . وكيف ننكر على قوم لا تأخذهم حمية العصبية لدين ولا لأمة ولا لوطن ولا لقرابة ما دامت الفضيلة سائدة على قلوبهم » .(٢)

ويحاول المحرر بعد فترة تبرير موقفه المتطرف الذى اتخذه فى الدفاع عن الماسونية وسارت عليه صحيفته « فمنذ أن نشرنا نصوحنا إلى الآن ونحن كلما قابلنا أحد الإخوان العزاز أخبرنا أننا تمادينا فى أمر غير مشكور حتى لامونا على امتداح عشيرة الماسون . مع أن الواقع أننا لم نمدح ولم نذم . فهى أخبار وأقوال الماسون »(٣) .

وهكذا نجحت الماسونية فى جذب بعض الصحفيين إلى صفها بل أصبح منهم دعاة لها وفى ذلك تحقيق لاتخاذ «الماسون من الصحافة سلاحهم الخاص

---

(١) جريدة الفلاح فى ١٧ ، ٢٤ يوليو ، ٦ ، ١٣ أغسطس ١٨٨٧

(٢) جريدة النصوح العدد الأول فى ٢٠ أكتوبر ١٨٩٢

(٣) المصدر السابق فى ٢٢ ديسمبر ١٨٩٢

لتنفيذ مآربهم ، فليس بلد إلا وفيه عدد من الجرائد والنشرات التي باع كتبتها أقلامهم من الماسون وانتظموا فى الشيعة أملاً بالربح فأصبحوا رهناء أوامرها يكتبون ما يلقنه إياهم أصحابها كالببغاوات » (١) . ويقول فورستيه إن منشوراً صدر فى ١٨٩٢ يحدد « للإخوان المحررين فى الجرائد أن يستمدوا أفكارهم من مقررات المجلس على أن يتحاشوا نشر ما قيل أو عمل فى المحفل » .(٢)

وأصبح شاهين مكاريوس – أحد أصحاب المقتطف ، والمقطم ورئيس تحرير اللطائف – من كبار زعماء الماسونية فى مصر والشرق « وتقلب فى كل وظائف المحفل الاسكتلندى » (٣) ، وأسس محفل اللطائف وانتخب رئيساً له (٤) . أما زميله يعقوب صروف فقد تولى منذ وجوده فى بيروت قبل مجيئه مصر رئاسة المحفل الماسونى هناك (٥) . كذلك دخل فارس نمر الماسونية منذ عام ١٨٧٤ وعين رئيساً لأحد المحافل بلبنان ، ثم انتخبه محفل الثبات بمصر رئيس شرف له فى ١٨٨٧ (٦) ، كذلك أصبح جورجى زيدان عضواً بالمحفل وبدأ فى وضع مؤلفات عن الماسونية وتاريخها . (٧)

وتخصصت اللطائف فى نشر « كل ما تشتمل فائدته من المباحث والأخبار الماسونية مع الإفاضة فى شرح الدستور الماسونى العمومى » . (٨) لذلك فإن المحفل الأكبر الوطنى المصرى بعد انقضاء « خمس سنين على جريدة

---

(١) لويس شيخو : السر المصون فى الشيعة الفرمسون جـ ٣ ص ٤٢

(٢) ر. فورستيه : المرجع السابق ذكره ص ١١٣

(٣) إلياس زاخوره : مرآة العصر جـ ٣ ص ٤١٨ – ٤٢٠ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩

(٤) مجلة اللطائف ١٥ فبراير ١٨٩٢ . وقد وضع شاهين ستة مؤلفات عن الماسونية هى : الدستور الماسونى العام ، والآداب الماسونية ، الجوهر المصون فى مشاهير الماسون ، والحقائق الأصلية فى تاريخ الماسونية العملية ، الدر المكنون فى غرائب الماسونية ، كتاب المراسلات . وقد أصبح رئيساً لعدة محافل وأسس ثمانية محافل فى القاهرة (مقدمة كتاب الدستور الماسونى العام) .

(٥) إلياس زاخوره : المرجع السابق ذكره ص ٤٧١

(٦) إلياس زاخوره : المرجع السابق ص ٥٣٠ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤ ، ومجلة اللطائف فى ١٥ أغسطس ١٨٨٨

(٧) مجلة اللطائف فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٨

(٨) المصدر السابق فى ١٥ مايو ١٨٩٠

اللطائف وهى تخدم الماسونية وتدافع عنها ، وقد ظهر لدى العموم صدق ولأنها بحيث جاء كل ما نشرته موافقاً للمبادئ الماسونية ، وبما أن صحف أخبار مذهب البناية الحرة من الأمور الضرورية إذ بها يتضح للعالم الأجنبى ما انطوت عليه هذه العشيرة فقد أصدرنا هذا المنشور لكى تعتبر جريدة اللطائف جريدة ماسونية وتمدها المحافل بأخبارها ، وتؤازرها بمساعدتها كى يزداد عدد ما ينشر منها شهرياً » .(١) وقد حفلت اللطائف بأخبار الماسونية ولم تترك فرصة إلا اهتبلتها للدعوة لهذه الجمعية . كذلك كانت تنشر فى شيء من الإفاضة أنباء إنشاء المحافل المختلفة فى بلدان مصر والشرق عامة « وتزين اللطائف بذكر محفل التوفيق الذى أنشئ بمصر فإنه مع حداثته آخذ فى النمو وقد حضره جمهور غفير من الإخوة الماسون على اختلاف أجناسهم وجميعهم ضمتهم الرابطة الشريفة تحت راية الحرية والمساواة والإخاء » .(٢) وكان افتتاح كل محفل مناسبة للحديث عن تاريخ الجماعة مرة أخرى معددة مناقب رجالها متمنية للجمعية « النجاح والفلاح فى عمل الخير » .(٣)

وحاولت اللطائف إثبات فضل الماسونية فى الحياة العامة بمصر ، فالماسون « سيقيمون مدرسة صناعية لكى يتعلم فيها أولاد الفقراء والأواسط مايمكنهم من اكتساب أسباب العيش ويعود على الوطن بالفائدة الكبيرة » .(٤) كذلك تتحدث عن تقديم الماسون الكثير من أسباب الخير للبلاد .(٥) أما التقدم الذى أصاب أوروبا وأمريكا فالماسونية فى رأى اللطائف من أقوى أسبابه ، « وعندنا دليل لذلك هو تقدم مملكة إيطاليا بعد أن انتشر لواء الماسونية فيها »(٦) . والحرية لفظ « لم نسمع به مستعملاً فى معناه المتعارف الآن إلامنذ وجود هيئة الماسونية فى مصر »(٧) .

---

(١) المصدر السابق فى ١٥ مايو ١٨٩١

(٢) المصدر السابق فى ١٥ مارس ١٨٨٨

(٣) المصدر السابق فى ١٥ فبراير ، ١٥ يونيو ١٨٨٨

(٤) المصدر السابق فى ١٥ يوليو ١٨٨٨

(٥) المصدر السابق فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٨

(٦) المصدر السابق فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٩

(٧) المصدر السابق فى ١٥ يونيو ١٨٩١

ويتبين من الإحصاء التالى مقدار ما كانت تخصصه مجلة اللطائف من صفحاتها للحديث عن الماسونية ومحافلها وتاريخها وتطورها وأفضالها ، علماً بأن عدد صفحات المجلة كان ٣٢ صفحة ثم أصبح ٤٠ صفحة .

تاريخ العدد	عدد الصفحات	ملاحظات
١٥ــ ٨ ــ١٨٨٨	٨	أخبار ماسونية
١٥ــ ٩ ــ١٨٨٨	٨	تاريخ ــ وأخبار ماسونية
١٥ــ١٠ــ١٨٨٨	١٠	الدين والماسونية
١٥ــ١١ــ١٨٨٨	٨	الماسون
١٥ــ١٢ــ١٨٨٨	١٠	الماسون المتستر ون ــ الجزويت المنافقون
١٥ــ ٣ ــ١٨٩٠	٧	أخبار الماسونية
١٥ــ ٤ ــ١٨٩٠	٥	أخبار الماسونية
١٥ــ ٥ ــ١٨٩٠	٩	الحقوق الماسونية
١٥ــ ٩ ــ١٨٩٠	١٤	أخبار الماسونية
١٥ــ١٠ــ١٨٩٠	٢٧	الجزويت المنافقون والماسون الأحرار
١٥ــ١١ــ١٨٩٠	٨	الماسونية
١٥ــ١٢ــ١٨٩٠	١٦	الماسون ــ أخبار
١٥ــ ١ ــ١٨٩١	١١	الماسون
١٥ــ ٢ ــ١٨٩١	١٣	الماسونية ــ أخبار
١٥ــ ٣ ــ١٨٩١	١٧	الماسونية
١٥ــ ٥ ــ١٨٩١	٢١	الماسون ــ الجزويت المنافقون
١٥ــ ٦ ــ١٨٩١	١٩	الماسون
١٥ــ ٧ ــ١٨٩١	١١	الماسون ــ أخبار المحافل
١٥ــ ٩ ــ١٨٩١	١٥	الماسونية ــ أخبار
١٥ــ١٠ــ١٨٩١	٢٢	الماسونية ــ أخبار
١٥ــ١١ــ١٨٩١	١٦	الماسونية ــ أخبار
١٥ــ١٢ــ١٨٩١	٢٥	خطبة ماسونية ــ محفل اللطائف

تاريخ العدد	عدد الصفحات	ملاحظـــات
١٥ــ ١ ــ١٨٩٢	٤٠	عن الخديوى توفيق والماسونية فى مصر بمناسبة وفاة توفيق .
١٥ــ ٢ ــ١٨٩٢	٢٣	أخبار المحافل الماسونية
١٥ــ ٣ ــ١٨٩٢	١٦	الماسون ــ أخبار
١٥ــ ٤ ــ١٨٩٢	١٣	أخبار المحافل

وفى الوقت نفسه تقول الصحيفة « ليس من يجهل أن الماسون الإنجليز أنشأوا المدارس ومحلاً لإغاثة العاجزين ، وهم ينفقون على البر آلاف الجنيهات كل سنة » .(١)

وهكذا أخذت المجلة تحاول الربط بين نواحى الحياة العامة وبين ما يقوم الإنجليز بعمله محاولة بذلك تحقيق أحد أهداف الماسونية من « التعطش للسيطرة وإن كانت كلمات الإخاء والتسامح تلوح دون انقطاع على أفواه رؤسائها وأعضائها »(٢) .

وحرص الكتاب الماسون فى الوقت نفسه على منع النقد الصحفى المتعلق بأعمال السلطة والسياسة والبعد عن الانتخابات والمشاحنات (٣) . وقد نشرت اللطائف الدستور الماسونى وتقول المادة ٣٤ منه « احترم سلطان البلاد التى أنت عائش فيها لأنه إذن لك بالإقامة فى أرضه » . والمادة ٣٥ « احترم الحكومة واخضع للشرائع ولا تدخل فى مؤامرة بل إذا مست الحاجة فقدم للحكومة المساعدة والعضد » . (٤) لذلك كان المقطم يقاوم فكرة وجود الصحف المعارضة فى مصر « فإن الجرائد فى أوروبا من أهم الأدوات للكشف

(١) المصدر السابق ١٥ مايو ١٨٨٨
(٢) ر. فورستيه : المرجع السابق ذكره ص ٩١
(٣) ر. فورستيه : المرجع السابق ص ١١٩
(٤) مجلة اللطائف فى ١٥ يوليو ١٨٨٨ ص ١٣١ — ١٣٦

عن الطيب والخبيث ، ولكننا هنا فى الشرق لا نزال فى بداية الطريق ، والبصير يرى أن ما يصدق على أوروبا لا يصدق على مصر إذ لا أحزاب فيها ولا تنافس بين حكومتها ورعيتها . لذا فالنقد والمعارضة لا فائدة منهما وإنما يؤول إلى إلقاء النفرة والوحشة بين الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة . مما يفضى إلى الفتنة والثورة وهما مقدمة الخراب والبوار » (١) . وهكذا يتحقق ما شكا منه جمال الدين الأفغانى من قبل وهو امتناع أعضاء المحافل الماسونية من الخاصة وبعض المفكرين ، عن الخوض فى السياسة والقضايا الهامة ووجه الأفغانى النقد إلى المحفل الاسكتلندى الذى كان عضواً فيه لذلك الخمول والتخوف والجبن ، فأنشأ محفلا وطنياً تابعاً للشرق الفرنساوى(٢) .

ويلاحظ من دراسة تاريخ الأفغانى أن الإنجليز سكتوا عنه وهو فى مصر طالما كان عضواً فى الماسونية الإنجليزية ولكنه عندما خرج عليها وأنشأ المحفل التابع للشرق الفرنسى وأخذ يهاجم سياسة بريطانيا ، عندئذ أشار الإنجليز على توفيق بضرورة التخلص منه « إذ لما بلغ محفل جمال الدين إلى هذه الدرجة من الأهمية والتأثير داخل الخوف قنصل إنجلترا الجنرال وجمع بواسطة ما بثه من الرقباء فى المحفل والجواسيس ما أخاف به الحكومة وأرهب الخديوى . فأصدر أمره بإخراج السيد من القطر المصرى سنة ١٨٧٩ » .(٣)

ويقول شيخو إن الماسون الإنجليز كانوا يقصدون ضم جمال الدين إلى جماعتهم كأحد الرؤساء شرفاً ليصفو لهم الجو فى ظل حمايته « إلا أنه عرف غايتهم ولم يرض أن يكون كطعم لسنارتهم يصطادون باسمه السذج ففارقهم »(٤) وكانت التعاليم الماسونية تقضى بألا ينضم إلى المحافل « غير الناس المعتبرين ولكننا نريد أن تكون جماهير الشعب تحت يدنا نستعين بها للعمل » . (٥)

وقد تمتعت الماسونية فى مصر « بحماية ولاة النعم وما ذلك إلا لثقتهم

---

(١) جريدة المقطم فى ١٨ نوفمبر ١٨٩١

(٢) محمد المخزومى : المرجع السابق ذكره من ٤١ — ٤٥

(٣) محمد المخزومى : المرجع السابق ص ٤٩ ، ٥٠ ،
محمد رشيد رضا : تاريخ الإمام محمد عبده جـ ١ ص ٤٠ ، ٤١

(٤) لويس شيخو : السر المصون جـ ٢ ص ٤١

(٥) لويس شيخو : السر المصون جـ ٣ ص ٢٥

بصحة مبادئها ولعلمهم بإخلاصها للأمة والوطن والدولة . وقد اشترط عليها أن لا تتعاطى أمراً مخالفاً . وأن لا تتداخل فى السياسة إلا إذا دعيت للمساعدة . وعلى ذلك تم التعاضد بين الحكومة المدنية والدولة الماسونية وأصبحت القوتان يداً واحدة فى ترقية شأن الأمة ورفع منار الفضيلة »(١) .

ولكن الوقائع التاريخية أثبتت بعد كلام الماسونيين عن الحقيقة واستطاع النديم الكشف عن أصحاب المقطم وتاريخ حياتهم ، إذ « كيف يرجى الصدق والإخلاص ممن خانوا وطنهم وسلطانهم وأهلهم وكانت بلادهم أولى بالخدمة . وأقرب الحوادث منا وجود أحد الأجراء خطيباً فى محفل من محافل بيروت الماسونية يحرض فيه الناس على نبذ الطاعة السلطانية والانحياز إلى الغير »(٢) . وكان هجوم النديم على المقطم وأصحابه سبباً كافياً لإغلاق مجلته « الأستاذ » !

وقد تغنت الصحف الماسونية بتولى ولى عهد إنجلترا رئاسة المحفل الأعظم الذى أعلن بفخر أنه « ذرية ملوك ساعدوا الماسونية منذ عهد قديم ونشطوها لعلمهم أن مبادئها صادقة(٣) » . هذا إلى جانب أباطرة ألمانيا وملوك أوربا وقد « قيض الله للماسونية أن تكون معززة فى الدنيا وأن يركع أمام سدتها عظماء الأرض ويتسابق الملوك إلى خدمتها ، وهى على حداثة عهدها فى مصر قد صار لها شأن وجمعت محافلها قوماً من نخبة الأنام »(٤) .

وخصصت مجلة اللطائف العدد التالى لوفاة توفيق فى تعداد مناقب « فقيد الماسونية العظيم . وقد كان لنا فيه عضد متين . وطالما شد أزرنا . وكان حصناً يلجأ إليه ، وأصبح رئيساً لمحافلها ، ثم عين أحد نظار حكومته نائباً عنه فى حضور الاجتماعات وتثبيت المحافل وإمضاء الأوامر » . وأعلنت المحافل أن مدة الحداد على « رئيس الشرف الأعظم الأبدى لها .. مدة سبعة شهور »(٥) .

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ الماسونية ص ٢١٩ ، ٢٢٠

(٢) مجلة الاستاذ فى ٢٣ مايو ١٨٩٣ وكان آخر أعدادها بتاريخ ١٣ يونيو ١٨٩٣

(٣) جريدة الفلاح فى ١٣ أغسطس ١٨٨٧ ، اللطائف فى ١٥ يونيو ، ١٥ يوليو ١٨٨٧ ، ١٥ أكتوبر ١٨٨٩

(٤) مجلة اللطائف ١٥ يونيو ١٨٨٨

(٥) المصدر السابق ١٥ يناير ١٨٩٢

وكان المحفل الأعظم الوطنى المصرى يقوم على أساس الطريقة الاسكتلندية القديمة التى تسير بموجبها المحافل الوطنية الأخرى (١) . وقد كشفت مجلة اللطائف عن بعض كبار الرسميين الإنجليز فى مصر وانضمامهم إلى الماسونية واحتفال المحفل بالمستر رفاييل بورج قنصل إنجلترا بمصر لتعيينه نائباً عن الشرق الأعظم الإنجليزى الماسونى لدى المحفل المصرى (٢) . وتتخذ المجلة من حياة الجنرال ولسلى « مثلا للشجاعة والإقدام فإنه دخل الجيش الإنجليزى حدثاً وأنعم عليه فى حروبه فى مصر سنة ١٨٨٢ بلقب لورد ودخل بين الأشراف . وحياة هذا الأخ الماسونى مثال للهمة والثبات على الخطوب(٣) » . وكذلك كان الجنرال سميث « الرئيس الأعظم ١٨٩٥ » وكان من الأعضاء السردار كتشنر . (٤)

وبذلك نتبين ما فى أقوال عباس حلمى الثانى من صحة فى عدم كفاية تعليم ضباط الجيش فيقول إنه علم « أن الضباط العظام كانوا يختارون بصفة خاصة ممن ينتسبون فيما يعرف الناس إلى المحفل الماسونى الإنجليزى (٥) » ويؤكد ذلك مرة أخرى فى حديثه عن مشاريعه عند ما تولى الخديوية فيقول « لما وصلت إلى مصر اتجهت إلى الجيش أعتمد على ضباطه وأشير إلى اتصالى بهم واتخاذى اللباس العسكرى لباسى العادى ، ولما أفلت الضباط من يدى إذ دخلوا الماسونية الإيقوسية التى كان يرأسها السردار ، تحولت إلى الشباب فلبست اللباس المدنى » (٦)

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ الماسونية ص ٢٢٠ – ٢٢٤ ،
مجلة اللطائف فى ١٥ فبراير ١٨٩٣

(٢) مجلة اللطائف فى ١٥ يوليو ١٨٩٠

(٣) المصدر السابق فى ١٥ إبريل ١٨٩١ ومن المعروف أن الجنرال ولسلى هو قائد الحملة الإنجليزية على مصر عام ١٨٨٢ وانتهت باحتلالها البلاد .. والإشادة هنا بشجاعته وعضويته الماسونية ذات مغزى .

(٤) إلياس زاخوره : مرآة العصر جـ ٣ ص ٤٦٧

(٥) عباس حلمى : مذكرات – جريدة المصرى فى ٨ إبريل ١٩٥١

(٦) جريدة المصرى فى ٢٣ ديسمبر ١٩٤٤ حديث للدكتور محمود عزمى مع عباس حلمى الثانى

الصحافة ومظاهر الانحلال فى المجتمع المصرى :

ولا نزاع فى أن الاحتلال مسئول من الوجهة الاجتماعية عن حالة طبقات الشعب « فالطبقة الخاصة من الأغنياء والكبراء والمثقفين قد اتجهت فى مجموعها جهة الولاء للاحتلال والحياة النفعية ، فخلت الحياة من المفاخر لأن الولاء للحكم الأجنبى يتولد عنه صغار فى النفوس يتنافر مع كل ما هو عظيم ونبيل . واجتمع إلى ذلك الإسراف والبذخ والرغبة فى الظهور الكاذب واقتباس مفاسد المدنية الغربية دون محاسنها ، فصارت هذه الطبقة فى مجموعها عنوان الانحلال فى الوطنية والأخلاق . وأداة للاستغلال الأجنبى فى البلاد . وتقطعت الروابط بين الطبقات ؛ لانصراف أفرادها إلى المنافع الشخصية دون الحياة القومية .

« أما الطبقة المتوسطة فى اليسار والعلم ، فهذه انصرفت أيضاً إلى الحياة النفعية تبتغى بلوغ مراتب الطبقة الخاصة ، ومحاكاتها فى مظاهر الأبهة والبذخ ، فلم يعد على البلاد من جهودها أية فائدة .

« والطبقة الفقيرة من الفلاحين والعمال ، وهم غالبية الشعب قد ازدادت حالتهم سوءاً فى عهد الاحتلال ، فحرموا نور العلم والتربية الأخلاقية والدينية ، وساءت حالتهم المادية والمعنوية ، وفقدوا مع الزمن صفات الصدق والعرفان وحب الخير والبر والإحسان »(١) .

وكان على الصحافة أن تقوم بمحاولة لإصلاح ما أفسده الاحتلال من أخلاق المصريين وطباعهم ،ومحاولة التخلص من صفات الخضوع والاستكانة والرضا بالأمر الواقع(٢) . ومنذ القدم والمعركة حامية بين الحاكم والمحكوم حول مسألة «حرية الرأى» وتشتد هذه المعركة دائماً كلما تأزمت الأمور أمام الحاكم وخاصة فى ظروف الحرب ، أو الظروف التى تخضع فيها الأمة لحكومة أجنبية عنها . وفى كل هذه الظروف يشعر الحاكم أنه فى غاية الحرج : فلا هو يستطيع أن يكاشف الأمة بأسرار الموقف السياسى ، ولا

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١٨٨ ، ١٨٩

(٢) عبد اللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى ١٠٠ عام ص ١٢٤

الشعب صابر على أن يقاد فى الطريق كما تقاد الأنعام . ويسلك الشعب فى سبيل غايته طرقاً خاصة لم يعرف منها فى القرن الماضى إلا طريقة النديم التى كتب بها فى صحيفته « التنكيت والتبكيت » بالعربية والعامية . « فكتب بالعامية مقالات قصصية للعامة سخر فيها من الأوضاع الشاذة فى المجتمع المصرى الحديث منذ التقت الحضارة الأوروبية الحديثة بالحضارة الشرقية الموروثة . وكتب بالفصحى مقالات قصصية رمزية للخاصة » (١) .

وأدرك النديم الدور الهام الذى تستطيع الصحافة القيام به فيقول إن « فضل الجرائد على العامة كفضل المعلمين على الخاصة : فالسياسية منها ناقلة للأخبار منبهة إلى أوجه الإصلاح ، والعلمية ناشرة للفنون مهذبة للنفوس قاتلة للجهالة منبهة على مكارم الأخلاق » (٢) .

وحاول أمين ناصف صاحب جريدة « الصادق » ١٨٨٦ اتباع طريقة النديم فبدأ تحت باب « نوادر ونكات » سلسلة من الروايات الفكاهية ذات عناوين شعبية جذابة كرواية « هف طلع النهار » مقدماً لها بأنها فصول فى المواضيع الغرامية والوعظية والمباحث اللطيفة التى تشتاق الأرواح إلى التروح فى رياضها (٣) ، وكتب فصولا منها على شكل زجل لعل أهم ما كان منه بعنوان « أضغاث أحلام » ومنه :

ولسه يمكن ياما يجـــــرى   ونشوف غرايب وعجايـــــب
المسيو دى اليوم له شهـــرا   واحنا ما فيش لنا فيها نايب
له الماهيـــــه جنيــه أصفــر   من القروش لا ياخد بــاره
يمشى مفـــرفش ومفنجـــــر   ويبقى ســيد أهـــل الحـــارة

* * *

فرغت نقـــودنا وزاد البــــون   من يوم طاوعنـــا كـــلام الغير
يا دار انتِ جرالك إيــــــــه   من بعد ما كنتى جنــــــــه

(١) عبد اللطيف حمزة : المدخل فى فن التحرير الصحفى ص ٢٠١ ، ٢٠٣
(٢) مجلة الأستاذ فى ١٨ أكتوبر ١٨٩٢
(٣) جريدة الصادق فى ٧ سبتمبر ١٨٨٦

أكم رزيــه بتجيـــــــلك   يا دار ياست الأقطــــــــــار
يكنش انت فـــــرغ جيلك   لمــا العبيد حكمت احرار »(١)

وسرعان ما صدر الإنذار للصحيفة بالكف عن هذه « النوادر والنكات التي تضمنت كثيراً مما يشوش الأفكار ويخدش الأذهان بعنوان « أضغاث أحلام » ولو أنها اتخذت رموزاً وتلويحات إلا أنها من الصراحة بمكان يفهم الغرض منها كل إنسان »(٢) . واضطرت الجريدة إلى الامتناع عن هذه المقالات .

وتعد جريدة الآداب أول صحيفة اجتماعية هامة تظهر فى عهد الاحتلال ولم ترخص الحكومة لعلى يوسف بإصدارها « إلا بعد ممانعة طويلة ، واحتمل صاحبها من المشاق والنفقات ما يتخذ دليلا على عظيم ثباته وقوة عزيمته »(٣). وتعددت آفاق الجريدة وخاصة فى عامها الثالث (١٨٨٩) ، وصارت أمس برغبات الأمة وحاجاتها منها بالأعمال الأدبية أو الفكرية الخالصة ، فوجهت جهودها نحو الآفات الاجتماعية والعناية بالناشئة من أبناء الوطن وخصصت لذلك مقالات بعنوان « متى تصلح الأمة ؟ » . تحاول فيها إيضاح أن سبيل الإصلاح ممهدة وتعجب من عدم سلوك المصلحين هذه السبيل(٤) . وتخشى الصحيفة أن يحدق بالأمة اليأس فى طريق الإصلاح ، وهى كلما همت بأمر عاقتها عوائق وصرفتها نوائب فتثير الأمل فى نفوس الأهالى حتى لا تخبو العزائم أو تكل الهمم وتذكرهم بأن الأمل يحرك النفس إلى غاية شريفة . وعلى ذلك فلا ينبغى لهم أن يهنوا بل يعملوا لأن النفوس إذا « تعودت العمل ورسخ بها ملكه يثبت عندها أن الحياة إن لم تعد بنيل الأرب لغو باطل فيكون بذل الروح أول خطوة تخطر بالبال »(٥) .

ولكن تحطيم الأغلال — فى نظر الآداب — لا ينفع وحده فى تحقيق

---

(١) المصدر السابق فى ٢٢ سبتمبر ١٨٨٦
(٢) الوقائع المصرية فى ٢٧ سبتمبر ١٨٨٦ (قرار ناظر الداخلية فى ٢٥ سبتمبر) .
(٣) فيليب دى طرازى : المرجع السابق ذكره ج ٣ ص ٣٠
(٤) جريدة الآداب فى أول يوليو ١٨٨٩
(٥) المصدر السابق فى ٨ يوليو ١٨٨٩

الحرية المنشودة بل لابد أن يقترن ذلك بالبناء وإلا كانت الحرية أشد فتكاً بمصير الإنسان من القيد . وتتحدث فى ذلك عن « حقيقة الحرية »(١) ، مؤكدة للعاملين أنها ليست القضاء على بعض العوائق وليست أعمالا عشوائية ، ولكنها أعمال ذات هدف محدد مرسوم .

وتطالب الآداب برعاية الفئة العاملة فتقول إن « الموظفين هم عقل الأمة ، وأصحاب الأعمال العقلية إن علت هممهم قلما يلذ لهم عيش لعظم ما يعانون من الاهتمام بجلب المنافع والمضار والتألم من وجود الموانع بينهم ، فإن منحوا ضمانة المستقبل أنتجت أعمالهم ، وتوجهت هممهم لما فيه سعادة الأمة »(٢) .

وتزعم النديم فى مجلة « الأستاذ » الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى بجميع صوره ، ونقد الأوضاع السائدة فى المجتمع ونقد الأخلاق المعوجة ، وكان هذا هو الغرض الأساسى من إنشاء المجلة(٣) . فهى على تعدد اتجاهاتها ينتظمها هدف واحد هو تربية الشعور بالذات وحب الاستقلال ودفع المجتمع المصرى فى طريق النهضة متخلصاً من الفساد الداخلى والتسلط الأجنبى .

وكان النديم فى « التنكيت والتبكيت » شديد الغيرة ذا حمية وطنية تجعله ينفر من الأجنبى نفوراً شديداً ، أما فى « الأستاذ » فإنه كان ليناً بصيراً مؤمناً بالتطور معترفاً به ، لايكره أن تفتح النوافذ على أن يميز بنو الوطن بين الخبيث والطيب وأن يجتنبوا التقليد الأعمى . وتناول فى العدد الأول من « الأستاذ » الكلام عن العزلة وأثرها فى بقاء عادات المجتمع وتقاليده والاختلاط وتبادل التجارة والسياحة ، وأثر ذلك كله فى تغيير العادات وتطويرها « لأن وجود العدد الكثير من الأمة بين أفراد أمة أخرى يجرون أمورهم على عاداتهم . واستخدام الأفكار فى مواردها من إنشاء وخطب وتدريس وتهذيب وتأديب يقوم مقام أساتذة منتشرين فى أنحاء البلاد فتستنكر النفس بادئ بدء ما تراه

---

(١) المصدر السابق فى ٢٧ يوليو ١٨٨٩

(٢) المصدر السابق فى ٢٠ ، ٢٧ يوليو ، ١٤ سبتمبر ١٨٨٩

(٣) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة جـ ٢ ص ١٧٦ ، ١٨٠ ، عبد اللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى ١٠٠ عام ص ٥٧

مما يخالف عاداتها .. ثم لا تزال تتأخر فى القرار والاستمرار يستدنيها فتميل شيئاً فشيئاً حتى يحلو فى عينها ما تراه ثم تهجس بتقليد الغير ، ولا تزال تأخذ بالتقليد حتى يحسن عندها التظاهر بما أخذته من الغير ، وترى قبح ما كانت عليه مما جرت عليه الآباء فى عصور متتالية »(١) .

هذا التفسير جديد كل الجدة على من يعرف النديم قبل الثورة العرابية فقد كان حاداً ساخطاً يتعقب الأجانب ومن ينضوى تحت جناحهم ويذم التقليد والمقلدين . وهذا التفسير لظاهرة التطور التى عاصرها النديم صادق يبلغ من دقته أنه يصلح تفسيراً لظاهرة التطور بالنسبة للأمة وللفرد بل وبالنسبة لكل أمة .

وقد فوجئ النديم بعد ظهوره من مخبئه (بعد أن مرت على البلاد تسع سنوات تحت سيطرة الاحتلال) بموجة من الانحلال الخلقى فى البلاد التى غرقت فى الموبقات(٢) : فالخمور انتشرت لا يكاد يخلو منها زقاق ، والمواخير والأجنبيات تنشر فيها الفسق والفجور ، وشعور النساء بالحرية دفعهن إلى التبرج ، وغير ذلك الكثير من الأدواء الاجتماعية ، فوجد النديم لزاماً عليه إعلان الحرب عليها حتى يخلص البلاد من مفاسدها . ولكن كيف يحارب الإنسان عدوه الخارجى وهو منحل لا خلق له ولا إيمان بنفسه أو بلاده ؟

واختط النديم لنفسه منهجاً يظهر موهبته كصحفى يعرف كيف يصل إلى شغاف القلوب ، والنديم بطبيعته كاتب شعبى يهدف إلى تحقيق رسالة لذلك أشرك معه المواطنين يتلفت حوله دائماً يستلهم الناس ويتعرف على مقاصدهم ، وهكذا قدر لمجلة (الأستاذ) أن تلقى الرواج فانتشرت انتشاراً هائلا وقد أعيد طبع الأعداد الأولى منها(٣) . واستخدم النديم « طريقة المحاورات

---

(١) مجلة الأستاذ فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ كذلك مقالات عن العادات والتقاليد فى ٦ ، ١٣ سبتمبر ١٨٩٢ .

(٢) Fredolin : John Bull sur le Nil pp. 121, 122

(٣) أحمد أمين : زعماء الإصلاح ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، عبد الوهاب صقر : عبد الله النديم ، ص ١٦١ — ١٦٣

المسبوكة بقالب المجون يراد بها التلميح إلى ما يجب إصلاحه من شأن البلاد وأبنائها مستحثاً لاتخاذ الوسائل الفعالة فى ذلك.. كل هذا تحت طى الفكاهة »(١) .
وقد ردد النديم عدة مرات أن مجلته اجتماعية مدافعاً عن اتهامها بأنها سياسية فهى إنما ظهرت للتهذيب والتأديب وإصلاح ما فسد من الأخلاق « ولم تظهر إلا فى زمن هجمت فيه جيوش الأزياء والتقاليد فانتزفت دم ثروتنا »(٢) .

وترسم لنا أولى المحاورات التى أوردها النديم صورة صادقة إلى حد كبير عن أحوال مصر الاجتماعية بعد عقد واحد من الاحتلال ، وكانت بين نديم وشخص آخر فيقول الكاتب : إحنا مالنا ومال السياسة التى توجع الرأس .
– إحنا عاوزين نشم ريحة السياسة يوم ونشوف الدنيا إيه أحسن بنسمع عليها كلام أشكال وألوان والحرانيل خرفشت عقولنا ، وكل واحد بيقول لنا كلام على كيفه واحنا ماشيين وراهم زى العمى ما احنا عارفين آخرتها إيه .

نديم : السياسة فى إيدين رجال ، والرجال فى إيد أفندينا وهو وياهم يعرفوا شغلهم فى حكومتهم ، واللى علينا إننا نسمع ونتفرج .

– إحنا كنا بنقول جه الواد الوطنى اللى يعرف قيمة بلاده ويكشف لنا البر . تهذيب إيه وعلم إيه ما كلنا علما وكلنا أفنديه .

نديم : أنا رايح أكلمك بالبلدى اللى تعرفه وتفهمه فإنك نسيت لغتك الأصلية ومشيت على كيفك فى الكلام .

– قول للجماعة اللى علمونا ، اللى كنا فى ايديهم زى الحتة العجينة وسابونا كلنا عوام ، والإنسان يدور مع الزمن ويتكلم بلغة الناس اللى وياه .

نديم : بقى لما تتكلم بلغة ضيوفك ، وكل من جه تاخذ لك من لغته كلمتين حتى تركب لك لغة من هنا ومن هنا بقيت غريب فى الديار ، هو ده التمدن !

– فضك من الكلام ده ، وقول لنا شوية فى الآلافرانكية ، واوع تفتح

(١) مجلة الهلال عدد أكتوبر ١٨٩٢
(٢) مجلة الأستاذ فى ٦ سبتمبر ، أكتوبر ، ٨ نوفمبر ١٨٩٢

حنكك بالعلم واللى فيه أحسن يرمو لك الجريدة ويستقلو عقلك .

نديم : هيا المدارس انقفلت والا المعلمين ماتوا ، ولا العلما راحوا ، ولا الأمرا مقصرين فى الصرف .. لسا الدنيا بخيرها وبلادنا مليانا . أظن إنك غرك الكام جدع اللى لفعوا الدين على أكتافهم وداسوا اللغة برجليهم وجعلوا الجنسية عدوهم ، وتهتكوا .

— طيب ما تهف لنا الجدعان دول بكلمتين خليهم يتنبهوا ويقولوا راحت السكرة وجت الفكرة .

نديم : أنا حسأل عن أحوال الجدعان دول واجتماعهم فى الحانات والبير والبيوت التلفانة ، واكتب لك ويعرفوا إن النديم حبيب الإنسانية ، واخلى الحكومة تقول عفارم يانديم يللى فتحت مدرسة تهذيب بجريدتك وجعلتها أجعص من البوليس السرى ، إحنا بطلنا الضرب بالكرباج وانت جيت تضرب بالكلام المؤلم (١).

وهكذا يلخص النديم أحوال مصر الاجتماعية : من بعد الحكومة عن العناية بشئون البلاد ، وإهمال اللغة العربية ، وضعف التعليم ، واستخدام اللغةالأجنبية ، والتفرنج ، والاستهتار بالدينوالجنسية ، وانتشارالخمور والدعارة.

وكان تعاطى الخمور من الآفات الاجتماعية التى انتشرت فى البلاد بين سكان المدن وقرى الريف ، ورعاها الاحتلال وحماها وفاضت بعض الصحف بالإعلانات المختلفة عن المنتجات الأوروبية ثم زادت الإعلانات الخاصة ببيع الخمور . وظهرت الإعلانات باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية مع بيان « مميزات الخمور من الصنف العال وارد فرنسا وإيطاليا واليونان »(٢) . وصارت محلات المسكرات تفتح فى كل مكان ففتكت بعدد من الأهالى وأفسدت على بعضهم صحتهم وأخلاقهم ودينهم ، وأنقصت مقدرتهم على العمل والإنتاج وساعدت على ازدياد حوادث الإجرام والإخلال بالأمن العام(٣) . ويؤكد بلنت رعاية الإنجليز لهذه الآفة فيتحدث

---

(١) المصدر السابق فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٢

(٢) جريدة القاهرة الحرة فى ٢٦ يوليو ١٨٨٧

(٣) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ذكره ص ١٨٩

عن « نعمة الاحتلال على اليونانيين أصحاب الحانات الذين أخذوا ينتشرون فى القرى ، ولا شك أن الفلاح الذى يتعاطى الخمر سيفقد استقلاله الاقتصادى فيمد يده للاقتراض ثم لا يلبث أن ينزلق فى مهاوى الرذيلة وقد حاولت (بلنت) إثارة الموضوع مراراً مع بارنج ووعد باتخاذ الإجراءات اللازمة وكانت النتيجة التى وجدتها بعد فترة هى زيادة عدد الحانات ! (١) » .

وانتهزت جريدة « الآداب » مناسبة قيام الدعوة فى إنجلترا وأمريكا لتحريم الخمور فأخذت تتحدث عن ذلك الخطر الذى يفسد الأخلاق ويسلب الأموال « ولم يغب عن الخاطر منشور ملكة الإنجليز بشأن المسكرات ، وقد أبانت أن حاسيات الإنسانية والديانات يحرضانها على النهى عن تعاطى الخمور ، وأنها لا تخلص من تبعة المسئولية للأمة حتى تنادى بتركها »(٢) ، وطالبت بالاقتداء بالأمر الذى أصدرته ملكة إنجلترا .

وحاولت مجلة « مكارم الأخلاق » إيضاح التمدن الحقيقى وأفردت سلسلة من المقالات عن الخمر « إذ فهم الناس معنى التمدن الظاهر مقلوباً وخال لهم أنه هو التظاهر والتفاخر بمعاقرة الخمر فى بهرة كل حان ، وهذا ليس من التمدن فى قليل أو كثير ، أما التمدن فهو البعد عن هذه الآفات والتمسك بالأخلاق »(٣) .

ولا تكاد أعداد « الأستاذ » التى صدرت فى مدى عام (هو عمر المجلة) تخلو من مقال كبر أو صغر عن الخمور ومساوئها مستخدمة طريقة الحوار بين سيدتين تتحدثان عن زوجيهما وانغماسهما فى الشراب . ثم يدس النديم نفسه بينهما « وتلاقى البيه زعلان من الأستاذ ، ماكان راح فى داهيه راجع يمسك لنا أفية السكارى ويجرسنا »(٤) . وعلى لسان صديق يعترض بأن « بعض الناس انقبض صدره عندما رأى المحاورة حول السكارى. (ويجيب النديم) إذا

---

(١) Blunt : My Diaries Part I pp. 41-44.

(٢) جريدة الآداب فى ١٦ يناير ١٨٨٩

(٣) مجلة مكارم الأخلاق فى ١٠ ، ١٧ ، ٢٤ نوفمبر ، أول ديسمبر ١٨٨٨

(٤) مجلة الأستاذ فى ٢٧ سبتمبر ١٨٩٢

كان المتغيظ سكيراً فما قيل قليل جداً بالنسبة لما يلزم لتأديبه ، وإن كان غير سكير فليكن مساعداً لنا على سد باب المفاسد » . ويفند النديم قول البعض بأن كلامه فى السكارى ضار بمصالح الدول الأجنبية « فإن المصريين إذا تابوا عن الخمر نقص من الجمرك مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه سنوياً وأفلس عشرون ألف تاجر أوروباوى ، وبالجملة فإن رجوع المصريين عن الخمر يفوت على الأوروباويين أكثر من مليون جنيه فضلا عن إضراره بقانون التصفية »(١) . ويجيب على ذلك بأن قانون التصفية ليس به بنود تقضى بأن نشرب .

وتميزت مقالات النديم بأنها ليست كلها مجرد زجر ونواهى مما قد يبعث على ملل البعض بل اتخذ أكثرها شكل محادثة لطيفة تتميز « بالواقعية » فى الأدب وفى الوقت نفسه يعترف للأجانب بأنهم برغم إقبالهم على الخمر والذين قلدهم المصريون فى ذلك إلا أن « الرجل منهم رتب أوقاته وحددها لزوجته »(٢) . فهو يحاول إثارة نخوة المصريين والاهتمام بأسرهم بقدر اهتمامهم باحتساء المسكرات . ثم يضرب مثالا للسكارى لعل بعضهم يحتذيه فيتحدث عن إقلاع أحد المدمنين عن الخمر « وبدأ يبنى لنفسه بيتاً بدلا من اللى كان بيروح منه كل شهر ١٢ جنيهاً كانوا بيروحوا فى طريق الشيطان الرجيم ، واهو الأستاذ موش مخلى وراه ورا ، وخد من التل يختل لما ربنا يصلح حالهم »(٣) .

وأجمعت معظم المصادر المعاصرة على ازدياد مظاهر الفساد الخلقى فى البلاد منذ وقوع الاحتلال(٤) . « وانتشرت فى المدن وخاصة فى القاهرة والأسكندرية المحلات المخصصة لذلك . وكانت هذه هى الدعارة الأوروبية التى تجدها فى كل مكان وقد عمل الإنجليز على تشجيع وجودها وانتشارها »(٥) . ويصف محرر جريدة البيان مظاهر المجون « فكنت أينما وليت وجهى شطر منتدى حسبته يضم علماء أو سياسيين أو عقلاء ، فإذا بهم جماعة من الدراويش

---

(١) المصدر السابق فى ٤ أكتوبر ١٨٩٢

(٢) المصدر السابق فى ١٨ ، ٢٥ أكتوبر ١٧٩٢

(٣) المصدر السابق فى ٨ نوفمبر ١٨٩٢

(٤) Anonymous : Eg. Difficulty and the First Step out of it. p. I8

(٥) Frédolin : John Bull sur le Nil pp. 121-124, 168, 169.

يرصدون كواكب الجوزاء فى أبراج الحشيش ، ورأيت جماعة انتهوا إلى الأزبكية فدخلوا بعض الحانات وصرفوا الجنيهات ، وخرجوا يشكون جور الزمن ، وسمعت أحدهم يتأفف من العيلة ويزعم أن ليس ببيته سوى قوت ليلة ، ووجدت الناس بين مستيقظ ونائم ومفطر وصائم ، فالمفطر يتوارى عن القوم ، والصائم يتململ من الصوم »(١) .

وكان للنديم نصيب ضخم فى كشف هذه المخازى ويقول إنه « نازل على الجدعان التلفانين ، والأزواج وعدم استقامتهم »(٢) ، فى قالب المحاورات المعهودة فى مجلة الأستاذ .

كذلك انتشر الربا والميسر وساعد على ذيوعهما ما فطر عليه كثير من من الناس من قصر النظر ، وعدم تقدير العواقب ، وحب الظهور والإسراف. ووجد المرابون من هذا الضعف ، ومن النظم والقوانين ورعاية المحاكم المختلطة ما جعلهم يتغلغلون فى مختلف الأوساط فى العواصم والبنادر والقرى . فكبلوا الأهالى بالديون مما أفضى إلى ضياع ثروات الكثيرين منهم ، وانتشار الفقر والبؤس فى الطبقات الفقيرة والمتوسطة والكبيرة(٣) .

وتناولت جريدة الآداب هذه الآفات الفتاكة بالنقد وحفلت أعدادها بالتنديد بالقمار والمقامرين وبخاصة الأجانب « الذين تسوروا بلادنا ونصبوا لنا شباكا ليستنزفوا ماء الثروة ويمتصون عروق الحياة »(٤) . وتحاول إظهار مدى استغلال الاجنبى للوطنى عن هذا الطريق « فيا أيها المغرور المصرى اخبرنى هل كان أولئك الناس يتكبدون المشاق من الأماكن الشاسعة شفقة عليك ورغبة فيك ليكسبوك درهماً أو يمنحوك ديناراً » . ثم تسمى الميسر « حرفة » وفى مقالات عديدة تتحدث عن هذه « الحرفة النافعة والمهنة الشريفة التى قد درسها وبرع فيها معظم أبناء الشرق وخصوصاً أشراف الأمة المصرية فى مدارس الخسران على يد حضرات الأساتذة الأجانب الذين

---

(١) جريدة البيان فى ٧ ، ١٤ يوليو ١٨٨٤

(٢) مجلة الأستاذ فى ٢٧ سبتمبر ، ٤ أكتوبر ١٨٩٢

(٣) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ذكره ص ١٨٩

(٤) جريدة الآداب فى ٢٩ ديسمبر ١٨٨٧

درسوها لهم درس مشاهدة . ولما كانت هذه الحرفة عالية عن مدارك البعض أحببت أن أذكر السبب الذى دفع الناس إلى غراس هذه الثمرة فى أرض مصر – التى أصبحت بفضل همتهم هشيما تذروه الرياح – ذلك أن بعض المتمدنين أبناء أعاظم مصر قد أتقنوها »(١) .

وقد زاد عدد دور القمار فى القاهرة وحدها فى ثمانى سنوات فقط إلى ٧٤٧٥ داراً للعب وكانت قبل ذلك ٣١٦ داراً فقط . أى أن الزيادة بلغت ٧١٥٩ داراً بالقاهرة وحدها(٢) .

ويدعو النديم هؤلاء الذين يفقدون أموالهم على موائد القمار وغيرها أن يحرصوا «على أن نوفر القرشين اللى معانا نشتغل بيهم فى تجارة علشان نصبح أغنيا وتفضل البلد ماسكة حيلها شوية »(٣) . وفى الوقت نفسه ينادى المصريين بالبعد عن تقليد الأجانب فى كل بدعة يرونها ذائعة عندهم « إذ هجم الوطنى الفقير والغنى والأمير على المحسنات الغربية يشتريها بنفيس الذهب . وقد أماتوا بهذا الإسراف الاقتصاد والشرف فماتت معه ثروة كثير من أصحاب الحرف» ، ويعقد المقارنة بين حالة المزارع الذى كان يعيش فى رغد والآن « يزرع المائة فدان ولا تراه إلا مقترضاً لايجد من القوت إلا الضرورى ، كذلك المستخدم – لا ترى فى صندوقه جنيهاً ولا يجدد عقاراً وربما وجدته مديناً . فلو أخذنا من محسنات الغرب مالابد منه واقتصرنا على على ما يوافق أخلاقنا وعاداتنا لحفظنا لأنفسنا حق الانتفاع بثمرة الاقتصاد الشرقى ، ولكن طرنا حول الأهواء وجرينا خلف المدنيات المزخرفة وتتبعنا سير الغربى حتى سبقناه »(٤) .

والمتتبع لما كانت تكتبه صحف هذه الفترة يلاحظ فتوراً ، بل وإهمالا

---

(١) المصدر السابق فى ١٦ فبراير ١٨٨٨

(٢) عبد اللطيف حمزة : مستقبل الصحافة فى مصر جـ ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ (دار الفكر العربى ١٩٦١) .

(٣) مجلة الأستاذ فى ٦ سبتمبر ١٨٩٢

(٤) المصدر السابق فى ١٣ ، ٢٠ سبتمبر ، ٢٥ أكتوبر ، ١٨ نوفمبر ، ٢٧ ديسمبر ١٨٩٢

كاملا من جانب الصحف – غير ماذكرنا – فى نقد الآفات الاجتماعية وكأن الجرائد تكاتفت على ترك هذه الأوبئة تتغلغل بين أبناء الأمة وتقوم بعملها فى تقويض أجسامهم واقتصادهم وإحساساتهم فيصبحون فريسة سهلة لكل طامع وهو ماكان الاحتلال يهدف إليه تحقيقاً لأطماعه .

ويؤيد ذلك أيضاً ما صادفته جريدة الآداب من متاعب كانت تعطل صدورها فى بعض الأحايين ثم تركها على يوسف لإصدار المؤيد ، وتظهر الآداب بعد ذلك بإشراف محمد مسعود جريدة أدبية .

كذلك وقف الاحتلال أمام النديم ومجلته « الأستاذ » فعطلت بعدعام واحد من صدورها خشية إثارتها الأفكار والخواطر ومنعاً لحدوث اضطرابات بين الأهالى(١) .

(١) ولى الدين يكن : المعلوم والمجهول جـ ١ ص ٢٩

خاتمة

نظر المصريون فى فترة الاحتلال إلى أحوالهم فوجدوا أنفسهم فاشلين فى سياسة الاعتماد على تركيا ، فاشلين كذلك فى سياسة الاعتماد على فرنسا ، فاشلين فى سياسة الاعتماد على الحكام من أبناء الأسرة المالكة فى مصر . ومن ثم أخذ المصريون يفكرون فى سياسة جديدة يصلون بها إلى تحقيق آمالهم فى الحرية والاستقلال . وكانت هذه السياسة هى إعداد الأمة وتزويدها بأدوات الاستقلال القائمة على الخلق والثقة بالنفس والإيمان بالشخصية المصرية والاعتماد على كفاءة المصريين وقدرتهم فى الحصول على هذه الآمال ولم تكن هناك من وسيلة تحقق لهم كل ذلك سوى الصحافة(١) .

فقد كان ما تنشره الصحف موضوع المناقشات على مقاهى المدن وفى أعماق الريف ، وكان المتحدثون بلسان الحركة الوطنية هم الصحفيين وتزايدت الصحف وتضاعف عددها . وإذا كانت الحركة الوطنية قبل الاحتلال الإنجليزى تتخذ الجامعة الإسلامية مظهراً لها ، فإن الحركة الوطنية بعد الاحتلال اتخذت طابعاً اجتماعياً كانت الصحافة هى مظهره الوحيد ، وبخاصة فى السنوات الأولى لعهد الاحتلال .

وكان المظهر الخلاب لعمل الإنجليز فى مصر عاملا كبيراً فى طمأنينة الذين نفرت ضمائرهم أول الأمر من الطريقة التى ثبتت بها إنجلترا أقدامها فى البلاد . وفى الوقت نفسه أخذت بعض الصحف تتحدث عن حياة الإنجليز وتدعو إلى انتشار لغتهم والاقتباس عن نظمهم — كما رأينا فى فصول سابقة — حتى تخرج فى مصر أجيال متأثرة بالمظاهر الجديدة التى تجد نفسها محاطة

---

(١) عبد اللطيف حمزة : مقال الطور الصحافى من أطوار الحركة الوطنية — مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة — مجلد ٢٠ مايو ١٩٥٨

بها ، فتنشد هذه الأجيال صداقة إنجلترا إن لم تنشد سيطرتها . وهذه الأجيال المصرية بحكم منبتها ، الإنجليزية بحكم تعليمها وتدريبها وثقافتها وعاداتها وجميع مظاهر حياتها ، لاشك ستكون قادرة على ربط مستقبل مصر بإنجلترا. وكان الإنجليز فى مصر ورجال السياسة فى إنجلترا ذاتها على اعتقاد راسخ بأن الشعب المصرى معجب بالإدارة الإنجليزية وأنه لن يقوم بأى عمل عدائى ضد الحكم الإنجليزى فى البلاد .

ولكن الرخاء المادى مهما بلغ فى مصر ما كان ليطفئ فيها جذوة القومية وإذا كانت بذور هذه النهضة قد بذرت فى مصر قبل الاحتلال ، فقد أخذت تنمو نمواً بطيئاً ولكنه كان نمواً مستمراً . وأخذ الشعور القومى يزداد بين المصريين (١).

وأدرك عبد الله النديم أهمية الكتاب والصحفيين فيصفهم بأنهم « السلطة على العقول والسطوة على الأعمال ، القابضون على أزمة الأفكار بين الجرائد السياسية والعلمية والدينية ، يجمعون الدنيا أمام القارئ فى صحيفة ، فهم أساتذة الخواص والعوام وأئمة الوزراء والرعية »(٢) .

ويلاحظ أن الصحافة المصرية اتخذت لنفسها صبغة سياسية قبيل الاحتلال ، واستمر لهذه الصحافة ما كان لها من الصبغة السياسية بعد وقوع الاحتلال . وأدركت الصحافة منذ دخول الإنجليز — على أقل تقدير — أن عليها واجبات وطنية لابد لها من القيام بها :

كان على الصحافة المصرية أن تدافع عن المصريين فى الميدان السياسى وتتصدى لمقاومة المحتلين .

وكان عليها أن تهاجم سياسة التعليم التى وضعها الاحتلال .

وكان عليها أن تقوم بإصلاح ما أفسده الاحتلال من أخلاق المصريين وطباعهم .

---

(١) محمد صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر ص ٢٦٦ — ٢٦٨ ،
Stoddard, L. : Op. cit. p. 149.

(٢) مجلة الأستاذ فى ٨ نوفمبر ١٨٩٢

وكان عليها أن تدافع عن اللغة العربية على اعتبار أنها عنوان الشخصية المصرية التى يجب أن تنفصل عن الشخصية العثمانية والشخصية الأوروبية . لذلك أخذ النديم يدعو إلى العناية باللغة العربية وإلى معاملة مدرسيها بسخاء لا يقل عما يتمتع به مدرسو المواد الأخرى . وبهذا الجزء الأخير من جهود النديم تأثر مصطفى كامل فمضى يدافع عن معلمى اللغة العربية بعد أن مكر الاحتلال بهم وجعل الفروق واسعة بينهم وبين مدرسى المواد الأخرى وخاصة مادة اللغة الإنجليزية .

« وإن أهم مايلفت النظر فى الصحافة المصرية فى عهد الاحتلال أنها استكملت أسباب النضج وأصبحت خليقة بأن تسمى صحافة رأى ، وقد غلب على أصحابها شعور عام بأن الصحافة فى ذاتها أشد لزوما لمصر مادامت فى بداية الشوط من غيرها من الأمم الأوروبية التى أتم أكثرها بالفعل هذا الشوط(١) » .

ويلاحظ فى هذا الصدد أن الزعامة والصحافة فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانتا شيئاً واحداً فى الحقيقة ، أى أن الزعيم هو الصحفى والصحفى هو الزعيم ، وأن الواجب المنوط بأحدهما هو الواجب نفسه المنوط بالآخر :

فعلى يوسف زعيم حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية هو فى الوقت نفسه صاحب جريدة المؤيد ومحررها .

ومصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى هو فى الوقت نفسه صاحب جريدة اللواء وكاتبها .

وأحمد لطفى السيد زعيم من زعماء حزب الأمة وفى الوقت نفسه رئيس تحرير صحيفة « الجريدة » التى تنطق بلسان هذا الحزب

أى أن الأحزاب المصرية الثلاثة التى آشرنا إليها إنما نشأت فى أحضان الصحف المعبرة عنها أوبعبارة أخرى أن هذه الصحف ظهرت أولا ثم أتت الأحزاب التى فكر فيها أصحاب هذه الصحف فنشأت بعد ذلك .

---

(١) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة جـ ٥ ص ١١١

ومعنى ذلك أن الأحزاب المصرية الهامة ولدت فى أحضان الصحافة وتلك ظاهرة تستحق التسجيل وفيها الدليل القوى على خطورة الصحافة المصرية فى تلك الفـــترة .

وإن حياة رجل كعلى يوسف مثلا تختصر فى كلمة واحدة وهى « صحفى » وما أضخم هذه الكلمة يومئذ ، لقد بقيت تتسع وتتسع حتى شملت الحياة المصرية كلها من جميع جوانبها(١) .

وإن الصحافة الشعبية بقيامها بالأعباء التى قامت بها استطاعت أن تسهم فى خلق الرأى العام ، بل إنها بنهوضها بجميع هذه الواجبات استطاعت أن توجه مصر لا من الناحية السياسية وحدها ، بل من النواحى العلمية والأدبية والثقافية وغيرها(٢) . وكانت الجرائد الوطنية تعبر عن إحساس الوطنيين وتطعن فى جرائد الاحتلال « ونشأ فى أثناء ذلك طبقة من الشبان تخرجوا فى المدارس المصرية وزعماؤهم من الناشئة المصرية طلبة الحقوق »(٣) . ويؤرخ لطفى السيد لهذه الفترة بأنه قد هوى الكتابة فى الصحف منذ كان طالباً فى الحقوق (عام ١٨٨٩) وعاون فى جريدة المؤيد ، « وعندما بدأ تكوين حزب وطنى تحت رئاسة الخديو (عباس حلمى الثانى) طلب منى الخديو أن أسافر إلى سويسراً لكى أكتسب الجنسية السويسرية ثم أعود إلى مصر لأحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى »(٤) .

كذلك اتصل مصطفى كامل بالأهرام والمؤيد — فى الفترة التى يتناولها بحثنا هذا — يكتب فيهما مقالاته ويمدهما بآرائه ، وقد بقيت هذه العادة ملازمة له حتى انتهى من مدرسة الحقوق(٥) . ولم يقنع مصطفى كامل وهو يدرس الحقوق بكتابة المقالات بل أنشأ مجلة « المدرسة » فى فبراير ١٨٩٣ وجعل نفسه بها زعيما لزملائه فى الدرس يلقى عليهم النصائح ويرشدهم

(١) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة ج ٤ ص ٤٠
(٢) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة ج ١ ص ٤٣
(٣) جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق ج ١ ص ٢٩٣
(٤) أحمد لطفى السيد : مذكرات — مجلة المصور فى ١ ، ٨ أغسطس ١٩٥٠
(٥) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة ج ٥ ص ٤٥

إلى الواجب ويقدم لهم مختلف المعلومات(١). وعندما سمع مصطفى كامل بظهور عبد الله النديم – بعد اختفائه منذ وقوع الاحتلال – لقيه و « تلقى مصطفى كامل أجل درس وأنفعه على النديم فى التربية الوطنية . بل هكذا كان النديم أستاذاً مباشراً لمصطفى كامل فى ميدان السياسة ، فدرس كثيراً من أساليب الإنجليز وحيلهم وفهم كثيراً من دسائسهم التى مارسوها فى مصر »(٢) .

وكان إبراهيم المويلحى فى جميع ما يكتب فى النواحى الاجتماعية تلميذاً مخلصاً للنديم ، شديد الاعتزاز بمصريته وشرقيته ، شديد السخط فى الوقت نفسه على المدنية الغربية ، قوى التحذير لقومه بألا يغتروا ببهرج الحضارة الأوروبية(٣) .

لذلك أطلق بعض المؤرخين على العقد الأول من الاحتلال الإنجليزى اسم « الطور الصحافى من أطوار الحركة الوطنية فى مصر » . وقد طابقت هذه التسمية الواقع(٤) .

---

(١) محمد حسين هيكل : تراجم مصرية وغربية ص ١٣٤
(٢) ولى الدين يكن : المعلوم والمجهول ج ١ ص ٣٠ ،
عبد اللطيف حمزة ، أدب المقال ج ٥ ص ٤٥ ، ٤٦
(٣) عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ج ٣ ص ٨٢
(٤) C. Adams : Islam & Mod. in Eg. p. 220.

ملاحق البحث

ملحق رقم ١ :

قانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١

ملحق رقم ٢ :

بيانات عن الصحف المصرية :

أولا : الصحف الصادرة فى السنوات العشر السابقة لعهد الاحتلال ١٨٧٢ – ١٨٨٢

ثانياً : الصحف التى صدرت فى العقد الأول من الاحتلال ١٨٨٢ – ١٨٩٢ ز

ملحق رقم ١

قانون المطبوعات

لعام ١٨٨١

(أمر عالٍ) نحن خديو مصر

مادة ١ :

لا يسوغ لأحد أن يكون صاحب مطبعة إلا بعد أن تعطى له رخصة من نظارة الداخلية وبعد أن يودع عشرة آلاف غرش بصفة تأمين . وللحكومة فى كل حال أن تنزع منه هذه الرخصة عند الاقتضاء .

مادة ٢ :

لايجوز لأحد من أرباب المطابع أن يطبع صحفاً قبل أن يقدم لإدارة المطبوعات بنظارة الداخلية كتابة معلنة لعزمه على طبعها وكذلك لا يجوز له بأى طريقة كانت بيع ونشر تلك الصحف بعد طبعها إلا بعد أن يقدم خمس نسخ منها للإدارة المذكورة ؛

مادة ٤ :

يصير حجز وضبط أى مطبوع كان فى الأحوال الآتية :

أولا: إذا لم يبرز صاحب المطبوع وصلا من إدارة المطبوعات لتقديم الكتابة والنسخ المقررة فى البند السابق ؛

ثانياً : إذا لم يتوضح فى كل نسخة اسم المحل سكن صاحب المطبعة الحقيقية .

ثالثاً : إذا أقيمت أمام إحدى المحاكم دعوى تتعلق بذلك التأليف (وفى هذه الحالة الأخيرة لا يكون الحجز والضبط قطعيين إلا بعد صدور الحكم على صاحب التأليف المذكور من المحكمة المقامة أمامها الدعوى) ؛

مادة ٥ :

عدم تقديم الكتابة قبل الطبع أوعدم تقديم النسخ اللازمة قبل النشر يوجبان مجازاة صاحب المطبعة يدفع غرامة من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قرش ؛

مادة ٦ :

إذا لم يضع صاحب المطبعة اسمه ومحل سكنه على كل نسخة من التأليف فيجازى بدفع مبلغ من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قرش غرامة وإذا وضع اسماً ومحل سكن مفتعلين يغرم بدفع مبلغ من ٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ قرش .

مادة ٧ :

يجوز فى الأحوال المبينة بمادتى ٥ ، ٦ استبدال الغرامة بنزع الرخصة وقفل المطبعة .

مادة ٨

يصير إثبات المخالفات بموجب محاضر يحررها مأمورو الأثمان أومأمورون مخصصون يتعينون للتفتيش على المطابع .

مادة ٩ :

يسرى هذا القانون على مطبوعات الحجر وباقى المطبوعات بسائر أنواعها مهما كانت الطريقة المستعملة لطبعها .

مادة ١٠ :

يجوز للحكومة فى كل الأحوال حجز وضبط جميع الرسومات ، والنقوشات مهما كان نوعها أو جنسها سواء كانت معلنة أومعروضة لنظر العامة أو للمبيع وذلك متى تراءى لها أن الرسومات والنقوشات المذكورة مغايرة للنظام العمومى أو للآداب أو للدين ويجازى من نشرها أوحملها أوعرضها للمبيع بغرامة من ٢٠٠ إلى ٢٠٠٠ قرش .

مادة ١١ :

كل جريدة أو رسالة دورية تشتغل بمواد سياسية أوإدارية أو دينية وتصدر

بانتظام واطراد فى أيام معلومة أو بدون انتظام واطراد لا يجوز إيجادها أونشرها إلا بإذن من الحكومة .

والإذن يكون مخصصاً بشخص المعطى له ويجب تجديده متى حصل تغيير فى صاحب امتياز الجريدة أو النشرة أو رئيس محرريها أو صاحبها أو مديرها .

مادة١٢ :

على أرباب الجرائد أو الرسائل المذكورة فى المادة السابقة أن يدفعوا قبل صدورها مبلغاً بصفة تأمين كما يأتى :

إذا تجاوز صدور الجريدة أو الرسالة ٣ مرات فى كل أسبوع سواء كان صدورها فى يوم معلوم أوبكراريس على غير اطراد فيكون مبلغ التأمين ١٠٠ جم . وإذا كان صدورها ٣ مرات فى الأسبوع أو أقل فيكون ٥٠جم.

مادة ١٣ :

يسوغ محافظة على النظام العمومى أو الدين أو الآداب تعطيل أو قفل أى جرنال أورسالة دورية بأمر من ناظر داخلية حكومتنا بعد إنذارين أوبقرار من مجلس النظار بدون إنذار . ويسوغ إضافة غرامة من ٥ جم إلى ٢٠ جم لكل إنذار يصدر .

مادة١٤ :

جميع التبليغات التى تصدر من نظارة الداخلية بقصد نشرها يجب درجها مجاناً فى صدر أول صحيفة تصدر من الجريدة المذكورة .

مادة١٥ :

على صاحب الجريدة أو الرسالة أو من تطبع على نفقته أن يدرج فيها الرد الذى يرد إليه من الشخص الذى حصل التعريض به أوذكر اسمه فى تلك الجريدة أو الرسالة ويكون نشر الرد فى الثلاثة أيام التالية ليوم وروده أوفى أول عدد يصدر إذا كان ميعاد صدوره بعد انقضاء الثلاثة أيام . ومن خالف

ذلك يجازى بدفع غرامة من جنيهين إلى ١٠ جم وهذا مع عدم الإخلال بما يترتب على تلك المقالة من العقوبات والتعويضات .

ويكون نشر ذلك الرد بدون أجرة ويجوز أن يكون مطول الشرح خمسة أضعاف المقالة المردود عليها .

مادة ١٦ :

إذا استمر صدور الجريدة أو الرسالة بعد تعطيلها أو توقيفها تحت عنوانها الأصلى أو تحت عنوان آخر فيعاقب كل من محررها وصاحب امتيازها وصاحب المطبعة بدفع غرامة من خمسة إلى ٢٠ جم عن كل عدد أو صحيفة تصدر منها وهذا فضلا عن نزع رخصة صاحب المطبعة وقفل مطبعته .

مادة ١٧ :

لناظر داخلية حكومتنا أن يمنع دخول وتداول وبيع الجرائد والرسائل المنشورة فى خارج القطر وكل من أدخل أووزع أوباع أو وجدت عنده بنوع الوديعة جريدة أو رسالة دورية منشورة فى خارج القطر المصرى وممنوع دخولها يعاقب بغرامة من جنيه إلى ٢٥ جم .

مادة ١٨ :

كل كتابة غير صادرة من الحكومة سواء كانت بالخط أوبطبع الحروف أو بالنقش أوبطبع الحجر لا يجوز نشرها أو لصقها بالشوارع والميادين ، والمحلات العمومية متى كانت تلك الكتابة تحتوى على أخبار سياسية ومن خالف ذلك يعاقب بغرامة من جنيه إلى ١٠ جم يلزم بها بطريق التضامن كل من الفاعلين لذلك العمل والمشتركين فيه وهذا مع عدم الإخلال بالعقوبات التى تترتب على الجناية أو الجنحة الناشئة من الكتابة المذكورة .

مادة ١٩ :

على موزعى الكتب والصحف والرسائل والنقوش وعلى الذين يسرحون بالكتب للمبيع أن يستحصلوا أولا على رخصة تعطى لهم بلا رسم فى المحروسة

والإسكندرية من مأمورى الضبطية وفى باقى المحافظات والمديريات من المحافظ أو المدير ويجوز لجهات الحكومة المعطاة منها تلك الرخص أن تنزعها عند الاقتضاء ومن يخالف ذلك يعاقب بدفع غرامة من ١٠ قروش إلى ١٠٠ قرش فضلا عن محاكمة محررى وموزعى وبائعى تلك الصحف بالنسبة للجنحة أو الجناية التى يكونون ارتكبوها .

مادة ٢٠ :

تؤخذ الغرامة من مبلغ التأمين وكلما نقص لزم تكميله فى ظرف ١٥ يوماً لأجل إبلاغه قيمته الأصلية وإلا فيعتبر كأنه غير موجود .

والحجز والضبط يكون إجراؤهما بالطريقة الإدارية وكذلك التغريم أو توقيف الجريدة أو الرسالة وتعطيلها فى الحالات المبينة بهذه اللائحة يكون بأمر من ناظر داخلية حكومتنا والأمر المذكور يكون بتاً لا مراجعة فيه . وجميع هذا لا يمنع من محاكمة من يستحق المحاكمة أمام جهات القضاء .

مادة ٢١ :

يعفى أصحاب المطابع والجرائد والرسائل الدورية الموجودة الآن من طلب الرخصة ويعطى لهم مهلة شهرين لتقديم مبلغ التأمين .

مادة ٢٢ :

كل قانون أو لائحة أو أمر أو منشور مخالف لأمرنا هذا صار ملغيا .

مادة ٢٣ :

على ناظر داخلية حكومتنا تنفيذ أمرنا هذا .

صدر بسراى عابدين فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١

الامضاء

محمد توفيق

ملحق رقم – ٢

بيانات عن الصحف المصرية

أولا : الصحف المصرية التى صدرت فى السنوات العشر قبل الاحتلال ١٨٧٢ – ١٨٨٢ :

رقم مسلسل	الصحيفة	سنة إصدارها	صاحبها أو رئيس تحريرها	اتجاه تحريرها
١	الكوكب الشرق	١٨٧٣	سليم حموى	سياسى
٢	أركان حرب الجيش المصرى	١٨٧٤	رسمية	أخبار الجيش؟
٣	روضة الأخبار	١٨٧٥	محمد أنسى	سياسى
٤	الأهرام	١٨٧٦	سليم نقلا	سياسى
٥	شعاع الكوكب	١٨٧٦	سليم حموى	سياسى
٦	الوقت	١٨٧٧	سليم تقلا	سياسى
٧	حقيقة الأخبار	١٨٧٧	بشارة تقلا	سياسى
٨	أبو نظارة زرقاء	١٨٧٧	يعقوب صنوع	سياسى
٩	الوطن	١٨٧٧	ميخائيل عبد السيد	سياسى
١٠	مصر	١٨٧٧	أديب إ حق	سياسى
١١	مصر الفتاة	١٨٧٧	جماعة من الإسكندرية	سياسى
١٢	الإسكندرية	١٨٧٨	سليم حموى	سياسى
١٣	التجارة	١٨٧٨	أديب إسحق – سليم نقاش	سياسى
١٤	مرآة الشرق	١٨٧٩	سليم عنحورى–خليل اليازجى	سياسى
١٥	الكوكب المصرى	١٨٧٩	موسى كاستلى	سياسى
١٦	الميمون	١٨٧٩	موسى كاستلى	أدبى
١٧	المحروسة	١٨٨٠	عزيز زند – سليم نقاش	سياسى
١٨	العصر الجديد	١٨٨٠	سليم نقاش – أديب اسحق	سياسى
١٩	النجاح	١٨٨١	حسن الشمسى	سياسى
٢٠	الحجاز	١٨٨١	سراج إبراهيم المدنى	سياسى
٢١	المنتخب	١٨٨١	عيسى حمدى	علمى
٢٢	الاتحاد المصرى	١٨٨١	روفائيل مشاقه	سياسى
٢٣	المفيد	١٨٨١	حسن الشمسى	سياسى
٢٤	التنكيت والتبكيت	١٨٨١	عبد الله نديم	سياسى

تابع ملحق رقم ٢

رقم مسلسل	الصحيفة	سنة إصدارها	صاحبها ورئيس تحريرها	اتجاه تحريرها
٢٥	الطائف	١٨٨١	عبد الله نديم	سياسى
٢٦	البرهان	١٨٨١	معوض محمد فريد	سياسى
٢٧	التيمس المصرى	١٨٨١	مستر بومن	سياسى
٢٨	الأحوال	١٨٨٢	سليم تقلا	سياسى
٢٩	الزمان	١٨٨٢	علكسان صرافيان	سياسى
٣٠	الفسطاط	١٨٨٢	عبد الغنى المدنى	سياسى
٣١	السفير	١٨٨٢	حسن الشمسى	سياسى
٣٢	الاعتدال	١٨٨٢	حمزة فتح الله	سياسى
٣٣	الحضارة	١٨٨٢	ميخائيل عورا	سياسى

ثانياً : الصحف المصرية التي صدرت في السنوات العشر الأولى من الاحتلال ۱۸۸۲ – ۱۸۹۲ :

رقم مسلسل	الصحيفة	سنة إصدارها	صاحبها أو رئيس تحريرها	اتجاه تحريرها
١	روضة الإسكندرية	١٨٨٢	سليم حموى	سياسى
٢	البيان	١٨٨٤	يوسف شيت ، ميخائيل جرجس	سياسى
٣	الأعلام	١٨٨٤	محمد بيرم الخامس	سياسى
٤	المقتطف	١٨٨٥	صروف – نمر – مكاريوس	علمى
٥	الفلاح	١٨٨٥	سليم حموى	سياسى
٦	القاهرة	١٨٨٥	سليم فارس	سياسى
٧	القاهرة الحرة	١٨٨٦	سليم فارس	سياسى
٨	الشفاء	١٨٨٦	شبلى شميل	علمى – طبى
٩	الحقوق	١٨٨٦	أمين شميل	قضائى
١٠	الصادق	١٨٨٦	أمين ناصيف	سياسى
١١	اللطائف	١٨٨٦	شاهين مكاريوس	أدبى
١٢	الآداب	١٨٨٧	على يوسف	أدبى
١٣	الببغاء	١٨٨٧	نجيب غرغور	فكاهى
١٤	الخبر المصرى	١٨٨٧	ديمترى مسكوناس	فكاهى تجارى
١٥	الصحة	١٨٨٧	حسن رفقى – إبراهيم مصطفى	طبى – علمى
١٦	مكارم الأخلاق	١٨٨٧	أحمد الشريف	أدبى
١٧	الأزهر	١٨٨٧	حسن رفقى – ابراهيم مصطفى	أدبى – علمى
١٨	المنارة	١٨٨٨	نجيب غرغور	أدبى
١٩	الجريدة المصرية	١٨٨٨	جرجس ميخائيل	سياسى
٢٠	حديقة الأدب	١٨٨٨	نجيب غرغور	أدبى
٢١	الحقيقة	١٨٨٨	مزراحى ، غرغور	سياسى
٢٢	الأحكام	١٨٨٨	نقولا توما	قضاء
٢٣	النور التوفيقى	١٨٨٨	ديمترى مسكوناس	أدبى
٢٤	الراوى	١٨٨٨	خليلى زينيه	اجتماعى – سياسى
٢٥	الرياض المصرية	١٨٨٨	محمد المخزومى ، الحوت	أدبى
٢٦	المقطم	١٨٨٩	صروف ، نمر ، مكاريوس	سياسى
٢٧	المؤيد	١٨٨٩	على يوسف	سياسى
٢٨	فواكه الأرواح	١٨٨٩	يوسف حبيب	فكاهى

رقم مسلسل	الصحيفة	سنة أصدارها	صاحبها أو رئيس تحريرها	اتجاه تحريرها
٢٩	المحاكم	١٨٩٠	يوسف آصاف	قضائى
٣٠	النيـل	١٨٩١	حسن حسنى	سياسى
٣١	الدليـل	١٨٩١	نجيب هنديه	تجارى
٣٢	صدى الشرق	١٨٩١	حبيب فارس	سياسى
٣٣	الإعلان	١٨٩١	إبراهيم جمال	تجارى
٣٤	الفوائد الصحية	١٨٩١	دكتور شلهوب	طبى
٣٥	الزراعة	١٨٩١	أيوب عون	زراعى
٣٦	كنز الزراعة	١٨٩١	حبيب فارس، كريستيان بوجاد	زراعى
٣٧	وقائع البوليس	١٨٩١	رسمى	بوليس
٣٨	الأستاذ	١٨٩٢	عبد الله نديم	اجتماعى-سياسى
٣٩	الهـلال	١٨٩٢	جورجى زيدان	أدبى
٤٠	النصوح	١٨٩٢	محمد توفيق	أدبى
٤١	البستان	١٨٩٢	عبد الواحد حمدى	زراعى
٤٢	الفتى	١٨٩٢	دكتور شلهوب	علمى – فكاهى
٤٣	الفرائد	١٨٩٢	جرجس وفوزى	علمى – أدبى
٤٤	مرقى النجاح	١٨٩٢	عطية جرجس	دينى
٤٥	النشرة الدينية الأسبوعية	١٨٩٢	القمص يوسف حبشى	دينى
٤٦	الرشاد	١٨٩٢	أحمد سلامة	أدبى
٤٧	الفتاة	١٨٩٢	هند نوفل	أدبى
٤٨	المنظوم	١٨٩٢	أحمد نجيب	أدبى
٤٩	الإصلاح	١٨٩٢	سلامة ميخائيل	أدبى
٥٠	الصفا	١٨٩٢	على ناصر الدين ، محمد فضل القصار	أدبى
٥١	فرصة الأوقات	١٨٩٢	محمود حلمى الإسكندرى	أدبى
٥٢	الشرق	١٨٩٢	حبيب فارس ، المسيو بارتو	أدبى – علمى
٥٣	السرور	١٨٩٢	نقولا عبد المسيح	تجارى*

(*) أمكن العثور على أسماء هذه الصحف والمجلات فيما كتب عنها ومقارنة تواريخ إصدارها والشخصيات التى أصدرتها فى المراجع الآتى بيانها :

(١) قسطاكي الياس عطارة الحلبي – تاريخ تكوين الصحف المصرية من ٢٦١ – ٢٦٦
(٢) فيليب دى طرازى – تاريخ الصحافة العربية جـ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤
(٣) عبد الله الأنصارى – جامع التصانيف المصرية من ص ٦٧ – ٧٥
(٤) مجلة الهلال – عدد سبتمبر ١٨٩٢
(٥) د. إبراهيم عبده – تطور الصحافة المصرية .
(٦) Hartmann M. : The Arabic Press of Egypt.
(٧) محمود إسماعيل عبد الله – فهرس الدوريات العربية التى تقتنيها الدار (مطبعة دار الكتب ١٩٦١) .

مقارنة

بين أنواع صحف ما قبل الاحتلال وبعـــده

نوع الصحف	عدد الصحف قبل الاحتلال ١٨٧٢ – ١٨٨٢	عدد الصحف بعد الاحتلال ١٨٨٢ – ١٨٩٢
صحف سياسية	٣٠	١٣
صحف غير سياسية	٣	٤٠
المجموع	٣٣	٥٣

مراجع البحث

(١) المراجع المعاصرة :

أولاً : الصحف والمجلات

ثانياً : وثائق باللغة العربية

ثالثاً : وثائق باللغة الإنجليزية

(٢) مراجع تتناول جوانب من البحث :

أولاً : مخطوطات

ثانياً : كتب مطبوعة باللغة العربية

ثالثاً : كتب مطبوعة باللغتين الإنجليزية والفرنسية

رابعاً : مذكرات

خامساً : مقالات فى صحف ومجلات عربية

سادساً : مقالات فى صحف ومجلات إنجليزية

١ – المراجع المعاصرة

أولا : صحف ومجلات :

رقم مسلسل	الصحيفة	السنوات
١	الوقائع المصرية	من ١٨٨١ – ١٨٩٢
٢	الأهرام	من ١٨٨١ – ١٨٩٢
٣	الوطن	من ١٨٨٢ – ١٨٩٢
٤	البرهان	من ١٨٨٢ – ١٨٨٣
٥	الزمان	من ١٨٨٢ – ١٨٨٨
٦	الاتحاد المصرى	من ١٨٨٢ – ١٨٩٢
٧	المحروسة	١٨٨٣
٨	العروة الوثقى	١٨٨٤
٩	البيان	من ١٨٨٤ – ١٨٨٥
١٠	المقتطف	من ١٨٨٥ – ١٨٩٢
١١	الأعلام	من ١٨٨٥ – ١٨٨٨
١٢	القاهرة	من ١٨٨٥ – ١٨٨٦
١٣	الفلاح	من ١٨٨٥ – ١٨٩٢
١٤	اللطائف	من ١٨٨٦ – ١٨٩٢
١٥	الصادق	من ١٨٨٦ – ١٨٨٨
١٦	القاهرة الحرة	من ١٨٨٦ – ١٨٩٢
١٧	الحقوق	من ١٨٨٦ – ١٨٩٢
١٨	الشفاء	من ١٨٨٦ – ١٨٩١
١٩	النزهة	١٨٨٦
٢٠	الأزهر	من ١٨٨٧ – ١٨٩٢
٢١	الآداب	من ١٨٨٧ – ١٨٩٢
٢٢	مكارم الأخلاق	من ١٨٨٧ – ١٨٩٢
٢٣	الأحكام	من ١٨٨٧ – ١٨٩٢
٢٤	النور التوفيقى	من ١٨٨٨ – ١٨٨٩
٢٥	الرياض المصرية	من ١٨٨٨ – ١٨٨٩

رقم مسلسل	الصحيفـــة	السنوات
٢٦	الـــــراوى	من ١٨٨٨ — ١٨٩٠
٢٧	المقطم	من ١٨٨٩ — ١٨٩٢
٢٨	المؤيـــــد	من ١٨٨٩ — ١٨٩٢
٢٩	الحقيقـــة	من ١٨٨٩ — ١٨٩٠
٣٠	النيـــل	من ١٨٩٠ — ١٨٩٢
٣١	الزراعـــة	من ١٨٩١ — ١٨٩٢
٣٢	الفوائد الصحية	من ١٨٩١ — ١٨٩٢
٣٣	الأستـــاذ	من ١٨٩٢ — ١٨٩٣
٣٤	الهـــلال	١٨٩٢ ، ١٨٩٧ ، ١٩٠٥
٣٥	المنظـــوم	١٨٩٢
٣٦	الإصـــلاح	١٨٩٢
٣٧	الفتى	١٨٩٢
٣٨	الفتـــاة	١٨٩٢
٣٩	مرقى النجاح	١٨٩٢
٤٠	الرشاد	١٨٩٢
٤١	الفـــرائد	١٨٩٢
٤٢	وقائع البـــوليس	١٨٩٢
٤٣	النشرة الدينية الأسبوعيـــة	١٨٩٢
٤٤	النصـــوح	١٨٩٢
٤٥	الصحـــة	١٨٨٧

ثانياً : وثائق باللغة العربيـــة :

٤٦ — دار الوثائق التاريخية :

(ا) محفظة ٤ — أوراق ومستندات تتعلق بالحوادث العرابية دوسيه رقم ١

(ب) محفظة ١٦٣ — ملف ثابت باشا .

٤٧ — بعض وثائق تاريخية من عهدى إسماعيل وتوفيق

كتاب مطبوع مطبعة عنانى بمصر ١٩٤٨

ثالثاً : وثائق باللغة الإنجليزية :

٤٨ Blue Books : 1883 No. 6, 14 (Dufferin's Report)

٤٩ Blue Books : 1903 No. 1, 1904 No. 1 , 1905 No. 1.
Reports of His Majesty's Agent and Consul General,
Egypt and the Sudan.

٢ – كتب ودراسات تناولت جوانب من البحث

أولا : مخطوطات :

٥٠ – أحمد عرابي الحسيني المصري – كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ١٨٨١ – ١٨٨٢ ج ١ ، ج ٢ . (مخطوط بدار الكتب)

ثانياً : كتب مطبوعة (باللغة العربية) :

رقم مسلسل	المؤلف	الكتاب	المطبعة
٥١	إبراهيم عبده	تاريخ الوقائع المصرية ١٨٢٨–١٩٤٢	المطبعة الأميرية ١٩٤٢
٥٢	إبراهيم عبده	أعلام الصحافة العربيــــة	الآداب ١٩٤٤
٥٣	د . إبراهيم عبده	حول الصحافة فى عصر إسماعيل	القاهرة ١٩٤٧
٥٤	د . إبراهيم عبده	تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ – ١٩٥١	الآداب ١٩٥١
٥٥	د . إبراهيم عبده	جريدة الأهرام–تاريخ مصر فى ٧٥ سنة	دار المعارف ١٩٥١
٥٦	د . إبراهيم عبده	أبو نظارة . إمام الصحافة الفكاهية	الآداب ١٩٥٣
٥٧	أحمد أمين بك	زعماء الإصلاح فى العصر الحديث	لجنة التأليف والنشر ١٩٤٨
٥٨	أحمد تيمور باشا	تراجم أعيان القرن ١٣ وأوائل القرن ١٤هـ	القاهرة ١٩٤٠
٥٩	أحمد رشدى صالح	كرومر فى مصر	القاهــرة ١٩٤٥
٦٠	أحمد زكى بدوى	تاريخ مصر الاجتماعى	صلاح الدين
٦١	أحمد شفيق باشا	مذكراتى فى نصف قرن ج ١	مطبعة مصر ١٩٣٤
٦٢	أحمد بك شهاب	إنجلترا فى مصر	القاهــرة ١٩٢٨
٦٣	أحمد وفيــق	اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال	النهضة – مصر ١٩٣٦
٦٤	إلياس زاخورة	مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر ج ١ ، ٢ ، ٣	المطبعة العمومية مصر ١٨٩٧
٦٥	بطرس خويرى	تاريخ الرسالة المارونية فى القطر المصرى	يوسف كوى ١٩٢٧
٦٦	بولس قرالى	السوريون فى مصر ج ١	المطبعة السورية بمصر ١٩٢٨
٦٧	بولس مسعــد	مصر وسوريا	مصر ١٩١٢
٦٨	جاك تاجــر	حركة الترجمة بمصر خلال القرن ١٩	دار المعارف ١٩٤٦
٦٩	جلال نورى بك	عبد الحميد من ولاية العهد إلى المنفى (ترجمة إلى العربية إبراهيم سليم النجار)	إلياس زخورة بمصر ١٩١٤
٧٠	جورجى زيدان	تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى اليوم	المحروسة بمصر ١٨٨٩
٧١	جورجى زيدان	تراجم مشاهير الشرق فى القرن ١٩ ج. ٢،١	الهلال ١٩٢٢
١٧١	د . رياض شمس	حرية الرأى وجرائم الصحافة والنشر ج ٢	دار الكتب ١٩٤٧

رقم مسلسل	المؤلف	الكتاب	المطبعة
٧٢	د. حسنين عبد القادر	الصحافة كمصدر للتاريخ	الطبعة الأولى ١٩٥٨
٧٣	د . خليل صابات	الصحافة رسالة – استعداد – فن – علم	دار المعارف ١٩٥٩
٧٤	زكى فهمى	صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر ج ١	مطبعة الاعتماد ١٩٢٦
٧٥	د. زكى نجيب محمود	شروق من الغرب	الأنجلو المصرية ١٩٥٢
٧٦	سلامة موسى	الصحافة حرفة ورسالة	مطبعة مصر ١٩٥٨
٧٧	سليم خليل النقاش	مصر للمصريين ج٤، ٥، ٦، ٧	المحروسة ١٨٨٤ بالاسكندرية
٧٨	شاهين مكاريوس	الدستور الماسونى العام	مطبعة المقطم ١٩٠٧
٧٩	سليم عنحورى	ديوان سحر هاروت	دمشق ١٨٨٥
٨٠	صبحى وحيدة	فى أصول المسألة المصرية	مصر ١٩٥٠
٨١	د . طه حسين	مستقبل الثقافة فى مصر ج ١ و ٢	المعارف ١٩٣٨
٨٢	عبد الرحمن الرافعى	الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى	النهضة ١٩٤٩
٨٣	عبد الرحمن الرافعى	مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال (١٨٨٢ – ١٨٩٢)	النهضة (طبعة ٣) ١٩٤٨
٨٤	عبد الرحمن الرافعى	شعراء الوطنية . تراجمهم وشعرهم الوطنى	النهضة المصرية ١٩٥٤
٨٥	عبد الفتاح نديم	سلافة النديم ج ١ سلافة النديم ج ٢	مطبعة هندية (ط٢) ١٩١٤ مطبعة هندية (ط١) ١٩٠١
٨٦	د. عبد اللطيف حمزة	أدب المقالة الصحفية فى مصر ج ١	دار الفكر العربى ١٩٥٠
٨٧	د. عبد اللطيف حمزة	أدب المقالة الصحفية ج ٢ – أديب إسحق – محمد عبده – نديم	دار الفكر العربى ١٩٥٠
٨٨	د. عبد اللطيف حمزة	أدب المقالة الصحفية ج ٣ – إبراهيم المويلحى	دار الفكر العربى ١٩٥١
٨٩	د. عبد اللطيف حمزة	أدب المقالة الصحفية ج ٤ – على يوسف	دار الفكر العربى ١٩٥٢
٩٠	د. عبد اللطيف حمزة	أدب المقالة الصحفية ج ٥ – مصطفى كامل	الجريدة التجارية ١٩٥٣
٩١	د. عبد اللطيف حمزة	الصحافة والأدب فى مصر	معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٥
٩٢	د. عبد اللطيف حمزة	المدخل فى فن التحرير الصحفى	دار الفكر العربى ١٩٥٧
٩٣	د. عبد اللطيف حمزة	الصحافة المصرية فى مائة عام	المكتبة الثقافية ١٩٦٠
٩٤	عبد الله الأنصارى	جامع التصانيف المصرية الحديثة (١٣٠١ – ١٣١٠ هـ)	المطبعة الأميرية ١٣١٢
٩٥	عبد الله حسين	الصحافة والصحف	لجنة البيان العربى ١٩٤٨
٩٦	د . عثمان أمين	محمد عبـــده	لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ١٩٤٤

رقم مسلسل	المؤلف	الكتاب	المطبعة
٩٧	عمر الدسوقي	في الأدب الحديث ج ١	مطبعة الرسالة ١٩٤٨
		في الأدب الحديث ج ٢	لجنة البيان العربي ١٩٥٠
٩٨	عوني أسحق	الدرر – منتخبات أديب إسحق	المطبعة الأدبية بيروت ١٩٠٩
٩٩	ر . فورستيه	هذه هي الماسونية (نقله إلى العربية بهيج شعبان)	دار بيروت ١٩٥٥
١٠٠	فيليب دي طرازي	تاريخ الصحافة العربية ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤	المطبعة الأدبية بيروت ١٩١٣
١٠١	قسطاكي إليــاس عطاره الحلبي	تاريخ تكوين الصحف المصرية	مطبعة التقدم الأسكندرية ١٩٢٨
١٠٢	لويس شيخو اليسوعي	السر المصون في شيعة الفرمسون كراس ٢ ، ٣	المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٠
		السر المصون في شيعة الفرمسون كراس ٤ ، ٥ ، ٦	المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١١
١٠٣	لويس شيخو اليسوعي	الآداب العربية في القرن ١٩ ج ١	المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٠
١٠٤	د . محمـــد أحمد خلف الله	عبد الله النديم ومذكراته السياسية	الأنجلو المصرية ١٩٥٦
١٠٥	محمد خليل صبحي	تاريخ الحياة النيابية في مصر ج ٥	مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٩
١٠٦	محمد باشا المخزومي	خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني	المطبعة العلمية بيروت ١٩٣١
١٠٧	محمد المويلحي	حديث عيسى بن هشام ج ١ ، ج ٢	كتاب الهلال ١٩٥٩
١٠٨	د. محمد حسين هيكل	مذكرات في السياسة المصرية ج ١	النهضة المصرية ١٩٥١
١١٩	د. محمد حسين هيكل	تراجم مصرية وغربية	مطبعة مصر ١٩٢٩
١١٠	محمد رشيد رضا	تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ج١	مطبعة المنار ١٩٣٠
		تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ج٢	مطبعة المنار ١٩٠٨
١١١	محمد عبد الباري	الامتيازات الأجنبية	الاعتماد ١٩٣٠
١١٢	محمد عبد الوهاب صقر	عبد الله نديم	النموذجيـة ١٩٥٨

رقم مسلسل	المؤلف	الكتاب	المطبعة
١١٣	محمد على علوبة	فلسطين وجاراتها	لجنة البيان العربى ١٩٥٤
١١٤	د . محمد مصطفى صفوت	إنجلترا وقناة السويس	جمعية الدراسات التاريخية ١٩٥٢
١١٥	د . محمد مصطفى صفوت	الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه	دار الفكر العربى ١٩٥٢
١١٦	محمد مظهر سعيد	نحن والإنجليز	نهضة مصر ١٩٥٢
١١٧	محمود إسماعيل عبد الله	فهرس الدوريات العربية التى تقتنيها دار الكتب	مطبعة دار الكتب ١٩٦١
١١٨	محمود الخفيف	أحمد عرابى . الزعيم المفترى عليه	مطبعة الرسالة ١٩٤٧
١١٩	محمود عزمى	ملخص مبادئ الصحافة العامة	١٩٤٢
١٢٠	د . مصطفى خالدى	التبشير والاستعمار فى البلاد العربية	المكتبة العلمية بيروت ١٩٥٣
١٢١	ميخائيل شاروبيم	الكافى فى تاريخ مصر جـ ٤	بولاق ١٩٠٠
١٢٢	د . محمود نجيب أبو الليل	الصحافة الفرنسية فى مصر	الطبعة الأولى ١٩٥٣
١٢٣	نجيب مخلوف	نوبار باشا وما تم على يديه	المطبعة العمومية بمصر
١٢٤	نسيم ملوك	سوريا ومصر	بيروت
١٢٥	هنس رزنر	مصر فى عهد الاحتلال الإنجليزى والمسألة المصرية (مترجم عن الألمانية دون ذكر اسم المترجم)	مطبعة هندية بمصر ١٨٩٧
١٢٦	ولى الدين يكن	المعلوم والمجهول جـ ١	مطبعة السعادة ١٩٠٩
١٢٧	يوسف محمد دسوقى	فى الصحافة	جريدة الصباح ١٩٢٩

ثالثا : كتب مطبوعة باللغتين الإنجليزية والفرنسية :

	AUTHOR	BOOK	EDITION	
128	Abd El Meguid Ramadan	Evolution de la Legislation sur la Presse en Egypte.	Le Caire	1935
129	Adams Ch. G.	Islam and Modernısm in Egypt.	London	1933
130	Alexander J.	The Truth about Egypt	Cassell	1911
131	Aubiu Eugène	Lcs Anglais aux Indes et en Egypte	Paris	1899
132	Blunt W.S.	My Diaries Part 1 (1888-1900)	London	1919
133	Blunt W.S.	Secret History of the English Occupation of Egypt.	London, Fisher	1907
134	Bourguet Alf.	LaFrance etl'angleterre enEgypte	Paris	1897
135	Bourne H. R. Fox	Egypt under British Control	London	1907
136	Bowen John Eliot	The Conflict of East & West in Egypt.	N.Y.	1887
137	Broadley A.M.	How We defended Arabi & His Friends	London	1887
138	Camillc Barrère	La france ct L'angleterrc en Egypte (La Nouvelle Revue Tome 1)		
139	Cocheris Jules	Situation International de l'Eg. et Sudan.	Paris	1903
140	Colvin, Aukland	The Making of Modern Egypt.	London	1909
141	Cromer Earl of.	Modern Egypt Vols 1,11	London	1908
142	Cromer Earl of.	Abbas II	London	1915
143	Dawson W.	Egypt and Syria	Oxford	1887
144	Dicey Ed.	England and Egypt	London	1881
145	Dicey Ed.	The Story of the Khedivate	London	1902
146	Elgood P.G.	Egypt.	Bristol	1935
147	An Englishman in the Eg. Service	Britains Work in Egypt	Edinburgh	1892
148	Farman E. E.	Egypt and Its Betrayal	N.Y.	1908
149	De Freycinet G.	La Question d'Egypte	Paris	1904
150	Gaulis B.G.	Le Nationalisme Egyptien	Paris	1928
151	Gibb H.A.R.	Modern Trends in Islam	Chicago	1945
152	De Guerville A.B.	New Egypt	London	1905
153	Le Duc d'Harcourt	L'Egypte et les Egyptiens	Paris	1893
154	Harris Murray	Egypt under the Egyptians	London	1925
155	Hartmann Martin	The Arabic Press of Egypt	London	1899

No.	AUTHOR	BOOK	EDITION	
156	Hannebert Lt. C.	The English in Egypt England and the Mahdi, Arabi & the Suez Canal	London	1884
157	Huart Cl.	Litterature Arabe.	Paris	1902
158	Fredolin	John Bull sur le Nil, Croquis de l'Occupation Anglaise.	Paris	1886
159	Juliette Adam	L'angleterre en Egypte	Paris	1922
160	Kusel Baron de	An Englishman's Recollections of Egypt (1863-1887)	London	1915
161	Kyriakos Mikhail	Copts & Moslems under British Control	London	1911
162	Landau J.M.	Parliaments and Parties in Egypt	N.Y.	1954
163	Langer W.L.	The Diplomacy of Imperialism V.I.	N.Y.	1935
164	Legér Eug.	La Question d'Eg. et l'occupation Anglaise	Paris	1902
165	Lloyd Lord	Egypt Since Cromer V.I.	London	1933
166	Lyall Sir Alf.	The Life of the Marquis of Dufferin and Ava. Vs. I. II.	London	1905
167	Malet Sir Ed.	Egypt.	London	1909
168	Marlowe J.	Anglo Egyptian Relations 1800-1953)	London	1954
169	Mc. Con J.C.	Egypt as It is.	London	1877
170	Milner Alf.	England in Egypt.	6th. Ed.	1899
171	Newman P.	Great Britain in Egypt	Cassell	1928
172	Peter the Hermit	The Brigands in Eg., Solution of the International Crisis.	London	1882
173	Plauchut Ed.	L'Egypte et L' Occupation Anglaise	Paris	1889
174	Ramsaur E.E.Jr.	The Young Turks	New Jersey	1957
175	Rothstein T.	Egypt's Ruin.	London	1910
176	Royle Ch.	The Egyptian Campaigns 1882-1885 V.s. I, II.	London	1886
177	Dr. Sabry M.	La Genése de l'Esprit Natioal Egyptien (1863-1882).	Paris	1924
178	Scotidis N.	L'Egypte Contemporaine et Orabi Pacha	London	1888
179	Selim Faris	The Decline of the British Persitge in the East	Paris	1887

No.	AUTHOR	BOOK	EDITION
180	Sladin D.	Egypt and the English	London 1908
181	Stoddard L.	The New World of Islam	London 1921
182	Tachard A.	The Future of Egypt.	2nd Ed. 1897
183	Trail H.D.	England, Egypt & Sudan	London 1900
184	Travers S.M.	The Riddle of Egypt	London 1913
185	Travers S.M.	Britain & Egypt the Rise of Egyptian Nationalism	Southampton 1925
186	Valentine C.	The Egyptian Problem	London 1920
187	Wallace M.	Egypt and the Eg. Question	London 1883
188	Williams Fr.	Press, Parliament & People	London 1946
189	Wood H.F.	Egypt under the British	London 1896
190	Young G.	Egypt.	London 1930 2nd Ed.
191	Zetland Marquis of.	Lord Cromer	London 1932
192	Anonymous	The Egyptian Difficulty & the First Step out of it.	London 1884

رابعاً: مذكرات :

١٩٣ أحمد لطفى السيد/مجلة المصور من سبتمبر ١٩٥٠ — ديسمبر ١٩٥٠

١٩٤ عباس حلمى الثانى / جريدة المصرى إبريل — مايو ١٩٥١

خامسا مقالات فى الصحف والمجلات العربية :

١٩٥ مجلة الأجيال عام ١٨٩٧ سلسلة مقالات عن الصحافة المصرية

١٩٦ مجلة الجامعة ١٩٠٢ مقالات عن الصحافة فى مصر

١٩٧ جريدة العلم فى ٢٥ ، ٢٧ أكتوبر ١٩١٠

خطبة عبد الرحمن الرافعى عن تطور الصحافة فى مصر

١٩٨ المجلة السورية ١٥ مايو ١٩٢٦ مقال من مجلة المقتطف

١٩٩ مجلة الإثنين ٩ مارس ١٩٤٢ مقال فارس نمر عن جريدة المقطم

٢٠٠ مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة : ديسمبر ١٩٥٤

مقال د . عبد اللطيف حمزة عن «أجواء فكرية وسياسية عاش فيها الأدب الحديث والصحافة المصرية » .

سادسا مقالات فى صحف ومجلات إنجليزية

201	Dicey E.	Our Protectorate in Egypt. The Nineteenth Century Review Vol. XV No. 85 March 1884.
202	Greville J.C.	Some Truths about Egypt. Fortnightly Review 1880.
203	Malortif	The Outlook in Egypt. The Contemporary Review 1884
204	Sir Meiville W.	What British Administration has done for Egypt The Empire Review. March 1901.
205	Ninet J.	The Origin of the National Party. TheNineteenth Cent. Rev. January 1883.
206	Roswell F.W.	The English in Egypt. The Nineteenth Cent. Rev June. 1883.
207	Sayce A.H.	Upper Egypt under British Rule. Contemporary Rev. April 1884.

المحتوى

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ٨٢ —

التأليف [٥٦]

الأدب [٤٨]

القاهرة
١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

